جمهرة خطب العرب

في عصور العربية الزاهرة

تأليف

أحمد زكي صفوت

الجزء الأول

العصر الجاهلي

عصر صدر الإسلام

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

جمهرة خطب العرب

في عصور العربية الزاهرة

الجزء الأول

العصر الجاهلي
عصر صدر الإسلام

تأليف

أحمد زكي صفوت
وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية
بيروت - لبنان

تصدير

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم على ما أوليتنى من نعمك السابغة ، وآلائك الضافية ، وأصلى وأسلم على رسولك المجتبَى ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فلا مِراء أن خطب العرب فى عصور ازدهار اللغة مرآة يتجلى فيها ما حباهم الله من ذلاقة اللسان ، وعذوبة البيان ، ومَعْرِض يتمثل فيه نِتاج قرائحهم ، وثمرات ألبابهم ، فى كثير من مناحى القول ، وإنها لتعدّ - بعد القرآن الكريم والحديث الشريف - مِثالا ساميًا للبلاغة العربية ، ونموذجًا قويمًا يحتذيه المتأدب فى تقويم قلمه المعوجّ ، وشَحْذِ لسانه الكليل ، وهى فوق ذلك مَعِين فيّاض يستقى منهُ مؤرخ الأدب العربى ما يَعِنّ له من آراء ، ومادة غزيرة يستنبط منها ما يَقِفُه عليهِ البحث من فِكَر .

وقد نظرت فوجدت تلك الخطب مبعثرة منثورة فى كتب الأدب والتاريخ ، لا يؤلف بينها نِظَام ، ولا يضم أشتاتَها كتاب ، فإذا ما شئت أن تتعرف صورة الخطابة فى عصر

من العصور ، أو تترجم لخطيب من خطباء العربية ، ألفيت الطريق أمامك وعرة شائكة ، وأنفقت وقتا مديداً فى التنقيب عن خطبةٍ فى بطون الأسفار ، بَلْه ما يعترضك من مشاقٍّ فى تحرير ألفاظها ، وتحقيق عباراتها ، لما نالها من عبث النُّسَّاخ والطُّبَّاع ، من التصحيف والتحريف الذى ينبهم معه معناها ، ويستغلق به تفهمها .

كل أولئك حدَا بى أن أعبِّد السبيل لشُدَاة الأدب العربى إلى ذلك التُّراث النفيس ، الذى يتوقون إلى الارتواء من مناهله العذبة ، فلا يكادون يُسيغونها ، وَيَصْبُونَ إلى اجتناء ثمارِه الشهيَّة ، فتحول دونها الأشواك ، وفيهم من درس اللغات الإفرنجية ، وتزود من أفكار الغربيين وآرائهم بقسط وفير ، ولكنه تُعْوِزه جزالة اللفظ ، ورصانة الأسلوب .

استخرت الله ، فجمعت كل ما أُثِر عن العرب فى عصور العربية الزاهرة ، من خطب ووصايا من مظانِّها — على قدر ما هدانى إليه اطلاعى — وضممت إليها ما دار فى مجالس الملوك والخلفاء والرؤساء ، من حِوار ومجاوبة ، أو جدال ومناظرة ، مما يدخل فى باب الخطب ، وينتظم فى سِلكها ، وأودعتها ذلك السِّفْر كى يكون لها ديوانا جامعا ، ومرجعا عاما ، يسهل مراجعتها فيه ، وسميته : جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة .

وبوَّبته أربعة أبواب فى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : ويحوى الباب الأول فى خطب الجاهلية ، والباب الثانى فى خطب صدر الإسلام .

الجزء الثانى : ويحوى الباب الثالث : فى خطب العصر الأموى .

الجزء الثالث : ويحوى الباب الرابع : فى خطب العصر العباسى الأول ، وذيل الجمهرة ، فى خطب متفرقة .

وإذ كان الشريف الرضى رحمه الله قد أفرد خطب الإمام علىّ كرّم الله وجهه بمؤلّف خاص ، وهو : « نهج البلاغة » والإمام أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور ، قد جمع فى مؤلّفه : « بلاغات النساء » طائفة قيِّمة من كلام بليغات النساء ، وطرائف أقوالهن . رأيت أنّ نقلى ما ورد فى هذين السفرين الجليلين بحذافيره ، ليس على الحقيقة إلا ضمهما إلى كتابى ، وتضخيمه بهما ، ولذلك اجتزأت بإيراد جملة صالحة مما جاء فيهما ، مما استدعاه المقام .

ولم أقتصر على إيراد الخطبة بإحدى الروايات الواردة فيها ، بل عُنيت بالتوفيق بين الروايات المختلفة ، وإتمام بعضها من بعض ، لما فى ذلك من زيادة الفائدة للقارئ ، فإذا ما رأيت الخطبة مرويّة بصورتين يتبين فيهما الاختلاف ، أوردت الصورتين جميعا .

وقد ضبطت ألفاظها ضبطًا وافيًا ، وعقبت كل خطبة بذكر مصادرها التى نقلتها عنها ، كما ذيلتها بشرح يفسر غريب ألفاظها ، ويحلّ مستغلِق كلماتها ، وأوردت فيه كل ما تمس إليه الحاجة فى فهمها ، من نُبَذ تاريخية توضح المقامات التى ألقيت فيها ، إلى ما هنالك .

ولست أستطيع أن أصور للقارئ مقدار ما عانيت من المتاعب فى ردّ كثير من الألفاظ إلى أصولها الصحيحة ، بعد تقليبها على كلّ وجه ممكن ، حتى تخلص من شوائب التشويه الشائن ، الفاشى فى كتب الأدب والتاريخ .

وإنى أقدم كتابى هذا إلى أبناء العربية الشريفة ، وفاء بما لها فى عنقى من حق واجب ، وصنيعة مشكورة ، والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع المرجوّ منهُ ، وأن يمدنى برُوح منهُ ؛ ويظلنى بظلال الصحة

والعافية ، حتى أصدر ما اعتزمت إصداره بعد تمام هذا الكتاب إن شاء الله ، وهو كتاب : « جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة »

كى تكمل حلقة النثر العربى فى تلك العصور ، إنه المستعان ، عليه توكلت وإليه أنيب.

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى { ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ هـ
يوليو سنة ١٩٣٣ م }



فهــرس

مآخذ الخطب فى هذا الجزء

الأمالى لأبى علىّ القالى	: الجزء الأول ــ الثانى ــ ذيل الأمالى
الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى	: « الرابع ــ السابع ــ الثامن ــ الحادى
	: عشر ــ الرابع عشر ــ الخامس عشر
صبح الأعشى لأبى العباس القلقشندى	: الجزء الأول ــ الثانى
نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى	: « الثالث ــ الخامس ــ السابع
عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى	: المجلد الثانى
الكامل لأبى العباس المبرد	: الجزء الأول ــ الثانى
العقد الفريد لابن عبد ربه	: « « ــ الثانى ــ الثالث
زهر الآداب لأبى إسحق الحصْرى	: « «
البيان والتبيين للجاحظ	: « « ــ الثانى ــ الثالث
نهج البلاغة للشريف الرضى	: « «
شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد	: المجلد الأول ــ الثانى ــ الثالث ــ الرابع
أمالى السيد المرتضى	: الجزء الأول ــ الثانى
مجمع الأمثال لأبى الفضل الميدانى	: « « ــ «
جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى	: « « ــ «
خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى	: « «

تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر ابن جرير الطبرى	:	الجزء الثانى ـ الثالث ـ الرابع ـ الخامس ـ السادس
تاريخ الكامل لابن الأثير	:	الجزء الأول ـ الثانى ـ الثالث
مروج الذهب للمسعودى	:	« « ـ الثانى
الإمامة والسياسة لابن قتيبة	:	« «
المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء	:	« «
معجم البلدان لياقوت الحموى	:	« الثامن
سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام	:	« الأول ـ الثانى
السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى	:	« «
إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى	:	
بلاغات النساء لابن أبى طاهر طيفور	:	
سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى	:	
أنباء نجباء الأبناء لابن ظفر المكى	:	
المحاسن والأضداد للجاحظ	:	
الشعر والشعراء لابن قتيبة	:	
شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون	:	
بلوغ الأرب للسيد محمود شكرى الألوسى	:	الجزء الأول ـ الثالث
مفتاح الأفكار للشيخ أحمد مفتاح	:	

الباب الأول

الخطب والوصايا

فى

العصر الجاهلى

الخطب

إصلاح مرثد الخير

بَيْنَ سُبَيْعِ بْنِ الحَارث، وَبَيْنَ مِيثَم بْنِ مُثَوِّب

كان مَرْثَد الخير بن يَنْكَفَ قَيْلا ، وكان حَدِبًا على عشيرته ، مُحِبًّا لصلاحهم ، وكان سُبَيع بن الحرث[1] ومِيثَم بن مثوِّب بن ذى رُعَين تنازعا الشرف ، حتى تشاحنا ، وخيف أن يقع بين حييهما شرّ ، فيتفانى جِذماهما[2] ، فبعث إليهما مَرْثَد ، فأحضرهما ليصلح بينهما ، فقال لهما :

---

(١) أخو علس ، وعلس هو ذو جدن .

(٢) الجذم : الأصل وكذا الجذر .

١ — مقال مرثد الخير

إنَّ التَّخَبُّطَ[١] وَامْتِطَاءَ الْهَجَاجِ[٢] ، وَاسْتِحْقَابَ[٣] اللَّجَاجِ ، سَيَقِفُكُمَا عَلَى شَفَا هُوَّةٍ ، فى تَوَرُّدِهَا[٤] بَوَارُ الأَصِيلَةِ[٥] ، وَانْقِطَاعُ الْوَسِيلَةِ ، فَتَلَافَيَا أَمْرَكُمَا قَبْلَ انْتِكَاثِ[٦] الْعَهْدِ ، وَانْحِلَالِ الْعَقْدِ ، وَتَشَتُّتِ الأُلْفَةِ ، وَتَبَايُنِ السُّهْمَةِ[٧] ، وَأَنْتُمَا فى فُسْحَةٍ رَافِهَةٍ[٨] ، وَقَدَمٍ وَاطِدَةٍ[٩] ، وَالْمَوَدَّةُ مُثْرِيَةٌ[١٠] ، وَالْبُقْيَا مُعْرِضَةٌ[١١] ، فَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنْبَاءَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعَرَبِ : مِمَّنْ عَصَى النَّصِيحَ ، وَخَالَفَ الرَّشِيدَ ، وَأَصْغَى إِلَى التَّقَاطُعِ ، وَرَأَيْتُمْ مَا آلَتْ إِلَيْهِ عَوَاقِبُ سُوءِ سَعْيِهِمْ ، وَكَيْفَ كَانَ صَيُّورُ[١٢] أُمُورِهِمْ ، فَتَلَافَوُا الْقُرْحَةَ[١٣] قَبْلَ تَفَاقُمِ الثَّأْى[١٤] ، وَاسْتِفْحَالِ[١٥] الدَّاءِ ، وَإِعْوَازِ الدَّوَاءِ ، فَإِنَّهُ إِذَا سُفِكَتِ الدِّمَاءُ ، اسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ ، وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ ، تَقَضَّبَتْ[١٦] عُرَى الإِبْقَاءِ ، وَشَمِلَ[١٧] الْبَلَاءُ .

---

(١) التخبط : ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة ، أو السير على غير هدى . (٢) ركب فلان هجاج (غير مصروف) ، ووهاج مبنيا على الكسر : أى ركب رأسه . (٣) الاستحقاب : استفعال من الحقيبة أو من الحقاب ، فأما الحقيبة ، فما يجعل الرجل فيه متاعه من خرج أو غيره ، والحقاب : بريم تشد به المرأة وسطها (والبريم خيط فيه لونان) ، وهذا مثل : إما أن يكون أراد أنه احتزم باللجاج أو جعله فى وعائه . (٤) التورد : الإشراف على الماء وغيره ، دخله أو لم يدخله . (٥) الأصل .
(٦) انتقاض : (والأنكاث جمع نكث ، وهو ماانقض من الحبال ليعاد ثانية) . (٧) القرابة .
(٨) ناعمة من الرفاهية . (٩) ثابتة . (١٠) متصلة . (١١) ممكنة قد أمكنت من عرضها ، أى من جنبها وناحيتها ، يقال قد أعرض لك الظبى فارمه ، أى أمكنك من عرضه . (١٢) عاقبة .
(١٣) الجرح . (١٤) السعى والمشاى : الإفساد والجراح والقتل ونحوه . (١٥) اشتداده ، وهو أن يصير مثل الفحل . (١٦) تقطعت . (١٧) من بابى فرح ونصر .

٢ — مقال سبيع بن الحرث

فَقَالَ سبيع :

أَيُّهَا المَلِكُ ! إِنَّ عَدَاوَةَ بَنِي الْعَلاتِ(١) لاَ تُبْرِئُهَا الأُسَاةُ(٢) ، وَلاَ تَشْفِيهَا الرُّقَاةُ ، وَلاَ تَسْتَقِلُّ(٣) بِهَا الْكُفَاةُ ، وَالحَسَدُ الكَامِنُ ، هُوَ الدَّاءُ الْبَاطِنُ ، وَقَدْ عَلِمَ بَنُو أَبِينَا هُؤُلاَءِ ، أَنَا لَهُمْ رِدْءٌ(٤) إِذَا رَهِبُوا ، وَغَيْثٌ إِذَا أَجْدَبُوا ، وَعَضُدٌ إِذَا حَارَبُوا ، وَمَفْزَعٌ إِذَا نُكِبُوا ، وَأَنَّا وَإِيَّاهُمْ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ :

إِذَا مَا عَلَوْا قَالُوا أَبُونَا وَأُمُّنَا ... وَلَيْسَ لَهُمْ عَالِينَ أُمٌّ وَلا أَبُ

٣ — مقال ميثم بن مثوب

فَقَالَ مِيثم :

أَيُّهَا المَلِكُ ! إِنَّ مَنْ نَفِسَ عَلَى ابْنِ أَبِيهِ الزَّعَامَةَ ، وَجَدَبَهُ(٥) فِى المَقَامَةِ(٦) ، وَاسْتَكْثَرَ لَهُ قَلِيلَ الكَرَامَةِ ، كَانَ قَرِفًا(٧) بِالمَلاَمَةِ ، وَمُؤَنَّبًا عَلَى تَرْكِ الاِسْتِقَامَةِ ، وَإِنَّا وَاللهِ مَا نَعْتَدُّ لَهُمْ بِيَدٍ إِلاَّ وَقَدْ نَالَهُمْ مِنَّا كِفَاؤُهَا ، وَلا نَذْكُرُ لَهُمْ حَسَنَةً إِلاَّ وَقَدْ تَطَلَّعَ مِنَّا إِلَيْهِمْ جَزَاؤُهَا ، وَلا يَتَفَيَّأُ لَهُمْ عَلَيْنَا ظِلُّ نِعْمَةٍ إِلاَّ وَقَدْ قُوبِلُوا بِشَرْوَاهَا(٨) ، وَنَحْنُ بَنُو فَحْلٍ مُقْرَمٍ(٩) ، لَمْ تَقْعُدْ بِنَا الأُمَّهَاتُ وَلا بِهِمْ ، وَلَمْ تَنْزِعْنَا أَعْرَاقُ السُّوءِ وَلا إِيَّاهُمْ ، فَعَلاَمَ مَطُّ(١٠) الخُدُودِ ، وَخَزَرُ الْعُيُونِ(١١)

---

(١) العلة : الضرة ، وبنو العلات بنو أمهات شتى من رجل واحد ، (والأخياف : من أمهم واحدة والآباء شتى) . (٢) جمع آس ، وهو الطبيب . (٣) تنهض بها وتحملها . (٤) عون . (٥) عابه . (٦) المجلس . (٧) خليقا . (٨) مثلها . (٩) القرم : السيد ، وأقرمه : جعله قرما . (١٠) مد . (١١) الخزر أن ينظر الرجل إلى أحد عرضيه . يقال إنه ليتخازرلى : إذا نظر إليه بمؤخر عينه ولم يستقبله بنظره .

وَالجَخِيفُ(١) وَالتَّصَعُّرُ ، وَالبَأْوُ وَالتَّكَبُّرُ ؟ أَلِكَثْرَةِ عَدَدٍ ، أَمْ لِفَضْلِ جَلَدٍ ، أَمْ لِطُولِ مُعْتَقَدٍ(٢) ؟ وَإِنَّا وَإِيَّاهُمْ لَكَمَا قَالَ الأَوَّلُ :

لَاهِ ابْنُ عَمِّكَ ، لاَ أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ   عَنِّي ، وَلا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْزُونِي(٣)

وَمَقَاطِعُ الأُمُورِ ثَلَاثَةٌ : حَرْبٌ مُبِيرَةٌ(٤) ، أَوْ سَلْمٌ قَرِيرَةٌ ، أَوْ مُدَاجَاةٌ وَغَفِيرَةٌ(٥) » .

٤ — مقال مرثد الخير

فقَالَ المَلِكُ :

لاَ تُنْشِطُوا(٦) عُقُلَ الشَّوَارِدِ ، وَلا تُلْقِحُوا العُونَ القَوَاعِدَ(٧) ، وَلا تُؤَرِّثُوا(٨) نِيرَانَ الأَحْقَادِ ، فَفِيهَا المَتْلَفَةُ المُسْتَأْصِلَةُ ، وَالجَائِحَةُ(٩) وَالأَلِيلَةُ(١٠) ، وَعَفُّوا بِالحِلْمِ ، أَبْلَادَ(١١) الكَلْمِ ، وَأَنِيبُوا إِلَى السَّبِيلِ الأَرْشَدِ ، وَالمَنْهَجِ الأَقْصَدِ ، فَإِنَّ الحَرْبَ تُقْبِلُ بِزِبْرِجِ(١٢) الغُرُورِ ، وتُدبر بالويل والثبور ، ثم قال الملك :

ألا هل أتى الأقوامَ بَذْلى نصيحةً   حَبَوْتُ بها منى سُبَيعا وميثما

وقلتُ اعلما أنَّ التدابُرَ غادرتْ   عواقبُه للذلِّ والقُلِّ جُرْهُمَا

فلا تقدَحا زَنْدَ العُقوقِ وأبقيا   على العزة القَعْساء(١٣) أنْ تتهدَّما

ولا تجنيا حَرْبًا تجرُّ عليكما   عواقبُها يومًا من الشرِّ أشأما

---

(١) التكبر ، وكذا البأو . (٢) اعتقد ضيعة ومالا : اقتناهما . (٣) لاه : أراد لله ، فحذف اللام الخافضة اكتفاء بالتى تليها ، والديان القائم بالأمر ، وتخزوني : تسوسني . (٤) مهلكة . (٥) مساترة وغفران . (٦) نشط العقدة : عقدها ، وأنشطها حلها ، والعقل ككتب جمع عقال ، وهو الحبل. (٧) هو مثل ، وأصله فى الإبل ، يقال : لقحت الناقة إذا حملت ، وألقحها الفحل ، ثم ضرب ذلك مثلا للحرب إذا ابتدأت ، والعون جمع عوان ، وهى الثيب . يقال للحرب عوان إذا كان قد قوتل فيها مرة بعد مرة (٨) تذكوا . (٩) الاستئصال . (١٠) الثكل . (١١) الأبلاد : الآثار ، جمع بلد (كالندوب جمع ندب) . (١٢) السحاب الذى تسفره الريح والزينة . (١٣) الثابتة .

فإنّ جُناةَ الحرْب للحَيْن عُرضةٌ تفَوَّقُهم منها الذُّعافَ المُقَشَّما[1]
حَذارِ ، فلا تَستَنبثوها ، فإنها تغادر ذا الأنفِ الأشمِّ مُكَشَّمَا[2]

فقالا : لا ، أيها الملك . بل نقبل نُصحكَ ، ونُطيع أمرك ، ونطفىء النائرة[3] ، ونَحُلّ الضغائن ، ونثوب إلى السِّلْم . (الأمالى ١ : ٩٢)

٥ — طريف بن العاصى والحرث بن ذبيان يتفاخران

عند بعض مقاول حمير

اُجتمع طَريف بن العاصى الدَّوسى ، والحَرِثُ بن ذُبيان — وهو أحد المعمَّرين — عند بعض مَقاول[4] حمير ، فتفاخرا . فقال الملك للحرث : يا حارث ! ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم حتى لحِقتم بالنَّمِر بن عثمان ؟ فقال : أُخبرك أيها الملك . خرج هجِينان[5] منا يَرْعيان غنماً لهما ، فتشاولا[6] بسيفيهما ، فأصاب صاحبُهم عَقِبَ صاحبنا ، فعاث[7] فيه السيفُ ، فنُزِف[8] ، فمات ، فسألونا أخذ دية صاحبنا ديةَ الهَجين ، وهى نصفُ دية الصرِيح[9] ، فأبى قومى ، وكان لنا رِباء[10] عليهم ، فأبينا إلا ديةَ الصَّرِيح ، وأبَوا إلا دِيَةَ الهَجِين ، فكان اُسم هجيننا دُهَيْن بن زَبْراء ، واُسم صاحبهم عَنْقَش بن مُهَيْرة ، وهى سوداء أيضاً[11] ، فتفاقم الأمر بين الحيين ، فقال رجل منا :

---

(١) تفوقهم : تسقيهم الفواق بالضم (وهو مابين الحلبتين) والذعاف : السم ، أو سم ساعة (وسم ذعاف) والمقشم : المخلوط . (٢) هو مثل : أى لا تخرجوا نبيثتها ، وهو مايخرج من البئر إذا حفرت : يريد لا تثيروا الحرب ، ومكشما : مقطوعا . (٣) العداوة والشحناء . (٤) جمع مقول ، والمقول والقيل هو الذى دون الملك الأعظم . (٥) الهجين : عربى ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه (والمقرف : الذى أمه عربية ، وأبوه ليس بعربى) . (٦) تضاربا . (٧) أفسد . (٨) نزف الرجل إذا سال دمه حتى يضعف . (٩) الصريح : الخالص النسب . (١٠) زيادة . (١١) كذا فى الأصل ، ولم يتقدم الحكم على شىء بالسواد ، فلعل الأصل : « دهين بن زبراء وهى سوداء » .

حُلُومَكُمُ يا قوم لاَ تَعْزِبُنَّهَا[١] ولا تقطعوا أرحامَكم بالتدابُرِ
وَأَدُّوا إلى الأقوام عَقْلَ ابنِ عمهم ولا تُرْهِقوهم سُبَّةً فى العشائرِ[٢]
فإنَّ أبنَ زبراء الذى فَادَ لم يكن بدون خُلَيفٍ أو أُسَيْدِ بن جابرِ[٣]
فإن لم تُعاطُوا الحقَّ فالسيف بيننا وبينكمُ ، والسيف أجور جائرِ

فتظافروا[٤] علينا حسدا ، فأجمع ذوو الحِجْى منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزد ، فلحقنا بالنَّمِر بن عثمان ، فوالله مافتَّ[٥] فى أعضادنا ، فأُبْنا عنهم ، ولقد أُثَّأَرْنا[٦] صاحبَنا وهم راغمون .

فوثب طريف بن العاصى من مجلسه ، فجلس بإزاء الحرث ، ثم قال :

تالله ما سمعتُ كاليوم قولا أبعدَ من صواب ، ولا أقربَ من خَطَل[٧] ، ولا أجلَبَ لقَذَع[٨] من قول هذا ؛ والله أيها الملك ما قتلوا بهجينهم بَذَجًا[٩] ، ولا رَقُوا به دَرَجا ، ولا أنطُوا[١٠] به عَقْلا ، ولا أجتفئوا[١١] به خَشْلاَ[١٢] ، ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم ، وأجلاهم عن محلهم ، حتى أستلانوا خشونة الإزعاج ، ولجئوا إلى أضيق الوِلاج[١٣] : قُلاّ وذُلا .

فقال الحارث : أتسمع يا طريف ، إنى والله ما إخالك كافًّا غَرْب[١٤] لسانك ، ولا مُنَهْنِها[١٥] شِرَّة نَزَوانك ، حتى أسطو بك سَطْوَةً تَكُفّ طِماحَك ، وتردّ

(١) لاتبعدنها ـ وأعزب : بعد وأبعد . (٢) العقل : الدية ، يقال : عقلت فلانا إذا غرمت ديته ، وعقلت عن فلان إذا غرمت عنه دية جنايته . وأرهقته عسرا : كلفته ذلك . (٣) فاد يفود : مات (وفاد يفيد : تبختر) . (٤) تظاهروا . (٥) أوهن وأضعف . (٦) اثأرت : أدركت منه ثأرى (وأصله اثتأر) . (٧) خطأ . (٨) الكلام القبيح ، أقذع له إذا أسمعه كلاما قبيحا .
(٩) البذج : الخروف ، فارسى معرب . (١٠) لغة فى أعطوا . (١١) صرعوا .
(١٢) الخشل : شجر المقل (٠الدوم) وهذه أمثال كلها، يريد أنهم لم ينالوا ثأره . (١٣) الولاج الباب، وجمعه الولج، وهى أيضا النواحى والأزقة . (١٤) غرب الشيء: حده . (١٥) نهنهه عن الأمر فتنهنه : كفه وزجره فكف ، والشرة : الحدة ، والنزوان : الوثوب .

جِماحك ، وتَسكُبِت تَتَرُّعك[١] ، وتقمع تسرُّعك .

فقال طريف : مهلا يا حارث ، لا تعرِض لِطُخْمة[٢] استِنانى ، وَذَرْب[٣] سِنانى ، وغَرْب شبابى ، ومِيسم[٤] سِبابى ، فتكونَ كالأَظَلِّ[٥] المَوْطوء ، والعَجْب المَوْجُوء[٦] .

فقال الحرث : إياى تخاطب بمثل هذا القول ؟ فو الله لو وطِئتك لأَسَخْتك[٧] ، ولو وَهَصْتك[٨] لأَوْهَطْتك[٩] ، ولو نَفَحْتك[١٠] لأَفَدْتك .

فقال طريف متمثلاً :

وَإِنَّ كَلَامَ المَرْءِ فى غَيْرِ كُنْهِهِ لَكَالنَّبْلِ تَهْوِى لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا

أَمَا وَالْأَصنامِ المحجوبة ، والأَنصابِ[١١] المنصوبة ، لئن لم تَرْبَعْ عَلَى ظَلْعِكَ[١٢] ، وتقف عند قدرِكَ ، لأَدَعَنَّ حَزْنَكَ سَهْلا ، وغَمْرَكَ ضَحْلا[١٣] ، وَصفاكَ[١٤] وَحْلا .

فقال الحارث : أَمَا والله لو رُمْتَ ذلك لَمُرُغْتَ بالحضيض[١٥] ، وَأُغْصِصْتَ بالجريض[١٦] ، وضاقت عليك الرِّحاب ، وتقطَّعتْ بك الأسباب ، وَلَأُلْفِيتَ لَقًى[١٧]

---

(١) التسرع إلى الشر . (٢) طحمة السيل دفعته ، واستّن الفرس قمص وعدا لمرحه ونشاطه شوطا أو شوطين ، والاستنان : النشاط ، استّن الفرس : جرى فى نشاطه على سنه فى جهة واحدة .
(٣) الذرب : الحدة ، وكذا الغرب . (٤) المكواة . (٥) الأظل : أسفل خف البعير .
(٦) العجب : أصل الذنب والموجوء : المدقوق (من وجأ التيس: دق عروق خصييه بين حجرين ولم يخرجهما شبيها بالخصاء) . (٧) أساخه : جعله يسيخ (أو يسوخ فى الأرض) أى يغوص . (٨) كسرتك .
(٩) صرعتك صرعة لا تقوم منها . (١٠) نفحه بسيفه : تناوله . (١١) الأنصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله تعالى ، وقيل الأنصاب حجارة نصبت وعبدت من دون الله جمع نصب ، وقيل النصب جمع نصاب . (١٢) ربع يربع : كف ، وظلع ظلعا غمز فى مشيه ، واربع على ظلعك أى إنك ضعيف فانته عما لا تطيقه وكف . (١٣) الغمر : الماء الكثير ، والضحل : الماء القليل (وكذا الضحضاح) . (١٤) الصفا: جمع صفاة وهى الحجر الصلد الضخم أو الصفا بمعنى الصفو .
(١٥) أسفل الجبل . (١٦) الجريض . الغصة من الجرض ، وهو الريق يغص به يقال جرض بريقه يجرض ابتلعه بالجهد على هم وحزن ، وفى المثل: حال الجريض دون القريض، يضرب للأمر يقدر عليه أخيرا حين لاينفع. قاله جوشن الكلابى حين منعه أبوه من الشعر فرض حزنا حتى أشرف على الهلاك ، فرق له وقال انطلق بما أحببت ، فقال ذلك . (١٧) اللقى : الملقى المطروح .

تَهادَاه الرَّوامِس(١) . بالسَّهْب الطامِس(٢) .

فقال طريف : دون ما ناجتك به نفسُك مُقارَعَةُ أبطال ، وَحِيَاضُ أهْوَال ، وَحَفْزَةُ(٣) إعْجَال ، يُمْنَعُ مَعَهُ تَطَامُنُ الإمْهال .

فقال الملك : إيهًا(٤) عنكما ! فما رأيت كاليوم مقال رجلين لم يَقْصِبَا(٥) ، ولم يَثْلِبَا(٦) ، ولم يَلْصُوَا(٧) ، ولم يَقْفُوَا(٨) . (الأمالى ١ : ٧٣)

(١) الروامس : الرياح التى ترمس أى تدفن . (٢) المستوى من الأرض ، والطامس : الدارس (كالطامسِ) (٣) الحفز : الدفع . (٤) إيها : كلمة زجر بمعنى حسبك (وإيه : أمر . كلمة استزادة واستنطاق) . (٥) لم يشتما . قصبه يقصبه إذا وقع فيه وأصله القطع . (٦) ثلبه : عابه . (٧) لصاه : قذفه . (٨) قفاه : قذفه بأمر عظيم .

وفود العرب

يعزون سلامة ذا فائش بابن له مات

نشأ لسلامة ذى فائش ابنٌ كأ كمل أبناء المَقَاول، وكان مسروراً به يرشِّحه لموضعه، فركب ذات يوم فرسًا صعبًا، فـكبا به فوَقَصه(١)، فجزع عليه أبوه جزعا شديدا، وامتنع من الطعام، واحتجب عن الناس، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه، فلامه نصحاؤه فى إفراط جزعه، فخرج إلى الناس فقام خطباؤهم يؤَسُّونه(٢)، وكان فى القوم الملبَّب ابن عوف، وجُعَادة بن أفلح، فقام الملبب فقال:

٦ — خطبة الملبب بن عوف

أيها الملك، إن الدنيا تجود لتسلُب، وتعطى لتأخذ، وتجمع لتُشَتِّت، وتُحْلى لتُمِرّ، وتزرع الأحزان فى القلوب، بما تَفْجأ به من استرداد الموهوب، وكلّ مصيبة تَخَطَّأتك جَلَل(٣)، ما لم تُدْنِ الأجل، وتقض الأمل، وإن حادثا ألمّ بك، فاستبد(٤) بأقلك، وصفح عن أكثرك، لمن أجل النعم عليك، وقد تناهت إليك أنباء من رُزِئَ فصَبَرَ، وأُصيب فاغتفر، إذ كان شَوًى(٥) فيما يُرتَقَبُ ويُحْذَر، فاسْتَشْعِرِ اليأس مما فات، إذ كان ارتجاعه مُمتنِعًا، ومَرَامُهُ مُستَصْعَبًا، فلِشَىْءٍ مَا ضربت الأُسَى، وفزِع أُولو الألباب إلى حسن العزاء.

---

(١) وقص عنقه: كسرها. (٢) أساه تأسية: عزاه، وأصله: أن يقول له لك أسوة بفلان وفلان. (٣) الجلل: العظيم والحقير وهو هنا بالمعنى الثانى. (٤) البدة بالضم: النصيب، واستبد به: جعله نصيبه. (٥) الشوى: الهين اليسير ورذال المال.

٧ — خطبة جعادة بن أفلح

وقام جُعَادة فقال : « أيها الملك ، لا تُشْعِرْ قلبك الجزع على ما فات ، فيَغْفَلَ دهنك عن الاستعداد لما يأتى ، وَناضِلْ عوارِض الحزن بالأنفة عن مضاهاة[1] أفعال أَهْلِ وَهْيِ[2] العُقُولِ ، فإنَّ العزاء لحزَمَاء الرِّجال ، والجَزَعَ لِرَبَّاتِ الحِجَال[3] ، ولو كان الجزعُ يَرُدُّ فائِتًا ، أوْ يُحْيِي تالِفًا ، لكان فعلاً دنيئًا ، فكيف وهو مجانِبٌ لأخلاق ذوى الألباب ، فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت[4] فيه الأرذلون ، وصن قدرك عمَّا يركبهُ المخسوسون ، وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام ، ضِلَّة كأحلام النِّيَام » .

(الأمالى ٢ : ١٠١)

٨ — تساؤل عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند أحد ملوك حمير

اجتمع عامر بن الظَّرِب العَدْوَانى، وَحُمَمَة بن رَافع الدَّوسى عند ملك من ملوك حمير ، فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان . قال عامر لحممة : أين تحب أن تكون أياديك ؟ قال : عند ذى الرَّثْيَة[5] العديم ، وذى الخَلَّة[6] الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعَف المهَضيم . قال : من أحق الناس بالمقت ؟ قال : الفقير المختال ، والضعيف الصوَّال ، والعيِّ القوَّال . قال : فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريص الكاند[7] ، والمستميد[8] الحاسد، وَالمُلْحِف الواجد . قال: فمن أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا

(١) مشاكلة . (٢) ضعف . (٣) والحجال جمع حجلة (بفتحتين) ، وهى القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس . (٤) التهافت : التتابع . (٥) الرثية : وجع المفاصل واليدين والرجلين (الروماتزم) . (٦) الخلة الحاجة . (٧) الكاند : الذى يكفر النعمة ، والكنود الكفور : (إن الإنسان لربه لكنود) . (٨) المستميد والمستمير : المستعطى .

مُنِـعَ عَذَر ، وإذا مُوطِلَ صَبَرَ ، وإذا قَدُمَ العهدُ ذَكَرَ . قال : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إن قَرُبَ مَنَحَ ، وإن بَعُدَ مدح ، وإن ظُلِمَ صفح ، وإن ضويق سمح ، قال : من ألأم الناس ؟ قال : من إذا سأل خضع ، وإذا سُئِلَ منع ، وإذا ملك كَنَعَ(١) ، ظَاهِرُهُ جَشَع(٢) ، وباطنه طَبَع(٣) . قال : فمن أحلم الناس ؟ قال : من عفا إذا قَدِرَ ، وأجمل إذا انتصر ، ولم تُطْغِهِ عِزَّة الظفر . قال : فمن أحزم الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب نُصْبَ عينيه ، ونبذ التهيّب دَبْرَ أذنيه(٤) ، قال : فمن أخرق الناس ؟ قال : من ركب الخِطار(٥) ، واعتسف(٦) العِثَار ، وأسرع فى البِدار ، قبل الاقتدار . قال : فمن أجود الناس ؟ قال: من بذل المجهود، ولم يَأْسَ على المعهود . قال: فمن أبلغ الناس ؟ قال : من جَلَّى المعنى المَزِيز(٧) ، باللفظ الوجيز ، وَطَبَّقَ(٨) المَفْصِل قبل التحزيز . قال : فمن أنعم الناس عيشاً ؟ قال : من تَحَلَّى بالعفاف ، ورضى بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف إلى مالا يخاف . قال : فمن أشقى الناس ؟ قال : من حسد على النعم ، وتسخّط على القِسَم ، واستشعر الندم ، على فوت مالم يُحْتَم . قال : من أغنى الناس ؟ قال : من استشعر اليأس ، وأبدى التجمل للناس ، وَاستكثر قليل النعم ، وَلم يَسْخَط عَلَى القِسم . قال : فمن أحكم الناس ؟ قال : مَن صَمَتَ فَادَّكَرَ ، ونظر فاعتبر ، وَوُعِظَ فازدجر . قال : من أجهل الناس ؟ قال : من رأى الخُرْقَ مَغْنَماً ، والتجاوز مَغْرَمَا » .

(الأمالى ٢ : ٢٨٠)

٩ — خطبة عامر بن الظرب العدوانى وقد خطبت ابنته

خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِب العَدْوانى ابنته عَمْرَةَ فقال :

---

(١) تقبض . تكنع جلده إذا تقبض أى ممسك بخيل . (٢) الجشع : أسوأ الحرص . (٣) الدنس .
(٤) جعلت الشيء دبر أذنى : إذا لم ألتفت إليه . (٥) جمع خطر ، وهو الإشراف على الهلاك .
(٦) الاعتساف : ركوب الطريق على غير هداية وركوب الأمر على غير معرفة . (٧) الصعب .
(٨) التطبيق : أن يصيب السيف المفاصل فيفصلها لا يجاوزها .

« ياصعصعة إنك جئت تشترى منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى ، منعتك ، أو بعتك ، النكاح خير من الأُيْمَة(١) ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أبٌ بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفِرّ من السر إلى العلانية ، أنصَحُ ابنا ، وأودِعُ ضعيفاً قويًّا ، ثم أقبل على قومه فقال :

« يا معشر عدوان : أخرجت من بين أظهركم كريمتكم ، على غير رغبة عنكم ، ولكن مَن خُطَّ له شيء جاءه ، رب زارعٍ لنفسه حاصِدٌ سواه ، ولولا قَسْم الحظوظ على قدر الجدود ، ما أدرك الآخر من الأول شيئًا يعيش به، ولكن الذى أرسل الحَيَا(٢) ، أنبت للرعى ، ثم قسّمَهُ أُكُلًا(٣) لكل فَمٍ بَقْلة ، ومن الماء جَرْعة ، إنكم ترَوْن ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كلُّ ذى قلب واعٍ(٤) ، ولكل شيء راعٍ ، ولكل رزق ساعٍ ، إما أكيسُ وإما أحمقُ ، وما رأيت شيئًا إلا سمعت حِسَّه ، ووجدت مَسَّه ، وما رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا ، وما رأيت جائيًا إلا داعيًا ، ولا غانمًا إلا خائبًا ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يُميتُ الناسَ الدَّاء ، لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟ قيل ما هو ؟ قد قلتَ فأصبتَ ، وأخبرتَ فصدقتَ ، فقال : أمورًا شتى ، وشيئا شيًّا ، حتى يرجع الميت حيًا ، ويعود لا شيء شيًّا ، ولذلك خلقت الأرض والسموات ، فتولَّوْا عنه راجعين ، فقال : وَيْلُمِّها(٥) نصيحةً لو كان مَنْ يقبلها » .

(مجمع الأمثال ١ : ٢١١ ، البيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٢٣)

١٠ — حديث بعض مقاول حمير مع ابنيه

وما دار بينه وبينهما من المساءلة حين كبرت سنه

كان لرجل من مقاول حمير ابنان ، يقال لأحدهما عمرو ، وللآخر ربيعة ، وكانا قد

---

(١) الأيامى : الذين لاأزواج لهم من الرجال والنساء الواحد منهما أيم كجيد ، سواء كان تزوج من قبل أم لم يتزوج ، وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبا ، وقد آمت تئيم أيما وأيمة وأيوما ، وفى الحديث : « أنه كان يتعوذ من الأيمة » . (٢) الحيا : المطر . (٣) الأكل : مايؤكل والرزق . (٤) حافظ .
(٥) يقال للمستجاد ويلمه ، أى ويل لأمه ، كقولهم : لأب لك يريدون لاأب لك فركبوه وجعلوه كالشيء الواحد .

برعا فى الأدب والعلم ، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره ، وأشفى[1] على الفناء ، دعاهما لِيَبْلُو[2] عقولهما ، ويعرف مبلغ علمهما ، فلما حضرا : قال لعمرو ــ وكان الأكبر ــ أخبرنى عن أحبِّ الرجال إليك ، وأكرمهم عليك . قال : « السيد الجَواد ، القليل الأنداد ، الماجد الأجداد ، الرَّاسى الأوتاد ، الرفيع العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحُسَّاد ، الباسل الذَّوَّاد[3] ، الصادر الوَرَّاد » قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : ما أحْسَنَ ما وصف ! وغيرُه أحبُّ إلىَّ منه ، قال : ومن يكون بعد هذا ؟ قال : « السيد الكريم ، المانع للحريم ، المِفضال الحليم ، القَمْقام[4] الزعيم ، الذى إن همَّ فعل ، وإن سُئِلَ بذل » .

قال : أخبرنى يا عمرو بأبغض الرجال إليك ؟ قال : البَرَمُ[5] اللئيم ، المُسْتَخْذِى[6] الخصيم ، المِبْطَانُ[7] النهِم ، العِيِى البَكيم ، الذى إن سئل منع ، وإن هُدِّدَ خضع ، وإن طلب جَشِعَ[8] . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : غيره أبغض إلىَّ منه . قال : ومن هو ؟ قال : النَّئُوم الكذوب ، الفاحش الغَضُوب ، الرَّغيب عند الطعام ، الجبان عند الصِّدَام .

قال : أخبرنى يا عمرو : أىّ النساء أحب إليك ؟ قال : المِرْكَوْلَةُ[9] اللَّفَّاء[10] ، المَمْكُورة[11] الجَيْدَاء ، التى يَشْفِى السقيمَ كلامُها ، ويُبْرِى الوَصِبَ[12] إلمامُها ، التى إن أحسنتَ إليها شكرت ، وإن أسأت إليها صبرَت ، وإن استعتبتها[13] أعْتَبَت ، الفاترة الطَّرْف ، الطَّفْلة[14] الكف ، العميمة الرِّدْف . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : نَعَتَ فأحسنَ ! وغيرها أحبّ إلىَّ منها . قال : ومن هى ؟ قال : « الفتَّانة العينين ،

---

(١) أشفى عليه : أشرف . (٢) ليختبر . (٣) من ذاد عنه : إذا دفع . (٤) السيد (ويضم) .
(٥) البرم : من لايدخل مع القوم فى الميسر . (٦) الخاضع المستكين ، والخصيم : المخاصم .
(٧) من همه بطنه ، أو الرغيب لا ينتهى من الأكل . (٨) الجشع : أسوأ الحرص . (٩) المرتجة الأرداف . (١٠) الملتفة الجسم . (١١) المطوية الخلق من النساء والمستديرة الساقين ، والجيداء : من الجيد بالتحريك ، وهو طول الرقبة ، أودقتها مع طول . (١٢) المريض . (١٣) استعتبه : طلب إليه العتى (الرضا) وأعتبه أعطاه العتبى. (١٤) الناعمة .

الاسيلة[١] الخدين ، الـكاعِبُ[٢] الثديين ، الرَّدَاح[٣] الورِكين ، الشاكرة للقليل ، المساعدة للحليل[٤] ، الرَّخيمة[٥] الـكلام ، الجَمَّاء[٦] العظام ، الـكريمة الأخوال والأعمام ، العَذْبة الثِّام[٧] .

قال : فأى النساء إليك أبغض يا عمرو ؟ قال : الْقَتَّاته[٨] الـكذوب ، الظاهرة العيوب ، الطَّوَّافَةُ الْهَبُوب[٩] ، العابسة الْقَطُوب ، السَّبَّابة الْوَثُوب ، التى إن ائتمنها زوجها خانتهُ ، وإن لان لها أهانتهُ ، وإن أرضاها أغضبتهُ ، وإن أطاعها عصته ، قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس والله المرأة ذكر ! وغيرها أبغض إلىَّ منها . قال : وأيّهنَّ التى هى أبغض إليك من هذه ؟ قال : السَّلِيطَةُ[١٠] اللسان ، المؤذية للجيران ، الناطقة بالبُهتان ، التى وجهها عابس ، وزوجها من خيرها آيس ، التى إن عاتبها زوجها وَتَرَته[١١] ، وإن ناطقها انتهرته . قال ربيعة : وغيرها أبغض إلىَّ منها . قال : ومن هى ؟ قال : التى شقى صاحبها ، وخَزِىَ خاطبها ، وافتضح أقاربها . قال : ومن صاحبها ؟ قال : مثلها فى خصالها كلها ، لا تصلح إلا له ، ولا يصلح إلا لها . قال : فصفه لى . قال : الْـكَفُور غير الشَّـكور ، اللئيم الْفَجُور ، الْعَبوس الـكالح[١٢] ، الحرون الجامح ، الرّاضى بالهوان ، المختال المنَّان ، الضعيف الجَنَان ، الجَعْدُ[١٣] البنان ، القئول غير الْفَعُول ، المَلول غير الْوَصول ، الذى لا يَرِع[١٤] عن المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم .

قال: أخبرنى يا عمرو : أى الخيل أحب إليك عند الشدائد ، إذا التقى الأقران للتجالد ؟ قال : الجواد الأنيق ، الحصان العتيق ، الـكَفِيت[١٥] الْعَرِيق ، الشديد الوثيق ، الذى يفوت إذا هرب ، وَيَلْحَقُ إذا طلب . قال : نعم الفرس والله نعتَّ ! قال : فما تقول

---

(١) الأسيل من الخدود : الطويل المسترسل. (٢) كعب الثدى : نهد. (٣) الثقيلة العجيزة الضخمة الوركين . (٤) الزوج . (٥) الينة الكلام . (٦) التى ليس لعظامها حجم . (٧) المراد موضع اللثام ، فهو على حذف مضاف . (٨) النمامة . (٩) الكثيرة الانتباه، والهيوب : الريح المثيرة الغبار . (١٠) الطويلة . (١١) أحفظته وأغضبته . (١٢) كلح : تكشر فى عبوس . (١٣) كناية عن البخل . (١٤) ورع : كورث كف . (١٥) السريع .

يا ربيعة ؟ قال : غيره أحبّ إليّ منهُ . قال : وما هو ؟ قال : الحصان الجَوَاد ، السَّلِس القِيَاد ، الشهم الفؤاد ، الصّبور إذا سرى ، السابق إذا جرى .

قال : فأى الخيل أبغض إليك يا عمرو ؟ قال : الجَمُوح الطَّموح ، النَّكُول[1] الأنُوح[2] ، الصَّنُول[3] الضعيف ، المَلول العنيف ، الذى إن جاريته سبقته ، وإن طلبته أدركته . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : غيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : البطىء الثقيل ، الحَرُون الكَلِيل ، الذى إن ضربته قَمَص ، وإن دنوت منهُ شَمَس[4] ، يدركه الطالب ، ويفوته الهارب ، وَيَقطع بالصاحب . قال ربيعة : وغيره أبغض إلىّ منهُ . قال : وما هو ؟ قال: الجَمُوح الخبُوط[5] ، الرَّكُوض الحَرُوط[6] ، الشَّمُوس الضَّرُوط[7] ، القَطُوف[8] فى الصعود والهبوط ، الذى لا يُسلِم الصاحب ، وَلا ينجو من الطالب .

قال : أخبرنى يا عمرو أىُّ العيش ألذُّ ؟ قال : عيش فى كرامة ، ونعيم وسلامة ، واغتباق[9] مُدَامة . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قَال : نِعْمَ الْعَيْشُ والله وصف ! وغيره أحبُّ إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : عيش فى أمن ونعيم ، وَعِزٍّ وغنى عميم ، فى ظل نجاحٍ ، وسلامةِ مَسَاء وصباحٍ ، وغيره أحبُّ إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : غِنًى دائم ، وعيش سالم ، وظِلٌّ ناعم .

قال : فما أحبُّ السيوف إليك يا عمرو ؟ قَال: الصَّقِيلُ الحُسَام ، الباتر المِجْذَام[10] ، الماضى السِّطَام[11] المُرْهَفُ[12] الصَّمْصَام[13] ، الذى إن هززته لم يَكْبُ[14] ، وإذا ضربت به لم يَنْبُ[15] . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : نعم السيف نعت ! وغيره أحبُّ

---

(١) النكول : الذى ينكل عن قرنه . (٢) الكثير الزحير . (٣) كثير الصئيل : وصئيل الفرس : صهيله . (٤) شمس الفرس ، منع ظهره : فهو شامس وشموس . (٥) الكثير الخبط : وهو السير على غير هدى . (٦) الحروط : الدابة الجموح تجتذب رسنها من يد ممسكها ثم تمضى . (٧) الكثير الضراط . (٨) قطفت الدابة : ضاق مشيها فهى قطوف . (٩) اغتبق : شرب الغبوق ، وهو مايشرب بالعشى ، والمدامة : الخمر كالمدام . (١٠) من الجذم : وهو القطع . (١١) الحد . (١٢) رهف السيف ، وأرهفه : رققه . (١٣) السيف لا ينثنى كالصمصامة . (١٤) لم يعثر . (١٥) لم يكل عن الضريبة .

إلىّ . قال: وما هو ؟ قال : الحسام القاطع ، ذو الرَّونق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إن هززته هتَكَ[١] ، وإذا ضربت به بَتَكَ[٢] . قال : فما أبغض السيوف إليك يا عمرو ؟ قال : الفُطَار[٣] الكَهام[٤] ، الذى إن ضرب به لم يقطع ، وإن ذُبح به لم يَنْخَع[٥] . قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس السيف والله ذكر ! وغيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الطَّبِع[٦] الدَّدان[٧] ، المِعْضَد[٨] المُهان .

قال : فأخبرنى يا عمرو : أىُّ الرِّماح أحبُّ إليك عند المِراس ، إذا اعتكر البأس ، واشتجر الدِّعاس[٩] ؟ قال : أحبها إلىّ المارن[١٠] المُثقَّف ، المُقوَّم المُخطَف[١١] ، الذى إذا هززته لم ينعطف ، وإذا طعنت به لم ينقصف . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : « نِعْمَ الرمح نعتَّ ! وغيره أحبُّ إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الذابل[١٢] العَسَّال ، المُقوَّم النَّسَّال ، الماضى إذا هززته ، النافذ إذا همزته .

قال : فأخبرنى يا عمرو عن أبغض الرِّماح إليك ؟ قال : الأعصل[١٣] عند الطعان ، المثلَّم السِّنان ، الذى إذا هززته انعطف ، وإذا طعنت به انقصف . قال : ماتقول يا ربيعة ؟ قال : بئس الرمح ذكر ! وغيره أبغض إلىَّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الضعيف المَهز[١٤] ، اليابس الكَز[١٥] ، الذى إذا أكرهته انحطم ، وإذا طعنت به انقصم . قال : انصرفا ، الآن طاب لى الموت » . (الأمالى ١ : ١٥٢)

---

(١) مزق . (٢) قطع . (٣) الذى لا يقطع ، وهو مع ذلك حديث الطبع . (٤) سيف كهام : كليل . (٥) لم يبلغ النخاع . (٦) من الطبع : أى الصدأ . (٧) الذى لايقطع .
(٨) القصير الذى يمتهن فى قطع الشجر وغيرها . (٩) الطعان : دعسه إذا طعنه . (١٠) المارن : مالان من الرمح ، والمثقف : المسوى بالثقاف ، وهو ماتسوى به الرماح . (١١) الخطف بضم فسكون : الضمر ، وإخطاف الحشى : انطواؤه ، ومنه فرس مخطف الحشى : أى ضامره ، ورجل مخطف كذلك ، ورمح مخطف أى دقيق . (١٢) قنا ذابل : أى دقيق لاصق بالليط (بكسر اللام ، والليطة : قشر القناة) ، والعسال : الشديد الاضطراب إذا هززته ومنه العسلان بالتحريك ، وهو عدو فيه اضطراب ، والنسلان قريب منه.
(١٣) الملتوى : المعوج (١٤) مهزه كنعه : دفعه . (١٥) الكزازة : اليبس والانقباض كز فهو كز.

١١ – إحدى ملكات اليمن وخاطبوها

وذكروا أن ملكة كانت بِسَبَأ[١] ، فأتاها قوم يخطُبونها ، فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، ولْيَصْدُق ولْيُوجز ، لأتقدمَ إن تقدمتُ ، أو أَدَعَ إن تركتُ ، عَلَى علم ، فتكلم رجل منهم يقال له مُدْرك ، فقال : « إن أبى كان فى العز الباذخ[٢] ، والحَسَب الشامخ ، وأنا شَرِس الخليقة ، غير رِعْدِيدٍ[٣] عند الحقيقة » قالت : لاعِتَابَ عَلَى الجندل فأرسلتها مثلا[٤] ، ثم تكلم آخر منهم ويقال له ضَبيس بن شَرِس فقال : « أنا فى مال أَثِيث[٥] ، وخُلُقٍ غير خبيث ، وحسبٍ غير عثيث[٦] ، أحذو النعلَ بالنعل ، وَأَجزى القَرْض[٧] بالقرض » فقالت : لايسرُّك غائباً مَنْ لايسرُّك شاهداً ، فأرسلتها مثلا . ثم تكلم آخر منهم ، يقال له شَمَّاس بن عباس فقال : « أنا شماس ابن عباس ، معروف بالنَّدَى والباس ، حسن الخلق فى سَجِيَّة ، والعدل فى قَضِيَّة ، مالى غير محظور عَلَى القُلّ والكُثْر ، وبابى غير محجوب عَلَى العُسْر واليُسْر ، قالت : الخير مَتَّبع والشر محذور ، فأرسلتها مثلا . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضبيس ، لن يستقيم معكما معاشرة لعشير حتى يكون فيكما لين عَرِيكةٍ[٨] ، وأما أنت يا شماس ، فقد حلَلْتَ منى محل الأهزَع[٩] من الكِنانةِ ، والواسطة[١٠] من القِلادة ، لِدَمَاثَةِ[١١] خلقك ، وكرم طباعك ، ثم اسع بِجِدٍّ أودَعْ ، فأرسلتها مثلا ، وتزوجت شماسا .

(مجمع الأمثال ٢ : ١١٨)

---

(١) سبأ : بلدة باليمن . (٢) العالى . (٣) الرعديد : الجبان . (٤) قال الميدانى : « يضرب فى الأمر الذى إذا وقع لامرد له ، قاله أبو عمرو » . (٥) كثير : عظيم .
(٦) لم أجد فى كتب اللغة وصفا من مادة عث على فعيل ، وإنما الذى فيها « رجل عث بفتح العين أى ضئيل الجسم » وسياق الفواصل يرجح أن الوصف الذى هنا فعيل ، وأرى أن معناه مشين معيب من عثت العثة الصوف إذا أكلته فهو عثيث بمعنى معثوث . (٧) القرض : القطع
(٨) العريكة : الطبيعة ، ورجل لين العريكة : أى سلس الخلق . (٩) الأهزع آخر سهم فى الكنانة رديئا كان أو جيدا أو هو أفضل سهامها لأنه يدخر لشدة أو هو أردؤها ، والمراد هنا الثانى .
(١٠) واسطة العقد : الجوهرة الفاخرة التى تجعل وسطه . (١١) الدماثة : السهولة .

١٢ — رواد مذحج يصفون ما ارتادوا من المراعى

عن أشياخ من بنى الحرث بن كعب قالوا :

« أَجْدَبَتْ بلاد مَذْحِج فأرسلوا رُوَّادا[١] ، من كل بطن رجلاً ، فبعث بنو زُبيد رائداً ، وبعث النَّخَعُ رائداً ، وبعث جُعْفِىٌّ رائداً ، فلما رجع الرواد قيل لرائدِ بنى زبيد : ما وراءك ؟ قال : رأيت أرضاً مُوشِمَة[٢] البِقاع ، ناتِحَة النِّقاع[٣] ، مُسْتَحْلِسَة الغِيطان[٤] ضاحكة القُرْيانِ[٥] واعدةً[٦] وأحْرِ بوفائها ، راضية أرضُها عن سمائها » .

وقيل لرائد جعفى : ما وراءك ؟ قال : رأيت أرضاً جمعت السماء[٧] أقطارها ، فأمْرَعَت أصبارها[٨] ، ودَيَّثَتْ أوعارَها[٩] ، فبُطنانها غَمِقة[١٠] وظُهرانها غَدِقة[١١] ، ورياضها مُسْتَوْسِقة[١٢] ، ورَقاقُها رائخٌ[١٣] ، وواطئها سائخٌ[١٤] ، وماشيها[١٥] مسرور ، ومُصْرِمُها[١٦] محسور » . وقيل للنَّخَعِىّ ما وراءك ؟ فقال : « مَدَاحِى[١٧] سيل ، وزُهاء[١٨] ليل ،

---

(١) الرواد : جمع رائد ، وهو المرسل فى طلب الكلأ . (٢) أوشمت الأرض : إذا بدا فيها شىء من النبات (وأوشمت السماء : إذا بدا فيها برق) . (٣) النقاع : جمع نقع (كشمس) وهو الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء ، وناتحة : أى راشحة ، من النتح وهو خروج العرق من الجلد .

(٤) الغوط ، والغيط ، والغاط ، والغائط : المطمئن الواسع من الأرض وجمعه غوط (بالضم) وأغواط وغيطان ، وغياط ، واستحلس النبت : إذا غطى الأرض أو كاد يغطيها . (٥) القريان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرىّ كغنى . (٦) أى تعد تمام نباتها وخيرها ، وأحر : أخلق .

(٧) السماء هنا : المطر ، يريد أن المطر جاد بها ، فطال النبت ، فصار المطر كأنه قد جمع أكنافه .

(٨) مرع الوادى مثلث الراء مراعة وأمرع : أعشب وأخصب فهو مريع وممرع ، وأصبارها : نواحيها جمع صبر بالكسر والضم . (٩) ديثت : لينت . (١٠) البطنان : جمع بطن ، وهو الغامض من الأرض أى المطمئن منها ، وغمقة : ندية . (١١) الظهران : جمع ظهر ، وهو ما ارتفع يسيرا ، وغدقة : كثيرة البلل والماء . (١٢) منتظمة . (١٣) الرقاق : الأرض اللينة من غير رمل ، ورائخ : مفرط اللين ، يقال : ريخت العجين إذا كثرت ماءه ، وراخ العجين يريخ . (١٤) أى تسوخ رجلاه فى الأرض من لينها ، وتسوخ وتثوخ واحد . (١٥) الماشى : صاحب الماشية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته . (١٦) المصرم : الفقير المقل . (١٧) مداحى : جمع مدحى اسم مكان من دحا الأرض يدحوها ويدحاها دحوا : أى بسطها . (١٨) الزهاء : الشخص ، وإنما جعل نباتها زهاء ليل لشدة خضرته .

وغَيْل[١] يواصي غَيْلاً ، قد ارتوت أجرازُها[٢] ، ودَمُثَتْ عَزَازُها[٣] ، والتبدت أقوازُها[٤] ، فرائدها أنِق[٥] وراعيها سَنِق[٦] فلا قَضَض ولا رَمَض[٧] ، عازِبُها[٨] لا يُفْزَع ، وَوَارِدُها لا يُنْكَع[٩] ، فاختاروا مَرَاد[١٠] النخعي » . (الأمالي ١ : ١٨٣)

١٣ — ما دار من الحديث بين المنذر بن النعمان الأكبر وبين عامر بن جوين الطائي

وفد عامر بن جُوَيْن الطائي على المنذر بن النعمان الأكبر ، جد النعمان بن المنذر ، وذلك بعد انقضاء ملك كِنْدَة ، ورجوع الملك إلى لَخْم ، وكان عامر قد أجار امرأ القيس ابن حُجْر ، أيام كان مقيما بالجَبَلَيْن[١١] ، وقال كلمته التي يقول فيها :

هُنَالِكَ لا أُعْطِي مليكا ظُلَامَةً ولا سُوقَةً حتى يَئُوب ابن مَنْدَله[١٢]

(١) الغيل : الماء الجارى على وجه الأرض، ويواصى : يواصل . (٢) الأجراز : جمع جرز (بضمتين) وهى التى لم يصبها المطر ، أو التى قد أكل نباتها ، أو التى لا تنبت . (٣) دمث : لين (وروى دمث كفرح) ودمث: لان ، والعزاز : الأرض الصلبة . (٤) الأقواز جمع قوز (كشمس): وهو المستدير من الرمل. (٥) أى معجب بالمرعى . (٦) من سنق كفرح أى بشم واتخم ، وراعيها : الذى يرعاها . (٧) القضض : الحصى الصغار ، يريد أن النبات قد غطى الأرض فلا ترى هناك قضضا ، والرمض : أن يحمى الحصى والحجارة من شدة الحر ، يقول : ليس هناك رمض، لأن النبات قد غطى الأرض . (٨) العازب : الذى يعزب بإبله أى يبعد بها فى المرعى . (٩) أى لا يمنع . (١٠) أى مرعى . (١١) الجبلان : سلمى وأجأ (كجبل) شرقى المدينة ، وهما لطيء ، قال رجل من بنى سلامان جاور فى طيء :

ألفت مساكن الجبلين إنى رأيت الغوث يألفها الغريب

(والغوث قبيلة من طيء) . (١٢) قال صاحب اللسان : « ابن مندلة رجل من سادات العرب ، قال عمرو بن جوين فيما زعم السيرافى ، أو امرؤ القيس فيما حكى الفراء :

وآليت لا أعطى مليكا مقادتى ولا سوقة حتى يئوب ابن مندله »

وقال الميدانى فى شرح المثل « لاغزو إلا التعقيب » — ج ٢ : ص ١٣١ — : « يقال عقب الرجل : وهو أن يغزو مرة ثم يثنى من سنته، وأول من قال ذلك حجر بن الحارث بن عمرو آكل المرار (أبو امرئ —

وكان المنذر ضَغِنًا عليه ، فلما دخل عليه قال له : يا عامِ ، لَسَاء مَثْوًى أثويته ربّك وثويّك[1] ، حين حاولتَ إصْبَاء طَلّته[2] ومخالفتَهُ إلى عشيره ، أما والله لو كنتَ كريمًا لأثويتَه مُكرّمًا مُوقّرًا ، ولجانبته مُسَلّمًا ، فقال له : أبيتَ اللعنَ[3] لقد علمتْ

= القيس) وذلك أن الحرث بن مندلة ملك الشأم ، وكان من ملوك سليح من ملوك الضجاعم (سليح كجريح قبيلة باليمن ، والضجاعم كانوا ملوكا بالشام) وهو الذى ذكره مالك بن جوين الطائى فى شعره فقال :

هنالك لا أعطى رئيسا مقادة ولا ملكا حتى يئوب ابن مندله

وكان قد أغار على أرض نجد ، وهى أرض حجر بن الحارث هذا ، وذلك على عهد بهرام جور ، وكان بها أهل حجر فوجد القوم خلوفا ، (الخلوف بالضم : الذين ذهبوا من الحى ، ومن حضر منهم أيضا) ووجد حجرا قد غزا أهل نجران ، فاستاق ابن مندلة مال حجر ، وأخذ امرأته هند الهنود (وهى هند بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية) ووقع بها فأعجبها ، وكان آكل المرار شيخا كبيرا ، وابن مندلة شابا جميلا ، فقالت له : النجاء النجاء ، فإن وراءك طالبا حثيثا ، وجمعا كثيرا ، ورأيا صليبا ، وحزما وكيدا ، فخرج ابن مندلة مغذا إلى الشأم (أى مسرعا) فلما رجع حجر وجد ماله قد استيق ، ووجد هندا قد أخذت ، فقال : من أغار عليكم ؟ قالوا ابن مندلة ، قال : مذكم ؟ قالوا : ثمانى ليال ، فقال حجر : لاغزو إلا التعقيب ، فأرسلها مثلا يعنى غزوه الأول والثانى .

ثم جد فى طلب ابن مندلة ، حتى دفع إلى واد دون منزل ابن مندلة فسكن فيه ، وبعث سدوس ابن شيبان ، فقال له . اذهب متنكرا إلى القوم حتى تعلم لنا علمهم ، فانطلق حتى انتهى إلى ابن مندلة ، ثم رجع إلى حجر فحدثه بحديث امرأته مع ابن مندلة ، فضرب حجر بيده على المرار (والمرار كغراب : شجرة مرة إذا أكلت منها الإبل تقلصت مشافرها) فأكل منها من الغضب ، فسمته العرب آكل المرار ، (وقيل : آكل المرار هو أبوه الحارث) ، ثم خرج حتى أغار على ابن مندلة فقتله ثم قتل هندا وأنشأ يقول :

إن من يأمن النساء بشىء بعد هند لجاهل مغرور
كل أنثى وإن تبينت منها آية الحب ، حبها خيتعور

(والخيتعور : كل شىء لايدوم على حالة واحدة ، ويضمحل كالسراب ، وكالذى ينزل من الهواء فى شدة الحر كنسج العنكبوت) .

وذكر أبو الفرج الأصبهانى هذه القصة فى الأغانى (١٥ : ٨٢) ولكنه روى أن الذى أغار على حجر هو زياد بن الهبولة قال : « ثم إن زياد بن الهبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم بن حماطة بن سعد ابن سليح القضاعى أغار عليه وهو ملك فى ربيعة بن نزار ، وكان قد غزا بربيعة البحرين فبلغ زيادا غزاته فأقبل حتى أغار فى مملكة حجر فأخذ مالا كثيرا وسبى امرأة حجر . . . . إلى آخر القصة » .

(١) ثوى المكان وبه : نزل ، وأثواه : أضافه ، والمثوى : المنزل ، والثوىّ : كغنى البيت المهيأ له ، والضيف وهو المراد هنا . (٢) الطلة العجوز ، وصبا الرجل مال إلى الجهل والفتوة وأصبته المرأة والمراد حاولت رد عزه السالف إليه . (٣) أبيت اللعن : تحية جاهلية أى أبيت أن تأتى ماتلعن به .

أبناء أُدَدَ(١) إنى لأعزُّها جاراً ، وأكرمُها جِواراً ، وأمنعها داراً ، ولقد أقام وافراً ، وزال شاكراً ، فقال له المنذر : « يا عامِ ، وإنك لتخالُ هُضَيْبَاتِ أجَأ ذاتَ الوِبَار(٢) ، وَأُفَنيَاتِ سَلْمَى ذاتَ الأغْفَارِ(٣) ، مَانِعَاتِكَ من المَجْرِ(٤) الجرَّار ، ذى العَدَدِ الكُثار(٥) وَالحُصُن وَالمِهَار(٦) والرماح الحِرَار(٧) ، وكل ماضى الغِرَار(٨) ، بيد كل مِسعَرٍ كريم النِّجار(٩) ؟ قال عامر : أبيت اللعن ، إن بين تلك الهُضَيْبَاتِ وَالرِّعان(١٠) والشِّعَابِ والمُصْدَان(١١) لفتيانا أبطالا ، وكهولا أزوالا(١٢) ، يضربون القَوَانِسَ(١٣) ويستنزلون الفوارس ، بالرماح المَدَاعِس(١٤) لم يَتْبَعُوا الرِّعاء(١٥) ، ولم تُوَشِّحهم(١٦) الإماء ، فقال الملك : ياعامِ لو قد تجاوبت الخيل فى تلك الشعاب صهيلا ، كانت الأصوات قَعْقعة(١٧) وصليلا ، وَفَغَرَ المَوْتُ(١٨) ، وأعجز الفَوْتُ ، فتقارشت الرِّماح(١٩) وحَمِى السلاح ، لَتَسَاقَى قَوْمُكَ كأْسا لا صَحْوَ بعدها ، فقال مهلاً أبيت اللعن ، إن شَرَابَنَا وَبِيل ،

---

(١) هو أدد بن زيد بن يشجب (بضم الجيم) بن عريب (بفتح العين) بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وبنو أدد : هم مذحج وطيء والأشعر .

(٢) الوبار : شجرة حامضة شائكة . (٣) الغفر بالتحريك : صغار الكلأ .

(٤) المجر : الجيش العظيم . (٥) الكثير . (٦) الحصن : جمع حصان ، وهو الفرس الذكر ، والمهار : جمع مهر ، وهو ولد الفرس . (٧) الحرار والأحرار : جمع حر ، وهو خيار كل شيء .

(٨) الغرار : حد الرمح والسهم والسيف . (٩) يقال هو مسعر حرب : أى موقد نارها كأنه آلة لسعر الحرب أى إيقادها ، والنجار : الأصل .

(١٠) الرعان : جمع رعن (كشمس) وهو أنف يتقدم الجبل ، والجبل الطويل ويجمع أيضا على رعون .

(١١) الشعب : بالفتح الجبل ، وبالكسر : الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين ، المصد (كشمس وكتف) والمصاد (كسحاب) الهضبة العالية وجمعه أمصدة ومصدان .

(١٢) أزوال : جمع زول ، وهو الشجاع . (١٣) القوانس : جمع قونس كجعفر ، والقونس والقونوس : أعلى بيضة الحديد . (١٤) المداعس : جمع مدعس ، وهو الرمح الذى لا ينثنى .

(١٥) الرعاء : بالضم والكسر ، الرعاة : جمع راع . (١٦) التوشيح : التربية .

(١٧) القعقعة : حكاية صوت السلاح ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت .

(١٨) فغر الموت فاه : أى فتحه . (١٩) تقارشت الرماح : تداخلت فى الحرب .

وَحَدَّنا أليل(١) ، ومَعْجَمَنَا صَلِيب(٢) ، ولقاءنا مَهِيب ، فقال له : يا عام إنه لقليلٌ بقاء الصَّخْرة الصَّمَّاء(٣) على وقع الملَاطِيس(٤) ، فقال : أبيت اللعن ، إن صَفَاتَنَا عِبْرُ المَرَادِيسِ(٥) ، فقال : لأُوقِظَنَّ قومك مِنْ سِنَةِ الغفلة . ثم لأُعْقِبَنَّهُمْ بعدها رَقْدَةً لا يَهُبُّ راقدها ، ولا يستيقظ هاجدها(٦) ، فقال له عامر : إن البغى أباد عَمْرًا(٧) ، وَصَرَعَ حُجْرًا(٨) ، وكانا أعزَّ منك سلطانًا ، وأعظم شأنًا ، وإن لَقِيتَنَا لم تَلْقَ أنكاسًا

(١) حاد ، وألَّه تأليلا حدده . (٢) عجم العود كنصر : إذا عضه ليعرف صلابته من خوره ، والمعجم اسم مكان منه وصليب أى صلب ، وهو كناية عن شدتهم ومنعتهم . (٣) صخرة صماء : صماء .
(٤) الملطس : كنبر ، والملطاس : المعول الغليظ لكسر الحجارة . (٥) الصفاة : الحجر الصلد الضخم ، ويقال ناقة عبر أسفار (بتثليث العين) أى قوية على السفر تشق مامرت به ، تقطع الأسفار عليها ، وكذا الرجل الجرىء على الأسفار الماضى فيها القوى عليها ، والمردس والمرداس : شىء صلب عريض تدك به الأرض ، وردسها دكها به وردس الحجر بالحجر (كنصر وضرب) كسره ، ومعنى العبارة إن صفاتنا تحتمل دك المراديس فلا تتحطم تحتها ، كناية عن صلابتهم وشدتهم . (٦) الهجود : النوم .

(٧) هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وكان يلقب مضرط الحجارة لشدة ملكه ، وقوة سياسته (وهو عمرو بن هند) وأمه هند بنت الحارث بن عمرو عمة امرىء القيس بن حجر بن الحارث ، وكان سبب قتله أنه قال يوما لجلسائه : هل تعلمون أن أحـدا من العرب يأنف أن تخدم أمه أمى ؟ قالوا : مانعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبى ؛ فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وزوجها كلثوم بن عتاب ، وابنها عمرو ، فسكت مضرط الحجارة على ما فى نفسه وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمه ، فقدم عمرو بن كلثوم فى فرسان من بنى تغلب ، ومعه أمه ليلى ، فنزل على شاطىء الفرات ، وبلغ عمرو بن هند قدومـه ، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته ، فصنع لهم طعاما ، ثم دعا الناس إليه فقرب إليهم الطعام على باب السرادق ، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه فى السرادق ، ولأمه هند قبة فى جانب السرادق ، وليلى أم عمرو ابن كلثوم معها فى القبة ، وقد قال مضرط الحجارة لأمه إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فنحى خدمك عنك ؛ فإذا دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومريها فتناولك الشىء بعد الشىء ، ففعلت هند ما أمرها به ابنها ، فلما استدعى الطرف ، قالت هند لليلى : ناولينى ذلك الطبق . قالت لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فألحت عليها ، فقالت ليلى : واذلاه يا آل تغلب فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه والقوم يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشر فى وجهه وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق فى السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه ، ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله ، وخرج فنادى يا آل تغلب فانتهبوا ماله وخيله ، وسبوا النساء ، وساروا فلحقوا بالحيرة (تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٩٧) . (٨) هو حجر بن الحارث (أبو امرىء القيس) وقد تقدم خبره .

ولا أغساسًا(١) ، فهَبِّش وضائِعَك وصنائِعَك(٢) ، وهَلُمَّ إذا بدا لك ، فنحن الأُلَى قَسَطُوا(٣) على الأملاك قبلك ، ثم أتى راحلته فركبها ، وأنشأ يقول :

تَعَلَّمْ (أبَيْتَ اللَّعْنَ) أنَّ قَنَاتَنَا ... تَزِيد عَلَى غمزِ الثِّقَافِ تَصَعُّبَا(٤)

أتُوعِدُنَا بالحرب ؟ أُمُّكَ هَابِلٌ ... رُوَيْدَكَ بَرْقًا ، لَاأَبا لَكَ ، خُلَّبَا(٥)

إذا خَطَرَت دونى جَدِيلَةُ بِالْقَنَا ... وَحَامَتْ رِجَالُ الْغَوْث دونى تحَدُّبا(٦)

أبَيْتُ التى تَهْوَى ، وَأَعْطَيْتُكَ التى ... تَسُوقُ إليكَ الموتَ أخْرَجَ أكْهَبَا(٧)

فإن شئتَ أن تَزْدارَنا فَأْتِ تَعْتَرِفْ ... رِجالا يُذيلون الحديدَ الْمُقَرَّبا(٨)

وإنك لو أبصرتهم فى مجالهم ... رَأَيْتَ لهم جَمْعًا كثيفًا وَكَوْكَبَا(٩)

وَذَكَّرَكَ الْعَيْشَ الرَّخِيَّ جِلَادُهُمْ ... وَمَلْهًى بأكناف السَّدِيرِ وَمَشْرَبَا(١٠)

فَأَغْضِ على غيظٍ ولا تَرُمِ التى ... تُحَكِّمُ فيك الزَّاعِبِيَّ الْمُحَرَّبَا(١١)

(ذيل الأمالى ص ١٧٩)

---

(١) الأنكاس: جمع نكس بالكسر وهو الضعيف ، والأغساس : جمع غس بالضم وهو الضعيف أيضا .

(٢) هبش : جمع ، والوضائع : جمع وضيعة ، أثقال القوم وما يأخذه السلطان من الخراج والعشور . والصنائع : جمع صنيعة : يقال هو صنيعة فلان ، وصنيعه إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه ، والمعنى : فتجهز للحرب ، واجمع الأموال اللازمة لذلك واحشد رجالك المدربين على القتال . (٣) أى جاروا .

(٤) الثقاف : ماتسوى به الرماح . (٥) هبلته أمه (كفرح) فقدته ، والبرق الخلب : المطمع المخلف . (٦) خطر الرجل بسيفه ورمحه : رفعه مرة ووضعه أخرى ، وجديلة والغوث من طيء ، وتحدب به تعلق ، وتحدب عليه تعطف . (٧) الخرج كسبب : لونان من بياض وسواد خرج كفرح فهوأخرج ، وظليم أخرج : وهو الذى لون سواده أكثر من بياضه كلون الرماد ، والكهبة : الدهمة (السواد) أو غبرة مشربة سوادا ، كهب كفرح وكرم فهو أكهب وكاهب . (٨) ازداره: زاره (افتعل من الزيارة) واعترف الشيء عرفه ، وأذال ثوبه : إذا أطال ذيله قال كثير :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة ... اجاد المسدى سردها فأذالها

والحديد : الدروع ، وشيء مقرب : أى معوج معطوف ، يريد أنها دروع مزرودة (الزرد والسرد بالفتح : تداخل حلق الدرع بعضها فى بعض) والمعنى تجد أبطالا قد لبسوا الدروع السابغة المزرودة ، وهناك معنى آخر وهو : يقال أذال فرسه إذا أهانه ؛ والحديد : أى الفرس الحديد السير أى السريع ، والمقرب الشديد الخلق المجتمعه . وحمار مقرب الخلق أى ملزز مجتمع شديد ، فالمعنى : تجد أبطالا يجهدون فى ميدان القتال أفراسهم كرا وصولا على الأعداء . (٩) الكوكبة : الجماعة . (١٠) السدير والخورنق : قصران بناهما النعمان الأكبر بالحيرة . (١١) الرمح الزاعبى : هو الذى إذا هز كأن كعوبه يجرى بعضها فى بعض لينه ، والمحرب : المحدد .

١٤ — قيس بن رفاعة والحارث بن أبى شمر الغسانى

كان قيس بن رِفاعة يفدُ سنة إلى النُّعمان اللَّخْمى بالعراق ، وسنة إلى الحارث ابن أبى شَمِر الغَسَّانى بالشأم[١] ، فقال له يومًا وهو عنده : يابنَ رفاعة ، بلغنى أنك تفضل النعمان[٢] علىَّ ؟ قال :

« وكيف أفضّله عليك أبيتَ اللعن ؟ فوالله لَقفَاك أحسنُ من وجهه ، ولَأُمُّك أشرفُ من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشِمالك أجود من يمينه ، وَلِحِرْمانك أنفع من نَدَاه ، ولَقليلك أكثر من كثيره ، ولِثِمادُك[٣] أغزر من غديره ، ولكرسيُّك أرفع من سريره ، ولجدولك أَغْمَرَ من بحوره ، ولَيومُك أفضل من شهوره ، ولشهرك أَمَدُّ من حَوْله ، ولحولك خَير من حُقْبه[٤] ، ولزَنْدُك أورى من زنده ، ولجندك أعزّ من جنده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه لمن لخم الكثير النُّوك[٥] ، فكيف أفضله عليك[٦] ؟ » .

(الأمالى ١ : ٢٦١ ومروج الذهب ١ : ٢٩٨)

١٥ — قيس بن خفاف البرجمى وحاتم طيىء

أتى أبو جُبَيْل قيس بن خُفَاف البُرْجُمى حاتم طيىء ، فى دماء حملها عن قومه ، فأسلموه[٧] فيها ، وعجز عنها ، فقالَ : والله لآتينّ من يحملها عنى ، وكان شريفًا شاعرًا ، فلما قدم عليه قال : « إنه وقعت بين قومى دماء فتوا كلوها ، وإنى حملتها فى مالى وأملى ،

(١) كان المناذرة ملوك الحيرة من لخم ، والغساسنة : ملوك الشأم من الأزد . فكلاهما من أصل يمنى ، وكان بينهما أحقاد وأضغان وحروب . (٢) النعمان بن المنذر .
(٣) الثماد : الماء القليل لا مادة له . (٤) الحقب بالضم وبضمتين : ثمانون سنة أو أكثر ، والدهر ، والسنة أيضا . (٥) النوك بالضم والفتح : الحمق . (٦) وذكر المسعودى أن هذا الحديث كان بين حسان بن ثابت الأنصارى ، وبين الحارث بن أبى شمر . (٧) خذلوه .

فَقَدَّمْتُ مالى ، وكنتَ أملى ، فإن تَحْمِلْهَا فرب حق قد قضيته ، وهمٍّ قد كفيته ، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك ، ولم أيأس من غدك . ثم أنشأ يقول :

حملت دماء للبراجم جَمَّةً ... فجئتك لما أسلمتنى البراجم[1]
وقالوا (سَفَاها) لِمْ حملتَ دماءنا ... فقلت لهم يكفى الحَمَالَةَ حاتم[2]
متى آته فيها يقل لىَ مرحبًا ... وَأَهْلاً وسهلاً أخطأتك الأشائم[3]
فيحملها عنى ، وإن شئت زَادنى ... زيادة مَنْ حنّت إليه المكارم
يعيش النّدى ما عاش حاتم طيئٍ ... فإن مات قامت للسخاء مآتم
ينادين مات الجودُ مَعْكَ فلا نرى ... مجيبًا له ما حام فى الجوِّ حائم
وقال رِجالٌ أَنْهَبَ العامُ ماله ... فقلت لهم إنى بذلك عالم[4]
ولكنه يعطى مِنَ أَمْوَالِ طيِّئٍ ... إذَا جَلَّفَ المالَ الحقوقُ اللوازمُ[5]
فَيُعْطِى التى فيها الْغِنَى وَكَأَنَّه ... لتصغيره تلك العطيةَ جارِمُ[6]
بذلك أوصاه عَدِيٌّ وَحَشْرَجٌ ... وَسَعْدٌ وعبد الله تلك القماقم[7]

فقال له حاتم : إن كنتُ لأحب أن يَأْتينى مثلك من قومك ، هذا مِرْبَاعى[8] من الغارة على بنى تميم ، فخذه وافراً ، فإن وَفَى بالحَمَالَة ، وإلَّا أكملتها لك ، وهو مائتا بعير سوى بنيها وَفِصَالها ، مع أنى لَا أُحِبُّ أن تُوبس قومك بأموالهم ، فضحك أبو جُبَيْل وقال : لكم ما أخذتم منا ، ولنا ما أخذنا منكم ، وأىُّ بعير دفعته إلَىَّ ، ليس ذَنَبُه فى يد صاحبه ، فأنت منه برىء ، فدفعها إليه وَزاده مائة بعير ، فأخذها وانصرف راجعاً إلى قومه . فقال حاتم فى ذلك :

---

(١) البراجم من تميم . (٢) السفاه : السفه . والحمالة : الدية يحملها قوم عن قوم .
(٣) الأشائم : ضد الأيامن . (٤) أنهب المال : جعله نهبا يغار عليه . (٥) أى جرفه وانتقصه .
(٦) جرم الرجل (بفتحتين) : أذنب كأجرم . (٧) جمع قمقام : وهو السيد . (٨) المرباع : ربع الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها .

أتانى البُرْجِىُّ أبو جُبَيْلٍ ... لِهَمٍّ فى حَمَالَتِهِ طَوِيلِ
فقلت له خُذِ المِرْبَاعَ رَهْوًا ... فإنى لست أرضَى بالقليلِ[1]
على حال ، ولا عَوَّدْتُ نفسى ... على عِلّاتها عِلَلَ البَخِيلِ
فخذها إنها مائتا بعير ... سوى الناب الرَّذِيَّةِ وَالْفَصِيلِ[2]
فَلَا مَنٌّ عليك بها ، فإنى ... رَأَيْتُ المَنَّ يُزْرِى بِالجَزِيلِ
فآب البرجى وما عليه ... مِنَ أَعْبَاءِ الحَمَالَةِ مِنْ فَتِيلِ
يجُرُّ الذيل ينفض مِذْرَوَيْهِ ... خَفِيفَ الظَّهْرِ مِن حمل ثقيلِ[3]

(ذيل الأمالى ٢٢ ، والأغانى ٧ : ١٤٥)

١٦ – مقال قبيصة بن نعيم لامرىء القيس بن حجر

قدم على امرئ القيس بن حُجْر الكِنْدِى بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بنى أسد وفيهم قَبِيصَة بن نُعَيْم يسألونه العفو عن دم أبيه[4] ، فخرج عليهم فى قَبَاء وَخُفٍّ وعمامة سوداء – وكانت العرب لا تَعْتَمّ بالسواد إلا فى التِّرَات – فلما نظروا إليه قاموا له ، وَبَدَرَ إليه قبيصة فقال :

« إنك فى المحلّ وَالْقَدْر ، والمعرفة بتصرّف الدهر ، وما تُحْدِثه أيامه ، وتتنقّل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرِّب ، ولك من سُودَد مَنْصِبك ، وشرف أعْرَاقك[5] ، وكرم أصْلِك فى العرب ، مَحْتِد[6] يحتمل ما حُمِّلَ عليه

---

(١) يقال : آتيك به رهوا أى آتيك به عفوا سهلا لا احتباس فيه . (٢) الناقة المسنة ، والرذية : مؤنث الرذى ، وهو الضعيف من كل شىء ومن أثقله المرض . (٣) المذروان . أطراف الألية بلا واحد أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيتاه ، ويقال جاء ينفض مذرويه . أى باغيا متهددا .

(٤) وكانت بنو أسد (وهم من المضرية) خاضعة لملوك كندة ، وآخر ملك عليهم هو حجر أبو امرئ القيس ، وقد ثاروا عليه وقتلوه لأنه كان قد عسف فى حكمه لهم ، واشتط عليهم فى الإتاوة التى يؤدونها إليه . (٥) الأعراق : جمع عرق وهو أصل كل شىء . (٦) المحتد : الأصل .

من إقالة العَثْرَة ، ورجوع عن الهَفْوَة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رَجَعَتْ إليك ، فوجدتْ عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهم ، وَكَرم الصفح ، ما يطول رَغَبَاتها ، ويستغرق طَلِباتها ، وقد كان الذى كان من الخطب الجليل ، الذى عمّتْ رزيته نِزَاراً واليمن ، ولم تُخَصَّصْ بذلك كِنْدَة دوننا ، للشرف البارع كان لِحُجْر ، التاجُ والعِمّة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشِّيَم ، ولو كان يُفْدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله ، ولكنه مَضَى به سبيلٌ لا يرجع أُخراه على أولاه ، ولا يَلْحَق أقصاه أدناه .

فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث : إمّا أنِ اخترتَ من بنى أسد أشرفَهَا بيتًا ، وأعلاها فى بناء المكرُمات صوتا ، فقُدْناه إليك بِنِسْعَةٍ[1] ، تذهب مع شَفَرَات حُسَامك بِبَاقِى قَصَرَتِه[2] ، فنقول : رجل امْتُحِنَ بهالكٍ عزيز ، فلم يَسْتَلّ سَخِيمَتَه[3] إلا تمكينُه من الانتقام . أو فداء بما يروح[4] على بنى أسد من نَعَمِها ، فهى ألوف تجاوز الحِسْبَة ، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُبُ[5] إلى أجفانها ، لم يرددها تسليط الإحن[6] على البرآء . وإما أن وَادَعْتَنا إلى أن تضع الحوامل ، فتُسْدَل الأُزُر ، وتُعقد الخُمُرُ فوق الرايات » .

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

---

(١) النسع : سير عريض تشد به الرحال ، والقطعة منه نسعة . (٢) القصرة : أصل العنق .
(٣) السخيمة : الحقد . (٤) يرجع ، وأراح الإبل : ردها إلى المراح بالضم أى المأوى ، والنعم الإبل والشاء ، أو خاص بالإبل ، وهو المراد هنا . (٥) السيوف . (٦) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد .

١٧ — رد امرئ القيس عليه

« لقد علمت العرب أنه لا كُفْءَ لِحُجْر فى دمٍ ، وأنى لن أعتاضَ به جَمَلاً ولا ناقة ، فأكتسب به سُبَّة الأبد ، وفَتَّ العَضُدِ[1] ، وأما النَّظِرَة[2] فقد أوجبتها الأجِنَّةُ فى بُطُون أُمَّهاتها ، ولن أكون لعَطَبها سبباً ، وستعرفون طلائع كِنْدة من بعد ذلك ، تحمل فى القلوب حنقاً ، وفوق الأسنة عَلَقاً[3] » :

إذا جالت الحرب فى مأزِقٍ　　تُصافِحُ فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ »

قالوا : « بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذيَّة ، وحرب وبَليَّة » ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لعلك أنْ تَسْتَوخِمَ الْوِرْدَ إنْ غَدَتْ　　كَتَائِبُنا فى مأزِق الحرب تُمْطِرِ[4]

فقال امرؤ القيس : « لا والله ، ولكن أستعذِبُهُ ، فرُوَيْدا ، ينفرجْ لك دُجاهَا عن فُرسان كِنْدةَ وكتائب حِمْير ، ولقد كان ذكرُ غيرِ هذا بى أولى ، إذ كنت نازلا برَبْعِى[5] ، ولكنك قلتَ فأوجبت » فقال قبيصة : « ما يُتَوَقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب[6] » فقال امرؤ القيس : « هو ذاك » .

(صبح الأعشى ٢ : ٢١٦ والأغانى ٨ : ٧٢ والمثل السائر ١٠١)

---

(١) فته : كسره ، وهو كناية عن الضعف والوهن .　(٢) الإمهال .　(٣) أى دما .
(٤) تستوخمه : أى تجده وخيما .　(٥) الربع : المنزل .　(٦) أعتبه : أرضاه .

١٨ — خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني

قالَ هانِئُ بن قَبيصة الشَّيْبانِي يحرِّضُ قَوْمَهُ يومَ ذِي قارٍ (١) :

« يا مَعْشَرَ بَكْرٍ ، هالِكٌ مَعْذُورٌ ، خَيْرٌ مِنْ ناجٍ فَرُورٍ ، إنَّ الحَذَرَ لا يُنْجِي مِنَ القَدَرِ ، وَإنَّ الصَّبْرَ مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ ، المَنِيَّةُ وَلا الدَّنِيَّةُ ، اسْتِقبالُ المَوْتِ خيرٌ مِنِ اسْتِدْبارِهِ ، الطَّعْنُ فى ثُغَرِ (٢) النُّحُور ، أَكْرَمُ مِنهُ فى الأَعْجَازِ وَالظُّهُور ، يا آلَ بَكْرٍ ، قاتِلوا فما لِلْمنايا مِنْ بُدٍّ » . (الأمالى ١ : ٩٢)

١٩ — خطبة عمرو بن كلثوم

« أما بعد : فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدقُ من تركه تزكيةَ نفسه ، ولا يعبر عنه فى تزكية أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته ، وائتمانه إياهم على حُرْمَتِهِ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩)

٢٠ — أكثم بن صيفى يعزى عمرو بن هند عن أخيه

وعزَّى أكثم بن صيفى عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقَال له :

« إنَّ أهل هذه الدار سَفْرٌ لا يَحُلونَ عَقْدَ الرِّحَال إلّا فى غيرهَا ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سَيَظْعَنُ عنك ويَدَعُك ، واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام ، فأمسِ عظةٌ وشاهد عدل ، فَجَعَكَ بنفسه ،

---

(١) كان من أعظم أيام العرب وأبلغها فى توهين أمر الأعاجم ، وهو يوم لبنى شيبان ، وكان أبرويز أغزاهم جيشا ، فظفر بنو شيبان ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم .

(٢) جمع ثغرة بالضم : وهى نقرة النحر بين الترقوتين (والثغرة بالفتح : كل عورة منفتحة) .

وأبق لك وعليك حكمته ؛ واليوم غنيمة ، وصديق أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ؛ وغد لاتدرى من أهله ، وسيأتيك إن وجدك ، فما أحسن الشكر للمنعم ، والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها ، واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله » .

(العقد الفريد ٢ : ٣٥ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٤)

٢١ — خطبة قس بن ساعدة الإيادى

خطب قُسّ بن ساعدة الإيادى بسوق عُكاظ ، فقال :

« أيها الناس : اسمعوا وَعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلّ ما هو آتٍ آت ، ليل دَاجٍ(١) ، وَنهار سَاجٍ ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تَزْهَر(٢) ، وبحار تَزْخَر(٣) ، وجبال مُرْسَاة ، وأرض مُدْحاة(٤) ، وأنهار مُجْرَاة . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرَضُوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ يقسم قُسّ بالله قسما لا إثم فيه : إن لله دينًا هو أرضى له ، وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً . ويروى أن قسا أنشأ بعد ذلك يقول :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

---

(١) مظلم . (٢) تضيء وتتلألأ . (٣) تمتلىء وترتفع . (٤) مدحوة : أى مبسوطة ، وإنما قال مدحاة لمراعاة السجع .

ورأيت قومى نحوها تمضى الأَكابِرُ والأَصاغر
لا يرجـع الماضى إلَىّ وَلا من الباقين غابر[1]
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

(صبح الأعشى ١ : ٢١٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ، البيان والتبيين ١ : ١٦٨ ، الأغانى ١٤ : ٤٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، ومجمع الأمثال الميدانى ١ : ٧٤)

٢٢ — قس بن ساعدة عند قيصر

وكان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يومًا : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوفُ المرء عند علمه ، قال : فما أفضل المُروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قُضِى به الحقوق . (الأمالى ٢ : ٩٣)

٢٣ — خطبة المأمون الحارثى

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه ، فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم أفكر طويلا ، ثم قال : « أرعونى أسماعكم ، وَأَصغُوا إلىَّ قلوبكم ، يَبْلُغُ الوعظ منكم حيث أريد ، طَمَحَ[2] بالأهواء الأَشَرُ ، وَرَانَ[3] على القلوب الكدر ، وطخطخ[4] الجَهْلُ النظر ، إن فيما ترى لَمُعْتَبَرًا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وَشمس تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ ونجوم تسرى فَتَعزُب ، وقمر تُطْلِعهُ النحور ، وَتَمْحَقهُ أدبار الشهور ، وعاجز مُثْرٍ ، وَحُوَّلٌ مُكْدٍ[5] ، وَشَاب مُخْتَضَر ، وَيَفَنٌ[6] قد غَبَر ، وَراحلون لا يئوبون ، وموقوفون

---

(١) مقيم . (٢) ارتفع وعلا وذهب . (٣) غلب . (٤) أظلم . (٥) رجل حول : شديد الاحتيال ، وأكدى : لم ينجح ، وأصله من أكدى إذا حفر فصادف الكدية (بضم الكاف) وهى الصفاة العظيمة الشديدة . (٦) الذى يموت حدثا ، وهو مأخوذ من الخضرة كأنه حصد أخضر ، واليفن : الشيخ الكبير .

لا يُفَرِّطُون(١) ، وَمَطَرٌ يرسَل بِقَدَر ، فيحيي البَشَر ، وَيُورِقُ الشجر ، وَيُطْلِعُ الثمر ، وينبت الزَّهَر ، وماء يَتَفَجَّر ، من الصخر الأَيَّر(٢) ، فيصدع المَدَر ، عن أفنان الخضَر ، فَيُحْيِي الأنام ، وَيُشْبِع السَّوَّامَ ، ويُنْمِي الأنعام ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدِّر ، البَارِئِ المصوِّر . يأيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة(٣) ، أَنَّى تُؤْفَكُونَ ، وعن أى سبيل تَعْمَهُونَ ، وفى أى حَيرة تهيمون ، وإلى أى غاية تُوفِضُونَ(٤) ، لو كُشِفَتِ الأغطية عن القلوب ، وتجلَّت الغِشَاوَة عن العيون ، لصَرَّح الشك عن اليقين ، وأفاق مِنْ نَشْوَة الجهالة مَنِ استولت عليه الضلالة » .

(الأمالى ١ : ٢٧٦)

٢٤ - بين مهلهل بن ربيعة ومرة بن ذهل بن شيبان

لما قتل جَسَّاس(٥) بن مُرَّة بن ذُهْل الشَّيْبانى كُلَيْب(٦) بن ربيعة التغلبىّ ، تشمرّ أخوه مُهَلْهِل(٧) ، واستعد لحرب بكر ، وجمع إليه قومه ، فأرسل رجالا منهم

(١) يقلمون . (٢) الصلب . (٣) النائرة النافرة ، نارت نورا بفتح النون ، ونوارا بفتحها وكسرها : نفرت . (٤) تسرعون .

(٥) وسبب ذلك أن البسوس بنت منقذ التيمية خالة جساس كان لها جار من جرم يقال له سعد بن شميس ، وكانت له ناقة يقال لها سراب ، وكان كليب قد حمى أرضا من أرض العالية ، فى أنف الربيع ، فلم يكن يرعاه أحد إلا إبل جساس لمصاهرة بينهما — وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب — فخرجت سراب فى إبل جساس ترعى فى حمى كليب ، ونظر إليها كليب فأنكرها فرماها بسهم فأصاب ضرعها ، فولت حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب دما ولبنا ، فلما نظر إليها صرخ بالذل ، فخرجت البسوس فضربت يدها على رأسها ، ونادت واذلاه وسمعها جساس فسكنها ، وقال لها : ليقتلن غدا فحل أعظم من ناقة جارك ، ولم يزل يتوقع غرة كليب حتى أمكنته منه الفرصة فقتله ، ونشبت من أجل ذلك الحرب (حرب البسوس) بين بكر وتغلب ابنى وائل أربعين سنة « وبنو شيبان بطن من بكر » .

(٦) اسمه وائل بن ربيعة بن حارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل ، وإنما لقب كليبا لأنه كان إذا سار أخذ معه جرو كلب ، فإذا مر بروضة أو موضع يعجبه ، ضربه ثم ألقاه فى ذلك المكان وهو يصيح ويعوى ، فلا يسمع عواءه أحد إلا تجنبه ولم يقربه ، وكان يقال كليب وائل ثم اختصروا فقالوا كليب فغلب عليه . (٧) اسمه عدى بن ربيعة ، وإنما قيل له المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر : أى أرقه .

إلى بنى شيبان ، فأتَوْا مرة بن ذُهل بن شيبان « أبا جساس » وهو فى نادي قومه ، فقالوا له :

« إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناب(١) من الإبل ، فقطعتم الرَّحِم ، وانتهكتم الحُرْمة ، وإنا كَرِهْنا العَجَلَة عليكم دون الإعذار إليكم ، ونحن نَعرض عليكم خِلالا أربعا ، لكم فيها مخرَج ، ولنا فيها مَقْنَع ، فقال مرة : وما هى ؟ قالوا : تُحْيِي لنا كليباً ، أو تدفع إلينا جساساً قاتِلَهُ فنقْتُلُهُ به ، أو هَمَّامًا(٢) فإنه كُفءٌ له ، أو تمكِّننا من نفسك ، فإن فيك وفاء من دمه ، فقال : « أمَّا إحيائى كليباً ، فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام طعن طَعْنَةً على عجَل ، ثم ركب فرسه ، فلا أدرى أىُّ البلاد احتوى عليه ، وأما همام فإنه أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، كلهم فُرْسان قومهم ، فلن يسلموه لى ، فأدفعه إليكم يُقْتَلُ بِجَرِيرَةِ(٣) غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جَوْلَةً غداً ، فأكونَ أول قتيل بينها ؟ فما أتعجل الموت ، ولكن لكم عندى خَصْلتان : أما إحداهما فهؤلاء بَنِيَّ الباقون ، فعلِّقُوا فى عنق أيِّهم شئتم نِسْعَةً ، فانطلقوا به إلى رحالكم ، فاذبحوه ذَبْحَ الجَزُور ، وإلا فألفُ ناقة سود الحدَق ، حُمْرُ الوَبَرِ ، أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل ، فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ، تَبْذُلُ لنا ولدك ، وتسومُنا اللَّبَنَ من دم كليب ؟ » ونَشِبَتِ الحرب بينهم .

(العقد الفريد ٣ : ٧٨ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٩٠ ، والأغانى ٤ : ١٤١)

٢٥ — منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين

لمَّا أَسَنَّ أبُو بَرَاء : عامر بن مالك بن جعفر بن مُلاعب الأَسِنَّة ، تنازع فى الرِّياسة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، وعَلْقَمَةُ بن عُلاثَةَ بن عوف بن الأَحْوَص ابن جعفر .

---

(١) الناقة المسنة . (٢) هو همام بن مرة أخو جساس ، وكان نديما لمهلهل .
(٣) الجريرة : الجريمة .

فقال علقمة : كانت لجدّى الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا استرجعتها ، فأنا أولى بها منك ، فَشَرِىَ(١) الشرُّ بينهما ، وسارا إلى المنافرة . فقال علقمة : إن شئت نافرتك ، فقال عامر قد شئت . والله إنّى لأكرم منك حَسَبًا(٢) ، وأثبت منك نَسَبًا ، وأطول منك قَصَبًا(٣) .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلاً ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أحبُّ إلى نِسَائِكَ أنْ أُصْبِحَ فِيهِنَّ منك ، أنا أنْحَرُ منك لِلِّقَاحِ(٤) ، وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى السنة الشِّياح(٥) .

فقال علقمة : أنا خير منك أثراً ، وأحَدُّ منك بصراً ، وأعَزُّ منك نفَرًا ، وأشْرَفُ منك ذِكْرًا . فقال عامر : ليس لبنى الأحوص فضل عَلَى بنى مالك فى العدد ، وبَصَرِى ناقِصٌ ، و بَصَرُكَ صَحيحٌ ، ولكنى أنافرك ، إنِّى أَسْمَى منك سُمَّة(٦) ، وأطْوَلُ منك قِمَّة ، وأحْسَنُ منك لِمَّة(٧) ، وأجْعَدُ منك جُمَّة(٨) ، وأسرعُ منك رَحْمَةً ، وأبعَدُ منك هِمَّة . فقالَ علقمة : أنْتَ رَجلٌ جَسِيمٌ ، وأنَا رَجُلٌ قَضِيفٌ(٩) ، وأَنْتَ جَميلٌ ، وأنا قَبِيحٌ ، ولكنى أُنافرك بِآبائى وَأَعْمَامِى . فقالَ عامر . آباؤُكَ أَعْمَامِى ، ولم أكن لِأُنافرك بهم لكنى أنافرك ، أنا خيرٌ منك عَقِبًا ، وأطعم منك جَدْبا . فقال علقمة : قد علمت أن لك عَقِبًا ، وَقد أطعمت طَيِّبًا ، ولكنى أُنافرك ، إنِّى خيرٌ منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أمُّ عامر — وكانت تسمع كلامهما — فقالت : يا عامر نافره ، أيكما أولى بالخيرات . قالَ عامر : إنِّى والله لَأَرْكَبُ منك فى الحُمَاة ، وأقتل منك لِلكُمَاة(١٠) ،

---

(١) استطار . (٢) الحسب : ما تعده من مفاخر آبائك ، أو الشرف الثابت فى الآباء ، أو الكرم ، أو الشرف فى الفعل أو الفعال الصالح . (٣) القصب : عظام اليدين والرجلين ونحوهما ، كناية عن طول قامته . (٤) الابل : واحدتها لقوح . (٥) الشياح : القحط . (٦) السمة : القرابة ، ويروى أنا أنشر منك أمة ، أى أكثر قوما . (٧) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

(٨) مجتمع شعر الرأس . (٩) نحيف من القضف ، وهو النحافة . (١٠) جمع كمى ، وهو الشجاع .

وَخَيْرٌ منك لِلْمَوْلَى وَالمَوْلاَةِ : فقالَ لهُ علقمة : وَاللهِ إِنِّى لَبَرٌ ، وَإِنك لفاجر ، وإنى لولود ، وإنك لعاقر(١) ، وَإِنِّى لَعَفٌّ ، وَإِنك لعاهِرٌ ، وَإِنى لَوَفِىٌّ ، وَإِنك لغادِر ، فَفِيمَ تُفاخِرُنى يَا عامر؟ فقَالَ عامر: وَاللهِ إِنِّى لَأَنْزَلُ منك لِلْقَفْرَةِ(٢) ، وَأَنْحَرُ منك لِلْبَكْرَةِ(٣) وَأَطعم منك لِلْهَبْرَةِ(٤) ، وَأَطْعَنُ منك لِلثُّغْرَةِ . فقالَ علقمة : وَاللهِ إنك لـكليل البصر، نَكِدُ النَّظَرِ ، وَثَّابٌ عَلَى جَاراتك بِالسَّحَرِ .

فقالَ بنو خالد بن جعفر — وكانوا يداً مع بنى الأحوص عَلَى بنى مالك بن جعفر — لَنْ تُطِيق عَامِرًا ، ولـكن قل لهُ أُنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيراتِ . فقالَ لهُ علقمة هذا القول ، فقالَ عامر : عَيْرٌ(٥) وَتَيسٌ ، وَتَيسٌ وَعَنْز . فَذَهَبَتْ مثلاً . نعم ، عَلَى مِائة مِنَ الإِبِل إلى مائة من الإبل يعْطاها الحَـكَمَ ، أَيُّنَا نفَرَ عليهِ صاحبهُ أخرجها ، ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رَهْنًا مِنْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى يدى رَجُل يُقالُ لهُ خُزَيْمة بن عمرو بن الوحيد ، فسمى « الضَّمِين » .

وخرج علقمة ومَنْ معهُ من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معهُ من بنى مالك ، وجعلا منافرتهما إلى أَبى سفيان بن حرب بن أُميَّة ، فلم يقل بينهما شيئا ، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما ، وقال: أنتما كركبتى البعير الأَدْرَم(٦) ، قالاَ : فَأَيُّنَا اليمين ؟ قالَ كِلاَ كما يمين ، وأبى أن يقضى بينهما . فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام فأبى أن يحـكم بينهما — وقد كانت العرب تحاكم إلى قُرَيش — فأتيا عُيينة بن حِصْن بن حُذَيْفَةَ ،

---

(١) رجل عاقر: لم يولد له ولد . (٢) القفرة: القفر . الخلاء من الأرض . (٣) البكرة : الفتية من الإبل . (٤) الهبرة : قطعة مجتمعة من اللحم . هبره قطعه قطعا كبارا ، وهبر له من اللحم هبرة قطع قطعة . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشى ، وهو أقوى من التيس ، أى مثلى وإياك كالعير والتيس ، أو على الأقل كالتيس والعنز ، إذ التيس أقوى على النطاح من العنز ، وفى المثل : « كان عنزا فاستتيس » أى صار تيسا . يضرب الذليل الضعيف يصير عزيزا قويا .

(٦) درم العظم : واراه اللحم حتى لم يبن له حجم ، وامرأة درماء لاتستبين كعوبها ومرافقها ، وكل ماغطاه الشحم واللحم وخفى حجمه فقد درم .

فأبى أن يقول بينهما شيئاً ، فأتيا غَيْلاَنَ بن سَلَمَةَ الثقفى ، فَرَدَّهُمَا إلى حَرْمَلَةَ ابن الأشعر المُرِّى ، فَرَدّهما إلى هَرِم بن قُطْبة بن سنان الْفَزَارى ، فانْطَلَقَا حتى نزلاَ به ، وقد ساقا الإبل معهما حَتّى أشتَتْ وأرْبَعَتْ ، لاَ يأتيان أحداً إلاّ هَابَ أن يقضى بينهما ، فقالَ هرم : لعمرى لأحكمَنّ بينكما ثمَّ لاَأُفْصِلَنَّ ، فأعطيانى موثقاً أطمئِنّ إليْهِ أن ترضيا بمَا أقول ، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما ، وأمرهما بالانْصراف ، ووعدهما ذلك اليوم من قابِل ، فانصرفا ، حَتَّى إذا بلغ الأجل خرجا إليهِ ، وأقام القوم عنده أياما .

فأرسل هرم إلى عامر فأتاهُ سرًّا لاَ يعلم بهِ علقمة ، فقال يا عامر : قد كنت أرَى لك رَأْيًا ، وأن فيك خيراً . وما حَبَسْتُكَ هذه الأيام إلاّ لتنصرف عن صاحِبك ، أتنافر رَجلا لا تفخر أنت وقومك إلّا بآبائهِ ! فما الذى أنت بهِ خيرٌ منه ؟ فقالَ عامر : نَشَدْتك الله والرَّحِمَ أن لاَ تفضل عَلَيَّ علقمة ، فو الله لئن فعلت لاَ أُفْلِحُ بعدها أبداً . هذه ناصيتى فاجْزُزها واحتَكِمْ فى مالى ، فإن كنتَ لابد فاعلا ، فسوّ بينى وبينه ، قال : انصرف فسوف أرى رأيِى . فخرج عامر وهو لايشك أنه ينفّره[1] عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سراً لايعلم به عامر ، فأتاه ، وقال له مثل ما قال لعامر ، فرد عليه علقمة بما ردّ به عامر ، وانصرف وهو لايشك أنه سيفضّل عليه عامراً . ثم إن هرما أرسل إلى بنيه وبنى أبيه : إنى قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر ، فلينحَرْها عن علقمة ، ويطرد بعضكم عشر جزائر ، ينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة ، وأصبح هرم لجلس مجلسه ، وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام هرم فقال : يابنى جعفر ، قد تحا كتما عندى ، وأنتما كركبتى

---

(١) أنفره عليه ونفره عليه : قضى له عليه بالغلبة .

البعير الأدرم : تقعان إلى الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلا كما سيد كريم ، وعَمَد بنو هرم و بنو أخيه إلى تلك الجُزُر ، فنَحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحدا منهما عَلَى صاحبه ، وكره أن يفعل ، وهما ابنا عم فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

(الأغانى ١٥ : ٥١ ، وصبح الأعشى ١ : ٣٨٢ ، وسرح العيون ١٠٦ ، والعمدة ١ : ٢٨)

أشراف العرب بين يدى كسرى

قال كِسرى[1] للنعمان بن المنذر يوماً : هل فى العرب قبيلة تَشْرُف على قبيلة ؟ قال نعم ، قال فبأىّ شىء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع ، فالبيت مَنْ قبيلته فيه ، ويُنْسَب إليه ، قال فاطلب ذلك ، فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حُذيفة بن بدر ، وآل حاجب بن زُرَارة ، وآل ذى الجَدَّين ، وآل الأشعث ابن قيس بن كِنْدة ، فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم ، وأقعد لهم الحكام العدول ، وقال : ليتكلم كلّ منكم بمآثر قومه وليَصْدُق ، فكان حذيفة بن بدر الفَزارى أوّل متكلم ، وكان ألسنَ القوم ، فقال :

٢٦ — مقالة حذيفة بن بدر الفزارى

« قد علمت العرب أن فينا الشرفَ الأقدم ، وَالأعَزّ الأعظم ، ومأثَرة[2] للصنيع الأكرم ، فقال مَنْ حوله : وَلِمَ ذاك يا أخا فَزارة ؟ فقال : ألسنا الدعائم التى لا تُرام ، والعِزّ الذى لا يُضَام ، قيل صدقت ، ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارَةُ بيت العِزِّ ، وَالعِزُّ فيهمُ فَزَارَةُ قَيْس ، حَسْبُ قَيْسٍ نِضَالُهَا
لهَا العِزَّةُ القَعْسَاء وَالحَسَبُ الذى بناه لِقَيْس فى القديم رجالُها

(١) هو كسرى أنو شروان ، حكم من سنة ٥٣١ إلى ٥٧٨ ميلادية.

(٢) المأثر بالفتح والضم : المكرمة المتوارثة .

فهيهات قد أعيا القُرُونَ التى مضت   مَـآثِرُ قيسٍ مَجْدُها وَفَعالُها
وهل أحَدٌ إنْ هَزَّ يومًا بِكَفِّهِ   إلى الشمس فى مَجْرَى النجوم ينالها
فإن يَصْلُحُوا يَصْلُحْ لِذَاكَ جميعها   وَإنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدْ من الناس حَالهَا

٢٧ — مقال الأشعث الكندى

ثم قام الأشعث الـكِندِىّ — وإنما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقرابته من النعمان بن المنذر — فقال: قد علمت العرب أنا نقاتل عديدَها الأكثر، وَزَحْفَهَا الأكبر، وَإنَّا لَغيَاثُ الـكُرُبَات، وَمَعْدِنُ المَـكْرُمَات، قالُوا: وَلِمَ يا أخا كِنْدَةَ؟ قال: لأنا ورثنا ملك كندة، فاستظللنا بأفْيَائِهِ[1] وَتَقَلَّدْنَا مَنْـكِبَهُ الأعْظم، وَتَوَسَّطْنَا بُحْبُوحَه الأكرم، ثم قام شاعرهم فقال:

إذا قستَ أبيات الرجال ببيتنا   وَجَدْتَ لنا فضلا عَلَى من يفاخر
فَمَنْ قالَ كَلَّا أو أتانا بِخُطَّةٍ   يُنَافِرُنَا فيها فنحن نخاطر
تعالَوا قفوا كى يعلم الناس أيُّنَا   له الفضل فيما أورثته الأكابر

٢٨ — مقال بسطام الشيبانى

ثم قام بِسْطَامُ الشَّيْبَانِىّ، فقال: قد علمت العرب أنا بُنَاةُ بيتها الذى لا يزول، وَمَغْرِسُ عزها الذى لا يَحُول، قالوا وَلِمَ يا أخا شَيْبَان؟ قال: لأنا أدْرَكُهُمْ للثار، وأضْرَبُهُمْ لِلْمَلِكِ الجبَّار، وأقومهم للحكم، وألَدُّهُمْ لِلْخَصْمِ، ثم قام شاعرهم، فقال:

---

(١) جمع فىء: وهو ما كان شمسا فينسخه الظل.

لَعَمْرِىَ بِسْطَام أَحَقُّ بفضلها وأول بيت العزّ عِزّ القبائلِ

فسائل - أبيت اللعن - عن عز قومها إذَا جد يومَ الفخر كُلُّ مُنَاقِلِ[١]

ألسنا أَعَزَّ الناس قَوْمًا ونُصرة وَأَضربَهُم للكبش بين القبائلِ[٢]

وَقَائِعُ غُرٌّ كُلُّهَا رَبْعِيَّة تَذِل لها عِزًا رِقابُ المَحَافِلِ

إذَا ذُكِرَتْ لَمْ ينكر الناس فضلها وَعَاذَ بها من شرها كُلُّ وَائِلِ[٣]

وإنا مُلُوكُ الناس فى كل بلدة إذا نزلت بالناس إحدى الزلازلِ

٢٩ - مقال حاجب بن زرارة

ثم قام حاجب بن زُرَارَةَ التميمى ، فقال : قد علمت مَعَدٌّ أنا فرع[٤] دِعَامَتِهَا ، وَقَادَةُ زَحْفِهَا ، قالوا : ولم ذاك يا أخا بنى تميم ؟ قال : لِأَنَّا أَكْثَرُ الناس عَدِيدا ، وَأَنجبهم طُرًّا وَلِيدا ، وَأَنَّا أعطاهم للجزيل ، وَأَحْمَلُهُمْ للثقيل ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

لقد علمت أبناء خِنْدِفَ أننا لنا العِزُّ قِدْمًا فى الخطوب الاوائل[٥]

وأنا كِرَامٌ أَهْلُ مجد وَثَرْوَةٍ وَعِزٌّ قديم ليس بالمتضائل

فكم فِيهمُ من سيد وابنِ سَيِّدٍ أَغَرَّ نَجِيبٍ ذِى فَعَال وَنَائِلِ[٦]

فسائل (أَبَيْتَ اللعن) عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل[٧]

---

(١) أبيت اللعن : تحية فى الجاهلية، أى أبيت أن تأتى أمرا تلعن عليه . والمناقلة فى المنطق : أن تحدث آخر ويحدثك . (٢) الكبش : سيد القوم وقائدهم . (٣) لاجئ ، من وأل إليه يئل وألا .

(٤) فرع كل شىء : أعلاه . (٥) خندف : هى أم مدركة، وطابخة وقمعة أبناء الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . (٦) الفعال : اسم الفعل الحسن ، والكرم . (٧) أى الأمور الجلائل جمع جليلة .

٣٠ — مقال قيس بن عاصم السعدى

ثم قام قيس بن عاصم السَّعْدِىّ ، فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات دَعَائِمَ ، وأثبتهم فى النائبات مَقَادِمَ ، قالوا : ولم ذاك يا أخا بنى سعد ؟ قال : لأنا أدْرَكُهُمْ للثار ، وَأَمْنَعُهُمْ للجار ، وأنا لا نَنْكُلُ(١) إذا حَمَلْنَا ، ولا نُرَام إذا حَلَلْنَا ، ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قَيْسٌ وَخِنْدِفُ أنَّنَا ... وَجُلُّ تميم والجميعُ الذى ترى(٢)
بِأنَّا عِمَادٌ فى الأُمور وأننا ... لنا الشرف الضخم المُرَكَّبُ فى النَّدَى
وَأنَّا لُيُوثُ النَّاس فى كل مَأْزِق ... إذا جُزَّ بالبيض الجماجمُ والطُّلَا(٣)
فمن ذا ليوم الفخر يَعْدِل عاصماً ... وقيسًا إذا مَرَّتْ أُلوف إلى العلا
فهيهات قد أعيا الجميع فَعَالُهُمْ ... وقاموا بيوم الفخر مَسْعَاةَ مَنْ سعى

فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حِباءهم ، وأعظم صِلَاتِهِمْ ، وَكَرَّمَ مَآبَهُمْ .

(صبح الأعشى ١ : ٣٧٧ والأغانى ١٧ : ١٠٥)

---

(١) لا ننكص ولا نجبن . (٢) قيس بن عيلان بن مضر . (٣) الطلا : جمع طلية ، وهى العنق .

وفود العرب على كسرى

قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الرّوم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ؛ فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، فقال كسرى ـ وأخذته عزّة الملك ـ يا نعمان ، لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت فى حالة من يَقْدَم علىّ من وفود الأمم ، فوجدت للروم حظا فى اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ، ويردّ سفيهها ، ويقيم جاهلها ، ورأيت الهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ، وكذلك الصين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها ، وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها ، والترك والخزَر على مابهم من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الرِّيف[1] والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضمّ قواصيهم ، وتدبر أمرهم ، ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوّة ، ومع أن مما يدلّ على مهانتها وذلها ، وصغر همتها مَحِلَّتهم[2] التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفِر به ناعمهم لحوم الابل ، التى يَعافها كثير من السباع ، لثِقَلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن قَرَى أحدهم ضيفاً عدّها مكرمة ،

---

(١) الريف : أرض فيها زرع وخصب ، والسعة فى المأكل والمشرب . (٢) حل المكان وبه يحل بالكسر والضم .

وإن اطعِم أكلة عدّها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ماخلا هذه التنُوخيَّة التى أسس جدّى اجتماعها ، وشدّ مملكتها ، ومنعها من عدوّها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن لها مع ذلك آثاراً ولَبوساً[1] ، وقرى وحصونا ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس — يعنى اليمن — ثمّ لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذِّلة والقِلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس ، قال النعمان : أصلح الله الملك . حُقّ[2] لأمةٍ الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خَطْبها ، وتعلو درجتها ، إلا أن عندى جوابًا فى كلّ ما نطق به الملك ، فى غير ردّ عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمّننى من غضبه نطقت به ، قال كسرى : قل فأنت آمن .

٣١ — خطبة النعمان بن المنذر

قال النعمان : أما أُمّتك أيها الملك ، فليست تُنَازَعُ فى الفضل ، لموضعها الذى هى به : من عقولها وأحلامها ، وَبَسْطَةِ محلها ، وَبُحْبُوحَةِ عزّها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الامم التى ذكرت ، فأى أمة تقرِنُهَا بالعرب إلا فَضَلَتْهَا . قال كسرى بماذا ؟ قال النعمان : بِعِزِّهَا ، وَمَنَعَتِهَا ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها ، وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها .

فأما عزُّهَا ومنعتها ، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطَّدُوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يَطْمَعْ فيهم طامع ، ولم يَنَلْهُمْ نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، وَمِهَادهم الأُرض ، وسقوفهم السماء ، وجُنَّتُهُمُ السيوف ، وَعُدَّتُهُمُ الصبر ، إذ غيرها من الأُمم إنما عزها من الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يُعْرَفُ فضلهم فى ذلك عَلَى غيرهم : من الهند المنحرفة ، والصين المُنْحَفَةِ ، والترك المشوّهة ، والرّوم المُقَشَّرَةِ .

---

(١) الدروع . (٢) حق لك أن تفعل كذا وحققت أن تفعله بمعنى .

وَأما أنسابها وَأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وَأصولها وَكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم ليُسْأل عمن وَراء أبيه دُنْيَا[1] ، فَلاَ ينسُبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا ، حاطوا بذلك أحْسَابَهُمْ ، وَحَفِظُوا بِهِ أَنْسَابَهُمْ ، فلاَ يَدْخُلُ رَجُلٌ فى غيْرِ قَوْمِهِ ، وَلاَ يَنْتَسِبُ إلى غَيْرِ نَسَبِهِ ، وَلاَ يُدْعَى إلَى غيْرِ أبيـهِ .

وأما سخاؤها ، فإن أدناهم رجلا ، الذى تـكون عنده الْبَـكْرَةُ وَالنَّاب[2] ، عليها بَلاَغُهُ[3] فى حُمُولِهِ[4] وَشِبَعِهِ وَرِيِّهِ ، فيطرقه الطارق ، الذى يكتفى بالفِلْذة[5] ، ويجتزى بالشَّربة ، فَيَعْقِرُهَا له ، وَيَرْضَى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم ، فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم الأشياء ، وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعفّ النساء ، وَلِبَاسُهُمْ أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جِبَالِهِم الجَزْع[6] ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سَفَر ، ولا يقطع بمثلها بلد قَفْر .

وأما دينها وشريعتها ، فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرمًا ، وبلدًا مُحَرَّمًا ، وبيتًا محجوجًا ، يَنْسُكُونَ فيه مَنَاسِكَهُمْ ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فَيَلْقَى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثاره ، وإدراك رَغْمِهِ[7] منه ، فيحجُزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

---

(١) هو ابن عمى دنيا بضم الدال وكسرها مع التنوين ، وبكسرها بلا تنوين : أى لحًّا .

(٢) الناقة المسنة . (٣) البلاغ : الكفاية . (٤) الحمول والأحمال جمع حمل .

(٥) القطعة من الشىء . (٦) الجزع ويكسر : الخرز اليمانى الصينى فيه سواد وبياض ، تشبه به العيون . (٧) الذل .

وأما وفاؤها ، فإن أحدهم يَلْحَظُ اللحظة ، وَيُومِئُ الإيماءة ، فهى وَلْثٌ[1] وعقدة ، لا يَحُلُّهَا إلا خروج نَفْسِهِ ، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بِدَيْنِهِ ، فَلاَ يَغْلَقُ[2] رَهْنُهُ ، ولا تُخْفَرُ[3] ذمته ، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره ، فيصاب ، فلا يرضى حتى يُفْنِيَ تلك القبيلة التى أصابته ، أو تَفْنَى قبيلته ، لما أُخْفِرَ من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِثُ ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك يَئِدُون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أَنَفَةً من العار ، وَغَيْرَةً من الأزواج .

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل — عَلَى ما وصفت منها — فما تركوا ما دونها إلا احتقارًا لها ، فَعَمَدُوا إلى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما ، وأطيبها لحومًا ، وَأَرَقُّهَا ألبانًا ، وأقلها غائلة[4] ، وأحلاها مَضْغَةً ، وإنه لا شيء من اللُّحْمَان يُعَالَجُ مَا يُعَالَجُ به لحمها إلا استبان فَضْلُهَا عليه .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضًا ، وتركهم الانقيادَ لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أَنِسَتْ من نفسها ضَعْفًا ، وتخوفت نُهُوضَ عدوّها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يُعْرَفُ فَضْلُهُمْ عَلَى سائر غيرهم ، فَيُلْقُونَ إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج وَالْوَطْثِ[5] بِالعَسْفِ .

---

(١) عهد . (٢) غلق الرهن : استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتك فى الوقت المشروط .

(٣) خفر به وأخفره : نقض عهده وغدره . (٤) شرا . (٥) الوطث : الضرب الشديد بالرجل على الأرض .

وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جَدَّ الملك إليها الذى[1] أتاه ، عند غلبة الحبش له ، عَلَى ملك متَّسِقٍ ، وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً ، ولولا ما وُتِرَ به منْ يليه من العرب ، لمال إلى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ، ويَغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار » .

فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ، ثم كساه من كِسْوَتِهِ ، وَسرَّحَهُ إلى موضعه من الحيرة .

فلما قدم النعمان الِحيْرة ، وَفى نفسه مافيها مما سمع من كسرى ، من تنقص العرب ، وتهجين[2] أمرهم ، بعث إلى أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ ، وَحاجب بن زُرَارَةَ التميميين ، وإلى الحرث بن عُبَاد ، وقيس بن مسعود البكريين ، وَإلى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن عُلَاثَة ، وعامر بن الطُّفَيْلِ العامِرِيِّيْن ، وإلى عمرو بن الشَّرِيدِ السُّلَمى ، وعمرو بن معديكرب الزُّبيدى ، والحارث بن ظالم المُرِّى ، فلما قدموا عليه فى الخَوَرنق ، قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم ، وَقُرْبَ جِوَارِ العرب منها ، وقد سمعت من كسرى مقالات ، تخوَّفت أن يكون لها غَوْرٌ ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خَوَلا ، كبعض طَمَاطِمَتِهِ[3] ، فى تأديتهم الخراج إليه[4] ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ، فاقتص عليهم مقالات كسرى ، وما ردَّ عليه ، فقالوا : أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن مارددت ! وأبلغ ماحججته به ! فرنا بأمرك ، وادعنا إلى ماشئت . قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وَعَزَزت بمكانكم ، وما يتخوَّف من ناحيتكم ، وليس شىء أحبَّ إلىَّ مما سَدَّد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزَّكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط ، وتنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نطق كلّ رجل منكم

---

(١) هو سيف بن ذى يزن . (٢) تقبيح واستهجان ، والهجنة من الكلام : ما يعيبه .

(٣) رجل طمطم وطمطمى « بكسر الطاءين » وطمطمانى « بضمهما » : فى لسانه عجمة . (٤) كان الفرس يعفون عرب الحيرة من دفع الأتاوة مقابل أن يقوموا بحمايتهم من كل غارة من نواحيهم .

بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ماظنّ ، أو حدَّثته نفسهُ ، ولا ينطق رجل منكم بما يُغضبهُ ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثير الأعوان ، مُتْرَف ، مُعْجَب بنفسه ، ولا تنخزلوا[1] له انخزال الخاضع الذليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به وثاقة حلومكم ، وفَضْلُ منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وليكن أوّل من يبدأ منكم بالكلام أكثم ابن صيفى ، ثمّ تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتكم بها ، فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم ، على بميل كلِّ رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكوننّ ذلك منكم ، فيَجِدَ فى آدابكم مَطْعناً ، فإنه ملك مترف ، وقادر مُسَلَّطٌ ، ثم دعا لهم بما فى خزائنهِ من طرائف حلل الملوك ، كل رجل منهم حُلة وعَمَّمَهُ عمامة ، وَخَتَّمَهُ بياقوتة ، وأمر لكلِّ رجل منهم بنجيبة مَهْرِية[2] وفرس نجيبة ، وكتب معهم كتابا :

« أما بعد : فإن الملك ألقى إلىّ من أمر العرب ما قد علم ، وأجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتَلَجْلَجُ فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكتها ، وَحَمَت ما يليها بفضل قوّتها ، تبلغها فى شىء من الأمور ، التى يتعزّز بها ذوو الحزم والقوّة والتدبير والمكيدة ، وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، وَلْيُغْمِضْ عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وَليكرمنى بإكرامهم ، وتعجيل سَراحهم ، وقد نسبتهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم » .

فخرج القوم فى أُهْبَتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه ، وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ، فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مَرازبته[3] وَوجوه أهل مملكتهِ ، فحضروا وَجلسوا على كراسى ، عن يمينهِ

---

(١) الانخزال : مشية فى تثاقل . (٢) النجيب : البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والمهرية : نسبة إلى مهرة بن حيدان ، حى تنسب إليه الإبل النجيبة . (٣) جمع مرزبان ، بفتح الميم وضم الزاى ؛ هو الرئيس من الفرس .

وشماله ، ثم دعا بهم على الوِلَاء(١) والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه ، وَأقام الترجمان(٢) ليؤدِّى إليه كلامهم ، ثم أذن لهم فى الـكلام .

٣٢ — خطبة أكثم بن صيفى

فقام أكثم بن صيفى فقال :

« إنّ أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وَخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق مَنْجَاة ، والـكذب مَهْوَاة ، والشر لجاجة(٣) ، والحزم مَرْكَبٌ صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأْى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظنّ وَرْطَة ، وَسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطَانَتُهُ كان كالغاصّ بالماء ، شرُّ البلاد بلاد لا أمير بها ، شرُّ الملوك من خَافَهُ البرىء ، المرء يعجز(٤) لَا المَحَالَة(٥) ، أفضل الأولاد البَرَرَة ، خير الأعوان من لم يُراء بالنصيحة ، أحقُّ الجنود بالنصر من حَسُنَتْ سريرته ، يكفيك من الزاد ما بَلَّغَكَ المَحَلّ ، حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ سماعُهُ ، الصَّمْتُ حُكْمٌ(٦) وَقَلِيلٌ فاعله ، البلاغة الإيجاز ، مَنْ شَدَّدَ نَفَّرَ ، وَمَنْ تَرَاخَى تَأَلَّفَ » .

فتعجب كسرى من أكثم ، ثم قال : وَيْحَكَ(٧) يا أكثم مَا أَحْكَمَكَ وَأَوْثَقَ كلامك ! لولا وَضْعُكَ كلامك فى غير موضعه . قال أكثم : الصدق ينبىء عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لـكفى .

قال أكثم : رُبَّ قول أنفذُ مِنْ صَوْلٍ .

---

(١) التتابع والتوالى ، مصدر والى . (٢) ترجمان : بفتح التاء وضم الجيم وبضمهما وبفتحهما . (٣) اى أصله اللجاجة ، وهى تماحك الخصمين وتماديهما . (٤) من بابى ضرب وسمع . (٥) المحالة : الحيلة . (٦) الحكم : الحكمة (وآتيناه الحكم صبيا) . (٧) ويح : كلمة رحمة ، (وويل : كلمة عذاب) ، وقيل هما بمعنى واحد .

٣٣ — خطبة حاجب بن زرارة

ثمّ قام حاجب بن زُرارة التميمى فقال :

« وَرَى[١] زَندك ، وَعلَت يدك ، وَهِيبَ سلطانك ، إنّ العرب أُمة قد غَلُظَتْ أكبادها ، وَاسْتَحْصَدَتْ[٢] مِرّتها ، وَمُنِعَتْ دِرَّتُها[٣] ، وهى لك وامقة ما تألَّفتها ، مسترسلة ما لاينتها ، سامعة ما سامحتها ، وهى العلقم مَرَارَةً ، والصابُ[٤] غضاضةً[٥] ، والعسل حلاَوَةً ، والمَاء الزُّلَالُ[٦] سلاسةً[٧] ، نحن وفودها إليك ، وألسنتها لديك ، ذمتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ، إن نَؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم مَحْمَدَتنا ، وَإنْ نَذُمَّ لم نُخَصَّ بالذم دونها » .

قال كسرى : يا حاجب ، ما أشبه حجر التِّلاَل بألوان صخرها ، قال حاجب : بل زَئير الأسد بصولتها ، قال كسرى : وذلك .

٣٤ — خطبة الحارث بن عباد

ثمّ قام الحرث بن عُبَاد البكرىّ ، فقال :

دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلوّ سنائها ، من طال رِشاؤه[٨] ، كَثُرَ مَتْحُهُ[٩] ، ومن ذهب ماله ، قلّ مَنْحُه . تناقل الأقاويل يُعَرِّفُ اللُّب ، وهذا

---

(١) ورى الزند بفتح الراء وكسرها وريا ورية فهو وار وورى : خرجت ناره . وأوريته ووريته واستوريته ، والزند : العود الذى يقدح به النار جمعه زناد وأزند وأزناد . (٢) استحصد الحبل : استحكم ، والمرة : طاقة الحبل ، والقوة : العقل . كناية عن قوتهم . (٣) الدرة : اللبن كالدر . (٤) عصارة : شجر مر . (٥) هى احتمال المكروه . والذلة والمنقصة . (٦) ماء زلال : سريع المر فى الحلق بارد عذب صاف سهل سلس . (٧) سهولة . السلس : السهل اللين المنقاد .
(٨) الرشاء : الحبل . (٩) المتح : نزع الماء من البئر .

مقام سَيُوجِفُ(١) بما ينطق به الرَّكْبُ ، وتعرف به كُنْهَ حالنا العَجَمُ والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا جَمَّة ، وجيوشنا فخمة ، إن استنجدتنا فغير رُبُض(٢) ، وإن استطرقتنا(٣) فغير جُهُض(٤) ، وإن طلبتنا فغير غُمُض(٥) ، لا ننثنى لِذعْر ، ولا نَتَنَكَّرُ لدهر ، رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار » .

قال كسرى : أنفس عزيزة وأمة ضعيفة ، قال الحرث : أيها الملك وأنَّى يكون لضعيف عِزَّة أو لصغير مِرَّة ! قال كسرى : لو قَصُرَ عمرُكَ ، لم تَسْتَوْلِ عَلَى لسانك نَفْسُكَ . قال الحرث : أيها الملك إنَّ الفارس إذا حمل نفسهُ عَلَى الكتيبة مُغَرِّرًا بنفسه عَلَى الموت ، فهى مَنِيَّة استقبلها ، وَجِنَانٌ استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُمًا(٦) ، وأحبسها وهى تَصَرَّفُ بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وَسَعَرَتْ لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جَعَلْتُ مَقَادها رُمحى ، وَبرقها سيفى ، وَرَعْدَهَا زَئيرى ، ولم أُقَصِّرْ عَنْ خوض خَضْخَاضِهَا(٧) ، حتى أنغمس فى غَمَرَاتِ لُجَجِهَا ، وأكون فُلْكًا لفرسانى إلى بُحْبُوحَةِ كبشها(٨) ، فأستمطرها دماً ، وَأَتْرُكُ حُمَاتَهَا جَزَرَ(٩) السِّبَاعِ وَكُلَّ نَسْر

---

(١) وجف الفرس والبعير عدا ، وأوجفته : أعديته ، يقال : أو جف فأعجف (فما أو جفتم عليه من خيل ولا ركاب) أى ما أعلمتم .

(٢) يقال : رجل ربض عن الحاجات لا ينهض فيها ، وهو هنا جمع ربوض بالفتح من ربضت الشاة كبركت الناقة : أى لا نتقاعس عن نصرتك ولا نحجم . (٣) استطرقه فحلا : طلبه منه ليضرب فى إبله ، هذا هو الأصل ، والمراد استعنت بنا . (٤) أجهضت الناقة والمرأة ولدها : أسقطته ناقص الخلق ، والسقط : جهيض ، وجمعه جهض ، أى أن فحلنا إذا ضرب النياق (نكحها) لم تأت بجهض بل تنتج ، والمراد أنه إن استنجد بهم أثمر ذلك الاستنجاد ولم يخب . (٥) من الغمض ، وهو النوم ، يقال ما غمضت ، ولا أغمضت ، ولا اغتمضت ، فالوصف من الأول غامض ، وللمبالغة غموض ، والجمع غمض أى فلا نتام عن نصرتك . (٦) القدم : المضى أمام أمام ، وهو يمشى القدم : إذا مضى فى الحرب . والقدم : المقدام الشجاع . وفى الحديث « طوبى لعبد مغبر قدم فى سبيل الله » . (٧) الخضخاض : نفط أسود رقيق تهنأ به الإبل الجرب (ولعله خضاخضها) بضم الخاء ، والخضاخض : المكان الكثير الماء . (٨) سيد القوم وقائدهم . (٩) أى قطعا .

قَشْعَم[١] . ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله أنطق مِنْ لسانه .

قال كسرى : ما رأيت كاليوم وَفْدًا أحشد ، ولا شهوداً أوفد .

٣٠ - خطبة عمرو بن الشريد

ثمَّ قام عمرو بن الشريد السُّلَمِي ، فقال :

« أيها الملك ، نَعِمَ بالك ، وَدام فى السرور حالك ، إن عاقبة الكلام مُتَدَبَّرَة ، وَأشكال الأُمور مُعْتَبَرَة ، وَفى كثير ثِقْلة ، وفى قليل بُلْغَة ، وفى الملوك سَوْرة[٢] العز ، وَهذا مَنْطِقٌ له مابعده ، شَرُفَ فيه مَنْ شَرُفَ ، وخَمَلَ فيهِ مَنْ خَمَلَ ، لم نَأْتِ لضيمك ، ولم نَفِد لسخطك ، ولم نتعرَّض لِرِفْدِكَ[٣] إن فى أموالنا مُنْتَقَدًا[٤] ، وَعلى عزِّنَا مُعْتَمَدًا ، إنْ أَوْرَيْنَا[٥] نَارًا أثقبنا ، وَإنْ أَوِدَ[٦] دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون ، وَلِمَنْ رَامَكَ كافِحُونَ ، حتى يُحْمَدَ الصَّدَر[٧] وَيُسْتَطَابَ الْخَبَرُ » .

قال كسرى : ما يقوم قصدُ مَنْطِقِك بإفراطك ، ولا مَدْحُكَ بذَمِّكَ ، قال عمرو : كفى بقليل قصدى هاديا ، وَبأيسر إفراطى مُخْبرا ، وَلَمْ يُلَمْ مَنْ غَرَبَتْ نفسهُ عما يعلم ، وَرضى من القصد بما بلغ . قال كسرى : ما كلّ ما يعرف المرء ينطق به . اجلس .

---

(١) مسن . (٢) سورة المجد : أثره وعلامته ، وسورة السلطان : سطوته (والسورة المنزلة) بالضم . (٣) الرفد : العطاء . (٤) انتقد الدراهم قبضها . (٥) أو قدنا . (٦) اعوج . (٧) الرجوع .

٣٦ — خطبة خالد بن جعفر الكلابى

ثمَّ قام خالد بن جعفر الكلابى فقال :

« أحضر الله الملك إسعاداً ، وأرشده إرشاداً ، إنَّ لكل مَنْطِق فُرْصة ، ولكل حاجة غصَّة ، وَعِيُّ المنطق أشد مِنْ عِيِّ السُّكوت ، وَعِثَارُ القول أنكأُ[1] مِنْ عِثَارِ الْوَعْثِ[2] . وما فُرصة المنطق عندنا إلَّا بما نَهْوَى ، وَغُصَّة المنطق بما لَا نَهْوَى غيْرُ مستساغة[3] ، وتركى ما أعلم مِنْ نفسى ، وَيُعْلَمُ مِنْ سَمْعِى أننى له مُطِيق ، أحب إلَىَّ مِنْ تكلفى ما أتخوَّف ويتخوَّف منى ، وقد أوْفَدَنَا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك مِنْ خير الأعوان ، وَنِعْمَ حَامِلُ المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة[4] ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة » .

قال له كسرى : نطقت بعقل ، وَسَمَوْتَ بفضل ، وعلوت بِنُبْل .

٣٧ — خطبة علقمة بن علاثة العامرى

ثمَّ قام علقمة بن عُلاثة العامرىّ فقال :

« نَهَجَتْ[5] لك سبل الرشاد ، وَخَضَعَتْ لك رقاب العباد ، إن للأقاويل مناهج ، وللآراء مَوَالِج[6] وللعويص مخارج ، وَخير القول أصدقهُ ، وأفضل الطلب أنجحهُ ، إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، وَالوفادة قرَّبتنا ، فليس مَنْ حضرك منا بأفْضَلَ مِمَّنْ عَزَبَ عَنْكَ ، بل لو قِسْتَ كلَّ رجل منهم ، وَعَلِمْتَ منهم ماعلمنا ، لوجدت له فى آبائه

---

(١) نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح ، وأنكأ : أى أشد نكاية وقهرا . (٢) الوعث : المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر . (٣) أساغ الغصة ابتلعها ، وساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق . (٤) خاضعة ومقرة ، بخع بالحق أقر به وخضع له . (٥) وضحت .

(٦) مداخل ، جمع مولج . كمجلس ، ولج يلج واوجا ولجة .

دُنْيَا ، أنداداً وأكفاء ، كلهم إلى الفضل منسوب ، وَبالشرف وَالسُّؤْدُد[1] موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ[2] معروف ، يَحْمِى حِمَاه ، وَيُرْوِى ندامإه[3] ، وَيَذُودُ أعداه ، لَا تَخْمُدُ[4] نارُهُ ، وَلا يحترز منهُ جاره ، أيها الملك : مَنْ يَبْلُ العرب يَعْرِفُ فضْلَهُم ، فاصطنع[5] العرب ، فإنها الجبال الرَّوَاسى عزّا ، والبحور الزواخر طُمِيّاً[6] ، وَالنجوم الزوَاهر شرفا ، وَالحصى عدداً ، فإن تعرف لهم فضلهم يُعِزُّوك ، وَإن تستصرخهم[7] لايخذلوك » .

قال كسرى : وخشى أن يأتى منهُ كلام يحمله عَلَى السخط عليه ـ حَسْبُكَ أبلغت وَأحسنت .

٣٨ – خطبة قيس بن مسعود الشيبانى

ثُمَّ قام قيس بن مسعود الشيبانى ، فقال :

« أطَاب الله بك المراشد ! وَجَنَّبكَ المصَائب ! وَوَقاك مكروه الشَّصَائِب[8] ! مَا أَحَقَّنَا ـ إذ أتيناكَ ـ بإسمَاعك ما لا يُحْنِقُ صدرك ، وَلا يزرع لنَا حِقْدًا فى قلبك ! لم نَقْدَمْ أيهاالمَلِكُ لِمُسامَاةٍ ، وَلم ننتسب لمعاداة، وَلكن لتعلم أنت وَرعيتك وَمن حضرك من وفود الأُمم ، أنا فى المَنْطِقِ غير مُحْجِمِينَ ، وَفى الناس غير مُقَصِّرِين ، إن جُورينَا فغير مسبوقين ، وَإن سُومينَا فغير مغلوبين » .

---

(١) السودد بفتح الدال والسؤدد بضمها والسود والسيادة . (٢) الظاهر أثره .

(٣) نداى . جمع ندمان ، وهو النديم ، وجمع النديم ندماء ، ونادمه : جالسه على الشراب (ندمان بمعنى منادم مصروف ، لأن مؤنثه ندمانة ، أما ندمان بمعنى نادم فلا يصرف لأن مؤنثه ندمى :

كل فعلان فهو أنثاه فعلى غير وصف النديم بالندمان)

(٤) خمد : كنصر وسمع . (٥) اختر واصطف . (٦) طمى الماء يطمى طميا علا ، والنبت طال والبحر امتلأ ، وهمته علت . (٧) تستنجد بهم . (٨) جمع شصيبة ، وهى الشدة .

قَالَ كسرى : غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يُعَرِّضُ به فى تركه الوفاء بضمانه السَّوَادَ[1]) قال قيس : أيها الملك ما كنتُ فى ذلك إلا كَوَافٍ غُدِرَ به ، أو كخافر أُخْفِرَ بذمته . قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ، وَلا لذليل خفَارة ، قال قيس : أيها الملك : مَا أَنَا فيما أُخْفِرَ من ذمتى أَحَقُّ بإلزامى العَار منك فيما قتل مِنْ رَعيتك ، وانْتُهِكَ من حرمتك ، قال كسرى : ذلك لأن من ائتمن الخانة[2] ، وَاستنجد الأَثَمَة ، ناله من الخطإِ مَا نَالنى ، وَليس كلّ الناس سواء ، كيف رأيت حاجب بن زرارة ، لِمَ يُحْكِمْ قواه ، فَيُبْرِم ، وَيَعْهَدُ فَيُوفِي ، وَيَعِدُ فَيُنْجِز ، قالَ وَمَا أَحقَّهُ بذلك، ومَا رأيته إلاَّ لى ، قال كسرى : القوم بُزُلٌ[3] فأفضلهَا أشدُّهَا .

٣٩ خطبة عامر بن الطفيل العامرى

ثُمَّ قام عامر بن الطفيل العامرى فقال :

« كثر فنون المنطق ، وَلَبْسُ القول أعمى من حِنْدِس[4] الظلماء ، وَ إنما الفخر فى الفعال ، وَالعجز فى النجدة ، وَالسُّودَد مطاَوَعة القدرة[5] ، وَما أَعلمك بقدرنا ، وَأَبصرك بفضلنا ، و بِالْحَرَى[6] إن أُدالت[7] الأَيام ، وَثَابت الأَحلام أن تحْدِث لنَا أُموراً لها أَعلام[8] . قال كسرى : وَمَا تلك الأَعلام ، قال مُجتَمَعُ[9] الأحياء من ربيعة وَمُضر ، على أمر يذكر قال كسرى : ومَا الأَمر الذى يذكر ؟ قال : مَالى علم بأكثر مما خبَّرنى به مخبر ، قال كسرى : متى تكاهنت يا بن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، وَلكنى بالرمح

(١) أى سواد العراق . (٢) الخانة والخونة : جمع خائن . (٣) البازل : الجمل فى السنة التاسعة ، والرجل الكامل فى تجربته جمع بزل وبزل . (٤) الليل المظلم والظلمة . (٥) أى أن يأتى المرء ما يقدر عليه ، فإن ذلك يبلغه السودد . (٦) خليق وجدير . (٧) نصرتنا .
(٨) أى مشهورة . (٩) اجماع .

طاعن ، قال كسرى : فإن اتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال : ما هيبتي في قفاى بدون هيبتي في وجهي ، وما أذهب عيني عيث[1] ، ولكن مطاوعة العبث .

٤٠ – خطبة عمرو بن معديكرب الزبيدى

ثمّ قام عمرو بن معديكرب الزّبيدى ، فقال :

« إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الصّواب ، وملاك النُّجعة[2] الارتياد ، وعفوُ الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ[3] طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا ، فإنا أناسٌ لم يوقّس[4] صفاتنا قِراعُ مناقير[5] من أراد لنا قضما[6] ، ولكن منعنا حمانا من كلّ من رام لنا هضما »

٤١ – خطبة الحارث بن ظالم المرى

ثمّ قام الحرث بن ظالم المرى ، فقال :

« إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن خطل الرأى خفة الملك المسلّط ، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصافٍ ، فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام ولث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل ، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل » .

---

(١) الإفساد . (٢) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه . (٣) اجتذب . (٤) الوقس : انتشار الجرب فى البدن ، والتوقيس : الإجراب ، أى لم يخدش صفاتنا ويؤثر فيها . (٥) جمع منقار ، وهو حديدة كالفأس ينقر بها . (٦) أصله الأكل بأطراف الأسنان .

قال كسرى : من أنت ؟ قال الحرث بن ظالم ، قال إن فى أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوِزْر . قال الحارث : إن فى الحقِّ مَغْضَبة . والسَّرْوُ التغافل(١) ، ولن يستوجب أحَدٌ الحلم إلا مع القدرة ، فَلْتُشْبِهْ أفعالك مجلسك ، قال كسرى : هذا فتى القوم

ثم قال كسرى : قد فهمت مانطقت به خطباؤكم ، وتفنّن فيه متكلموكم ، ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يُثَقِّفْ أَوَدَكم ، ولم يُحكم أمركم ، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم ، فتنطقون عنده منطق الرّعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجِزْ لكم كبراً مما تكلمتم به ، وإنى لأكره أن أُجَبِّه وفودى ، أو أُحْنِق صدورهم ، والذى أحب من إصلاح مُدَبَّرِكُمْ ، وتألف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم ، وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم ، فأحسنوا موازرته ، والتزموا طاعته ، واردعوا سفهاءكم وأقيموا أَوَدهم ، وأحسنوا أدبهم ، فإن فى ذلك صلاح العامة . (العقد الفريد ١ : ١٠١)

---

(١) السرو : المروءة فى شرف .

٤٢ — مخالس بن مزاحم وقاصر بن سلمة عند النعمان بن المنذر

كان مُخَالِسُ بن مُزَاحِم الـكَلْبِيّ ، وقاصِرُ بن سَلَمَةَ الجُذَامِىّ بباب النعمان بن المنذر ، وكان بينهما عداوة ، فأتى قاصر إلى ابن فَرْتَنَى وهو عمرو بن هند أخو النعمان ابن المنذر ، وقال : إن مخالساً هجاك ، وأنشده فى ذلك أبياتاً ، فلما سمع عمرو ذلك أتى النعمان ، فشكا مخالساً وأنشده الأبيات ، فأرسل النعمان إلى مخالس . فلما دخل عليه قال : « لا أمَّ لك ! أتهجو امرأ هو ميتاً خيرٌ منك حيًّا ، وهو سقيماً خير منك صحيحاً . وهو غائبًا خير منك شاهدًا ؟ فَبِحُرْمة ماء المُزْن[1] ، وَحَقِّ أبى قابوس[2] ، لئن لاح لى أن ذلك كان منك ، لأنزِعَنَّ غَلْصَمَتك من قفاك ، وَلا طْعِمَنَّك لحمك » .

قال مخالس : « أبيت اللعن ! كلا ، والذى رفع ذِرْوَتك بأعمادِها ، وأمات حُسَّادك بأكمادها ، ما بُلِّغْتَ غيرَ أقاويل الوُشَاة ، ونَمَائم العُصاة ، وماهجوتُ أحدًا ، ولا أهجو امرأ ذكرتَ أبدًا ، وإنى أعوذ بجَدِّك الـكريم ، وعِزِّ بيتك القديم ، أن ينالنى منك عقاب ، أو يفاجئنى منك عذاب ، قبل الفحص والبيان ، عن أساطير أهل البُهتان » .

فدعا النعمان قاصرًا فسأله ، فقال قاصر : « أبيت اللعن ! وحقِّك لقد هجاه وما أرْوانيها سواه » فقال مخالس : « لا يأخذَنَّ أيها الملك منك قولُ امرئٍ آفِكٍ[3] ، ولا تُورِدْنى سبيل المهالك . واستدلِلْ على كذبه بقوله : إنى أرويته مع ما تعرف من عداوته » ، فعرف النعمان صدقه فأخرجهما .

فلما خرجا ، قال مخالس لقاصر : « شَقِىَ جَدُّك ، وسَفُل خدك ، وَبَطَل كَيْدُك ، ولاح للقوم جُرْمك ، وطاش عنى سَهمك ، ولأنت أضيقُ حِجرًا من نَقَّاز[4] ، وأقل قِرًى من الحامل على الـكَرَّاز[5] » فأرسلها مَثَلاً . (مجمع الأمثال ١ : ١٤٠)

---

(١) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، جمع مزنة . (٢) يعنى نفسه وأبو قابوس كنيته .
(٣) كذاب . (٤) الحجر : العقل ، والنقاز : كرمان ، وشداد : طائر أو صغار العصافير ومن قول حسان بن ثابت :

لابأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير

(٥) الـكراز : الـكبش يحمل خرج الراعى ، أى أقل قرى من الراعى يحمل زاده على الـكبش ، وهو مثل يضرب لمن يرمى باللؤم .

٤٣ – ضمرة بن ضمرة عند النعمان بن المنذر

قيل إن رجلا من بنى تميم يقال له ضَمْرَة بن ضَمْرَة ، كان يُغير على مَسَالِح[1] النُّعمان بن المنذر ، حتى إذا عِيل صبر النعمان ، كتب إليه أنِ أُدْخُلْ فى طاعتى ، ولك مائة من الإبل ، فقبلها وأتاه ، فلما نظر إليه أزدراه – وكان ضمرة دَمِيماً – فقال : تسمع بالْمُعَيْدِىِّ لا أَنْ تراه[2] . فقال ضمرة : مَهْلاً أيها الملك . إن الرجال لا يكالُون بالصِّيعَان[3] . وإنما المرء بأَصْغَرَيْهِ قلبِهِ ولسانِهِ . إنْ قاتَلَ قاتَلَ بِجَنَان . وإن نطق نطق ببيان . قال : صدقت لله دَرُّك ، هل لك علم بالأمور والْوُلوج فيها ؟ قال : والله إنى لأُبرِم منها المَسْحُول[4] . وأنقُضُ منها المَفْتول . وأُحِيلها حتى تَحُولَ ، ثم أنظر إلى ما يئول . وليس للأمور بصاحبٍ . مَن لا ينظر فى العواقب . قال : صدقت ، لله درك ! فأخبرنى : ما العجز الظاهر ، والفقر الحاضر ، والداء الْعَيَاء[5] ، والسَّوْءة السَّوْءاء ؟ قال ضمرة :

« أمّا العجز الظاهر . فالشابُّ القليل الحيلة . اللَّزُومُ لِلْحَلِيلة . الذى يحوم حولها . ويسمع قولهـا . فإن غَضِبَتْ تَرَضَّاها . وإن رضِيت تفدّاها . وأما الفقر الحاضر فالمرء لاتشبَع نفسهُ . وإن كان من ذهبٍ حِلْسُهُ[6] . وأما الداء الْعَيَاء : فجار السوء ، إن كان فوقك قَهَرَكَ ، وإن كان دونك هَمَزَكَ[7] . وإن أعطيته كفرك ، وإن منعته شتمك ، فإن كان ذلك جارك ، فأخْلِ له دارك ، وعَجِّلْ منه فِرارك ، وإلا فأقِم بذلّ

---

(١) مسالح جمع مسلحة بالفتح وهى الثغر . (٢) وفى رواية « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » وهو مثل يضرب لمن خبره خير من مرآه ، والمعيدى تصغير المعدى نسبة إلى معد وهو حى ، خففت الدال استثقالا للتشديد مع ياء التصغير ، وقيل منسوب إلى معيد وهو اسم قبيلة . (٣) الصيعان جمع صاع وهو مكيال يكال به ، ومعياره الذى لا يختلف أربع حفنات بكفى الرجل الذى ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما . وحرر بعض المحققين أن الصاع بالمصرى قدحان وثلث . (٤) سحل الثوب : لم يبرم غزله . (٥) داء عياء : لا يبرأ منه . (٦) الحلس كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله . (٧) الهمز : الغمز .

وصَفَار ، وكن كَكَلبٍ هَرَّار[1] ، وأما السوءة السوءاء : فالحَلِيلة الصَّخَّابة[2] ، الخفيفة الوَثّابة ، السَّلِيطَة[3] السَّبَّابة ، التى تعجَب من غير عَجَب ، وتغضَب من غير غَضَب ، الظاهر عيبُها ، والمَخُوف غَيبُها ، فزوجها لايصلح له حال ، ولا يَنْعَم له بال ، إن كان غنيًّا لاينفعه غناه ، وإن كان فقيرا أبدت له قِلاه[4] ، فأراح الله منها بَعْلَهَا ، ولا متَّعَ الله بها أهلها » .

فأعجب النعمانَ حُسْنُ كلامه ، وحضور جوابه ، فأحسن جائزته . واحتبسه قِبَله .

(جمهرة الأمثال ١ : ١٨٦)

٤٤ — لبيد بن ربيعة يصف بقلة

وفد على النُّعمان بن المنذر عامرُ بن مالك مُلاعِب الأَسِنَّة فى رَهطٍ من بنى جعفر ابن كلاب ، فيهم لَبِيد بن رَبيعة ، فطعن فيهم الربيعُ بن زِيَاد العَبْسى ، وذكر معايبهم — وكان نديماً للنعمان ، وكانت بنو جعفر لهم أعداء — فلم يزل بالنعمان حتى صَدَّهُ عنهم ، فدخلوا عليه يوما ، فرأوا منه جفاء — وقد كان يكرمهم ويقرِّبهم — فخرجوا غِضَاباً ، ولبيد متخلفٌ فى رحالهم ، يحفظ متاعهم ، ويَغْدُو بإبلهم كلَّ صباح يرعاها — وكان أحدثهم سناً — فأتاهم ذات ليلة وهم يتذاكرون أمر الربيع ، فسألهم عنه فكتموه ، فقال : والله لاحَفِظْتُ لكم متاعاً ، ولا سَرَّحت لكم بعيراً ، أو تخبرونى فيم أنتم ؟ وكانت أم لبيد يتيمة فى حِجْر الربيع ، فقالوا : خالك قد غلبنا على الملِك ، وصَدَّ عنّا وجهه ، فقال لبيد : هل تقدرون على أن تجمعوا بينى وبينه ، فأزجره عنكم بقول مُمِضٍّ مؤلم ، لايلتفت إليه النعمان بعده أبداً ؟ قالوا : وهل عندك شىء ؟ قال : نعم . قالوا : فإنا نبلُوك .

---

(١) هرير الكلب : صوته ، وهو دون النباح . (٢) أى كثيرة اللغط والجلبة من الصخب بالتحريك . (٣) الطويلة اللسان من السلاطة كفصاحة . (٤) القلى : البغض والكراهية .

قال : وما ذاك ؟ قالوا : تَشَمّ هذه البَقْلة ـ وَقُدَّامَهم بقلَة دقيقة القضبان ، قليلة الأوراق ، لاصقة بالأرض ، تدعى التربة ـ فقال :

« هذه التَّرِبة التى لاتُذْكِى[1] نَاراً ، ولا تُؤْهِلُ[2] داراً ، ولا تَسُرُّ جاراً ، عُودها ضَئيل، وَفَرْعُها كَلِيل[3] ، وخيرها قليل ، أقبح البقول مَرْعى ، وأقصرها فَرعاً ، وأشدها قَلْعًا ، فتَعْسًا لها وَجَدْعاً[4] ، بلدها شاسع[5] ، وَنَبْتُهَا خاشع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها قانع[6] ، فالقَوا بى أخا بنى عَبْس ، أرُدُّه عنكم بِتَعْسٍ[7] وَنُكْسٍ ، وأتركه من أمره فى لَبْس » .

فلما أصبحوا غَدَوْا به معهم إلى النعمان ، فذكروا حاجتهم ، فاعترض الرَّبيع ، فرجز به لبيد رَجَزاً مالبِثَ معه النعمان أن تقزَّز منه ، وأمره بالانصراف إلى أهله

(مجمع الأمثال ٢ : ٣٢ وجمهرة الأمثال ٢ : ١١٦ ، الأغانى ١٤ : ٩١ ، أبناء نجباء الأبناء ص ١٧١ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ١٣٥)

٤٥ - كلمات هند بنت الخس الإيادية

أتى رجل هندَ بنت الخُسِّ الإيادية يستشيرها فى امرأة يتزوَّجها . فقالت : « انظُر رمْكاء[8] جَسِيمَةً ، أو بيضاء وَسِيمَة ، فى بيتِ جِدٍّ ، أو بيت حَدٍّ ، أو بيت عز » قال : ماتركْتِ من النساء شيئا ، قالت : « بلى ، شرَّ النساء تركْتُ: السُّوَيْدَاء المِرْاض[9] ، والحُمَيْراء المِحْياض[10] الكثيرة المِظاظِ[11] » .

وقيل لها : أى النساء أسْوَأ ؟ قالت : « التى تقعُد بالفِناء ، وتملأ الإناء ، وتَمْذُق[12]

---

(١) تذكى : تشعل . (٢) أى ولا تؤدم أهل دار من الإهالة (ككتابة) وهى كل ما يؤتدم به ، ويقال ثريدة مأهولة : أى فيها إهالة . (٣) ضعيف . (٤) قطعا . (٥) بعيد .

(٦) أى سائل . (٧) التعس : الهلاك .

(٨) الرمكاء : السمراء ، والرمكة كحمرة لون الرماد . (٩) المراض : المسقام .

(١٠) الكثيرة الحيض . (١١) المظاظ : المنازعة والمشارة . (١٢) تمزج .

مافى السِّقاء » قيل : فأى النساء أفضل ؟ قالت : « التى إذا مشت أَغْبَرَتْ[١] ، وإذا نطقت صَرْصَرَت[٢] ، مُتَوَرِّكة جارِيةً[٣] ، فى بطنها جارية ، يتبعها جارية[٤] » .

قيل : فأى الغلمان أفضل ؟ قالت : « الأَسْوَق الأَعْنَق[٥] ، الذى إن شَبَّ كأنه أحمق » قيل : فأى الغِلمان أفسل[٦] ؟ قالت : « الأُوَيْقِص[٧] القصير العَضُد ، العظيم الحاوِيه[٨] ، الأُغَيْبِر الغِشاء ، الذى يُطيع أُمَّه ، ويعصى عمَّه » .

(الأمالى ٢ ـ ٢٦٠)

* * *

وقيل لها : أىُّ الرجال أحبُّ إليك ؟ قالت : السهْل النجيب ، السَّمْح الحسيب ، النَّدْب[٩] الأَرِيب ، السيد المَهيب ، قيل لها : فهل بقى أحد من الرجال أفضل من هذا ؟ قالت : نعم الأَهْيَف الهَفْهاف[١٠] ، الأَنِف العيَّاف ، المُفِيد المِتلاف ، الذى يُخيف ولا يَخاف ، قيل لها : فأىُّ الرجال أبغضُ إليك ؟ قالت : الأَوْرَه[١١] النَّئُوم ، الوَكَل السَّئُوم ، الضَّعيفُ الحيْزُوم ، اللئيم المَلُومُ . قيل لها : فهل بقى أحد شر من هذا ؟ قالت : نعم ، الأحمق النزَّاع ، الضائع المُضَاع ، الذى لا يُهَاب ولا يُطَاع ، قالوا : فأىُّ النساء أحب إليك ؟ قالت : البيضاءُ العَطِرَة ، كأنها ليلة قَمِرَة[١٢] قيل : فأى النساء

---

(١) أثارت الغبار فى مشيتها . (٢) أحدثت صوتها . (٣) أى حاملة لها على وركها .

(٤) أى هى مئناث . (٥) الأسوق : الطويل الساق ، والأعنق : الطويل العنق .

(٦) أفعل من فسل : ككرم وعلم وعنى فسالة وفسولة فهو فسل؛ أى رذل لا مروءة له .

(٧) الأويقص : تصغير أوقص، وهو الذى يدنو رأسه من صدره .

(٨) ما تحوى من الأمعاء أى استدار .

(٩) الندب : الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب ، والأريب : العاقل . (١٠) الأهيف وصف من الهيف بالتحريك ، وهو رقة الخاصرة ، والقميص الهفهاف ، أى الرقيق الشفاف . (١١) الأوره : الأحمق من وره كفرح . (١٢) ليلة قمرة وقمراء ومقمرة : فيها القمر .

أبغض اليك ؟ قالت : « المِنْفِص[1] القصيرة ، التى إن استنطقتها سكتت ، وإن سكتّ عنها نطقت » . (ذيل الأمالى ص ١٢٠)

***

وقال لها أبوها يوما : أى المال خير ؟ قالت : « النَّخْل ، الراسخاتُ فى الوَحْـل ، المطعِمَات فى المَحْل[2] » قال : وأى شىء ؟ قالت : « الضأن : قرْية لا وباء بها . تُنتِجُها رُخالا[3] ، وتَحْلُبها عِلالا[4] ، وتجُزُّ لها جُفَالا[5] ، ولا أرى مِثْلَها مالاً » قال : فالإبل مالكِ تُؤَخِّرينها ؟ قالت : « هى أذكار الرجال ، وَإِرْقَاءُ الدماء ، وَمُهُورُ النساء » قال : فأى الرجال خير ؟ قالت :

خير الرِّجال المُرَهَّقُونَ كما خيرُ تِلاع البلاد أوْطَؤُها[6]

قال : أيهم ؟ قالت « الذى يُسْأَل ولا يَسْأَل ، ويُضيف ولا يُضاف ، ويُصْلِح ولا يُصْلَح » . قال : فأى الرجال شرّ ؟ قالت : « النُّصَيْط النُّطَيط[7] الذى معه سُوَيْط[8] ، الذى يقول أدْرِكونى من عَبْد بنى فلان ؛ فإنى قاتِلُه أو هو قاتلى » . قال : فأى النساء خير ؟ قالت : « التى فى بطنها غلامٌ ، تحمل على وَرِكها غلامًا ، يَمشى وَرَاءها غلام » قال : فأى الجمال خير ؟ قالت : « السِّبَحْل الرِّبَحْل[9] ، الراحلة الفَحْل » . قال :

---

(١) المنفص : المرأة البذيئة القليلة الحياء ، والقليلة الجسم الكثيرة الحركة .

(٢) المحل : الشدة والجدب وانقطاع المطر . (٣) الرخال جمع رخل كحمل وكتف ، وهو الأنثى من أولاد الضأن . (٤) يقال عالت الناقة ، وهو أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره ، والاسم علال ككتاب . (٥) الجفال : الكثير من الصوف .

(٦) المرهق : من يغشاه الناس والأضياف . (٧) النطيط : الذى لا لحية له ، والنطيط : الهذريان (بكسر الهاء والراء) وهو الكثير الكلام يأتى بالخطأ والصواب عن غير معرفة .

(٨) تصغير سوط . (٩) السبحل والربحل : البعير الضخم الكثير اللحم .

أرأيتكَ الجَذَع[١] ؟ قالت : لا يَضرِب ، ولا يَدَع ، قال : أرأيتك الثنِيّ[٢] قالت : يضرب ، وضِرَابُهُ وَنِيّ[٣] ، قال : أرأيتك السَّدَسَ[٤] ، قالت : ذاك العَرِس[٥] .

(ذيل الأمالى ص ١٠٨)

* * *

وقيل لها : أيُّ الخيل أحبُّ إليك ؟ قالت : « ذو المَيْعة الصَّنيع[٦] ، السَّلِيط التَّلِيع[٧] ، الأَيِّد الضَّلِيع[٨] المُلْهِب[٩] السريع » فقيل لها : أى الغيوث أحب إليك ؟ قالت : « ذو الهَيْدَب المُنْبَعِق[١٠] ، الأَضخم المُؤْتَلِق[١١] الصَّخِب المُنْبَثِق[١٢] » وقيل لها : ما مائة من المَعْز ؟ قالت : مُوَيْلٌ يَشِفُّ الفقرُ من ورائه ، مال الضعيف ، وحِرْفة العاجز » قيل : فما مائة من الضَّأن ؟ قالت « قَرْية لاحِمَى بها » قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت : « بَخْ[١٣] ، جمال ومال ، ومُنى الرجال » . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت :

---

(١) أرأيتك : كلمة تقولها العرب بمعنى أخبرنى ، الجذع : البعير إذا كان فى السنة الخامسة .

(٢) البعير إذا كان فى السادسة وألقى ثنيته . (٣) قال أبو على : الصواب أنىّ أى بطىء .

(٤) السدس : البعير إذا كان فى الثامنة . (٥) العرس : الأسد .

(٦) ماع الفرس يميع : جرى ، وصنعة الفرس : حسن القيام عليه ، صنعت فرسى صنعا وصنعة (بفتح الصاد فيهما) والصنيع ذلك الفرس . (٧) السليط : الشديد ، والحديد من كل شىء ، والتليع : الطويل العنق من التلع بفتحتين وهو طول العنق . (٨) الأيد كـكيس : القوى ، من آد يئيد أيدا أى قوى واشتد ، والضليع وصف من ضلع كفصح ضلاعة ، وهى القوة وشدة الأضلاع .

(٩) هو الذى يجتهد فى عدوه حتى يثير الغبار ، من ألهب . (١٠) الهيدب : السحاب المتدلى ، والمنبعق : المنبعج بالمطر . (١١) الضخم : كشمس وسبب وأحمد وغراب : العظيم من كل شىء ، والتلق البرق وتألق : لمع . (١٢) الصخب : وصف من الصخب كسبب وهو شدة الصوت ، والمنبثق : المنفجر

(١٣) بخ كقد : أى عظم الأمر وفخم ، تقال وحدها وتكرر ، بخ بخ الأول منون مكسور ، والثانى مسكن ، ويقال فى الإفراد : بخ ساكنة الخاء ؛ وبخ مكسورة ، وبخ منونة مضمومة ، ويقال بخ بخ مسكنين ، وبخ بخ منونين مكسورين ، وبخ بخ مكسورين مشددين منونين كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء .

« طَفَى من كانت له ولا يوجد » قيل : فما مائة من الحُمُر ؟ قالت : عازِبة[1] الليل ، وخِزْى المجلس ، لا لَبَنَ فَيُحْلَب ، ولا صوف فَيُجَزَ ، إن رُبِطَ عَيْرُها[2] أَدْلَى ، وإن تُرِكَ وَلَّى ، وقيل لها: من أعظم الناس فى عينك ؟ قالت « مَنْ كانت لى إليه حاجة » .

(سرح العيون ص ١٨٤)

* * *

وقالت : « أخبثُ الذِّئاب ذئب الْغَضَا[3] ، وَأَخْبَثُ الأفاعى أفعى الجَدْبِ ، وأسرع الظِّباء ظباء الحُلَّب[4] ، وأشد الرجال الأعجَف[5] ، وأجمل النساء الفَخْمة الأَسِيلة[6] ، وأقبح النساء الجَهْمة الْقَفِرة[7] ، وآكلُ الدوابِّ الرَّغُوث[8] ، وأطيب اللحم عُوَّذُه[9] ، وأغلظ المواطئ الحَصَى على الصَّفَا ، وشر المال مالا يَزْكَى[10] ولا يَذْكَى[11] ، وخير المال سِكَّة مأبورة[12] ، أو مُهْرَة مأمورة[13] » .

(مجمع الأمثال ١ : ١٧٤)

---

(١) يقال جمل عازب : أى لا يروح على الحى من العزوب : وهو الغيبة والذهاب ، وقولها : خزى المجلس ، أى بما تحدثه من النهيق المزعج والإدلاء . (٢) العير : الحمار (وغلب على الوحشى) ، وأدلى : أى أخرج قضيبه ليبول أو يضرب .

(٣) الغضا : شجر له جمر يبقى طويلا . (٤) الحلب : نبت ، قال حمزة : « العرب تسمى ضروبا من البهائم بضروب من المراعى تنسبها إليها ، فيقولون : ظبى الحلب ، وتيس الربلة (والربل محركة نبات شديد الخضرة) ، وشيطان الحماطة (والحماطة كسحابة : شجر شبيه بالتين ، أحب شجر إلى الحيات) .. الخ وذلك كله على قدر طباع الأمكنة والأغذية العاملة فى طباع الحيوان . (٥) من العجف بالتحريك وهو ذهاب السمن . (٦) الطويلة المسترسلة . (٧) الجهمة : مؤنث الجهم وهو الوجه الغليظ المجتمع السمج ، والقفرة : القليلة القفر بالتحريك : أى الشعر . (٨) الرغوث : كل مرضعة كالمرغث . (٩) ما عاذ بالعظم من اللحم . (١٠) زكى كرضى نما وزاد كزكا يزكو . (١١) ذكى تذكية : سمن وبدن (بضم الدال) . (١٢) السكة : السطر من النخل ، والمأبورة : المصلحة ، من أبرت النخل آبره إذا لقحته وأصلحته . (١٣) مأمورة : أى كثيرة الولد ، من آمرها الله أى كثرها ، وكان ينبغى أن يقال مؤمرة ، ولكنه أتبع مأبورة — اقرأ فى كتاب بلاغات النساء ص ٥٧ فصلا طويلا فى كلام هند بنت الخس وأختها جمعة .

٤٦ — خطبة كعب بن لؤى

وخطب كعب بن لؤى (وهو الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم) فقال :

« اسمعوا وَعُوا ، وَتَعَلَّمُوا تعلَموا، وَتَفَهَّمُوا تَفْهَمُوا ، ليل ساجٍ[1] ، ونهار صاجٍ[2] ، والأرض مِهاد ، والجبال أوتاد ، والأولون كالآخرين ، كل ذلك إلى بلاء ،فصِلوا أرحامكم ، وأصلحوا أحوالكم . فهل رَأيتم من هلك رَجع ، أو ميتاً نُشِر ، الدار أمامكم ، والظن خلاف ما تقولون ، زَيِّنُوا حَرَمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منه نبي كريم ، ثم قال :

نَهارٌ وَلَيْلٌ وَاخْتِلاَفُ حَوَادِثٍ ... سَوَاءٌ عَلَيْنَا حُلْوُهَا وَمَرِيرُهَا
يَئُوبَانِ بِالأَحْدَاثِ حَتَّى تَأَوَّبَا ... وَبِالنِّعَمِ الضَّافِي عَلَيْنَا سُتُورُهَا[3]
صُرُوفٌ وَأَنْبَاءٌ تَقَلَّبَ أَهْلُهَا ... لَهَا عُقَدٌ مَا يَسْتَحِيلُ مَرِيرُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقًا خَبِيرُهَا

ثُمَّ قَالَ :

يَا لَيْتَنِي شَاهِدٌ فَحْوَاءَ دَعْوَتِهِ ... حِينَ الْعَشِيرَةُ تَبْغِي الْحَقَّ خِذْلاَنَا[4]

(صبح الأعشى ١ : ١١٢)

---

(١) الساجى : الساكن والدائم . (٢) لعله ضاج من ضج القوم صاحوا واجلبوا .

(٣) التأوب الرجوع . (٤) فحوى الكلام وفحواؤه معناه و مذهبه .

٤٧ — خطبة هاشم بن عبد مناف

يحثّ قريشاً على إكرام زوّار بيت الله الحرام

كَان هَاشم بن عبد مناف يقوم أوّل نهار اليوم الأول من ذى الحجة فَيُسْنِدُ ظهره إلى الكعبة من تلقَاء بابها ، فيخطب قريشاً ، فيقول :

« يا معشر قريش ، أنتم سَادة العرب ، أَحسنهَا وجوهاً ، وَأعظمهَا أحلامًا ، وَأوسطهَا[1] أنسَابًا ، وَأقربها أرحامًا . يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وَخصكم بجِواره ، دون بنى إسمَاعيل ، وَحفِظَ منكم أحسن ما حفظ جارٌ من جاره ، فأكرموا ضيفهُ ، وَزُوَّارَ بيتهِ ، فإنهم يأتونكم شُعْثًا[2] غُبْرًا من كل بلد ، فوَرَبِّ هذه البَنِيّة[3] ، لو كاَن لى مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، ألاَ وإنى مخرج من طَيِّبِ مالى وحلاله ، ما لم يُقْطَع فيهِ رَحِم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيهِ حرام ، فواضِعهُ ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بِحُرْمَةِ هذا البيت ألاَّ يُخْرِج رجل منكم من ماله ، لكرامة زُوَّار بيت الله ومعونتهم إلاَّ طَيبًا ، لم يؤخذ ظلمًا ، ولم يُقْطَع فيهِ رحم ، ولم يغتصب » .

(شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣ . ٤٥٨)

---

(١) خيرهم : الوسط من كل شىء أعدله (قال أوسطهم . . . وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

(٢) جمع أشعث : وهو ملبد الشعر مغبره .   (٣) الكعبة : والبنية بكسر الباء وضمها وسكون النون ما بنيته .

٤٨ — خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعة

تنافرت قريش وخُزاعة[1] إلى هاشم بن عبد مناف ، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة ، فقال فى خطبته :

« أيها الناس ، نحن آلُ إبراهيم ، وذرِّيّة إسماعيل ، وبنو النَّضْرِ بن كِنانة[2] وبنو قُصَىٍّ بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسُكّان الحرَم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكلٍّ فى كلِّ حِلْف[3] يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة ، وقطْعِ رحِم ؛ يابنى قصى : أنتم كغصنى شجرة أيهما كُسِرَ أوحشَ صاحبَهُ ، والسيف لايصان إلا بغِمْدِه ، ورامى العشيرة يصيبه سهمُهُ ، ومن أمْحَكَهُ[4] اللجاجُ أخرجه إلى البغى .

أيها الناس : الحلم شرف ،والصبر ظفَر ، والمعروف كنز ، والجود سُؤْدُد ، والجهل سَفه ، والأيام دُول ، والدهر غِيَر[5] ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسِبوا الحمد ، ودعوا الفُضول تُجانِبْكمُ السفهاء ، وأكرموا الجليس يَعْمُرْ نادِيكم ، وحاموا الخليطَ يُرْغَبْ فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يُوثق بكم ؛ وعليكم

(١) خزاعة : حى من الأزد ، سموا بذلك لأنهم تخزعوا عن قومهم (أى تخلفوا عنهم وانقطعوا) إقبالهم من اليمن . وذلك أنه لما تفرقت الأزد من اليمن فى البلاد نزل بنو مازن على ماء بين زبيد وزمع ؛ وأقبل بنو عمرو بن عامر فانخزعوا عن قومهم فنزلوا مكة .

(٢) النضر : الجد الثانى عشر للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقصى الجد الرابع . (٣) الحلف : العهد بين القوم والصداقة ، والصديق يحلف لصاحبه أن لايغدر به ، وقوله « لكل فى كل » أى لكل فى صاحبه صديق يجب عليه نصرته .

(٤) أغضبه . (٥) أى ذو غير ، وغير الدهر : أحداثه المغيرة ، جمع غيرة بالكسر ، أو مفرد وجمعه أغيار .

بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدَّنية فإنها تضع الشرف، وتهدم المجد، وإن نَهْنَهة[1] الجاهل أهون من جَرِيرته[2] ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به » .

فقالت قريش : « رضينا بك أبا نَضْلةَ » وهى كنيته .

(بلوغ الأرب ١ : ٣٢٢)

٤٩ — خطبة عبد المطلب بن هاشم

يهنئ سيف بن ذى يزن باسترداد ملكه من الحبشة

لما ظَفِرَ سيف بن ذى يزن بالحبشة ، أتتهُ وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنئهُ وتمدحهُ ، ومنهم وفد قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هَاشم ، فاستأذنه فى الكلام فأذن له ، فقَال :

« إن الله تعَالى — أيها الملك — أحلك محلاً رفيعًا ، صعبًا منيعًا ، باذخًا[3] شَامخًا ، وأنبتك مَنْبِتًا طَابت أرومتهُ[4] ، وعَزَّتْ جُرْثومتهُ[5] ، وثَبَتَ أصله ، وبَسَقَ[6] فرعهُ ، فى أكرم مَعْدِن ، وأطيب مَوْطن ، فأنت — أبيت اللعن — رأس العرب وربيعها الذى به تُخصِب ، وملكها الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليهِ العماد ، ومَعْقِلُها[7] الذى إليهِ يلجأ العبَاد ، سَلَفُكَ خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خيرُ خلف ، ولن يهلِكَ مَنْ أنت

(١) نهنه عن الأمر : كفه وزجره . (٢) فى الأصل « حزيرته » ، وفى كتب اللغة : « حزرة المال ؛ وحزيرته : خياره » ولا معنى لها هنا ، وأرى أنها مصحفة من « جريرته » .

(٣) عاليا ، من بذخ بذخا كفرح . (٤) أرومة : بالضم والفتح أى أصل . (٥) اصله أيضا .

(٦) علا وطال . (٧) الملجأ .

خَلَفُهُ ، وَلن يَخْمُلَ مَنْ أنت سَلَفُهُ ، نحن أيهَا الملك أهل حَرَم الله وذمته ، وَسَدَنة بيته ، أشْخَصَنا إليك الذى أبهجك بكشف الكرب الذى فَدَحَنا[1] ، فنحن وفد التهنئة ، لاَ وَفد المَرْزِئَة[2] » .

(العقد الفريد ١ : ١٠٧ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١١) .

٥٠ — خطبة أبى طالب

فى زواج الرّسول صلى الله عليه وسلّم بالسيدة خديجة

خطب أبو طالب حين زواج النبىّ صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم ، وذريّة إسمٰعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيتاً محجوجًا ، وجعلنَا الحكامَ عَلَى الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابنَ أخى مَنْ لايُوازَن به فتى من قريش إلا رَجَح عليهِ : برًّا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجداً ونُبلا[3] ، وإن كان فى المال قُلّ[4] ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية[5] مُسْتَرْجَعة ، وله فى خديجة بنت خُوَيلد رغبةٌ ، ولها فيهِ مثلُ ذلك ، وما أحببتم من الصَّداق فعلىّ » .

(صبح الأعشى ١) ٢١٣ ، وإعجاز القرآن ١٢٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ٤ ؛ والسيرة الحلبية ١ : ١٣٣)

---

(١) أثقلنا . (٢) رزأه ماله : كجعل وعلم أصاب منه شيئا رزءا ، كارتزأه ماله ، ورزأه رزءا ومرزئة أصاب منه خيرا : أى لسنا وافدين للعطاء .

(٣) ذكاء ونجابة . (٤) قلة . (٥) مايستعار ، مشددة وقد تخفف .

خطب الكهان

٥١ ـ الكاهن الخزاعى ينفر هاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد شمس

وَلِيَ هاشم بعد أبيهِ عبد مناف ، ما كان إليه من السقاية والرِّفادة(١) ، فحسده أُمَيّة بن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامه ، وكان ذا مال ، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنهُ ، فَشَمِتَ به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لِسِنِّهِ وقدره ، فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سُود الحدَق يَنْحَرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضى بذلك أمية ، وجعلا بينهما الكاهن الخُزاعِيّ ـ وهو جد عمرو بن الحَمِق ، ومنزله بِعُسْفان(٢) ، وكان مع أمية هَمْهَمة بن عبد العُزَّى الفِهْرِيّ ، وكانت ابنته عند أمية ، فقال الكاهن :

« والقمرِ الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغَمام الماطر ، وما بالجوِّ من طائر ، وما اهتدى بعَلَمٍ(٣) مسافر ، من مُنْجِدٍ وغائر(٤) ، لقد سَبَق هاشمٌ أميةَ إلى المآثر ، أوّلٌ منه وآخر ، وأبو همهمة بذلك خابر » .

---

(١) السقاية : هى إسقاء الحجيج الماء العذب ، والرفادة : خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها ، فتدفعه إليه ، فيصنع به طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

(٢) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة . (٣) العلم : ما نصب فى الطريق يهتدى به .

(٤) أنجد : أتى نجدا ، وغار وأغار : أتى غورا .

فقضى لهاشم بالغَلَبة ، وأخذ هاشم الإبل ، فنحرها وأطعمها ، وغاب أمية عن مكة بالشأم عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، والسيرة الحلبية ١ : ٤ ، وتاريخ الطبرى ٢ : ١٨٠)

٥٢ — عوف بن ربيعة الأسدى يتكهن بمقتل حجر بن الحارث

كان حُجْر بن الحارث (أبو امرئ القيس) ملك بنى أسد ، وكان له عليهم إتَاوَة[١] كل سنة لما يحتاج إليه ، فبقى كذلك دهرًا ، ثم بعث إليهم من يَجْبِى ذلك منهم ، وحجر يومئذ بتِهَامة ؛ فطردوا رسله وضربوهم ، فبلغ ذلك حجْرًا ، فسار إليهم ، فأخذ سَرَوَاتِهِم[٢] وخِيارهم ، وجعل يقتلهم بالعصا (فسُمُّوا عبيد العصا) وأباح الأموال وصيرهم إلى تهامة ، وحبس جماعة من أشرافهم منهم عَبيد بن الأبرص الشاعر ، فقال شعرًا يستعطفه فيه ، ومنه قوله :

أنت المَلِيك عليهمُ   وهم العَبيد إلى القيامهْ

فرقّ لهم وعفا عنهم ، وردهم إلى بلادهم ، فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدى ، فقال لهم : يا عبادى ، قالوا : لَبَّيْكَ رَبَّنا ، فقال : « مَن المَلِكُ الصَّلْهَبُ[٣] ، الغَلابُ غير المُغَلَّب[٤] ، فى الإبل كأنها الرَّبْرَب[٥] ، لايُقْلِقُ رأسهُ الصَّخَبُ ، هذا دَمُهُ يَنْثَعِبُ[٦] ، وهو غدًا أول من يُسْتَلَب » قالوا : ومن هو ؟ رَبَّنا . قال : « لولا تَجيُشُ[٧] نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْرٌ ضاحيةً[٨] » .

---

(١) خراج .   (٢) سروات جمع سراة بالفتح : وهى اسم جمع سرى كغنى من سرو سروا وهو المروءة فى شرف .   (٣) حجر صلب : شديد صلب ، والصلهب أيضا : الشديد من الإبل، والرجل الطويل ، وفى الشعر والشعراء والأغانى « الأصهب » ومن معانيه الأسد .   (٤) المغلب : المغلوب مرارا (وهو أيضا المحكوم له بالغلبة . ضد) .   (٥) الربرب : القطيع من بقر الوحوش.   (٦) ينفجر. (٧) جاشت النفس وتجيشت : ارتفعت من حزن أو فزع .   (٨) علانية ، يقال فعله ضاحية : أى علانية .

فركبوا كل صَعْب وذلول ، حتى بلغوا عسكر حجر ، فهجموا عليه فى قبته فقتلوه .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٨٣ ، والشعر والشعراء ، ص ٣١، والأغانى ٨ : ٦٣)

٥٣ — كاهن بنى الحارث بن كعب يحذرهم غزو بنى تميم

كان بنو تميم قد أغاروا على لَطِيمَة[1] لكسرى ، فيها مسك وعنبر وجوهر كثير ، فأوقع كسرى بهم ، وقتل المُقاتِلة ، و بقيت أموالهم وذراريّهم فى مساكنهم لا مانع لها و بلغ ذلك بنى الحارث بن كعب من مَذْحِج ، فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا اغتنموا بنى تميم ، فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من زَيْد وحزم بن رَيَّان فى عسكر عظيم ، وساروا يريدون بنى تميم ، فحذَّرهم كاهن كان مع الحارث واسمه سَلَمَة بن المُغَفَّل ، وقال :

« إنكم تسيرون أعقابًا[2] ، وتَغزُون أحبابًا[3] ، سَعْدًا وَرَبَابًا ، وتَرِدُون مياهًا جِبَابًا[4] ، فتَلْقَوْن عليها ضِرَابًا ، وتكون غنيمتكم ترابًا[5] ، فأطيعوا أمرى ولا تغزُوا تميماً » ولكنهم خالفوه وقاتَلُوا بنى تميم ، فَهُزِمُوا هزيمة نَكْرَاء .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ٢٢٧ ، والأغانى ١٥ : ٧٠)

---

(١) اللطيمة : العير تحمل الطيب و بز التجار .

(٢) أى يسير بعضكم عقب بعض ، فريقا فى إثر فريق . وقد ذكر ابن الأثير أنهم كانوا نحو ثمانية آلاف ، ولا يعلم فى الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيش كسرى بذى قار ومن يوم جبلة . وروى أبو الفرج الأصبهانى أنه اجتمع من مذحج ولفها اثنا عشر ألفا . (٣) هذه الفاصلة والفاصلتان قبلها ، وردت فى الأصل محرفة هكذا : « إنكم تسيرون أعيانا ، وتنزون أحيانا ؛ سعدا وريانا » .

(٤) الجباب والأجباب جمع جب : وهو البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . (٥) أورد صاحب الأغانى من هذه الفقر الست ، الفقرة الأولى والرابعة والسادسة ، وعزاها إلى المأمور الحارثى وهو كاهن أيضا

٥٤ — أحد كهان اليمن يفصل فى أمر هند بنت عتبة

كان الفاكِهُ بن المُغيرة المخزومىّ أحد فتيان قريش، وكان قد تزوج هند بنت عُتْبة، وكان له بيت للضِّيافةِ يَغشاه الناس فيه بلا إذن، فقال[1] يوما فى ذلك البيت، وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة؛ فجاء بعضُ من كان يغشَى البيت، فلما وجد المرأة نائمة ولَّى عنها، فاستقبله الفاكه بن المغيرة، فدخل على هند وأنبها، وقال: من هذا الخارجُ من عندك؟ قالت: والله ماانتبهت حتى أنبهتنى، وما رأيت أحدا قطُّ، قال: الحقى بأبيك، وخاض الناس فى أمرهم، فقال لها أبوها: يابنيةُ العارَ[2] وإن كان كذبا، بَثِّينى شأنك، فإن كان الرجل صادقا دَسَسْتُ عليه من يقتله، فيقطعُ عنك العار، وإن كان كاذبا حاكمته إلى بعض كهّان اليمن، قالت: والله يا أبَتِ إنه لكاذب، فخرج عتبة فقال: إنك رميت ابنتى بشىء عظيم، فإما أن تُبيِّن ما قلت، وإلا فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن، قال: ذلك لك، فخرج الفاكه فى جماعة من رجال قريش، ونسوةٍ من بنى مخزوم، وخرج عتبة فى رجال ونسوة من بنى عبد مناف، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيّر وجه هند، وكَسَفَ بالها، فقال لها أبوها: أى بنية، ألاَ كان هذا قبل أن يشتهر فى الناس خروجنا؟ قالت: يا أبت والله ماذلك لمكروه قِبَلى، ولكنكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب، ولعله أن يَسِمَنى بِسِمَةٍ تبقى على ألسنة العرب، فقال لها أبوها: صدقت، ولكنى سأخبُرُهُ لَكِ، فصفَّر بفرسه، فلما أدلى عَمَدَ إلى حبة بُرّ، فأدخلها فى إحليله، ثم أوكى[3] عليها وسار، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فقال له عتبة: إنا أتيناك فى أمر، وقد خبأنا لك خبيئةً، فما هى؟ قال: بُرّة فى

(١) قال قيلا وقائلة وقيلولة ومقيلا: نام فى القائلة وهى نصف النهار. (٢) أى اتق العار.

(٣) الوكاء ككتاب: حبل يشد به رأس القربة، ووكاها وأوكاها وأوكى عليها شدها بالوكاء.

كَمَرَةٍ[1] ، قال : أريد أبينَ من هذا ، قال : « حَبَّةُ بُرٍّ ، فى إحليل مُهْر » قال : صدقت ، فانظر فى أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ، ويقول : قومى لشأنِك ، حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها وقال : « انهضى غير رَقْحاء[2] ولا زانية ، وَسَتَلِدِين مَلِكاً يسمى معاوية » .

فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها ، فنثرت يده من يدها ، وقالت : إليك عنى ، والله لأحْرِصَنَّ أن يكون ذلك الولد من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان ، فولدت له معاوية .

(العقد الفريد ٣ : ٢٢٤ ، وصبح الأعشى ١ : ٣٩٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ١١١)

٥٥ — خمسة نفر من طيء يمتحنون سواد بن قارب الدوسى

خرج خمسةُ نَفَرٍ من طيِّء من ذوى الْحِجَا والرأى ، منهم بُرْجُ بن مُسْهِر ، وهو أحد المُعَمَّرِين . وأُنَيْفُ بن حارثة بن لأْم ، وعبد الله بن سعد بن الحَشْرَج أبو حاتم طيء ، وعارف الشاعر ، ومُرَّة بن عَبْدِ رُضًى ، يريدون سَوَاد بن قارِب الدَّوْسى ، ليمتحنوا علمه ، فلما قرُبوا من السَّرَاة ، قالوا : لَيخْبَأْ كلُّ رجل منا خَبِيئًا ، ولا يُخْبِر به صاحبه ، ليسأله عنه ، فإن أصاب عَرَفْنا عِلْمَهُ ، وإن أخطأ ارتحلنا عنه ، فَخَبَأ كل رجل منهم خبيئًا ، ثم صاروا إليه ، فأهدوا له إبلاً وطُرَفًا من طُرَفِ الْحِيرَة ، فضرب عليهم قبة ، ونَحَرَ لهم ، فلما مضت ثلاثٌ دعا بهم ، فدخلوا عليه .

فتكلم بُرْج — وكان أسنَّهم — فقال : « جَادَكَ السَّحَابُ ، وَأَمْرَع لك الجَنَاب[3]

(١) الكمرة : رأس الذكر . (٢) الرقحاء : البغى التى تكتسب بالفجور ، من الرقاحة كفصاحة وهى الكسب والتجارة ، هذا ما ورد فى ابن أبى الحديد ، وفى غيره « رسحاء » والرسحاء : القبيحة ، والرسحاء أيضا : القليلة لحم العجز والفخذين والأول أنسب . (٣) أمرع : أخصب ، والجناب : ماحول الدار .

وضفَت عليك النِّعَم الرِّغابُ[١] ، نحن أُولو الآكالِ[٢] ، والحدائق والأغْيَالِ[٣] ، والنَّعَم الجُفَالِ[٤] ، ونحن أصهار الأملاك ، وفُرْسانُ العِرَاكِ — يُوَرِّى عنهم أنهم من بكر بن وائل — » .

فقال سواد : « والسَّماءِ والأرضِ ، وَالغَمْرِ والبَرْضِ[٥] ، وَالقَرْضِ والفَرْضِ[٦] ، إنكم لأهلُ الهِضاب الشُّمِّ ، والنخيلِ العُمِّ[٧] ، والصُّخورِ الصُّمِّ ، مِنْ أجَأَ العَيْطَاء ، وَسَلْمَى ذَاتِ الرَّقَبَةِ السَّطْعاءِ[٨] » .

فالوا : إنا كذلك ، وقد خَبَأْنا لك كل رجل منا خبيئًا ، لتخبرنا باسمه وخبيئه ، فقال لبرج : « أقسم بالضياء والحَلَك[٩] ، والنجوم والفَلَك ، والشروق والدَّلَك[١٠] ، لقد خَبَأْتَ بُرْثُنَ فَرْخ[١١] ، فى إغْلِيط مَرْخ[١٢] ، تحت آسِرَةِ الشَّرْخ[١٣] » قال : ما أخطأتَ شيئًا ، فمن أنا ؟ قال : أنت بُرْج بن مُسْهِر ، عُصْرَةُ المُمْعِرِ[١٤] ، وَثِمَالُ المُحَجَرِ[١٥] » .

---

(١) الضافى : السابغ الكثير ، ويقال : خير فلان ضاف على قومه : أى سابغ عليهم ، والرغاب : الواسعة الكثيرة جمع رغيبة . (٢) الآكال : جمع أكل (كقفل وعنق) الرزق والحظ من الدنيا .

(٣) الأغيال جمع غيل كشمس : وهو الماء الجارى على وجه الأرض . (٤) الجفال : الكثيرة . (٥) الغمر : الماء الكثير ، ويقال : رجل غمر الخلق إذا كان واسع الخلق سخيا ، والبرض : الماء القليل ، ويقال فلان يتبرض حقه . أى يأخذه قليلا قليلا .

(٦) القرض : ماتعطيه لتقضاه ، والفرض : ماافرضته على نفسك فوهبته أوجدت به لغير ثواب .

(٧) الشم : الطوال ، وكذا العم . (٨) أجأ وسلمى : جبلا طيِّئ ، والعيطاء : الطويلة ؛ وكذا السطعاء . (٩) الحلك : شدة السواد . (١٠) دلكت الشمس دلوكا : غربت أو اصفرت ؛ والدلك وقت الدلوك . (١١) البرثن : ظفر كل مالا يصيد من السباع والطير مثل الحمام والضب والفأرة فإذا كان مما يصيد ؛ قيل لظفره مخلب . (١٢) المرخ : شجر تقدح منه النار ؛ والإعليط : وعاء ثمر المرخ ، والعرب تشبه به آذان الخيل . (١٣) الآسرة والإسار : القد الذى يشد به خشب الرحل ، وشرخا الرحل جانباه . (١٤) الممعر : الذى ذهب ماله ، والعصرة : الملجأ والمنجاة .

(١٥) الثمال : الغياث للذى يقوم بأمر قومه ؛ والمحجر : الملجأ (بصيغة اسم المفعول) المضيق عليه .

ثم قام أُنيف بن حارثة ، فقال : ما خبيئى وما اسمى ؟ فقال : « والسحابِ والتراب ، والأَصْباب والأَحْدَاب[1] والنَّعَم الـكُثاب[2] ، لقد خَبَأْت قُطامة فَسِيط[3] ، وقُذَّةَ مَرِيط[4] ، فى مَدَرَةٍ من مَدِىٍّ مَطِيط[5] » قال : ما أخطأت شيئا ، فمن أنا ؟ قال : أنت أُنيف ، قارِى الضَّيف ، ومُعْمِل السيف ، وخالِطُ الشتاء بالصيف » .

ثم قام عبد الله بن سعد . فقال : ماخبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد : « أقسم بالسَّوَامِ العازِب[6] ، والوقِير الـكارِب[7] : والمُجِدِّ الراكب ،والمُشِيح الحارب[8] ، لقد خَبَأْت نُفَاثَةَ فَنَن[9] ،فى قَطِيعٍ قد مَرَن[10] ، أو أديمٍ قد جَرَن » . قال : ما أخطأت حرفاً فمن أنا ؟ قال : أنت ابن سعدِ النَّوال ، عطاؤك سِجَال[11] ، وشَرُّكَ عُضَال ، وعَمَدُكَ طِوَال ، و بيتك لايُنَال » .

ثم قام عارف ، فقال : ما خبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد : « أقسم بِنَفْنَفِ اللوح[12]

---

(١) الأصباب : جمع صبب كسبب : وهو ما انخفض من الأرض ؛ والأحداب: جمع حدب كسبب أيضا : وهو ماعلا . (٢) الـكثيرة . (٣) القطامة : ما قطمته بفيك ؛ والقطم بأطراف الأسنان ، والفسيط : قلامة الظفر . (٤) القذة : الريشة ؛ والمريط من السهام : الذى قد تمرط ريشه أى نتف (٥) المدرة : قطعة طين يابسة ؛ والمدى : جدول صغير يسيل فيه ماهريق من ماء البئر ؛ والمطيطة : المـاء الخاثر فى أسفل الحوض .

(٦) السوام : المال الراعى من الإبل ؛ والعازب : البعيد . (٧) الوقير : القطيع من الغنم ، والـكارب : القريب . (٨) المشيح : الجاد ؛ فى لغة هذيل ؛ وفى غيرها الحاذر ؛ والحارب : السالب حربه حربا كطلبه طلبا : سلبه ماله . (٩) النفاثة : ما تنفثه من فيك ؛ والفنن : واحد أفنان الأشجار وهى أغصانها . (١٠) القطيع : مايقطع من الشجر ؛ ومرن وجرن : لان .

(١١) أى متداول بين الناس ، لـكل فريق منه نصيب . (١٢) النفنف واللوح واحد، وهما الهواء وإنما أضاف لما اختلف اللفظان ، فكأنه أضاف الشىء إلى غيره .

والماء المسفوح[1] ؛ والفضاء المَنْدُوح[2] ، لقد خبأت زَمَعَةَ طَلًا أعفَر[3] ، فى زِعْنِفَة[4] أديم أحمر ، تحت حِلْسِ نِضْوٍ أدبَر[5] » قال : ما أخطأت شيئًا ، فمن أنا ؟ قال : «أنت عارف ذو اللسان العَضْب ، والقلب النَّدْب[6] ، والمَضَاء الغَرْب[7] ، مَنَّاع السَّرْب[8] وَمُبِيح النَّهْب » .

ثم قام مُرَّة بن عَبْدِ رُضًى ، فقال : ما خبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد : « أقسم بالأرض والسماء ، والبروج وَالأنْواءِ[9] ، والظلمة والضياء ، لقد خَبَأْتَ دِمَّة[10] ، فى رِمَّة[11] ، تحت مَشِيط لِمَّة[12] » . قال : ما أخطأت شيئًا ، فمن أنا ؟ قال : « أنت مُرَّة ، السريع الكَرَّة ، البَطِيء الفَرَّة ، الشديد المِرَّة[13] » .

قالوا : فأَخْبِرْنا بما رأينا فى طريقنا إليك ، فقال : « وَالناظِرِ من حيثُ لا يُرَى ، والسَّامِعِ قبل أن يُنَاجَى ، والعالِمِ بما لا يُدْرَى ، لقد عنَّت لكم عُقَابٌ عجزاء[14] ، فى شغَانيب[15] دَوْحة جَرْدَاء ، تحمل جَدْلًا[16] ، فتماريتم[17] إمَّا يدًا وَإمَّا رِجلًا » ، فقالوا : كذلك ، ثم مَه ؟ قال : « سَنَحَ لكم قبل طلوع الشَّرْق[18] ، سِيدٌ أمَق[19] ،

(١) المصبوب . (٢) الواسع . (٣) الطلا : ولد الظبى ساعة يولد ، والصغير من كل شىء ، والأعفر من الظباء ما يعلو بياضه حمرة ، والزمعة : الشعرات المتدليات فى رجل الأرنب .

(٤) زعانف الأديم : أطرافه مثل اليدين والرجلين ، ومالا خير فيه جمع زعنفة بكسر الزاى والنون ، ومنه قيل لرذال الناس الزعانف .

(٥) الحلس للبعير كالبرذعة للحافر ، والنضو : المهزول من الإبل وغيرها ، والأدبر : الذى أصابه الدبر (بالتحريك) وهو قرحة الدابة . (٦) الذكى . (٧) الحد . (٨) السرب بالفتح : الماشية كلها ، وبالكسر القطيع من الظباء والنساء وغيرها . (٩) الأنواء : جمع نوء (كسهم) النجم : مال للغروب . (١٠) اللمة : القملة . (١١) الرمة : العظام البالية .

(١٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والمشيط : الممشوط .

(١٣) المرة : القوة . (١٤) العجزاء : التى ابيض ذنبها ، (وفى غير هذا الموضع : التى كبرت عجيزتها) . (١٥) الشغانيب جمع شغنوب كعصفور وهو الغصن الناعم الرطب ، والدوحة : الشجرة العظيمة . (١٦) الجدل : العضو وجمعه جدول . (١٧) تجادلتم . (١٨) الشرق : الشمس ، والعرب تقول لا أفعل ذلك ما طلع شرق ، وشرقت الشمس : طلعت ، وأشرقت : أضاءت . (١٩) السيد : الذئب والأمق : الطويل .

على ماء طَرْق[١] » قالوا : ثم ماذا ؟ قال : « ثم تيس أفرق[٢] ، سَنَدَ فى أَبْرَق[٣] ، فرماه الغلام الأزرق ، فأصاب بين الوابِلة[٤] والمِرْفَق » . قالوا : صدقت ، وأنت أعلم من تحمل الأرض ، ثم ارتحلوا عنه .

(الأمالى ٢ : ٢٩٢)

٥٦ — حديث مصاد بن مذعور القينى

كانَ مَصَاد بن مَذْعُور القَيْنى رئيسًا ، قد أخذ مِرْبَاعَ[٥] قومِهِ دَهْرًا ، وَكانَ ذا مال ، فَنَدّ ذَوْدٌ[٦] من أذوادٍ له ، فخرج فى بِغَائِهَا[٧] ، قال : فإنى لفى طَلَبها ، إذْ هبطْتُ وادِيًا شَجِيرًا[٨] كثيفَ الظلال ، وقد تَفَسَّخْتُ أَيْنًا[٩] ، فأَنَخْتُ راحلتى فى ظل شجرة ، وَحطَطْتُ رَحْلِى ، وَرَسَفْتُ[١٠] بعيرى ، واضطجعت فى بُرْدِى ، فإذا أرْبَعُ جوَارٍ ، كأنهن اللآلى ، يَرْعَيْن بَهْمًا لهنّ ، فلما خالطَتْ عينى السِّنَةُ ، أقبلن حتى جلسن قريبا منى ، وفى كف كل واحدة منهن حَصَيَاتٌ تقلّبهن ، فخطَّت إحداهن ثم طرَقت[١١] ، فقالت : « قلن يا بناتِ عرّاف ، فى صاحب الجمل النِّيَاف[١٢] ، والبُرْد الكُثَاف[١٣] ، والجِرم[١٤] الخُفَاف[١٥] » ، ثم طرَقت الثانية ، فقالت:

---

(١) الطرق : الماء الذى بولت فيه الإبل ، يقال : ماء طرق ومطروق .

(٢) الأفرق من الشاء : البعيد مابين خصييه . (٣) سند فى الجبل : صعد ، والأبرق والبرقاء والبرقة كغرصة : غلظ من الأرض فيه حجارة ورمل ، وجبل أبرق : إذا كان فيه لونان .

(٤) الوابلة : رأس العضد الذى يلى المنكب . (٥) المرباع : ربع الغنيمة ، وكان يختص به الرئيس فى الجاهلية . (٦) ند : شرد ، والذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة ، أو خمسة عشر ، أو عشرون ، أو ثلاثون . (٧) طلبها . (٨) كثير الشجر . (٩) تعبا وكلالا .

(١٠) شددت رسغه . (١١) الطرق : ضرب الكاهن بالحصى .

(١٢) جمل نياف ككتاب وشداد : طويل فى ارتفاع . (١٣) الكثيف . (١٤) الجسد .

(١٥) الخفيف .

« مُضِلُّ أذوادٍ عَلَاكِدٍ[1] ، كُوم صَلَاخِد[2] ، منهن ثلاثٌ مَقَاحِد[3] ، وأربعٌ جَدَائد[4] ، شُسُفٌ صَمَارِد[5] » ، ثم طرقت الثالثة فقالت : « رَعَيْن الفَرْع[6] ، ثم هَبَطْن الكَرَع[7] ، بين العَقِدَات والجَرَع[8] » . فقالت الرابعة : « لِيَهْبط الغائط الأفْيَح[9] ، ثم ليظهرَ فى المَلاَ الصَّحْصَح[10] ، بين سَدِيرٍ وَأَمْلَح[11] ، فهناك الذَّوْدُ رِتَاعٌ بِمُنْعَرَج الأجْرَع » قال : فقمت إلى جملى فشددت عليه رحله وركبت ، ووالله ما سألتهن مَنْ هنّ ولا مِمَّنْ هن ؟ فلما أدبرت ، قالت إحداهن : « أَبْرَحُ[12] فَتًى إن جَدَّ فى طلب ، فماله غيرهن نَشَب[13] ، وسيثُوبُ عن كَثَب[14] ، ففزِّع قلبى والله قولها ، فقلت : وكيف هذا ، وقد خلَّفت بِوَادِىَّ عَرْجاً عُكَامِساً[15] ؟ فركبتُ السَّمْتَ[16] الذى وُصف لى ، حتى انتهيت إلى المواضع ، فإذا ذَوْدى رَوَاتِعُ ، فضربت أعجازهن ،

---

(١) أضل دابته : فقدها ، والعلاكد : الصلاب الشداد جمع علكد كجعفر وزبرج وقنفذ . (٢) بعير أكوم ، وناقة كوماء : عظيمة السنام والجمع كوم ، والصلاخد : العظام الشداد ، واحدها صلاخد بالضم . (٣) المقاحد جمع مقحاد ، وهى الغليظة السنام (والقحدة كرقبة : السنام أو أصله) . (٤) الجدائد جمع جدود كصبور : وهى التى انقطع لبنها . (٥) شسف جمع شاسف : وهو اليابس ضمرا وهزالا ، والصمارد جمع صمرد كزبرج : القليلة اللبن . (٦) الفرع جمع فرعة وهى أعلى الجبل . (٧) الكرع : ماء السماء ينزل فيستنقع ، وسمى كرعا لأن الماشية تكرع فيه . (٨) العقدات جمع عقدة : وهى ماتعقد من الرمل ، والجرع جمع جرعة بالسكون ويحرك : الرملة الطيبة المنبت لاوعوثة فيها ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الدعص لاينبت ، أو الكثيب جانب منه رمل وجانب حجارة كالأجرع والجرعاء . (٩) الغائط : المطمئن من الأرض ، والأفيح : الواسع . (١٠) الملا : الفضاء ، والصحصح والصحصاح والصحصحان : ما استوى من الأرض .

(١١) سدير وأملح : موضعان . (١٢) أشد . (١٣) المال الأصيل من الناطق والصامت .

(١٤) يثوب : يرجع ، والكثب : القرب .

(١٥) العرج : نحو خمسمائة من الإبل ، والعكامس والعكابس : الكثير . (١٦) الطريق .

حتى أشرفت على الوادى الذى فيه إبلى ، فإذا الرِّعاء تدعو بالويل ، فقلت ما شأنُكم ؟ قالوا : أغارت بَهْرَاء على إبلك ، فأسْحَفَتْها[1] ، فأمسيت والله مالى مال غير الذَّود ، فرمى الله فى نواصيهن بالرَّغْسِ[2] ، وإنى اليومَ لأَكثرُ بنى القَين مالاً » .

(الأمالى ١ : ١٤٣)

٥٧ — حديث خنافر بن التوءم الحميرى مع رئيه شصار

كان خُنافِر بن التَّوْءم الحِمْيَرى كاهناً ، وكان قد أُوتى بَسْطَةً فى الجسم ، وسَعَةً فى المال، وكان عاتياً، فلما وفَدت وفود اليمن على النبى صلى الله عليه وسلم وظهر الإسلام أغار على إبل لِمُرَادٍ فاكتسحها ، وخرج بأهله وماله، ولَحِقَ بالشِّحْرِ ، فحالف جَوْدَانَ بن يحيى الفِرْضِمِىّ ، وكان سيداً مَنيعاً، ونزل بواد من أودية الشِّحْر مُخصِباً كثير الشجر من الأَيْكِ والعَرِين[3] قال خنافر: وكان رَئِيِّى[4] فى الجاهلية لايكاد يتغيَّب عنى، فلما شاع الإسلام فقَدْته مدة طويلة ، وساءنى ذلك ، فبينا أنا ليلةً بذلك الوادى نائماً ، إذ هَوى هُوِىَّ العُقَاب ، فقال : خنافر ؟ فقلت : شِصَار ؟ فقال : اسْمَعْ أقُلْ ، قلت : قل أَسْمَعْ ، فقال : « عِهْ تَغْنَمْ ، لكل مدةٍ نهايةٌ ، وكل ذى أَمَدٍ إلى غاية ، قلت : أجل ، فقال : كل دَوْلَة إلى أجل ، ثم يُتَاح لها حِوَلٌ[5] ، انْتُسِخَتِ النِّحَل ، ورَجَعَتْ إلى حقائقها المِلَلُ ، إنك سَجِيرٌ[6] مَوْصول ، والنُّصح لك مَبْذُول ، وإنى آنَسْتُ[7] بأرض الشأم نفراً من آل العُذَام[8] ، حُكّاماً على الحكام ، يَذْبُرون[9] ذارَوْنَقٍ من الكلام ، ليس

---

(١) استأصلتها . (٢) الرغس : البركة والنماء .

(٣) الأيك : الشجر الملتف الكثير ، والغيضة تنبت السدر والأراك ، أو الجماعة من كل الشجر ، والعرين : جماعة الشجر . (٤) الرئى : مايتراءى للإنسان من الجن فيحب .

(٥) الحول : التحول . (٦) السجير : الصديق ، والشجير : الغريب ، وقيل يقال السجير والشجير الصديق . (٧) أبصرت . (٨) العذام : قبيلة من الجن ، كذا قيل .

(٩) ذبرت الكتاب : قرأته (وذبرته أيضا : كتبته كزبرته) .

بالشِّعر المؤلف ، ولا السَّجع المتكاف » فأصغيتُ فَزُجِرْتُ، فعاودت فظُلِفْتُ(١) ، فقلت : بم تهينِمُونَ(٢) ، وإلامَ تعتَزُونَ(٣) ؟ قالوا : « خِطابٌ كُبَّار(٤) ، جاء من عند الملك الجبَّار ، فاسمع ياشِصَارُ ، عن أصدق الأخبار ، واسْلُك أوضح الآثار ، تنجُ من أُوارِ(٥) النار » ، فقلت : وما هذا الكلام ؟ فقالوا : « فُرْقانٌ بَيْنَ الكفر والإيمان ، رسول من مُضَرَ ، من أهل المَدَر ، ابتُعِثَ فظهر ، فجاء بقولٍ قد بَهَرَ ، وأوضح نَهْجًا قد دَثَرَ ، فيه مواعِظُ لمن اعتبر ، ومَعَاذٌ لمن ازدَجَرَ ، أُلِّفَ بالآيِ الكُبَرِ » قلت : ومن هذا المبعوث من مُضَرَ ؟ قال : « أحمدُ خير البشر ، فإن آمنْتَ أُعطِيتَ الشَّبَرَ(٦) ، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَرَ ، فآمنتُ ياخنافر ، وأقبلت إليك أبادر ، فجانِبْ كل كافر ، وشايِعْ كل مؤمن طاهر ، وإلَّا فهو الفراق ، لاعن تلاقٍ » ، قلت : من أين أبغِي هذا الدين ؟ قال : من ذات الإِحَرِّين(٧) والنفَرِ اليَمَانِينَ ، أهل الماء والطين ، قلت : أَوْضِحْ ، قال : « الحَقْ بيثْرِبَ ذاتِ النَّخْل ، والحَرَّةِ ذاتِ النَّعْل(٨) ، فهناك أَهْلُ الطَّوْل والفضل ، والمواساةِ وَالْبَذْلِ ، ثم امَّلَسَ(٩) عني ، فبِتُّ مذعوراً أُراعِي الصباح ، فلما بَرَق لي النور ، امتطيت راحلتي ، وآذَنْتُ(١٠) أَعْبُدِي ، واحتملْتُ بأهلي ، حتى وَرَدْتُ الجوْف ، فرَدَدْت الإبل على أربابها ، بحولِها وَسِقَابِها(١١) ، وأقبلت أريد صنعاء ، فأصبت بها مُعَاذَ بن جَبَل أميرًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته على الإسلام ، وعَلَّمني سُوَرًا من القرآن ، فمَنَّ الله عليَّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة » .

(الأمالي ١ : ١٣٣)

---

(١) منعت . (٢) الهينمة : الصوت الخفي . (٣) تنتسبون . (٤) كبير .
(٥) الأوار : حر النار . (٦) الشبر بالسكون : الخير وحرك للسجع . (٧) الحرة (بالفتح) أرض ذات حجارة نخرة سود وتجمع على حرات وحرار وحرين وأحرين . (٨) النعل : المكان الغليظ من الحرة . (٩) أفلت . (١٠) أعلمت . (١١) الحول جمع حائل وهي الأنثى من أولاد الإبل ، والسقاب جمع سقب كشمس وهو الذكر .

٥٨ شافع بن كليب الصدفي يتكهن بظهور النبي صلى الله عليه وسلم

قَدِمَ عَلَى تُبَّعٍ الآخِرِ ملك اليمن ، قبل خروجه لقتال المدينة[١] ، شافعُ بن كُلَيْب الصَّدَفِيّ[٢] ، وكان كاهناً ، فقال له تُبَّع : هل تجد لقوم ملكا يوازى ملكى ؟ قال : لا ، إلا مُلْكَ غَسَّان ، قال : فهل تجد ملكا يَزِيد عليه ؟ قال :

« أجِدُه لبَارٍّ مبرور ، ورَائِدٍ[٣] بالقُهُور[٤] ، وَوَصْفٍ فى الزَّبُور ، فُضِّلت

---

(١) قال ابن إسحق : « كان تبع الآخر حين أقبل من المشرق بعد أن ملك البلاد جعل طريقه على المدينة ، وكان حين مر بها فى بدايته لم يهج أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابنا له ، فقتل غيلة ، فقدمها وهو مجمع على تخريبها واستئصال أهلها ، فجمع له الأنصار حين سمعوا ذلك وخرجوا لقتاله ، فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لكرام ، فبينا هو على ذلك إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بنى قريظة عالمان راسخان فى العلم ، فقالا له : قد سمعنا ما تريد أن تفعل ، وإنك إن أبيت إلا ذلك ؛ حيل بينك وبينه ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، فقال : ولم ذلك ؟ قالا : إنها مهاجر (بفتح الجيم) نبى يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره ، فانتهى عما كان يريد ، وأعجبه ماسمع منهما ، واتبعهما على دينهما ، وكان هو وقومه أصحاب أوثان ، وخرج متوجها إلى اليمن فدعا قومه إلى اليهودية فأبوا عليه ، ثم أطبقوا على دينه ، فن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن (سيرة ابن هشام ١ : ١١ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٤٦) .

(٢) الصدفى نسبة إلى صدف ككتف : بطن من كندة . (٣) الرائد فى الأصل : المرسل فى طلب الكلأ من الرود وهو الطلب ، يعنى به نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان رائدا لأمته يرتاد لها الخير قال عليه الصلاة والسلام فى أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه : « إن الرائد لايكذب أهله » .

(٤) جاء فى معجم البلدان : « القهر (كشمس) أسافل الحجاز مما يلى نجدا من قبل الطائف .
وأنشد لخداش بن زهير :

دعوا جانبى ، إنى سأنزل جانبا ... لكم واسعا بين اليمامة والقهر »

وأقول : هذا الوصف ينطبق على مكة فهى واقعة جنوبى الحجاز . . . الخ . فالمعنى : « أجد ملكا يزيد على ملكك لرائد يظهر بتلك البقاع » أما كلمة القهور فلم أجدها فى معجم ، ولعل الكاهن جمع « القهر » على قهور ، لإقامة الفاصلة ، أو هو على حد قول امرىء القيس :

يزل الغلام الخف عن صهواته ... كما زلت الصفواء بالمتنزل

أمَّتِه فى السُّفُور[1] ، يفرج الظلَم بالنور ، أحمد النبى ، طوبَى لأمته حين يجى ، أحد بنى لُؤىّ ، ثم أحد بنى قُصَىّ » .

فنظر تبع فى الزبور ، فإذا هو يجد صفة النبى صلى الله عليه وسلم .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٦٤)

٥٩ — سطيح الذئبى[2] يعبر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمى

ورأى رَبيعة بن نَصر اللَّخْمِىّ ملك اليمن ـ وقد ملك بعد تُبَّع الآخر ـ رُؤْيَا هالَتْه ، فلم يدع كاهناً ، ولا ساحراً ، ولا عائِفاً ، ولا منَجِّماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفَظِعْتُ[3] بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها ، قالوا له : اقْصُصْهَا علينا نخبرْك بتأويلها ، قال : إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها فإنه لايعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى سَطِيح وشِقٍّ ، فإنه ليس أحد أعلم منهما فيها ، يُخبرانه بما سأل عنه ، فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شِقّ ، فقال له : إنى قد رأيت رؤيا

---

(١) السفر (كحمل) الكتاب الكبير ، أو جزء من أجزاء التوراة ، وفى كتب اللغة أنها تجمع على أسفار ، ولعله جمعها على سفور للمحافظة على السجع أيضا .

(٢) اسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن غسان ، وكان يقال له الذئبى نسبة إلى ذئب بن عدى ، وكان من المعمرين قيل عاش ثلثمائة سنة وقيل سبعمائة ، وزعموا أنه لم يكن له رأس ولا عنق ، وأن وجهه كان فى صدره ، وأنه كان جسدا ملقى لاجوارح له ، وكان لا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب ، فإنه ينتفخ فيجلس ، وكان له سرير من الجريد والخوص ، إذا أريد نقله إلى مكان يطوى من رجليه إلى جمجمته كما يطوى الثوب فيوضع على ذلك السرير ، وإذا أريد استخباره ليخبر عن المغيبات يحرك كما يحرك سقاء اللبن فينتفخ ويمتلىء ويعلوه النفس فيسأل فيخبر عما يسأل عنه ، (كذا) وأن كاهنة بنى سعد ابن هذيم وكانت بأعالى الشأم لما حضرتها الوفاة طلبت سطيحا وشقا (وسيأتى ذكره) وتفلت فى فيهما ، وذكرت أن سطيحا يخلفها فى كهانتها ، ثم ماتت فى يومها ذلك .

(٣) فظع بالأمر كفرح فظاعة : إذا هاله وغلبه .

هالتنى وفَظِعْتُ بها ، فأخبرنى بها ، فإنك إن أصَبْتها أصبت تأويلها . قال : أفعل « رأيتَ حُمَمَةً(١) ، خرجت من ظُلُمَةٍ(٢) ، فوقعت بأرض تَهَمَةٍ(٣) ، فأكلَتْ منها كلَّ ذاتِ جُمْجُمَةٍ(٤) » ، فقال له الملِكُ : ما أخطأت منها شيئاً ياسَطِيح، فما عندك فى تأويلها ؟ فقال : « أحلِفُ بما بين الحرَّتين(٥) من حَنَش ، ليَهْبِطَنَّ أرضكم الحبَشُ ، فلَيَمْلِكُنَّ مابين أبْيَنَ(٦) إلى جُرَش(٧) » فقال له الملك : وأبيك يا سطيح . إن هذا لنا لغائظ مُوجِع ، فتى هو كائن ، أفى زمانى هذا أم بعده ؟ قال : « لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين » قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : « لا ، بل ينقطع لبِضْعٍ وسبعين من السنين ، ثم يُقْتَلُون بها أجمعين ، ويخرجون منها هاربين » قال : ومن يَلِى ذلك مِنْ قَتْلِهم وإخراجهم ؟ قال : « يليه إرَمُ(٨) ذى يَزَن ، يخرج عليهم من عَدَن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن » قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال: «بل ينقطع» قال : ومن يقطعهُ ؟ قال «نبى زَكىّ ، يأتيه الوحى من قِبَل العَلِىّ » قال : وممن هذا النبى ؟ قال : « رجل من ولد غالب بن فِهْر ، بن مالك ابن النَّضْر ، يكون المُلْك فى قومه إلى آخر الدهر » قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال :

---

(١) الحممة وتجمع على حمم : الفحمة والرماد وكل مااحترق من النار ، وتطلق الحممة على الجمر مجازا باعتبار مايئول إليه وهو المراد هنا . (٢) الظلمة : الظلام ، وستّرى فى تعبير الرؤيا أنها إشارة إلى الأحباش السود . (٣) التهمة بالتحريك : الأرض المتصوبة إلى البحر ، كالتهم محركة أيضا كأنهما مصدران من تهامة ؛ لأن التهائم متصوبة إلى البحر ويقال أيضا : أرض تهمة كفرحة أى شديدة الحر ، من التهم بالتحريك وهو شدة الحر وفى ابن الأثير « بهمة » بالباء يقال : أرض بهمة كفرحة أى كثيرة البهمى ، والبهمى بالضم اسم نبت ، والضبط الأول عندى أرجح . (٤) أى كل نفس . (٥) الحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة ، (٦) مخلاف باليمن منه مدينة عدن . (٧) مخلاف باليمن من جهة مكة .

(٨) الإرم كعنب وكتف : العلم (بالتحريك) أو خاص بعاد ، والعلم سيد القوم ، أى يتولاه سيد بنى ذى يزن ، وهو سيف بن ذى يزن .

« نعم . يومٌ يُجْمَعُ فيه الأولون والآخِرون ، يَسْعَد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون » .
قال : أَحَقٌّ ما تُخبرنا ياسطيح ؟ قال : « نعم ، والشَّفَقِ ، وَالْغَسَقِ [1] ، وَالْفَلَقِ [2] إذا انشقّ ، إن ما أنبأتك به لحَقّ » .

٦٠ شق أنمار [3] يعبر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا

ثم قدم عليه شِقٌّ ، فقال له كقوله لسَطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ، قال : « نعم ، رأيتَ حُمَمَة . خرجَتْ من ظلمة ، فوقعت بين رَوْضَة وأَكَمَة فأكلَتْ منها كلَّ ذات نَسَمَة » . فلما سمع الملك ذلك قال : ما أخطأت ياشقّ منها شيئا ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : « أحْلِفُ بِمَا بين الحَرَّتَيْنِ من إنسان ، لَيَنْزِلَنَّ أرضَكم السودانُ ، فَلَيَغْلِبُنَّ على كل طَفْلَة [4] البنان . وليَمْلِكُنَّ مابين أَبْيَنَ إلى نَجْرَانَ [5] » فقال له الملك : وأبيك ياشِقّ ، إن هذا لنا لغائظ مُوجع ، فمتى هو كائن : أفى زمانى أم بعده ؟ قال : « لا ، بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذوشان ، ويُذِيقهم أشدّ الهوان » قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال : « غلام ليس بدَنِيٍّ ولا مُدَنٍّ [6] ، يخرج عليهم من بيت ذى يَزَن [7] » قال أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : « بل ينقطع برسول

---

(١) الشفق: الحمرة فى الأفق من الغروب إلى قريب العتمة ، والغسق : ظلمة أول الليل .

(٢) الفلق : الصبح أو ما انفلق من عموده . (٣) هو شق بن مصعب بن يشكر بن رهم بن أفرك ابن قيس بن عبقر بن أنمار بن نزار ، وزعموا أنه كان شق إنسان (أى نصفه) له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . (٤) مؤنث طفل : وهو الرخص الناعم من شىء . (٥) مخلاف شمالى اليمن .

(٦) الدنى : مسهل عن دنىء ، والمدنى : المقصر عما ينبغى له أن يفعله ، وفى ابن الأثير « مزن » بالزاى والمزن : المتهم ، من أزننته بكذا أى اتهمته به .

(٧) وخبر ذلك أن زرعة بن كعب الملقب بذى نواس أحد ملوك التبابعة باليمن (وكان قد تهود وتعصب لليهودية وحمل عليها قبائل اليمن) اضطهد نصارى نجران لأن يهوديا بنجران عدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلما ، فتوسل إلى ذى نواس باليهودية ، واستنصره عليهم ، فحمى له ولدينه وغزاهم ، ويقال إن رجلا من =

مُرْسَل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضــل ، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفَصْل » . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : « يوم تُجْزَى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدَعَوَات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويُجْمَعُ فيه بين الناس لِلميقات ، يكون فيــه لمن اتقى الفوزُ والخيرَات » قال : أحقٌّ ما تقول ؟ قال : « إى وربِّ السماء والأرض ، وما بينهما من رَفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحقٌّ مافيهِ أَمْض[1] » .

فوقع فى نفس ربيعة بن نصر ماقالا ، فجهز بَنِيهِ وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له سابور فأسكنهم الحيرة . فمن بقيــة ولده النعمان بن المنذر ملك الحــيرة ، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر .

(تاريخ الطبرى : ٩٩ وسيرة ابن هشام ١ : ٨ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٤٦)

٦١ — وفود عبد المسيح بن بقيلة على سطيح

عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

« لما كان ليلة ولد النبى صلى اللهُ عليه وسلم ، ارتجَّ إيوان كسرى ، فسقطت منه أربع عشرة شُرْفة ، فعظم ذلك على أهل مملــكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه

= أهل نجران أفلت من القتل ، وسار إلى قيصر الروم يستنجده على ذى نواس ، فبعث قيصر إلى نجاشى الحبشة يأمره بنصرة النصارى ، فجهز جيشا إلى اليمن ، فركبوا البحر إليها ، ولقيهم ذو نواس فيمن معه فدارت الدائرة عليه ، وملــكت الحبشة اليمن ، ولما طال البلاء من الحبشة على أهلها خرج سيف بن ذى يزن الحميرى وقدم على قيصر يوستنيان يستنجده على الحبشة فأبى ، وقال : الحبشة على دين النصارى ؛ فرجع إلى كسرى أنوشروان واستعانه ، فأمده بجيش ممن كانوا فى سجونه ؛ فقاتلوا الأحباش وهزموهم ؛ واسترد سيف عرش آبائه على فريضة يؤديها كل عام للفرس حتى قتل ؛ فأرسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله إلى أن كان آخرهم باذان فأسلم ؛ وصارت اليمن إلى الإسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) أى شك أو باطل .

صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوَة[1] غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السَّماوة يخبره أن وادى السَّماوة[2] انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طَبَرِيَّة أن الماء لم يجر تلك الليلة فى بحيرة طبرية ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خَمِدَتْ تلك الليلة ، ولم تَخْمَدُ قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر ، فقال المُوبَذَان[3] : أيها الملك إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتنى ، قال له : وما رأيت ؟ قال : رأيت إبلا صعابا ، تقود خيلا عِرَابا ، قد اقتحمت دِجْلة وانتشرت فى بلادنا ، قال : رأيت عظيما فما عندك فى تأويلها ؟ قال : ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجِّه إليك رجلا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان ، فبعث إليه عبد المسيح بن بُقَيْلة الغَسَّانى . فلما قدِم عليه أخبره كسرى الخبر ، فقال له : أيها الملك ، والله ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ، ولكن جهِّزْنى إلى خال لى بالشام يقال له سَطِيح . قال : جهزوه ، فلما قدِم إلى سطيح وجده قد احْتُضِر ، فناداه فلم يجبهُ ، وكلّمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أَصَمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليَمَنْ ... يا فاصِلَ الخطَّةِ أعْيَتْ مَنْ وَمَنْ[4]
أتاك شيخ الحيِّ من آل سَنَن ... أبيض فَضْفَاض الرِّداء وَالبَدَنْ[5]
رسول قَيْلِ العُجْم يَهْوِى لِلْوَثَنْ ... لاَ يَرْهَبُ الرَّعْدَ ولاَ رَيْبَ الزَمَنْ[6]

---

(١) هكذا فى العقد الفريد ، وفى السيرة الحلبية « وورد عليه كتاب من صاحب إيليا (بالشام) يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة » وفى معجم البلدان : « ساوة مدينة حسنة بين الرى وهمذان فى وسط ، بينها وبين كل واحد من همذان والرى ثلاثون فرسخا ، وفى حديث سطيح فى أعلام النبوة : « وخمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة . . . الخ » ومنه يستفاد أنها فى فارس .

(٢) موضع بين الكوفة والشأم . (٣) الموبذان والموبذ : فقيه الفرس وحاكم المجوس .

(٤) الغطريف : السيد الشريف . (٥) الفضفاض : الواسع .

(٦) القيل : الملك ؛ أو هو دون الملك الأعلى .

فرفع إليه رأسه وقال : « عبد المسيح ، على جمل مُشيح[١] ، إلى سَطِيح ، وقد أوفى على الضَّريح[٢] ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المُوبَذَان ، رأى إبلا صِعَابًا ، تقود خَيْلاً عِرَابًا ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . يا عبد المسيح : إذا كثرت التِّلاوة[٣] ، وظهر صاحب الهِراوة[٤] ، وفاضَ وادى السماوة ، وَغاضَتْ بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفرس مُقَامًا ، ولا الشام لسطيح شَامًا ، يملك منهم ملوك وملكات[٥] ، عدد سقوط الشُّرُفات ، وكل ما هو آتٍ آت » ثم قال :

إن كان مُلْكُ بنى ساسان أفْرَطَهُم ... فإن ذا الدهرَ أطوارًا دَهَارِيرُ[٦]
منهم بنو الصَّرْح بهرامٌ وإخوته ... والهُرْمُزَانُ وَسَابُورٌ وسابور
فربما أصبحوا يومًا بمنزلةٍ ... تهابُ صَولَهم الأُسْدُ المَهَاصِير[٧]
حثُّوا المَطِيَّ وَجدُّوا فى رِحالهمُ ... فما يقوم لهم سَرْج وَلا كُور[٨]
والناس أولاد عَلاَّتٍ فمن علموا ... أنْ قد أَقَلَّ فمحقور ومهجور[٩]
والخير والشرّ مقرونان فى قَرَن ... فالخير مُتَّبَع والشرّ محذور

---

(١) جاد سريع . (٢) أى القبر ؛ والمراد الموت . (٣) أى تلاوة القرآن .

(٤) الهراوة : العصا الضخمة ؛ وصاحبها هو النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمسك العصا كثيرا عند مشيه . (٥) قال صاحب السيرة الحلبية : « لم أقف على أنه ملك منهم من النساء إلا واحدة وهى بوران ؛ ملكت سنة ثم هلكت » .

(٦) أفرطهم : تركهم وزال عنهم ؛ قال تعالى : « لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ، وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ »

أى متروكون فيها ؛ ودهر دهارير : أى شديد (كليلة ليلاء ويوم أيوم).

(٧) المهاصير جمع مهصار أو مهصير وهو الأسد من الهصر وهو الكسر والجذب والإمالة .

(٨) الكور : الرحل بأداته . (٩) أولاد العلات : أولاد أمهات شتى من رجل واحد .

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح فغمهُ ذلك ، ثم تعزَّى ، فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان ، فهلكوا كلهم فى أربعين سنة ، وكان آخر من هلك منهم فى أول خلافة عثمان رضى الله عنه .

(تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٢ والعقد الفريد ١ : ١٠٨ ، والسيرة الحلبية ١ : ٧٠ ، والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ١ : ١١٠) .

٦٢ — شق وسطيح ينبئان بأصل ثقيف

عن ابن الكلبي قال : « كان قَسِيٌّ — وهو ثقيف[1] — مقيما باليمن ، فضاق عليه موضعه وَنَبَا[2] به ، فأتى الطائفَ ، وهو يومئذ منازل فَهْم وَعَدْوَانَ بنى عمرو بن قيس ابن عَيْلَانَ ، فانتهى إلى الظَّرِب العَدْوَانى ، فوجده نائما تحت شجرة فأيقظه ، وقال : من أنت ؟ قال : أنا الظَّرِب ، قال : عَلَىَّ أَلِيَّةٌ[3] إن لم أقتلك ، أو تحلف لى لَتزَوِّجَنِّى ابنتك ، ففعل ، وانصرف الظرب وَقَسِيٌّ معه ، فلقيه ابنه عامر بن الظرب ، فقال : من هذا معك يا أَبَتِ ؟ فقصَّ قصته ، قال عامر : لله أبوه ! لقد ثَقِفَ[4] أمره ، فسمى يومئذ

(١) هو أبو القبيلة المشهورة ، وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ؛ وقد اختلف النسابون فى نسب ثقيف ، فقال قوم : إنهم من هوازن ، وهو القول الذى يزعمه الثقفيون ؛ وعليه جمهور الناس ، وزعم آخرون أن ثقيفا من إياد بن نزار ابن معد بن عدنان ؛ وأن النخع أخوه لأبيه وأمه ؛ ثم افترقا ؛ فصار أحدهما فى عداد هوازن والآخر فى عداد مذحج ؛ وقال قوم آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من العرب القديمة التى بادت وانقرضت . قال الحجاج على المنبر : يزعمون أنا من بقايا ثمود فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » وقال مرة أخرى : ولئن كنا من بقايا ثمود لما نجا مع صالح إلا خيارهم — اقرأ كلمة عن نسب ثقيف فى شرح ابن أبى الحديد م ٢ ص ٣٩٢ ؛ والعقد الفريد ٣ : ٨ ، والأغانى ٤ : ٧٤ ؛ ومروج الذهب ٢ : ٦٨ ؛ وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٣ . (٢) نبا به منزله : لم يوافقه . (٣) الألية : اليمين . (٤) ثقف ككرم وفرح : صار حاذقا خفيفا فطنا . وثقف الشىء كفرح : ظفر به .

ثقيفاً ، وعُيِّرَ الظرب بتزويجه قَسِيًّا ، وقيل زوجتَ عبدًا ، فسار إلى الكهان يسألهم ، فانتهى إلى شِقّ بن مُصْعَب البَجَلِيّ ، وكان أقربَهُمْ منه . فلما انتهى إليه قال : إنا قد جئناك فى أمر فما هو ؟ قال : « جئتم فى قَسِيٍّ ، وقَسِيٌّ عبدُ إياد ، أَبَقَ[1] ليلة الواد ، فى وَجٍّ[2] ذاتِ الأنداد ، فوالى سعدًا لِيُفَادَ ، ثم لوى بغير مَعَاد » يعنى سعد بن قيس ابن عَيْلان بن مضر ، ثم توجه إلى سطيح الذئبى حَيٌّ من غَسَّان ، ويقال إنهم حى من قُضَاعة نُزُول فى غَسَّان . فقالوا : إنا جئناك فى أمر فما هو ؟ قال : « جئتم فى قسىّ ، وقسىّ من ولد ثمود القديم ، ولدته أمه بصَحْرَاء تَرِيمُ[3] ، فالتقطه إياد وهو عَدِيم ، فاستعبده وهو مُلِيم[4] » . فرجع الظرب وهو لايدرى مايصنع فى أمره . وقد وكَّد عليه فى الحِلْفِ والتزويج ، وكانوا على كفرهم يُوفون بالقول ، فلهذا يقول من قال إن ثقيفاً من ثمود ، لأن إياداً من ثمود » . (الأغانى ٤ : ٧٥)

٦٣ — تنافر عبد المطلب بن هاشم والثقفيين إلى عزى سلمة الكاهن

كان لعبد المطلب بن هاشم مال بالطائف يقال له : ذو الْهَرَم[5] ، فغلبه عليه خُنْدُف ابن الحارث الثَّقَفِيُّ ، فنافرهم عبد المطلب إلى عُزَّى سلمة الكاهن — أو إلى نُفَيل ابن عبد العُزَّى جد عمر بن الخطاب[6] — فخرج عبد المطلب مع ابنه الحَرْث ، وليس له يومئذ غيره ، وخرج الثقفيون مع صاحبهم ، وحربُ بن أُمَيَّة معهم على عبد المطلب ، فنفِد ماء عبد المطلب ، فطلب إليهم أن يسقوه ، فأَبَوْا ، فبلغ العطش منه كل مَبْلَغ ، وأشرف

---

(١) هرب . (٢) وج : اسم واد بالطائف . (٣) رام يريم ريما : تباعد .
(٤) ألام فهو مليم : أتى مايلام عليه .
(٥) ضبطه فى القاموس المحيط بفتح فسكون ؛ والصحيح أنه بالتحريك كما يدل على ذلك الأسجاع الآتية . (٦) وعبارة معجم ياقوت : « فنافرهم عبدالمطلب إلى الكاهن القضاعى وهوسلمة بن أبى حية فخرجوا إليه إلى الشأم » .

على الهلاك ، فبينا عبد المطلب يُثير بعيره ليركبَ ، إذ فَجَّر الله له عينا من تحت جِرانه ، فحمِدَ الله وعلم أن ذلك منهُ ، فَشَرِب وشرب أصحابه رِيَّهم وتزودوا منهُ حاجتهم ، وَنَفِدَ ماء الثقفيين ، فطلبوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم فأنعم عليهم ، فقال له ابنهُ الحارث لَأنحنِيَنَّ على سيفى حتى يخرج من ظهرى ، فقال عبد المطلب : لأسْقِيَنهم فلا تفعل ذلك بنفسك فسقاهم ، ثم انطلقوا، حتى أتوا الكاهن، وقد خَبَئوا له رأس جَرادة ، فى خُرْزَةِ مَزَادة[1] ، وجعلوه فى قِلَادة كلب لهم يقال له سَوَّار ، فلما أتوا الكاهن إذا هم بيقرتين تسوقَان بينهما بَخْرَجاً[2] كلتاهما تزعم أنه ولدها ، وَلدَتَا فى ليلة واحدة ، فأكل النَّمِرُ أحد البَخْرَجين . فهما تَرْأمان[3] الباقى ، فلما وقفتا بين يديه . قَال الكاهن : هل تدرون ما تريد هاتان البقرتان ؟ قَالوا : لا . قَال الكاهن : « ذهب به ذو جَسَدٍ أَرْبَدَ[4] ، وَشِدْقٍ مُرَمِّعٍ[5] ، وناب مُعْلِقٍ[6] ، ما للصغرى فى ولد الكبرى حقٌّ » فقضى به للكبرى ، ثم قَال : ما حاجتكم ؟ قَالوا : قد خَبَأنا لك خَبْئًا ، فأنبئنا عنهُ ، ثم نخبرك بحاجتنا ، قَال : « خبأتم لى شيئاً طَار فسطع ، فتصوَّب فوقع ، فى الأرض منهُ بُقَع ، فقالوا : لَادَه ، أى بَيِّنه . قَال : « هو شىء طار ، فاستطار ، ذو ذَنَبٍ جَرَّار ، وساق كَالْمِنْشَار ، ورأس كَالْمِسْمار » فقالوا : لاده ، قَال : « إن لاده فَلَادَه[7] ، هو

---

(١) المزادة : الراوية ، والخرزة : السير يخرز به . (٢) البخرج : ولد البقرة .
(٣) رئمت ولدها : عطفت عليه ولزمته . (٤) من الربدة (كصفرة) : لون إلى الغبرة .
(٥) رمع كنع رمعانا (بالتحريك) وترمع : تحرك واضطرب ، وقوله مرمع : اسم فاعل من رمع المضعف ، يشير إلى أنه مفترس كاسر . (٦) من أعلق الصائد إذا علق الصيد فى حبالته أى تشب .

(٧) روى ابن الأعرابى إلاده فلاده ساكن الهاء . ويروى إلاده فلاده مكسور الهاء منونة ، قال ياقوت فى معجمه : « يقول إن لم يكن قولى بيانا فلا بيان » وقال الزمخشرى فى المستقصى : « إن لاده فلاده بفتح الدال ويكسر ، وهى كلمة فارسية معناها الضرب قد استعملتها العرب فى كلامها . وأصله أن الموتور كان يلقى واتره فلا يتعرض له فيقال له ذلك ، والمعنى إنك إن لم تضربه الآن فلا تضربه أبدا ، والتقدير إن لايكن ده فلا يكون ده : أى إن لا يوجد ضرب الساعة ، فلا يوجد ضرب أبدا ، ثم اتسعوا فيه فضربوه مثلا فى كل شىء لايقدم عليه الرجل ، وقد حان حينه ووجب إحداثه من قضاء دين قد حل أو حاجة طلبت ، أو ما أشبه ذلك من الأمور التى لايسوغ تأخيرها » . وقال المنذرى : « قالوا معناه إلا هذه فلا هذه ، يعنى أنه الأصل إلاذه فلاذه بالذال المعجمة ، فعربت بالدال غير المعجمة كما قالوا يهوذا ثم عرب فقيل يهودا» .

رأس جَرَادة ، فى خُرَز مَزَادَة ، فى عُنُق سَوَّارٍ ذى الْقِلَادة » ، قالوا : صدقت ، فأَخْبِرنا فيمَ اختصمنا إليك ؟ قال : « أَحْكُمُ بالضياء وَالظُّلَم ، والبيت والحَرَم ، أن المال ذا الْهَرَم ، للقرشى ذى الكَرَم » فقضى بينهم ، ورجعوا إلى منازلهم على حكمه .

(مجمع الأمثال ١ : ٣٠ ومعجم البلدان ٨ : ٤٦٠)

***

وروى الجاحظ لعزى سلمة أنه قال :

« والأرضِ وَالسَّماء ، وَالْعُقَابِ وَالصَّقْعَاء [1] ، واقعة بِبَقْعاء [2] ، لقد نَفَّر المجدُ بنى الْعُشَراء [3] ، للمجد وَالسَّناء [4] » . (البيان والتبيين ١ : ١٥٩)

٦٤ — منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية [5]

تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشىّ ملك الحبشة ، فأبى أن ينفِّرَ بينهما ، فجعلا بينهما نُفَيْل بن عبد الْعُزَّى بن رياح ، فقال لحرب :

---

(١) الصقعة بالضم : بياض فى وسط رءوس الطير وغيرها ، وهو أصقع ، وهى صقعاء (والصقعاء أيضا الشمس) . (٢) البقعاء : اسم ماء . (٣) العشراء : قوم من فزارة ، ونفره عليه : قضى له عليه بالغلبة . (٤) السناء : الرفعة .

(٥) وسبب ذلك أن عبد المطلب كان له جار يهودى يقال له أذينة ، يتجر وله مال كثير ، فغاظ ذلك حرب بن أمية ، وكان نديم عبد المطلب ، فأغرى به فتيانا من قريش ليقتلوه ، ويأخذوا ماله ، فقتله عامر ابن عبد مناف بن عبد الدار ؛ وصخر بن عمرو بن كعب التيمى ، جد أبى بكر رضى الله عنه ، فلم يعرف عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفهما ، وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية ، فأتى حربا ولامه وطلبهما منه فأخفاهما ؛ فتغالظا فى القول ؛ حتى تنافرا إلى النجاشى فلم يدخل بينهما ، فجعلا بينهما نفيل ابن عبد العزى جد عمر بن الخطاب فنفر عبد المطلب عليه ؛ فترك عبد المطلب منادمة حرب ، ونادم عبد الله ابن جدعان التيمى ، وأخذ من حرب مائة ناقة ؛ فدفعها إلى ابن عم اليهودى ، وارتجع ماله إلا شيئا هلك ، فغرمه من ماله .

« يا أبا عمرو : أتنافر رجلا هو أطولُ منك قامَةً ، وأعظم منك هامةً ، وأوسم منك وَسامَةً[١] ، وأقل منك مَلاَمة ، وأكثر منك وَلَدًا ، وأجزل صَفَدًا[٢] ، وأطول منك مِذْوَدًا[٣] ، وإنى لأقول هذا وإنك لبعيدُ الغَضَب ، رفيعُ الصَّوْتِ فى العرب ، جَلْد المَرِيرَة[٤] ، جليل العشيرة ، ولكنك نافرت مُنَفَّرا » .

فغضب حرب وقال : إن من انتكاس[٥] الزمان أن جُعِلت حكما .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، وتاريخ الطبرى ٢ : ١٨١)

٦٥ — ما أمر به عبد المطلب بن هاشم فى منامه من حفر زمزم

وَلِىَ عبد المطب بن هاشم السِّقَاية والرِّفادة بعد عمه المطلب ، وَشَرُف فى قومه ، وعَظم شأنه ، ثم إنه حفر زَمْزَم ، وهى بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، التى أسقاه الله منها ، وكانت جُرْهُم قد دفنتها[٦] ، وكان سبب حفره إياها أنه قال :

« بينا أنا نائم بِالْحِجْرِ إذ أتانى آتٍ فقال : احْفِرْ طِيبَةَ ، قلت : وما طيبة ؟ فذهب وتركنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مَضْجَعى ، فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفِر بَرَّة ، قلت : وما بَرَّة ؟ فذهب وتركنى ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى ،

---

(١) الوسامة : الحسن والجمال . (٢) الصفد : العطاء . (٣) المذود : اللسان .

(٤) المريرة : الحبل الشديد الفتل ، والعزيمة . (٥) أى انقلاب الزمان من انتكس أى وقع على رأسه ، وفى الطبرى : انتكاث بالثاء من انتكاث الحبل وهو انتقاضه .

(٦) وذلك أن جرهم لما استخفت بأمر البيت الحرام ؛ وارتكبوا الأمور العظام ، قام فيهم رئيسهم مضاض بن عمرو خطيبا ووعظهم فلم يرعووا ، فلما رأى ذلك منهم عمد إلى غزالين من ذهب كانا فى الكعبة وما وجد فيها من الأموال أى السيوف والدروع التى كانت تهدى إليها ، ودفنها فى بئر زمزم ، وكانت قد نضب ماؤها فحفرها مضاض بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها ذلك وطم البئر ، وما زالت مطمومة إلى زمن عبد المطلب .

فنمت فيهِ ، فجاءنى فقال : احفِر المضنونة . قلت : وما المضنونة ؟ (١) فذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيهِ ، فجاءنى فقال : احفِرْ زمزم ، إنك إن حفَرْتها لا تندَم ، فقلت : وما زمزم ؟ قال : « تُرَاثٌ من أبيك الأعظم ، لا تُنْزَف أبداً ولا تُذَم (٢) ، تَسْقِي الحَجيجَ الأعظم ، مثل نَعَامٍ جَافِل لم يُقْسَم (٣) ، يَنْذِر فيها ناذِرٌ لِمُنْعِم ، تكون ميراثاً وَعَقْدَ مُحْكِم ، ليس كبعض ما قد تعلم ، وهى بين الفَرْث والدم (٤) ، عند نُقرة الغراب الأعصم (٥) ، عند قَرْيَة النمل » .

فلما بَيَّن له شأنها ، ودله على موضعها ، وعرف أنه قد صدق . غدا بِمعْوله ومعه ابنهُ الحارث ليس له ولد غيره ، فحفر بين إِساف ونائلة ، فى الموضع الذى تنحَر فيه قريش لأصنامها ، وقد رأى الغراب ينقُر هناك ، فلما بدا له الطَّوِىّ (٦) كبَّر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٥ ، والسيرة الحلبية ١ : ٣١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٩٠)

---

(١) طيبة ، وبرة ، والمضنونة : أسماء لزمزم . (٢) نزفت البئر : نزحت كنزفت بالضم ، وبئر ذمة بالفتح وذميم وذميمة : قليلة الماء لأنها تذم . (٣) جفل النعام : أسرع وذهب فى الأرض ، ولم يقسم : لم يفرق . (٤) أى فى محلهما ، والفرث : السرجين فى الكرش ، وذلك بين إساف ونائلة ، (وإساف ككتاب وسحاب : صنم وضعه عمرو بن لحى على الصفا ، ونائلة على المروة تجاه الكعبة) ، وكانت قريش تذبح عندهما ذبائحها التى تتقرب بها . (٥) الأعصم : قيل أحمر المنقار والرجلين ، وقيل أبيض البطن ، وقيل أبيض الجناحين ، وقيل أبيض إحدى الرجلين . (٦) الطوى : البئر .

خطب الكواهن

٦٦ – الشعثاء الكاهنة تصف سبعة إخوة

كانت عَثْمة بنتُ مطرود البَجَلِيَّة ذات عقل ورأى مُسْتَمَع فى قومها ، وكانت لها أخت يقال لها خَوْد ، وكانت ذات جمال وَمِيسَم(١) وعقل ، فخطب سبعةُ إخوة غِلْمة من بطن الأَزْد خودا إلى أبيها ، فأتَوْه وعليهم الحُلَل اليمانية ، وتحتهم النجائب الفُرْه(٢) ، فقالوا : نحن بنو مالك بن غُفَيْلة ذى النِّحْيَيْن ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غادِينَ فى الحُلَل والهيئة ، ومعهم رَبِيبَةٌ(٣) لهم يقال لها الشَّعْثاء : كاهنةٌ ، فمرُّوا بِوَصِيدها(٤) يتعرضون لها ، وكلهم وَسِيم جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فرحَّبَ بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتًا ، ونحن كما ترى شَبَاب ، وكلنا يَمْنَع الجانب ، ويَمْنَح الراغب ، فقال أبوها : كلكم خِيار ، فأقيموا نرى رأينا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما ترَين ، فقد أتاكِ هؤلاء القوم ؟ فقالت : « أنكِحْنِى على قدرى ، ولا تَشْطُط فى مَهْرِى ، فإن تُخطِئْنِى أحلامُهم ، لا تخطئنى أجسامهم ، لعلى أُصيب وَلَدًا ، وأُكَثِّرُ عَدَدًا » فخرج أبوها ، فقال : أخبرونى عن أفضلكم .

قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة: « اسمعْ أُخبرك عنهم : هم إخوة، وكلهم أُسْوَة(٥) .

---

(١) الميسم والوسامة : أثر الحسن . (٢) النجائب جمع نجيب : وهو البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والفره : (كقفل وركع وكتب) جمع فاره ، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الخفيف . (٣) الربيبة : الحاضنة . (٤) الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة .

(٥) الأسوة : القدوة .

أما الكبير فمالكٌ ، جَرِىء فاتك ، يُتْعِبُ السَّنَابِكَ[١] ، ويستصغر المهالك . وأما الذى يَليهِ فالْغَمْر ، بحرٌ غمْرٌ[٢] ، يَقْصُر دونه الفخر ، نَهْدٌ[٣] صَقْر . وأما الذى يليه فَعَلْقَمة ، صَليب المَعْجَمَة[٤] ، مَنِيع المَشْتَمة[٥] ، قليل الجَمْجَمَة[٦] . وأما الذى يليـهِ فعاصِم ، سَيِّدٌ نَاعِم[٧] ، جَلْدٌ صارم ، أَبِىٌّ حازم ، جيشُه غانِم ، وَجارُه سالم . وَأَما الذى يليهِ فَثَواب ، سَرِيعُ الجَوَاب ، عَتِيد الصواب[٨] ، كريم النِّصَاب[٩] ، كَلَيْثِ الغاب . وأما الذى يليهِ فَمُدْرِك ، بَذُولٌ لِمَا يَمْلِك ، عَزُوبٌ[١٠] عما يترك ، يُفْنِى وَيُهْلِك . وأما الذى يليهِ فَجَنْدَل ، لِقِرْنِهِ مُجَدِّل[١١] ، مُقِلٌّ[١٢] لما يُحَمَّل ، يُعْطِى وَيبذُل ، وعن عدوه لاَ يَنْكُل[١٣] » .

فشاورت أختها فيهم ، فقالت أختها عثمة : « تَرَى الْفِتْيَانَ كَالنَّخْلِ ، ومَا يُدْرِيك مَا الدَّخْلُ ؟[١٤] » اسمعى منى كلمة ، إن شَرَّ الغريبة يُعْلَن ، وخيرها يُدْفَن ، انكحى فى قومك ولا تَغْرُرْكِ الأجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى أبيها : أنكحنى مدركًا ، فأنكحها أبوها على مائة ناقة وَرُعَاتِهَا ، وحَمَلها مدرك ، فلم تلبث عنده إلا قليلا ، حتى صبَّحهم فوارسُ من بنى مالك بن كِنانة ، فاقتتلوا ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته وبنى عامر انكشفوا ، فَسَبَوْها فيمن سَبَوا ، فبينما هى تسير بكت ، فقالوا : مايُبْكِيك ، أَعَلَى فراق زوجك ؟ قالت : قبَّحَهُ الله ، قالوا : لقد كان جميلا ! قالت : قَبَّحَ الله جمالا

---

(١) السنابك جمع سنبك كقنفذ : وهو طرف الحافر ، أى أنه يجهد الخيل فى حومة الوغى .

(٢) الغمر : معظم البحر ، والكريم : الواسع الخلق .

(٣) النهد : الأسد، والكريم . (٤) من عجم العود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٥) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه فى حرز من أن يشتم ويسب عرضه، لحسن فعله وكرم خلقه

(٦) الجمجمة : إخفاء الشىء فى الصدر .

(٧) نعم كسمع ونصر وضرب فهو ناعم : أى ذو تنعم وترفه . (٨) العتيد : الحاضر المهيأ .

(٩) النصاب : الأصل . (١٠) بعيد . (١١) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهى الأرض . (١٢) حامل . (١٣) نكل عنه كضرب ونصر وعلم : نكص وجبن .

(١٤) الدخل : ما يبطن فى الشىء ، وهو مثل يضرب للرجل له منظر ولا مخبر له .

لا نَفعَ معهُ ، إنما أبكى على عصيانى أختى ، وقولها : « ترى الفتيان كالنخل ، ومَا يدريك ما الدخل » وأخبرتهم كيف خطبوها ، فقال لها رجل منهم يُكْنَى أبا نواس شاب أسود أفْوَه[1] مضطرب الخَلْق : أترْضَيْنَ بى ، على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترَين لَيَمْنَع الحَلِيلة[2] ، وتَتَّقيه القبيلة ، قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به ، فزوجوها منهُ .

(مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٩١)

٦٧ — طريفة الخير تتكهن بسيل الْعَرِم وخراب سد مأرب

قال عبد الملك بن عبد الله بن بَدْرون فى شرح قصيدة الوزير عبد المجيد بن عَبدون، التى قالها فى رثاء دولة بنى الأفطس بالأندلس :

كان أوَّل من خرج من اليمن فى أول تمزيقهم ، عَمْرو بن عامر مُزَيْقياء[3] ، وكان سبب خروجه ، أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها « طَرِيفَة الخير » ، وكانت رأت فى منامها أنَّ سحابة غَشِيَتْ أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم صَعَقت ، فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزِعت طريفة لذلك فَزَعًا شديداً ، وأتت الملك عَمْرًا ، وهى تقول : « ما رأيتُ اليومَ ، أزال عنى النومَ ، رأيت غَيْماً رَعَدَ وَبرَقَ[4] طويلا ، ثم صَعَق ، فما وقع على شىء إلا احترق » ، فلما رأى ما داخلها من الفزع سكَّنها ، ثم إن عمرًا دخل حديقة له ، ومعه جاريتان من جَواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه وخرج معها وَصِيف[5] ، لها اسمه سِنَان ، فلما برَزَتْ من بيتها عرض لها ثلاثُ مناجيد مُنتصبات على

---

(١) الأفوه : وصف من الفوه بالتحريك ، وهو سعة الفم . (٢) الزوجة .

(٣) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقهما بالعشى ، يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره . (٤) رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وأنكر الأصمعى الرباعى فيهما . (٥) الوصيف : الخادم والخادمة .

أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن – وهى دواب تشبه اليَرَابيع[1] – فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرنى ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو ، وثبت من الماء سُلَحْفاة . فوقعت فى الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنَبها ، فتَحْثُو التراب على بطنها من جَنَبَاته ، وتقذِف بالبَوْل قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار فى ساعةٍ شديدة الحرّ ، فإذا الشجر يتَكَفَّأُ من غير ريح ، فلما رآها عمرو استحيا منها ، وأمر الجاريتين بالتنحّى ، ثم قال لها يا طريفة : فكَهَنت وقالت : « والنُّورِ والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لَهَالِكٌ ، وليعودَنَّ الماء كما كان فى الزمان السَّالك » . قال عمرو : ومن خبَّركِ بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجد ، بسنين شدائِد ، يَقْطع فيها الولد الوالد » قال : ما تقولين ؟ قالت . « أقول قول النَّدْمان لَهفاً ، لقد رأيت سُلحْفا[2] ، تَجْرُف التراب جَرْفاً ، وتقذِف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر من غير ريح يتكَفَّأ » قال عمرو : وما تَرَين ؟ قالت : « داهية دَهْيَاء ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة » قال : وما هو ؟ وَيْلَكِ ! قالت : « أجلْ ، إنَّ فيه الوَيْل ، وما لك فيه من قَيْل[3] ، وإن الويل فيما يجىء به السيل » فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : « هو خَطْب جليل ، وحزن طويل ، وَخَلَف قليل » قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت « اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جُرَذاً يُكْثِرُ بيديه فى السدّ الحَفْرَ ، ويقلِّب برجليه من أجَلِّ الصخر ، فاعلم أنْ غَمَرَ الغَمْرِ[4]

---

(١) اليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ؛ ورجلاه أطول من يديه عكس الزرافة .

(٢) يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيضا سلحفا ساكنة اللام مفتوحة الحاء .

(٣) قال قيلا : نام فى القائلة ، وهى نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

(٤) الغمر : الماء الكثير .

وأنْ قد وقع الأمر » . قال : وما هذا الذى تذكرين ؟ قالت : « وعدٌ من الله نزل ، وباطل بَطَل ، ونَكال بنا نَكَل ، فبغيرك يا عمرُو فليكن الثَّكَل[١] ، فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً ، (كذا) فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عَادَنِى منه ألمْ وهاج لى من هوله بَرْحُ السَّقَمْ[٢]

من جُرَذ كَفَحْل خِنْزِير الأَجَمْ أو كَبْشِ صِرْمٍ من أفاريق الغَنَمْ[٣]

يَسْحَبُ صخراً من جلاميد العَرِمْ له مخاليبُ وأنيابٌ قُضُمْ[٤]

ما فاتَهُ سَحْلاً من الصخر قَصَمْ[٥]

فقالت طريفة : وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح تملؤها من تراب البَطْحاء[٦] ، من سِهْلة[٧] الوادى ورمله ، وقد علمت أن الجنان مُظَلَّلة لا يدخلها شمس ولا ريح ، فأمر عمرو بزجاجة فوضعها بين يديه ولم يَمكث إلاَّ قليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء ، فأخبر عمرو طريفة بذلك وقال لها : متى يكون هُلْك السدّ ؟ قالت له : فيما بينك وبين سبع سنين . قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : « لايعلم بذلك إلا الله ، ولو علمه أحد لعلمتُه ، ولا تأتى علىَّ ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننت الهلاك فى غدها ، أو فى مسائها ، ثم رأى عمرو فى نومه سيل العَرِم ، وقيل له : آية ذلك أن ترى الحصباء فى سَعَف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء فيها قد

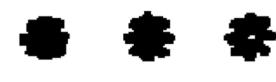
---

(١) الثكل كسبب وقفل : الموت والهلاك .

(٢) البرح : الشدة . (٣) الأجم جمع أجمة : وهى الشجر الكثير الملتف ، والصرم : الجماعة والفرقة تجمع على فرق ، وجمع الجمع أفراق ، وجمع جمع الجمع أفاريق ، والجلاميد جمع جلمود كعصفور : الصخر . (٤) العرم : السد يعترض به الوادى (ومن معانيه أيضا المطر الشديد ، والجرذ ، وواد جاء السيل من قبله) . (٥) سحله كمنع : قشره ونحته ، وقصمه : كسره .

(٦) البطحاء والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . (٧) السهلة بالكسر : تراب كالرمل يجىء به الماء ، وأرض سهلة كفرحة : كثيرتها .

ظهرت ، فعلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرّب ، فكتم ذلك وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مَأرِب[1] وأن يخرج منها هو وولده[2] ، فخرج ثم أرسل الله تعالى على السد[3] السيل فهدمه . (شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ٩٨)



---

(١) مأرب : مدينة باليمن ، وكانت فى الزمان الأول قاعدة التبابعة ، وهى مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ باسم بانيها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

(٢) وقد خشى أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به فى الملأ من الناس ، وإذا لطمه ، يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاما وبعث إلى أهل مأرب أن عمرا صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما أمر ؛ فجعل يأمره بأمور فيتأبى عليه وينهاه فلا ينتهى ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه فلطمه ابنه ؛ وكان اسمه ملكا ، فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو يبجه صبى ويضرب وجهه ، وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا بعمرو يرغبون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقيم بموضع صنع بى فيه هذا : ولأبيعن أموالى حتى لايرث منها بعدى شيئا ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غضب عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى فابتاع الناس منه كل أمواله التى بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما خرج عمرو من اليمن خرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض علك فحاربتهم علك . فارتحلوا عنها ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ، وتفرقوا على البلاد ، فنهم من صار إلى الشام ، وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر ، ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم ابنا قيلة الأوس والخزرج ، وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت أزد الشراة إلى أرض الشراة ؛ وأزدعمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيء فنزلت جبلى طيء أجأ وسلمى ، ونزلت ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر تهامة ، وسموا خزاعة لانخزاعهم من إخوانهم وتمزقوا فى البلاد كل ممزق .

(٣) كان السد فيما يذكر قد بناه لقمان الأكبر بن عاد ، وكان رصفه لحجارة السد بالرصاص والحديد ويقال إن الذى بناه كان من ملوك حمير ، وذلك أن الماء كان يأتى أرض سبأ من الشحر وأودية اليمن ، فردموا ردما بين جبلين وحبسوا الماء ، وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث ، فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا رسولهم أرسل الله عليهم سيل العرم

وقال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى :

وسارت القبائل من أهل مأرِب حين خافوا سيل العرم ، وعليهم مُزَيقِياء ، ومعهم طريفة الكاهنة ، فقالت لهم :

« لاَ تَؤُمُّوا مكة حتى أقول ، وما عَلّمنى ما أقول إلا الحكيم المُحَكَّمُ ، رَبُّ جميع الأمم ، من عرب وعجم » قالوا لها : ما شأنك يا طريفة ؟ قالت : خذوا البعير الشَّدْقَمَ [١] ، فخضّبوه بالدم ، تكن لكم أرضُ جُرْهُم [٢] ، جيرانِ بيته المُحَرَّم » .

(الأغانى ١٣ : ١٠٥)

* * *

وروى الميدانى فى مجمع الأمثال قال :

« ألقت طريفة الكاهنة إلى عمرو بن عامر الذى يقال له مزيقيا بن ماء السماء ، وكانت قد رأت فى كهانتها [٣] أن سدَّ مَأرِب سَيَخْرَب ، وأنه سيأتى سيل العرم ، فَيُخَرِّب الجنتين [٤] ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، فأقاموا بمكة وما حولها ، فأصابتهم الحُمَّى ، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فَدَعَوا طريفة فشكوا إليها الذى أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابنى الذى تَشْكون ، وهو مُفرِّق بيننا . قالوا : فما تأمرين ؟ قالت :

---

(١) الواسع الشدق . (٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو أن افسحوا لنا فى بلادكم حتى نقيم قدر ما نستريح ونرسل روادا إلى الشأم وإلى الشرق ، فحيثما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، فأبت ذلك جرهم إباء شديدا ، وقالوا : لا والله ما نحب أن ينزلوا فيضيقوا علينا مرابعنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانهزمت جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد .

(٣) كهن كهانة بالفتح فهو كاهن ، وحرفته الكهانة بالكسر .

(٤) قال تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » .

« من كان منكم ذا هَمٍّ بعيد ، وَجَمل شديد ، وَمَزَاد(١) جديد ، فَلْيَلْحَق بقصر عمَان المَشِيد(٢) ، فكانت أَزْدُ عُمَان ، ثم قالت : من كان منكم ذا جَلَد وقَسْر(٣) ، وَصَبْرٍ على أزَمات الدهر ، فعليه بالأَرَاك(٤) من بطن مُرّ(٥) ، فكانت خُزاعة، ثم قالت : من كان منكم يريد الراسياتِ فى الوَحْل ، المُطْعِمات فى المَحْل(٦) ، فليلحق بيَثْرِب ذات النخل ، فكانت الأَوْسُ والخَزْرَج ، ثم قالت : من كان منكم يريد الخَمْرَ الخَمير ، والمُلْكَ والتأمير ، وَيَلْبَس الدِّيباج والحرير ، فليلحق ببُصْرَى وَغَوِير ، (وهما من أرض الشام) ، فكان الذين سكنوها من آل جَفْنة من غسَّان ، ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرِّقاق ، والخيل العِتَاق ، وكنوزَ الأرزاق ، والدَّم المُهَراق ، فليلحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل جَذِيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل مُحَرِّق(٧) » .

(مجمع الأمثال : ١ : ١٨٦)

٦٨ — حديث زبراء الكاهنة مع بنى رئام من قضاعة

كان ثلاثةُ أبطُنٍ من قُضَاعةَ مُجْتَوِرِين(٨) بين الشِّحْرِ وَحَضْرَمَوْتَ : بنو ناعِبٍ ، و بنو دَاهِنٍ، و بنو رِئَام وكانت بنو رئام أقلَّهم عَدَدًا، وأشجعَهم لِقاء وكانت لبنى رِئَامٍ عجوز تسمى خُوَيْلَةَ ، وكانت لها أَمَةٌ من مُوَلَّدَات العرب تسمى زَبْرَاء، وكان يدْخُلُ على خُوَيْلَةَ أربعون رجلاً ، كُلُّهُمْ لها مَحْرَمٌ ، بنو إخوة و بنو أخَوَات ، وكانت خويلة عَقيمًا ، وكان بنو ناعب ، و بنو داهن متظاهِرِين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذات يوم فى عُرْس لهم ، وهم سبعون رجلاً ، كلهم شجاع بَئِيس(٩) ، فطَعِمُوا وأقبلوا على شرابهم ، وكانت

---

(١) المزاد والمزايد جمع مزادة: وهى الراوية . (٢) المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد فى رثاء يزيد بن مزيد : أما هدت لمصرعه نزار ؟ بلى ، وتقوض المجد المشيد .

(٣) قسره على الأمر : قهره . (٤) الأراك : القطعة من الأرض ، وموضع بعرفات ، وجبل بهذيل . (٥) مر بن أد بن طابخة . (٦) المحل : الشدة والجدب . (٧) هو عمرو بن هند، لأنه حرق مائة من بنى تميم . (٨) متجاورين . (٩) البئيس : الشجاع ، من بؤس ككرم بأسا .

زبراء كاهنةً، فقالت لخويلة : انطلقى بنا إلى قومكِ أُنْذِرْهُمْ ، فأقبلت خويلة تتوكّأ على زَبْرَاء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا إجلالاً لها . فقالت : « يا ثَمَرَ الأكباد ، وَأَنْدَادَ[١] الأولاد ، وشَجَا[٢] الحُسَّاد ، هذه زَبْرَاء ، تخبركم عن أنبـاء ، قبل انحِسَار الظَّلْمَاء ، بالمُؤْيِدِ[٣] الشَّنْعَاء ، فاسمعوا ما تقول » . قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

« واللُّوحِ[٤] الخافِقِ ، والليل الغَاسِقِ[٥]، والصَّبَاحِ الشَّارِق ، والنَّجم الطَّارق[٦] ، والمُزْنِ الوادِق[٧] ، إن شجر الوَادى لَيأْدُو خَتْلاً[٨] ، ويَحْرُقُ أنياباً عُصْلاً[٩] ، وإن صَخْر الطَّوْدِ لَيُنْذِر ثُكْلا[١٠] ، لا تجدون عنه مَعْلاً[١١] » .

فوافقت قومًا أَشَارَى[١٢] سُكارَى ، فقالوا : « رِيحٌ خَجُوجٌ[١٣] ، بَعِيدَةٌ ما بين الفُرُوج ، أتت زَبْرَاء بالأَبْلَقِ النَّتُوج[١٤] » .

فقالت زبراء : « مَهْلاً يابنى الأعِزَّة ، والله إنى لَأَشَمُّ ذَفَرَ[١٥] الرجال تحت الحديد»

---

(١) أنداد : جمع ند بالكسر، وهو المثل والنظير . (٢) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه . (٣) المؤيد : الداهية والأمر العظيم . (٤) اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السماء والأرض . (٥) غسق الليل كجلس : اشتدت ظلمته . (٦) الطارق : فى الأصل ، كل من أتى ليلا ، ثم استعمل فى النجوم لطلوعها ليلا . (٧) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والوادق من ودق المطر كوعد : قطر . (٨) أدوت له آدو أدوا إذا ختلته وخدعته (ودأيت له ، ودألت له أيضا) والختل : الخدع . (٩) حرق أنيابه : إذا حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » والأرم كسكر : الأضراس ، والعصل : المعوجة جمع أعصل . (١٠) الطود : الجبل ، والثكل : الفقد . (١١) المعل : المنجى .

(١٢) الأشر محركة : المرح . (١٣) الخجوج : السريعة المر .

(١٤) الأبلق : وصف من البلق محركة،وهو ارتفاع البياض فى قوائم الفرس إلى الفخذين ، والأبلق لايكون نتوجا ، والعرب تضرب هذا مثلا للشىء الذى لا ينال ، تقول « طلب الأبلق العقوق » فلما فاته أراد بيض الأنوق » والعقوق كصبور : الحامل، والأنوق كصبور أيضا : الذكر من الرخم ولا بيض له، هذا قول بعض اللغويين . فالمعنى أنه طلب مالا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضا مالا يكون ولا يوجد ، وعامتهم يقولون : الأنوق الرخمة وهى تبيض فى مكان لايوصل فيه إلى بيضها إلا بعد عناء . فالمعنى أنه طلب مالا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب مايجوز أن يناله . (١٥) الذفر : حدة الريح، يكون فى النتن والطيب (والدفر لا يكون إلا فى النتن) .

فقال لها فتى منهم يقال له هُذَيل بن مُنْقِذ : « يا خَذَاقِ[1] ، والله ما تشمين إلا ذَفَرَ إبْطِيك » فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوى أسنانهم، فانصرف منهم أربعون رجلاً ، وبقى ثلاثون ، فرقدوا فى مَشْرَبهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب ، فقتلوهم أجمعين ، وأقبلت خُوَيلة مع الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عَمَدت إلى خناصرهم ، فقطعتها وانتظمت منها قلادةً ، وألقتها فى عُنقها، وخرجت حتى لحقت بمَرْضاوى بن سَعْوَة المَهْرِىّ ، وهو ابن أختها فأناخت بفنائه ، فاستعدته على بنى داهن وبنى ناعب ، فخرج فى مَنْسِر[2] من قومه ، فطارقهم فأوجع فيهم . (الأمالى ١ : ١٢٦)

٦٩ – كاهنة ذى الخلصة تتكهن بما فى بطن رقية بنت جشم

زعموا أن رُقَيَّة بنت جُشَم بن معاوية ولدت نُمَيْرًا وهِلالاً وسواءة ، ثم اعتاطت[3] فأتت كاهنة بذى الخَلَصَة[4] ، فأرتها بطنها ، وقالت : إنى قد ولدت ثم أُعْتِطْتُ ، فنظرت إليها وَمَسَّت بطنها ، وقالت :

« رُبَّ قَبائِلَ فِرَقٍ ، وَمَجالِسَ حِلَقٍ ، وظُعُنٍ[5] حُزُقٍ[6] ، فى بطنك زُقّ[7] » .

---

(١) خذاق : كناية عما يخرج من الانسان ، يقال : خذق ومزق وزرق .

(٢) المنسر من الخيل : مابين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى الخمسين ، أو إلى الستين أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(٣) اعتاطت المرأة : لم تحمل سنين من غير عقر . (٤) ذو الخلصة محركة وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخثعم ، كان فيه صنم اسمه الخلصة . (٥) الظعن والظعائن جمع ظعينة : وهى الهودج سواء كان فيه امرأة أم لا ، والمرأة مادامت فى الهودج ، ويقال ، الظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظعونة (أى يظعن بها زوجها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة). (٦) الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة والحزيق والحزيقة والحزاقة (بالفتح) الجماعة ، والجمع حزائق وحزيق وحزق (بضمتين) . (٧) أى وضع واصل الزق : رمى الطائر بذرقه ، والمعنى : رب جنين تتشعب منه قبائل متفرقة ، ويتناسل منه ذكران يتحلقون فى المجالس والأندية وجماعات من النسوة قد أودع بطنك .

فلما مَخَضت[١] بربيعة بن عامر[٢] ، قالت : إنى أعرف ضَرْطِى بهلال ، « أى هو غلام ، كما أن هلالاً كان غلاماً » . (مجمع الأمثال ١ : ٣٢١)

٧٠ — رأى سلمى الهمدانية فى حريم المرادى

أغار رجل من « مُرَادٍ » يقال له « حَرِيم » على إبل عَمْرو بن بَرّاقة الْهَمْدَانِىّ وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو سَلْمَى الهمدانية ، وكانت بنت سَيِّدِهم ، وعن رأيها كانوا يَصْدُرون ، فأخبرها أن حريماً المُرَادىّ أغار على إبله وخيله ، فقالت : « والخَفْوِ وَالْوَمِيض[٣] ، وَالشَّفَقِ كالإحْرِيض[٤] ، وَالْقُلَّةِ والحَضِيض[٥] ، إن حريمًا لَمَنيعُ الحِيز[٦] ، سَيِّدٌ مَزِيزٌ[٧] ذو مَعْقِلٍ حَرِيز ، غَيْرَ أنى أرى الْحُمَّةَ[٨] سَتَظْفَر مِنهُ بعَثْرَة ، بَطِيئة الجَبْرَة ، فأغِرْ ولا تُنْكَعْ[٩] » فأغار عمرو ، فاستاق كلّ شىء له ، فأتى حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع وَرَجَع حريم .

(الأمالى ٢ : ١٢٣)

---

(١) مخضت كسمع ومنع وعنى : أخذها الطلق .

(٢) هو ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس بن عيلان بن مضر ومن نسله بنو كلاب بن ربيعة بن عامر وبنو جعفر بن كلاب بن ربيعة .

(٣) الخفو : اللمعان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفو . (٤) الاحريض : العصفر .

(٥) القلة : أعلى الرأس والجبل وكل شىء ، والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٦) الناحية . (٧) مزيز : فاضل ، من قولهم هذا أمز من هذا أى أفضل منه .

(٨) الحمة : القدر (محركة) ، وقيل هى واحد الحمام (بالكسر) .

(٩) نكعه عن الأمر (كمنع) رده ودفعه .

٧١ — تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية

روى أن العَجْفاء بنت عَلْقَمة السَّعْدِىّ ، وثلاث نِسْوة من قومها ، خرجن فاتَّعَدْن بروْضَة يتحدثن فيها ، فوافَيْنَ بها ليلاً فى قمر زاهر ، وليلةٍ طَلْقَة ساكنة ، وروضة مُعْشِبَة خِصْبَة ، فلما جلسن قلن : ما رَأَيْنا كالليلة ليلةً ، ولا كهذه الروضة روضةً أطيبَ ريحًا ولا أنضر ، ثم أفَضْنَ فى الحديث ، فقلن : أىُّ النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخَرُود[1] الوَدُود الوَلُود . قالت الأخرى : خيرهن ذات الغَنَاء[2] ، وطيب الثناء ، وشدة الحَيَاء . قالت الثالثة : خيرهن السَّمُوع الجَمُوع ، النَّفُوع غير المَنُوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعةُ لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة . قلن : فأىّ الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خَيْرُهم الحَظ[3] الرَّضِىّ ، غير الحَظِل[4] البَطِىّ . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحَسَب العميم ، والمجدِ القَدِيم . قالت الثالثة : خيرهم السَّخِىّ ، الوَفِىّ الرَّضِىّ ، الذى لا يُغِير[5] الحُرَّة ، ولا يتخذ الضَّرَّة . قالت الرابعة : وأبيكن ، إن فى أبى لَنَعْتَكُن ، كَرَمَ الأخلاق ، والصدقَ عند التَّلَاق ، والفَلَج[6] عند السِّباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها مُعْجَبة .

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبى يُكْرِم الجار ، ويُعْظِم الخِطار[7] ، ويَنْحَر العِشَار[8] ، بعد الحُوَار[9] ، ويَحْمِل الأمور الكبار ، ويأنف من الصغار ، فقالت

---

(١) الخرود والخريد والخريدة : الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة .

(٢) الكفاية والمنفعة . (٣) الحظى : ذو الحظوة والمكانة عند زوجه ، والحظية كذلك .

(٤) رجل حظل ككتف وشداد وصبور : مقتر يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى مجمع الأمثال « غير الحظال ، ولا التبال » والتبال بالتشديد من التبل (بفتح فسكون) وهو الحقد .

(٥) أغار امرأته : تزوج عليها . (٦) الفوز والظفر .

(٧) الخطار جمع خطر كسبب وهو السبق يتراهن عليه . (٨) العشار جمع عشراء كنفساء وهى من النوق التى مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية . (٩) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه أو إلى أن يفصل عن أمه .

الثانية : إن أبى عظيم الخطَر ، منيع الوَزَر[١] ، عزيز النَّفر ، يُحْمَدُ منهُ الوِرْد وَالصَّدَر ، فقالت الثالثة : إن أبى صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رَذوم[٢] الجفان ، كثير الأعوان ، يُرْوِى السِّنان ، عند الطِّعان ، قالت الرابعة : إن أبى كريم النِّزال ، مُنيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تنافرن إلى كاهنة معهن فى الحى ، فقلن لها : اسمعى ما قلنا ، واحكمى بيننا واعْدِلى ، ثم أعَدْن عليها قولهن ، فقالت لهن : « كل واحدة منكن مَاردة[٣] ، بأبيها واجدة[٤] ، على الإحسان جاهدة ، لِصَوَاحِبَاتِها حاسدة ، ولكن اسمعن قولى : خَيْرُ النساء المُبْقِيَة على بَعْلها ، الصابرة على الضَّرَّاء مخافةَ أن ترجع إلى أهلها مُطلَّقة ، فهى تُؤْثِرُ حظَّ زوجها على حَظِّ نَفْسِها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجَوَادُ البَطل ، القليل الفَشَل ، إذا سأله الرجل ، ألفاه قليلَ العِلَل ، كثيرَ النَّفَل[٥] ، ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها مُعْجَبَة .

(مجمع الأمثال ٢ : ٥٤ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٣٣)

٧٢ — عفيراء الكاهنة تعبر رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مَرْثَد بن عَبْدِ كُلَالٍ قَفَلَ من غَزَاةٍ غزاها بغنائم عظيمة ، فوفَدَ عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، فرفع الحجابَ عن الوافدين ، وأوسَعَهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينا هو كذلك إذ نام يومًا فرأى رُؤْيَا فى المنام أخافته وأذعرته وهالته فى حال منامه ، فلما انتبه أُنْسِيَهَا حتى لم يذكر منها شيئًا ، وثبت ارتياعُهُ فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزنا ، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر الكُهَّان فجعل يخلو بكاهنٍ كاهنٍ ، ثم يقول له : أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه ،

---

(١) الوزر : الملجأ . (٢) الرذوم : القصعة الممتلئة تتصبب جوانبها .

(٣) أى قد بلغت الغاية . (٤) وجد به (بالكسر) أحبه . (٥) النفل : الهبة .

فيجيبه الكاهن بأنْ لا علمَ عندى ، حتى لم يدع كاهنًا عَلِمَهُ إلا كان إليه منه ذلك ، فتضاعف قَلَقُهُ ، وطال أرَقُهُ ، وكانت أمه قد تكهّنت ، فقالت له : أبيتَ اللّعنَ أيها الملك ، إن الكواهن أهْدَى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتْبَاعَ الكواهن من الجان ، ألطف وأظرف من أتْبَاعِ الكُهّان ، فأمر بحشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكُهّان ، فلم يجد عند واحدة منهن علمًا مما أراد علمه ، ولما يئس من طَلِبَته سَلاَ عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، فأوغل فى طَلَب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفعت لهُ أبيات من ذَرَا[1] جبل ، وكان قد لَفحَهُ الهجير ، فَعَدَل إلى الأبيات ، وقصد بيتًا منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منهُ عجوز ، فقالت لهُ : أنْزِلْ بالرَّحْب والسَّعَة ، والأمْنِ وَالدَّعَة ، وَالجَفْنَة المُدَعْدَعَة[2] ، وَالعُلْبَة المُتْرَعة[3] ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وَخَفَقَت عليه الأرواح[4] ، نام فلم يستيقظ حتى تصَرَّم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم يرَ مثلها قوامًا ولا جمالا ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهُمَام ! هل لك فى الطعام ؟ » فاشتد إشفاقهُ وخاف على نفسه لَمّا رأى أنهَا عرفته ، وتصامَّ عن كلمها ، فقالت لهُ : « لا حَذَر ، فِدَاكَ البَشَر ، فَجدُّك الأكبر ، وحظُّنا بك الأوفر » . ثم قرَّبت إليه ثَريدًا وَقَدِيدًا وَحَيْسًا[5] ، وقامت تَذُبُّ عنهُ ، حتى انتهى أكله ، ثم سقتهُ لبنًا صَرِيفًا وَضَرِيبًا[6] ، فشرب ما شاء ، وجعل يتأملها مُقْبِلَةً ومُدْبِرَة ، فملأت عينيه حسنًا ، وَقلبَه هوًى ، فقال لها : ما اسمكِ يا جارية ؟ قالت : اسمى عُفَيْرَاء ، فقال لها : يا عفيراء ، من الذى دَعَوْتِه بالملك الهمام ؟ قالت : « مَرْثَد العظيم الشّأن ، حاشِرُ الكواهن والكُهّان ، لِمُعْضِلة بَعُد عنها الجانّ » ، فقال يا عفيراء :

---

(١) أى فى كنفه وستره . (٢) الجفنة : القصعة ، والمدعدعة : التى ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص مافيها ، ثم ملئت بعد ذلك . (٣) العلبة : قدح ضخم من جلود الإبل أو من خشب يحلب فيها ، والمترعة : المملوءة . (٤) الأرواح ، والرياح جمع ريح . (٥) القديد : اللحم المقدد ، أو ما قطع منه طولا ، والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديدا ثم يندر منه نواه (والأقط شيء يتخذ من المخيض الغنمى) . (٦) الصريف : اللبن ساعة حلب ، والضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح فى إناء .

أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : « أجل أيها الملك ، إنها رؤيا مَنام ، ليست بأضْغاث(١) أحلام » . قال الملك : أصبتِ يا عفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟ قالت « رأيتَ أعاصيرَ(٢) زَوَابع بعضُها لبعض تابع ، فيها لَهَب لامع ، ولها دُخَان ساطع ، يَقفُوها نهر مُتَدَافِع ، وسمعتَ فيما أنت سامع ، دُعاء ذى جَرْسٍ(٣) صَادِعٍ : هَلُمُّوا إلى المشارِع(٤) ، فَرَوِى جارع(٥) ، وَغرِق كارِع(٦) » فقال الملك : أجَلْ ، هذه رؤياى ، فما تأويلُها يا عفيراء ؟ قالت : « الأعاصير الزوابع ، ملوكٌ تَبَابِع(٧) ، والنهر علم واسع ، والداعى نبىٌّ شافع ، والجارع وَلِىٌّ تابع ، والـكارِعُ عدوٌّ منازع » . فقال الملك : يا عفيراء ، أَسِلْمٌ هذا النبى أم حرب؟ فقالت : « أُقسِمُ برافع السماء ، وَمُنْزِل الماء من العَمَاء(٨) ، إنه لَمُطِلٌّ الدماء(٩) ، وَمُنَطِّق العقائل نُطُقَ الإماء(١٠) » . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيراء ؟ قالت : « إلى صلاة وصيام ، وَصِلَةِ أرحام ، وكسر أصنام : وتعطيل أَزْلام(١١) ، واجتناب آثام » فقال الملك :

---

(١) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها . (٢) الأعاصير جمع إعصار وهو الريح التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، أو التى فيها العصار بالكسر وهو الغبار الشديد .

(٣) الجرس : الصوت . (٤) المشارع جمع مشرعة وهى مورد الشاربة . (٥) جارع : فاعل من جرع الماء كسمع ومنع إذا بلعه . (٦) كارع فاعل من كرع فى الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء . (٧) التبابع جمع تبع كسكر : ملوك اليمن .

(٨) العماء : السحاب الكثيف . (٩) انظر قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع « وإن دماء الجاهلية موضوعة » . (١٠) العقائل : كرائم النساء جمع عقيلة ، والنطق جمع نطاق ككتاب والنطاق والمنطقة : ما تشد به المرأة وسطها للمهنة ، ونطقها تنطيقا : ألبسها النطاق فتنطقت وانتطقت ومنطق النساء أى يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن للخدمة كالإماء . (١١) الأزلام جمع زلم كسبب قداح كان العرب يستقسمون بها فى الجاهلية (أى يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا من تجارة أو سفر أجالوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر وهو السهم قبل أن يراش) وكانت عند أصنامهم ، أحدها مكتوب عليه : أمرنى ربى ، والثانى : نهانى ربى ، والثالث : غفل ، فإن خرج الأول مضوا فى الأمر ، أو الثانى أحجموا عنه ، أو الثالث أجالوها ثانية حتى يخرج أحد الأولين .

يا عفيراء ، إذا ذَبَحَ قومَهُ فمن أعضادُه[١] ؟ قالت : أعضادُه غَطاريفُ[٢] يمَانون ، طائرهم به مَيْمُون ، يُغزيهم فيَغزُون ، وَيدَمِّث[٣] بهم الحزُون، وإلى نصره يَعتَزُون». فأطرق الملك يُؤامِر[٤] نفسه فى خِطْبتها ، فقالت : «أبيت اللعن أيها الملك ! إن تابعى غَيور ، ولأمرى صبُور ، وناكحى مَثبُور ، وَالكَلَفُ بى ثبُور[٥] » . فنهض الملك وجال فى صَهْوَة[٦] جَوَاده ، وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كَوْماء[٧] .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٦)

---

(١) الأعضاد : الأنصار جمع عضد ، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا قطعوه وتركوا نصرته .

(٢) الغطاريف جمع غطريف وهو السيد الشريف . (٣) يسهل ، والحزون جمع حزن كشمس وهو ما غلظ من الأرض . (٤) يشاور . (٥) الثبور : الهلاك . (٦) الصهوة : مقعد الفارس من ظهر فرسه . (٧) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

الوصـــــايا

٧٣ ـ وصية أوس بن حارثة لابنه مالك

عاش الأوس بن حارثة دهراً ، وليس له ولد إلا مالك ؛ وكان لأخيه الخَزْرج خمسة : عمرو ، وعوف ، وجُشَم ، والحرث، وكعب . فلما حضره الموت ، قال له قومه : قد كنا نأمرك بالتزويج فى شبابك ، فلم تزوّجْ حتى حضرك الموت ، فقال الأوس : « لم يَهْلِكْ هالك ، ترك مِثْلَ مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فلعلّ الذى استخرج العَذْق(١) من الجَرِيمة(٢) ، والنار من الوَثيمَة(٣) ، أن يجعل لمالك نَسْلا ، ورجالا بُسْلا(٤) ، يا مالك ، المَنيَّةُ ولا الدنيَّة ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلُّدُ لا التبلُّد ، وَاْعلم أن القبر خير من الفقر ، وَشَرُّ شَارِبٍ المشتفّ(٥) ، وأقبح طَاعِمٍ المُقْتَفّ(٦) ، وذهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم ، الدفاع عن الحريم ، وَمَنْ قَلَّ ذَلَّ ، وَمَنْ أَمِرَ(٧) فَلَّ ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان ، فيوم

---

(١) العذق : النخلة بحملها والعذق (بكسر العين) القنو منها . (٢) النواة .

(٣) الوثيمة : الحجارة ، وثمه : كسره ودقه . ووثم الفرس الأرض : رجمها بحوافره . ومن أيمان العرب لا والذى أخرج العذق من الجريمة . والنار من الوثيمة ، وقولهم : لا والذى شقهن خمسا من واحدة يعنون الأصابع ، وقولهم : لا والذى أخرج قائبة من قوب يعنون فرخا من بيضة . لا والذى وجهى زمم بيته (بالتحريك) أى قصده وحذاءه . (٤) شجعانا : جمع باسل .

(٥) المستقصى ، اشتف ما فى الإناء شربه كله . واشتف إذا شرب الشفافة (بالضم) ، وهى البقية تبقى فى الإناء . (٦) الآخذ بعجلة ، ومنه سمى القفاف وهو من يسرق الدراهم بين أصابعه .

(٧) أمر كفرح أمرا وأمرة : كثر وتم فهو أمر وآمره الله وأمره كنصره كثره : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) . أى كثرنا .

لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلاتبطَر، وإذا كان عليك فاصبر، فكلاهما سَيَنْحَسِر(١)، فإنما تَعُزُّ(٢) من ترى ويعزك من لا ترى، ولو كان الموت يُشْتَرَى، لسلم منه أهل الدنيا، ولكن الناس فيه مستوون، الشريف الأَبْلَج، واللَّئِيم المُعَلْهَج(٣)، وَالمَوْتُ المُفِيتُ، خير من أن يقال لك هَبِيت(٤)، وكيف بالسلامة، لمن ليست له إقامة، وشَرٌّ من المصيبة سوء الخَلَف، وكل مجموع إلى تَلَف، حيَّاك إلهك.

(الأمالى ١ : ١٠٢، وشرح ابن أبى الحديد ٤ : ١٥٤)

٧٤ — وصية ذى الإصبع العدوانى لابنه أسيد

لما احْتُضِر(٥) ذو الإصبع دعا ابنه أُسيداً، فقال له: يابنى إن أباك قد فنى وهو حىّ، وعاش حتى سئم العيش، وإنى موصيك بما إن حفظته بَلَغْتَ فى قومك ما بلغته، فاحفظ عنى. أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وَابْسُطْ لهم وجهك يطيعوك، وَلا تستأثر عليهم بشىء يسوِّدوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يُكْرِمْك كبارهم، ويَكْبَر على مودتك صغارهم. واسمح بمالك، وَاحْمِ حَرِيمك، وَأَعْزِزْ جارك، وَأَعِنْ مَنِ استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة فى الصريخ(٦)، فإن لك أجلاً لاَ يعدوك، وَصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتمُّ سُؤْدُدُكَ.

(الأغانى ٣ : ٦)

---

(١) ينكشف. (٢) تغلب. عزه يعزه كنصره عزا، وعزيعز كضرب عزا وعزة صار عزيزا.
(٣) المتناهى فى الدناءة واللؤم. (٤) الأحمق الضعيف. (٥) حضره الموت.
(٦) أى فى وقت الصريخ وهو نداء المستغيث.

٧٥ — وصية عمرو بن كلثوم لبنيه

أوصى عمرو بن كلثوم التَّغْلَبي ، فقال : يَا بَنِيَّ إنى قد بلغت من العمر مالم يبلغ أحد من آبائى وأجدادى ، ولا بد من أمر مقتبل ، وأن ينزل بى ما نزل بالآباء والأجداد ، والأمهات والأولاد ، فاحفظوا عنى ما أُوصيكم به : إنى والله ما عَيَّرت رجلا قَطُّ أمراً إلاَّ عُيِّرَ بى مثله ، إن حقًّا فحقًّا ، وإن باطلا فباطلا ، ومن سبَّ سُبَّ ، فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لأعراضكم ، وصلوا أرحامكم ، تَعْمُرْ داركم ، وأكرموا جاركم يَحْسُنْ ثناؤُكم ، وَزَوِّجُوا بنات العم بنى العم ، فإن تعديتم بهن إلى الغرباء ، فلا تَأْلُوا بهن الأكفاء ، وأبعدوا بيوت النساء من بيوت الرِّجال ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأعفّ للذكر ، ومتى كانت المعاينة واللقاء ، فنى ذلك داء من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يغار لغيره ، كما يغار لنفسه ، وقلَّ مَنِ انتهك حرمة لغيره إلا انْتُهِكَت حرمته ، وامنعوا القريب من ظلم الغريب ، فإنك تذل على قريبك ، ولا يحلُّ بك ذل غريبك ، وإذا تنازعتم فى الدماء فلا يكن حقكم للقاء ، فرُبَّ رجل خير من ألف ، وودٌّ خير من خلف ، وإذا حُدِّثتم فعُوا ، وإذا حدثتم فأوجزوا ، فإن مع الإكثار يكون الإهذار[1] ، وموت عاجل خير من ضنى آجل ، وما بكيت من زمان إلا دهانى بعده زمان ، وربما شجانى من لم يكن أمره عنانى ، وما عجبت من أحدوثة إلا رأيت بعدها أعجوبة ، واعلموا أن أشجع القوم العَطُوف ، وخير الموت تحت ظلال السيوف ، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب ، ولا فيمن إذا عُوتِب لم يُعْتِب[2] ، ومن الناس من لا يُرْجَى خيره ، ولا يخاف شره ، فَبَكْؤه[3] خير من دَرِّه ، وعقوقه خير من بِرّه ، ولا تَبَرَّحوا فى حبكم ، فإنه من برَّح فى حبٍّ ، آلَ

---

(١) أهذر : هذى . (٢) لم يرض . (٣) بكأت الناقة بكئا قل لبنها .

ذلك إلى قبيح بغض ، وكم قد زارني إنسان وزرته ، فانقلب الدهر بنا فَبُرْته[1] ، واعلموا أن الحكيم سليم ، وأن السيف كليم ، إني لم أمت ولكن هرمت ، ودخلتني ذِلة فسكت ، وضعف قلبي فأَهْتِرت[2] ، سلمكم ربكم وحياكم » .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٥ والأغاني ٩ : ١٧٨)

٧٦ — وصية الحرث بن كعب لبنيه

وأوصى الحرث بن كعب بنيه فقال :

« يا بَنِيَّ قد أتت عَلَيَّ مائة وستون سنة ، ما صافحت يميني يمين غادر ، ولا قَنِعت لنفسي بِخُلَّة[3] فاجر ، ولا صَبَوْت بابنة عم ولا كَنَّة[4] ، ولا بُحْتُ لصديق بسر ، ولا طَرَحْتُ عن مُومسة قِناعا ، ولا بقي على دين عيسى بن مريم — وروى : على دين شعيب — من العرب غيري وغير تميم بن مرة ، وأسد بن خُزَيْمَة ، فموتوا على شريعتي ، واحفظوا وصيتي ، وإلهكم فاتقوا ، يَكْفِكم ما أهمَّكم ، ويصلح لكم حالكم ، وإيَّاكم ومعصيته ، فيَحِل بكم الدَّمار ، ويُوحش منكم الديار . كونوا جميعاً ولا تفرَّقوا ، فتكونوا شِيَعاً ، وبُزُّوا قبل[5] أن تُبَزُّوا ، فموت في عزٍّ خير من حياة في ذل وعجز ، وكل ما هو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ، والدهر ضربان ، ضرْب بلاء ، وضرب رخاء ، واليوم يومان ، يوم حَبرة ، ويوم عَبرة ، والناس رجلان ، رجل لك ، ورجل عليك ، زوِّجوا النساء الأكفاء ، وإلاَّ فانتظروا بهن القضاء ، وليكن أطيب طيبهن

---

(١) باره : جربه . (٢) الهتر بالضم : ذهاب العقل من كبر أو مرض أو حزن وقد أهتر فهو مهتر بفتح التاء شاذ ، وقيل أهتر بالبناء للمجهول .

(٣) الخلة : الصداقة المختصة لاخلل فيها تكون في عفاف وفي دعارة (والخلة أيضا الصديق للذكر والأنثى والواحد والجميع) . (٤) الكنة : امرأة الابن أو الأخ جمعه كنائن .

(٥) بزه : سلبه ، وفي المثل : من عزبز ، أي من غلب سلب .

المساء ، وإياكم وَالْوَرْهَاء(١) ، فإنها أدوأ الداء ، وإن وَلَدها إلى أَفَن(٢) يكون ، لا راحة لقاطع القرابة ، وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوَّهم ، وآفة العــدوّ اختلاف الـكلمة ، والتفضل بالحسنة ، يقى السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخول فيها ، وعمل السوء يزيل النَّعْمَاء ، وقطيعة الرحم تورث الهم ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يُعْقِب النكد ، ويخرب البلد ، ويَمْحَق العدد ، والإسراف فى النصيحة ، هو الفضيحة ، والحقد يمنع الرِّفد ، ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الرِّعة(٣) ، يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ، يا بَنِى ، إنى قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وَغَبَرْت ، وَكأنى بهم قد لَحِقْت ، ثم قال :

أكلت شبابى فأفنيته ... وأبليت بعد دهورٍ دهورا
ثلاثة أهلين صاحبتهم ... فبادوا وأصبحت شيخاً كبيرا
قليلَ الطعام ، عسير القيام ... قد ترك الدهر خَطْوِى قصيرا
أبيت أُراعِى نجوم السَّماء ... أُقَلِّبُ أمرى بطوناً ظهورا

(شرح ابن أبى الحديد ٤ : ١٥٤)

٧٧ — وصية عامر بن الظرب العدوانى لقومه

وَكَان عامر بن الظَّرِب الْعَدْوانى سيدَ قومه ، فلما كَبِر وخشى عليه قومه أن يموت ، اجتمعوا إليه وقالوا : إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا ، فاجعل لنا شريفاً وسيداً وقائلا بعدك ، فقال :

« يا معشر عَدْوَان : كلفتمونى بغْيًا ، إن كنتم شرَّفتمونى فإنى أريتكم ذلك من نفسى ، فأنَّى لكم مثلى ؟ افهموا ما أقول لكم ، إنه من جمع بين الحق والباطل لم

(١) الحمقاء : من وره كفرح : حمق فهو أوره .

(٢) ضعف الرأى والعقل . (٣) الرعة : الطريقة .

مجتمعا له ، وكان الباطلُ أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفِر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفِر من الحق .

يا معشر عدوان : لا تَشْمَتُوا بالذِّلَّةِ ، ولا تفرحوا بالعزَّةِ ، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى ، ومن يَرَ يومًا يُرَ به[1] ، وَأَعدُّوا لكل امرئٍ جوابه ، إن مع السفاهة الندامة ، والعقوبة نَكال وفيها ذِمامة[2] ، ولليد العُلْيا[3] العاقبة ، وَالقَوَدُ[4] راحة ، لا لك ولا عليك ، وإذا شئتَ وجدت مثلك ، إن عليك كما أن لك ، وللكثرة الرعبُ ، وللصبر الغلبةُ ، ومن طلب شيئًا وجده ، وإن لم يجده يوشكْ أن يقع قريبًا منه » .

(مجمع الأمثال ٢ : ١٨٣)

٧٨ — وصية دويد بن زيد لبنيه

لما حضرت دُوَيْدَ[5] بن زيد الوفاةُ قال لبنيه :

« أوصيكم بالناس شرًّا ، لا ترحَمُوا لهم عَبْرَةً ، ولا تُقِيلوهم عَثْرَةً[6] ، قَصِّرُوا الأعِنَّةَ ، وَطَوِّلُوا الأسنَّة ، واطعنوا شَزْرًا[7] ، واضربوا هَبْرًا[8] ، وإذا أردتم المحاجزة ،

(١) أى من رأى يوما على عدوه رأى مثله على نفسه .

(٢) الذمامة بالفتح ويكسر ، والذمة : العهد ، والكفالة : والحق ، والحرمة . (٣) اليد العليا المعطية ؛ والسفلى : السائلة ، وفى الحديث : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ؛ وهو حث على الصدقة .

(٤) القود : القصاص . (٥) هو دويد بن زيد بن نهد الحميرى ، وكان من المعمرين . قيل عاش أربعمائة وستا وخمسين سنة ، (قالوا : ولا يعد العرب معمرا إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعدا) .

(٦) أقال الله عثرته : رفعه من سقوطه . (٧) الطعن فى الجوانب يمينا وشمالا .

(٨) هبر اللحم : قطعه قطعا كبارا ، والهبرة (بالفتح) القطعة المجتمعة منه وضرب هبر وهبير هابر : أى يقطع اللحم .

فقبل المناجزة ، والمرء يَعجز لا المحالة ، بالجدِّ لا بالكدِّ ، التجلُّد ولا التبلُّد ، والمنيَّة ولا الدَّنيَّة ، ولا تأسَوا على فائت وإن عزَّ فقده ، ولا تحنُّوا إلى ظاعن وإن أُلِفَ قُربه ، ولا تطمعوا فتطبَعُوا[1] ، ولا تَهِنُوا فتخرَعُوا[2] . ولا يكونَنَّ لكم المثل السوء « إن الموَصَّيْنَ بنو سَهوان[3] » إذا مُتُّ فأَرْحِبُوا[4] خَطَّ مَضجَعِي ، ولا تَضِنُّوا عليَّ برُحْب[5] الأرض ، وما ذلك بمُؤدٍّ إليَّ رَوْحا[6] ، ولكن حاجة نفس خامرَها الإشفاقُ » .

قال أبو بكر بن دُرَيد فى حديث آخر إنه قال :

اليومَ يُبْنَى لِدُوَيدٍ بَيْتُهْ ... يا رُبَّ نَهْبٍ صالحٍ حَوَيْتُهْ

ورب قِرْنٍ بطلٍ أرْدَيتُهْ ... وَرُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيتُهْ[7]

وَمِعْصَمٍ مُخضَّبٍ ثَنيتُهْ ... لو كان للدهر بِلًى أبليتُه[8]

أو كان قِرْنى واحداً كُفِيتُهْ

(أمالى السيد المرتضى ١ : ١٧١)

---

(١) الطبع محركة : الدنس . (٢) الوهن الضعف ، والخراعة : (كنباهة) اللين والرخاوة خرع : ككرم ، وخرع كفرح ضعف وانكسر ، فهو خرع ، وخريع .

(٣) قال الميدانى فى مجمع الأمثال « ١ : ٦ » : « هذا مثل تخبط فى تفسيره كثير من الناس ، قال بعضهم : إنما يحتاج إلى الوصية من يسهو ويغفل ، فأما أنت فغير محتاج إليها لأنك لا تسهو ، وقال بعضهم يريد بقوله بنو سهوان جميع الناس لأن كلهم يسهو ، والأصوب فى معناه أن يقال : إن الذين يوصون بالشىء يستولى عليهم السهو حتى كأنه موكل بهم ؛ يضرب لمن يسهو عن طلب شىء أمر به ، والسهوان ، السهو ، ويجوز أن يكون صفة أى بنو رجل سهوان ، وهو آدم عليه السلام حين عهد إليه فسها ونسى ، يقال رجل سهوان وساه ، أى إن الذين يوصون لابد أن يسهوا لأنهم بنو آدم عليه السلام » .

(٤) أرحبه : وسعه .

(٥) الرحب : بالضم مصدر ؛ وبالفتح وصف . (٦) أى راحة ، أو هو بالضم أى وما ذاك بمرجع إلى روحى . (٧) الغيل : الساعد الريان الممتلئ . (٨) المعصم : موضع السوار أو اليد ، وهو المراد هنا .

٧٩ — وصية زهير بن جناب الكلبي

وأوصى زُهَيْر بن جناب الكلبي(١) بنيه فقال :

« يا بَنِيَّ : قد كَبِرت سِنِّي ، وبلغت حَرْساً(٢) من دهرى ، فأحكمتنى التجارب ، والأمور تجربة واختبار ، فاحفظوا عنى ما أقول وَعُوه ، إياكم والخَوَر عند المصائب ، والتواكُل عند النوائب ، فإن ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب ، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترِّين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سَخِرَ قوم قَطُّ إلا ابْتُلُوا ، وَلكن توقعوها ، فإنما الإنسان فى الدنيا غَرَض(٣) تَعَاوَرُه الرُّماة ، فَمُقَصِّرٌ دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابد أنه مصيبه » .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ١٧٣)

٨٠ — وصية النعمان بن ثواب العبدى لبنيه

كان النعمان بن ثَوَاب العَبْدى بنون ثلاثةٌ : سعدٌ وسعيد وساعدة ، وكان أبوهم ذا شَرَف وحكمة ، وكان يُوصى بنيه ، ويحْملهم على أدبه ، أما ابنه سعد فكان شجاعًا بطلاً من شياطين العرب ، لا يُقام لسبيله ، ولم تَفُتْه طَلِبتُهُ قطُّ ، ولم يَفِرَّ عن قِرْن ؛ وأما سعيد فكان يُشبه أباه فى شرفه وسُودَدِه ؛ وأما ساعدة فكان صاحب شراب ونَدامَى وإخوان ، فلما رأى الشيخ حال بنيه دعا سعدا ، وكان صاحب حرب ، فقال :

---

(١) هو زهير بن جناب بن هبل الكلبى ، قيل عاش مائتين وعشرين سنة ، وقيل مائتين وخمسين ، وقيل أربعمائة وخمسين ، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه .

(٢) الحرس من الدهر : الطويل ، وحرس : كسمع عاش زمانا طويلا .

(٣) الغرض : الهدف ، وتعاوره (تتعاوره) أى تتداوله .

« يا بُنَيّ إن الصارم يَنْبُو ، والجواد يَكْبُو ، والأثَرَ يَعْفُو[1] ، فإذا شَهِدْتَ حرباً ، فرأيت نارها تَسْتَعِرُ ، وبَطَلها يَخْطِر ، وبحرها يَزْخَر ، وضعيفها يُنْصَر ، وجبانها يَجْسُر ، فأَقْلِل المُكث والانتظار ، فإن الفِرار غير عار ، إذا لم تكن طالب ثار ، فإنما يُنْصَرُون هم[2] ، وإياك أن تكون صَيْدَ رِمَاحها ، ونَطِيحَ نِطَاحِها » .

وقال لابنه سعيد ، وكان جوادا : « يا بنى لا يبخَل الجواد ، فابذل الطَّارِفَ والتِّلاد[3] ، وأَقْلِل التَّلاح[4] ، تُذْكر عند السَّماح ، وابْلُ[5] إخوانك ، فإن وَفِيَّهم قليل ، واصنع المعروف عند محتَمِله » .

وقال لابنه ساعدة ، وكان صاحب شراب : « يا بنى إن كثرة الشراب ، تُفْسد القلب ، وتقلِّل الكسب وتُجِدّ اللعب[6] ، فأبصر نديمك ، واحْمِ حريمك ، وأعِنْ غَريمك[7] واعلم أن الظمأ القامح[8] ، خير من الرّى الفاضح ، وعليك بالقصد فإن فيه بَلاَغاً » . (مجمع الأمثال ١ : ٤٨)

٨١ — وصية قيس بن زهير لبنى النمر بن قاسط

جاور قيس بن زُهَير العَبْسى[9] بعد يوم الهَبَاءة النَّمِرَ بن قاسط ، وتزوج منهم ، وأقام فيهم حتى ولد له ، فلما أراد الرحيل عنهم قال :

---

(١) عفا الأثر : درس وامحى . (٢) أى طلاب الثار . (٣) الطارف والطريف : المال المستحدث ، والتالد ، والتليد ، والتلاد ، والمتلد : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك .

(٤) التلاحى : التنازع ، ولاحاه ملاحاة ولحاء نازعه . (٥) اختبر . (٦) أى تجعله جدا ؛ والجد (بالكسر) ضد الهزل . (٧) الغريم : المدين (وهو الدائن أيضا) . (٨) معناه العطش الشاق خير من رى يفضح صاحبه ، وقمح البعير قموحا : رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب فهو قامح ، وقمح البعير : اشتد عطشه حتى فتر شديدا .

(٩) هو صاحب حرب داحس والغبراء ، وكان من قصته أنه تراهن هو وحذيفة بن بدر سيد بنى ذبيان على فرسيهما داحس (فرس قيس) والغبراء (فرس حذيفة) — وقيل إنهما تراهنا على داحس والغبراء فرسى قيس ، والخطار والحنفاء فرسى حذيفة — وتواضعا الرهان على مائة بعير ، ثم قادوهما إلى رأس —

« يا معْشَرَ النَّمِر : إن لـكم علىّ حقًّا ، وأنا أُريد أن أُوصيكم ، فآمُركم بخصال ، وأنهاكم عن خصال ، عليكم بالأناةِ ، فإن بها تُدْرَكُ الحاجة ، وتُنال الفرصة ، وتسويدِ من لا تُعابون بتسويده ، وعليكم بالوفاء ، فإن به يعيش الناس ، وبإعطاء من تريدون إعطاءه قبل المَسْأَلة ، ومَنْعِ من تريدون مَنْعَهُ قبل الإلحاح ، وإجارة الجار على الدهر ، وتنفيسِ المنازل عن بيوت اليتامى ، وخلط الضيف بالعِيَال .

وأنهاكم عن الغدر ، فإنه عار الدهر ، وعن الرِّهان ، فإنى به ثَـكِلت مالـكاً أخى وعن البغى ، فإنه قتل زُهَيْرًا أبى[1] ، وعن الإعطاء فى الفضول ، فتعجزُوا عن الحقوق ، وعن السَّرَف فى الدماء ، فإن يوم الهَباءة[2] أَلزمنى العار، ومَنْع الحُرَم إلا من الأكفاء ،

= الميدان ، وفى طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأكمن حمل بن بدر فى تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية ، فأرسلوهما فأحضرا ، فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية ، وثبوا فى وجهه فردوه عنها ؛ وعلم قيس بذلك ؛ وبعث حذيفة بن بدر ابنه مالـكا إلى قيس يطلب منه حق السبق ؛ فقال قيس كلا لأمطلنك به ، فتناول ابن حذيفة من عرض قيس وشتمه وأغلظ له ؛ وكان إلى جنب قيس رمح فطعنه به فدق صلبه ، واجتمع الحيان وأدوا دية المقتول ، وأخذها حذيفة دفعا للشر ، ثم إن قومه نعوه فعاد الشر بينهم ، وقامت الفتن بين الحيين ، وعدا حذيفة على مالك بن زهير أخى قيس فقتله ؛ وكان الربيع بن زياد عمهما معتزل الحرب ، فلما سمع بمقتل ابن أخيه مالك شق ذلك عليه وقاتل بنى ذبيان ، ثم توالت أيام الحروب بينهم ، وكان أعظمها يوم الهباءة حتى أصلح بينهم الحرث بن عوف وهرم بن سنان المريان ؛ وحملا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير .

(١) وسبب مقتل زهير بن جذيمة العبسى أبى قيس ، أن هوازن بن منصور كانت تؤتى الإتاوة زهير ابن جذيمة — ولم تـكثر عامر بن صعصعة بعد — فأتت عجوز من هوازن إلى زهير بسمن فى نحى (النحى كحمل الزق ، أو ما كان للسمن خاصة) فاعتذرت إليه ؛ وشكت السنين اللواتى تتابعن على الناس ، فذاقه فلم يرض طعمه ، فدعها أى دفعها بقوس فى يده فسقطت فبدت عورتها ، فغضبت من ذلك هوازن وحقدته إلى ما كان فى صدرها من الغيظ ، وكانت يومئذ قد كثرت بنو عامر بن صعصعة فثاروا إليه فقاتلوه حتى قتلوه .

(٢) وكان حذيفة بن بدر وأخوه نزلا مع أصحابهما فى جفر الهباءة ، فاتبعهم قيس ومن معه حتى أدركهم فيه ، وقد أرسلوا خيولهم ونزعوا سلاحهم (وكان حذيفة قد أخذ غلامين من بنى عبس ، فقتلهما وهما يستغيثان يا أبتاه حتى ماتا) فشد قيس والربيع ومن معهما عليهم ، وهم ينادون لبيكم لبيكم ، يعنى أنهم =

فإن لم تصيبوا لهنّ الأكفاء . فإن خير منا لهنّ القبور ، (أو خير منازلها) ، واعلموا أنى كنت ظالمًا مظلومًا ، ظلمنى بنو بدر بقتلهم مالكاً أخى ، وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له » .

(العقد الفريد ٣ : ٢٢٤ ، وآمال السيد المرتضى ١ : ١٤٩ ، وسرح العيون ص ٩٠)

٨٢ — وصية حصن بن حذيفة لبنيه

وأوصى حِصْن بن حُذَيْفة بن بدر الفَزَارى بنى بدر فقال :

« اسمعوا منى ما أُوصيكم به : لا يَتَّكِلْ آخِرُكم على أولكم ، فإنما يُدرِكُ الآخِرُ ما أدركه الأول ، وَأنكِحُوا الكُفْءَ الغريبَ ، فإنه عِزٌّ حادث ، وَإذا حضركم أمران ، فخذوا بخيرهما صَدَرًا[1] ، فإن كل مَوْرِدٍ مَعْرُوف ، واصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم ، ولا تُخَالِفُوا فيما اجتمعوا عليه ، فإن الخلاف يُزْرِى بالرئيس المطَاع ، وإذا حادثتم فَارْبَعُوا[2] ، ثم قولوا الصدق ، فإنه لا خير فى الكذب ، وصونوا الخيل فإنها حُصُون الرجال ، وَأطيلوا الرماح فإنها قُرُون الخيل ، وَأعِزُّوا الكبير بالكِبَر ، فإنى بذلك كنت أغلِبَ الناس ، ولا تَغْزُوا إلا بالعيون[3] ، ولا تسرّحوا حتى تأمَنُوا الصَّبَاح[4] ، وأعطوا عَلَى حَسَبِ المال ، وأعْجِلوا الضيفَ بالقِرى[5] ، فإن خَيْرَه أعجلُه ، واتقوا فضيحاتِ البغى ، وفَلَتَاتِ المُزاح ، ولا تُجِيرُوا على الملوك ، فإن أيديَهم أطول من أيديكم » .

(أمالى السيد المرتضى ٢ : ١٦٨)

= يجيبون نداء الصبية لما قتلوا ينادون يا أبتاه ، فناشدوهم الله والرحم ، فلم يقبلوا منهم ، وقتلوا حذيفة وحملا أخاه ، ومثلوا بحذيفة فقطعوا مذاكيره وجعلوها فى فيه وجعلوا لسانه فى استه ، وأسرف قيس فى النكاية والقتل ، وكانت فزارة تسمى هذه الوقعة البوار ، ولكن قيسا ندم بعد ذلك ورثى حمل بن بدر ، وهو أول من رثى مقتوله .

(١) الصدر : الرجوع . (٢) ربع : كمنع انتظر وتحبس ، وربع الحبل : فتله من أربع طاقات . والمعنى إذا حادثتم فتأنوا وتمهلوا ، أو فأحكموا القول . (٣) العيون : جمع عين ، وهى خيار كل شىء . (٤) الصباح الغارة : أى ولا تسرحوا مقاتلتكم حتى تأمنوا الغارة .

(٥) قرى الضيف يقريه قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا ما قرى به الضيف .

٨٣ — وصية لأكثم بن صيفى

كتب النعمان بن خَمِيصة البارقىُّ إلى أكثم بن صيفى: «مَثِّل لنا مِثَالًا نأخذ به[١]» فقال:

« قد حَلَبْتُ الدهرَ أشْطُرَهُ[٢] فعرفتُ حُلْوه ومُرَّه. عين عَرَفت فَذَرَفت[٣]، إنَّ أمَامِي مَالاَ أُسَامِي[٤]. رُبَّ سَامِعٍ بِخَبَرٍ لم يَسْمَع بعُذْرى. كلُّ زمان لمن فيه. فى كل يوم ما يُكْرَه. كل ذى نُصْرة سيُخْذَل. تبارُّوا فإن البرَّ يَنْمِى[٥] عليه العَدَد وكُفُّوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فَكَّيْه. إن قولَ الحق لم يَدَعْ لى صَدِيقاً. الصدق منجاة لاينفع مع الجزع التبقِّى. ولا ينفع مما هو وَاقعٌ التَّوَقِّى، سَتُسَاقُ إلى ما أنت لاقٍ. فى طلب المعالى يكون العَنَاء. الاقتصاد فى السعى أبقى للجَمام[٦] من لم يَأْسَ[٧] على ما فاته وَدُعَ بدنُهُ، ومن قَنِع بما هو فيه قَرَّت عينه. التقدُّم قبل التندُّم[٨]. أُصبحُ عند رأس الأمر أحبُّ إلىَّ من أن أصبح عند ذنبه. لم يهلِكْ من مالك ما وعظك. وَيْلٌ لعالم أمر من جاهله. يتشابه الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الكيِّس والأحمق. الوَحْشة ذهاب الأعلام[٩]. البَطَر عند الرخاء حُمْق. والعجز عند البلاء أَفَن[١٠]. لاتغضبوا

---

(١) هكذا روى أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال: وذكر الميدانى أن أكثم وصى بها بنيه حين جمعهم، والرواية الأولى أطول بكثير من الثانية، وقد جمعت بين الروايتين. (٢) الناقة شطران: قادمان وآخران، فكل خلفين من أخلافها شطر (والخلف بالكسر لها كالضرع للبقرة) وأشطره بدل من الدهر؛ والمعنى أنه اختبر شطرى الدهر خيره وشره فعرف مافيه، وهو مثل يضرب فيمن جرب الدهر.

(٣) ذرفت عينه كضرب: سال دمعها، وذرفت العين دمعها أسالته؛ وهو مثل يضرب لمن رأى الأمر فعرف حقيقته. (٤) ساماه: باراه فى السمو. (٥) يزيد، وفى مجمع الأمثال «يبقى».

(٦) أى أبقى للقوة، من جم الفرس جماما (بالفتح) ترك الضراب فتجمع ماؤه، وجم الماء يجم بضم الجيم وكسرها جموما كثر واجتمع، والبئر تراجع ماؤها؛ والجمام بالفتح أيضا: الراحة.

(٧) يحزن. (٨) أى ففكر فى التقدم قبل أن تندم. (٩) الأعلام جمع علم: وهو سيد القوم.

(١٠) الأفن: ضعف الرأى والعقل، وفى الأصل أمن وهو تحريف.

من اليسير ، فربما جنى الكثير . لا تُجيبوا فيما لم تُسألوا عنه . ولا تضحكوا مما لا يُضحك منه . حِيلةُ من لا حِيلةَ له الصبر . كونوا جميعاً فإن الجمع غالب ، تثبّتوا . ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين الرّكين . رب عَجَلة تَهب رَيْثاً . ادّرعوا الليل واتخذوه جَملاً . فإن الليل أخفى للويل . ولا جماعة لمن اختلف . تناءوا فى الديار ولا تباغضُوا . فإنه من يجتمع يَتَقَعْقَعْ(١) عَمَدُه . ألزموا النساء المهابة(٢) نِعْمَ لهوُ الحُرّةِ(٣) المِغزَل . إن تعِش ترَ مالم تَرَه . قد أقرّ صامِت . المِكثار كحاطبِ(٤) لَيلٍ . من أكثر أسقط(٥) . لاتجعلوا سِرا إلى أمة . لا تفرّقوا فى القبائل ، فإن الغريب بكل مكانٍ مظلوم ، عاقدُوا الثَّروة(٦) . وإياكم والوشائظَ(٧) فإن مع القِلّةِ الذِّلّةَ : لو سُئِلَتِ العارية قالت أبْغِى لأهلى ذُلاًّ . الرسول مُبَلِّغ غيرُ مَلوم . من فَسَدَتْ بِطَانَتُه غَصَّ بالماء . أساء سَمْعاً فأساء جابَةً(٨) . الدّالُّ على الخير كفاعله . إن المسألة مِنْ أضْعَف المَسْكَنَة . قد تجوع الحرة

(١) تقعقع : اضطرب وتحرك . وفى الأصل عنده بدل عمده وهو تحريف ، وهذا مثل . معناه لابد من الافتراق بعد الاجتماع ، أو معناه إذا اجتمع القوم وتقاربوا وقع بينهم الشر فتفرقوا ، أو من غبط بكثرة العدد واتساق الأمر فهو بمعرض الزوال والانتشار . (٢) أى أن يهبنكم ويوقرنكم ، وفى الأصل « المهانة » وهو تصحيف .

(٣) الشريفة . (٤) الحاطب : الذى يجمع الحطب ؛ وهو حاطب ليل : أى يخلط فى كلامه .

(٥) أسقط كلمة ؛ وأسقط فى كلمة أى أخطأ .

(٦) عاقدوا : حالفوا ، والثروة : كثرة العدد من الناس . (٧) يقال هم وشيظة فى قومهم أى حشو فيهم . (٨) جابة بمعنى إجابة ، اسم وضع موضع المصدر ، ومثلها الطاعة والطاقة والغارة والعارة . قال المفضل : أول من قال ذلك سهيل بن عمرو ، وكان تزوج صفية بنت أبى جهل بن أبى هشام ، فولدت له أنس بن سهيل ، فخرج معه ذات يوم ؛ فوقف بحزورة مكة (والحزورة كقسورة : الرابية الصغيرة) فأقبل الأخنس بن شريق الثقفى ، فقال : من هذا ؟ قال سهيل : ابنى ؛ قال الأخنس : حياك الله يافتى ! قال : لا ، والله ما أمى فى البيت ، انطلقت إلى أم حنظلة تطحن دقيقا ، فقال أبوه : أساء سمعا فأساء جابة فأرسلها مثلا .

ولا تأكل بِثَدْيَيْهَا[١] . لم يَجُرْ سالكُ القَصْدِ ، ولم يَعْمَ قاصِدُ الحق . من شَدَّدَ نَفر ، ومن تراخى تألَّف . الشرف التغافل . أوْفَى القول أوجَزُه . أصوب الأمور تَرْكُ الفُضول. التغرير مِفتاح البؤس . التوانى والعجز ينتجان الهَلَكة . لكل شيء ضَراوة[٢] . أحوج الناس إلى الغِنى من لايُصْلحه إلا الغنى ، وهم الملوك . حُبُّ المدح رأسُ الضَّيَاع . رِضَا الناس غاية لا تُبلَغ . لاتَكْرَه سُخطَ مَنْ رِضاه الجَوْرُ معالجة العَفاف مَشقَّة فتعوَّذ بالصبر . اقصُر لسانك على الخير وأخِّر الغضب ، فإن القدرة من ورائك ، من قَدَرَ أزمع ، أمَرُّ أعمال المقتدرين الانتقام ، جَازِ بالحسنة ولا تكافِئْ بالسيئة ، أغنى الناس عن الحِقد مَنْ عَظُم عن المجازاة . مَنْ حَسَدَ مَنْ دونه قلَّ عُذْره ، من جعل لِحُسن الظن نصيباً رَوَّح عن قلبه ، عِيُّ الصمت أحمد من عى المنطق ، الناس رجلان محترس وَمحترَس منه كثير النُّصح يَهْجُم على كثير الظِّنَّةِ[٣] ، من ألحَّ فى المسألة أبْرَم[٤] ، خير السخاء

---

(١) أى لا تعيش بسبب ثديها وبما يغلان عليها من أجرة الإرضاع ، يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب ، وذكروا أن أول من قاله الحارث بن سليل الأسدى ، وكان شيخا كبيرا وكان حليفا لعلقمة بن خصفة الطائى ، فزاره فنظر إلى ابنته الزباء ، وكانت من أجمل أهل دهرها فأعجب بها ، فقال له : أتيتك خاطبا ، وقد ينكح الخاطب ، ويدرك الطالب ، ويمنح الراغب ، فقال له علقمة : أنت كفء كريم يقبل منك الصفو ، ويؤخذ منك العفو ، فأقم ننظر فى أمرك ؛ ثم انكفأ إلى أمها فقال إن الحارث بن سليل سيد قومه حسبا ومنصبا وبيتا ، وقد خطب إلينا الزباء ، فلا ينصرفن إلا بحاجته فقالت امرأته لابنتها : أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاح (أى السيد) ، الواصل المناح ، أم الفتى الوضاح ؟ قالت ، لا بل الفتى الوضاح ، قالت : إن الفتى يغيرك ، وإن الشيخ يميرك ، وليس الكهل الفاضل ، الكثير النائل ، كالحديث السن ، الكثير المن ، قالت : يا أمتاه ، إن الفتاة تحب الفتى كحب الرعاء أنيق الكلا ، قالت : أى بنية ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، قالت إن الشيخ يبلى شبابى ، ويدنس ثيابى ، ويشمت بى أترابى ، فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحرث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم ، فابتنى بها ثم رحل بها إلى قومه ، فبينا هو ذات يوم جالس بفناء قومه وهى إلى جانبه إذ أقبل إليه شباب من بنى أسد يعتلجون ، (أى يتصارعون ويتقاتلون) فتنفست الصعداء ثم أرخت عينيها بالبكاء ، فقال لها : مايبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ؛ فقال لها ثكلتك أمك تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، الحق بأهلك فلا حاجة لى فيك .

(٢) يقال : ضرى الكلب بالصيد (كفرح) ضراوة أى تعود ، وكلب ضار ؛ وأضراه صاحبه عوده وأضراه به : أغراه ، وضراه أيضا تضرية . (٣) التهمة . (٤) أبرمه : أضجره وأمله .

ما وافق الحاجة ، الصمت يكسب المحبة ، لن يغلب الكذب شيئًا إلا غَلَبَ عليه الصدق ، القلب قد يُتَّهَم وإن صدق اللسان ، الانقباض عن الناس مَكْسَبة للعداوة ، وتقريبهم مكسبة لقرين السوء ، فكن من الناس بين القرب والبعد . فإن خير الأمور أوساطها ، فُسُولَة[1] الوزراء أضر من بغض الأعداء ، خير القُرَناء المرأة الصالحة ، وعند الخوف حُسْن العمل ، من لم يكن له من نفسه زاجرٌ لم يكن له من غيره واعظ ، وتمكَّن منه عدوه على أسوأ عمله ، لن يَهْلِك امرؤ حتى يَمَلّ[2] الناس عَتِيد فعله ويشتد على قومه ، ويُعْجَب بما ظهر من مروءته ، ويغتر بقومه ، والأمر يأتيه من فوقه ، ليس للمختال فى حسن الثناء نصيب ، لا نَمَاءَ مع العَدَم ، إنه من أتى المكروه إلى أحد بدأ بنفسه . العِيُّ أن تتكلم فوق ما تسد به حاجتك ، لا ينبغى لعاقل أن يثق بإخاء من تضطره إلى إخائه حاجَةٌ ، أقلُّ الناس راحةً الحقود ، من تَعَمَّد الذنب لا تحل رحمته دون عقوبته ، فإن الأدب رِفق ، والرفق يُمْن » .

(جمهرة الأمثال ١ : ٣٢٠ ، ومجمع الأمثال ٢ : ١٤٥)

٨٤ — وصية أكثم بن صيفى لطيِّء

وقال أكثم بن صيفى فى وصية كتب بها إلى طيء :

« أوصيكم بتقوى الله وَصِلَةِ الرَّحِم . وإياكم وَنِكَاحَ الحَمْقاء ، فإن نكاحها غَرَر[3] ، وَوَلَدَها ضياع . وعليكم بالخيل فأكرموها ، فإنها حصون العرب ، ولا تضعوا رقاب الإبل فى غير حقها . فإن فيها ثَمَنَ الكريمة[4] ، وَرَقُوء الدم[5] ، وبألبانها يُتْحَف

---

(١) فسل فسولة فهو فسل : أى رذل لا مروءة له ، والوزراء : جمع وزير وهو النصير والظهير .

(٢) فى الأصل « يملك » وأرى صوابه يمل .

(٣) الغرر : الخطر : غرر بنفسه تغريرا : عرضها للهلكة والاسم الغرر . (٤) يريد مهرها .

(٥) رقأ الدم : جف وسكن ، والرقوء كصبور ما يوضع على الدم ليرقئه ، والمعنى أنها تعطى فى الديات فتحقن بها الدماء .

الـكبير[1] ، وَيُغْذَى الصغير ، ولو أن الإبل كُلِّفت الطَّحن لطحنت . ولن يَهْلِك امرؤ عرف قدره . والعُدْم[2] عُدْمُ العقل ، لا عُدْمُ المـال . ولَرَجُلٌ خير من ألف رجل . ومن عَتَب على الدهر طالت مَعْتَبَته . ومن رضى بالقَسْم[3] طابت معيشته . وآفة الرأى الهوى . والعادة أَمْلَك[4] . والحاجة مع المحبة خير من البُغْض مع الغنى . والدنيا دُوَل ، فما كان لك أتاك على ضعفك ؛ وما كان عليك لم تدفعه بقوتك . والحسد داء ليس له دواء . والشماتة تُعْقِب . ومن يرَ يوماً يُرَ به . قبل الرِّماء تُملأ الـكنائن[5] . الندامة مع السفاهة. دِعامة العقلِ الحلمُ . خيرُ الأمور مَغَبةً الصبر . بقاء المودة عَدْلُ[6] التعاهد . من يَزُر غِبًّا يزدد حبًّا . التغرير مفتاح البؤس . من التوانى والعجز نُتِجَتِ[7] الهَلَـكَةُ . لـكل شىء ضَراوة . فَضَّ لسانك بالخير عِىّ الصمت أحسن من عى المنطق . الحزم حفظ ما كُلِّفتَ وتركُ ما كُفيتَ . كثير النصح يَهْجُم على كثير الظِّنّة . من ألحف فى المسألة ثَقُل . من سأل فوق قدره استحق الحرمان . الرِّفق يُمْن ، والخُرْق شؤم . خير السخاء ما وافق الحاجة . خير العفو ما كان بعد القدرة » .

(مجمع الأمثال ٢ : ٨٧)

٨٥ — وصية أكثم بن صيفى لبنيه ورهطه

وصَّى أكثم بن صيفى بنيه ورهطه ، فقال : « يا بنى تميم لا يَفُوتَنَّـكُمْ وعظى إن فاتـكم الدهر بنفسى ، إن بين حَيْزُومِي[8] وصدرى لـكلاماً لا أجد له مواقعَ إلاَّ

---

(١) التحفة : البر واللطف والطرفة ، وقد أتحفته تحفة .

(٢) العدم بالضم وبضمتين وبالتحريك الفقدان وغلب على فقدان المـال . (٣) القسم : القدر

(٤) وفى رواية : « العادة أملك من الأدب » .

(٥) الرماء مصدر رامى كالمراماة ، والـكنائن جمع كنانة : وهى جعبة السهام ، وهو مثل معناه : تؤخذ للأمر أهبته قبل وقوعه ، ومثله قولهم « قبل الرى يراش السهم » أى يوضع له الريش .

(٦) العدل : الاستقامة أى بقاء المودة فى استقامة التعاهد والحرص على سلامة شروطه .

(٧) ويروى نتجت الفاقة . (٨) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام .

أسماعكم ، ولا مقَارّ إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ، تحمَدُوا مَغَبّتَه . الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مُطْلَقَةٌ ، والحزم معقول[١] والنفس مهملة ، والروية مُقَيَّدَة ، ومن جهة التوانى وترك الروية يَتْلف الحزم ، ولن يعدَم المُشَاوِر مُرْشِدا ، والمُسْتَبدّ برأيه موقوف على مَدَاحِض[٢] الزلل ، ومن سَمّع سُمِع بهِ ، ومصارع الرجال تحت بروق الطَّمع ، ولو اعتُبِرت مواقع المحن ما وُجِدَت إلا فى مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجَدَد[٣] أمِن العثار ، ولن يَعْدَم الحسود أن يُتْعِب قلبه ، ويَشْغَل فِكْره ، ويُؤَرِّث[٤] غيظه ، ولا تجاوز مَضَرّتُهُ نَفْسَه

يا بنى تميم : الصبر على جَرْع الحلم أعذب من جَنْى ثمر الندامة ، ومن جعل عِرْضه دون ماله اُسْتُهْدِفَ للذم ، وَكَلْمُ اللسان أنكَى من كَلْم السنان ، والكلمة مرهونة مالم تَنْجُم من الفم ، فإذا نَجَمَتْ فهى أسد مُحَرَّب[٥] ، أو نار تَلَهَّب ، ورأى الناصح اللبيب دليل لايجوز ، ونفاذ الرأى فى الحرب ، أجدى من الطعن والضرب » .

(شرح ابن أبى الحديد ٤ : ١٥٥ ، وسرح العيون ١٥ وجمهرة الأمثال ٢ : ٢١٢)

٨٦ – نصيحة أكثم بن صيفى لقومه

ونصح قومه فقال : « أقِلُّوا الخلاف على أمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، والمرء يعجز لا محالة ، يا قوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الرَّكِين[٦] ورب عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثا[٧] ، وَاتَّزِرُوا للحرب ، وَادَّرِعُوا الليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة لمن اختلف » . (الأغانى ١٥ : ٧٠)

---

(١) محبوس . (٢) جمع مدحضة : وهى المزلة . (٣) الأرض المستوية . (٤) يوقد .
(٥) التحريب : التحريش والتحديد ، والمحرب والمتحرب الأسد . (٦) الرزين . (٧) بطئا

٨٧ — أمثال أكثم بن صيفى (وَبُزُرْجِمْهر) الفارسى (١)

« العقل بالتجارب . الصاحب مناسب (٢) . الصديق مَنْ صَدَق غَيْبُه (٣) . الغريب من لم يكن له حَبيب . رب بعيدٍ أقربُ من قريب . القريب من قرُب نفعُه . لو تكاشفتم ما تدافنتم . خير أهلِك من كفاك ، خير سلاحك ما وقاك . خير إخوانك من لم تَخْبُره . رب غريبٍ ناصح الجَيْب (٤) ، وابنِ أبٍ متَّهم بالغيب ، أخوك مَنْ صَدَقَك ، الأخ مرآة أخيه . إذا عزَّ أخوك فَهُنْ (٥) . مُكْرَه أخاك لا بَطَل (٦) . تبَاعَدُوا فى الديار وتقاربوا فى المحبة . أىُّ الرِّجال المهذّب (٧) ؟ مَنْ لك بأخيك كله . إنك إن فَرِحْتَ لاَقٍ فَرَحا .

---

(١) هكذا فى العقد الفريد ، وليس من الميسور تمييز أمثال أحدهما من أمثال الآخر إلا فى القليل ، على أنه قد ورد بينها أمثال لغير أكثم ، (ولعله تمثل بها) وأخرى له قد وردت فى ثنايا كلامه الذى أوردته آنفا ، ولكنى آثرت إيراد المقال برمته كما جاء فى العقد ، وبزرجمهر : مركب من بزرج معرب بزرك أى الكبير ، ومهر أى الروح وهو بزر جمهر بن البختكان وزير كسرى أنو شروان ملك الفرس ، وكان سديد الفكر ، حصيف الرأى . (٢) المناسب والنسيب : القريب ، من النسبة (بالكسر والضم) وهى : القرابة ، وبينهما مناسبة أى مشاكلة ، هذا يناسب ذاك أى يقاربه شبها .

(٣) فى الأصل « من صدق عينيه » وهو محرف ، وأراه من صدق غيبه أو غيبته أى من صدق فى مودته ، وحفظ الاخاء ، فى الغيبة لا فى المحضر فحسب . (٤) جيب القميص طوقه ، وهو ناصح الجيب أى القلب كناية عن أنه خالص الطوية لا غش فيه .

(٥) فى الميدانى : هذا المثل لهذيل بن هبيرة التغلبى ، وكان أغار على بنى ضبة فغنم فأقبل بالغنائم . فقال له أصحابه قسمها بيننا ، فقال إنى أخاف إن تشاغلتم بالاقتسام أن يدرككم الطلب فأبوا ، فعندها قال : « إذا عز أخوك فهن » ثم نزل فقسم بينهم الغنائم ، ومعناها ، مياسرتك صديقك ليست بضيم يركبك منه فتدخلك الحمية به ، إنما هو حسن خلق وتفضل ، فإذا عاسرك فياسره .

(٦) قاله أبو حنش : وذلك أن رجلا من بنى فزارة يقال له بيهس أخبر أن ناسا من أشجع فى غار يشربون فيه — وكانوا قد قتلوا إخوته الستة — فانطلق بخال له يسمى أبا حنش ؛ فقال له هل لك فى غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها — ويروى : هل لك فى غنيمة باردة — ثم انطلق به حتى أقامه على فم الغار ، ودفعه فيه فقال : ضربا أبا حنش ، فقال بعضهم : إن أبا حنش لبطل ، فقال أبو حنش : مكره أخاك لا بطل ، فأرسلها مثلا . (٧) فى الميدانى : أول من قاله النابغة الذبيانى حيث قال :

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

أَحْسِنْ يُحْسَنْ إليك . أَرْحَم تُرْحَم . كما تَدِين تُدَان[١] . من بَرّ يوماً بُرّ به ، والدهر لا يُغتَرُّ به ، عَيْنٌ عَرَفت فَذَرَفت[٢] . فى كل خِبْرَةٍ عِبْرَة ، من مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الحَذِر . لا يَعْدُو المرء رزقَه وإن حَرِصَ . إذا نزل القَدَر عَمِيَ البصر ، وإذا نزل الحَيْن نزل بين الأذن والعين[٣] . الخمر مفتاح كل شر . الغِناء رُقْيَةُ الزناء[٤] . القناعة مال لا ينفد . خير الغِنَى غِنَى النفس . منساقٌ إلى ما أنت لاقٍ . خذ من العافية ما أُعطيت . ما الإنسان إلا القلبُ واللسان . إنما لك ما أمضيتَ . لا تتكلَّفْ ما كُفِيتَ . القلم أحد اللسانين . قلة العِيَال أحد اليَسَارَين ، ربما ضاقت الدنيا باثنين . لن تَعْدَمَ الحسناء ذاماً[٥] . لم يَعْدَم الغاوى لائماً . لا تَكُ فى أهلك كالجِنَازة[٦] . لا تَسْخَرْ من شىء فيجوزَ بك . أخِّر الشر فإذا شئت تعجَّلته . صغير الشر يوشِكُ أن يكبُر . يبصر القلب ما يعمَى عنه البصر . الحُرُّ حُرٌّ وإن مَسَّهُ الضُّرّ . العبد عبدٌ وإن ساعَدَه جَدّ[٧] من عَرَف قَدْره استبان

---

(١) الدين بالكسر : الجزاء دانه يدينه دينا بالفتح ويكسر ، ومعنى المثل كما تجازى تجازى : أى كما تعمل تجازى ، إن حسنا فحسن ، وإن سيئا فسيىء ، وقوله تدين : أراد تعمل فسمى الابتداء جزاء للمطابقة والموافقة ، وعلى هذا قوله تعالى : « فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » .
ويجوز أن يجرى كلاهما على الجزاء أى كما تجازى أنت الناس على صنيعهم كذلك تجازى على صنيعك .

(٢) فى الأصل « عين رفت » وهو تشويه ، وصوابه « عين عرفت فذرفت » .

(٣) الحين : الهلاك ، وقوله : نزل بين الأذن والعين أى بمسمع ومرأى ممن نزل به لا مختفيا عنه .

(٤) زنى يزنى زنى وزناء .

(٥) الذام : والذيم العيب ، قال الميدانى : « وأول من تكلم بهذا المثل فيما زعم أهل الأخبار حبى بنت مالك بن عمرو العدوانية (وحبى : بضم الحاء ، وتشديد الباء المفتوحة) وكانت من أجمل النساء ، فسمع بجمالها ملك غسان فخطبها إلى أبيها ، وحكمه فى مهرها ، وسأله تعجيلها ، فلما عزم الأمر ، قالت أمها لتباعها : إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هنة ، فإذا أردتن إدخالها على زوجها ، فطيبنها بما فى أصدافها فلما كان الوقت أعجلهن زوجها ، فأغفلن تطييبها ، فلما أصبح قيل له : كيف وجدت أهلك : طروقتك البارحة ؟ فقال ما رأيت كالليلة قط لولا رويحة أنكرتها ، فقالت هى من خلف الستر « لا تعدم الحسناء ذاما » فأرسلتها مثلا .

(٦) الجنازة بالكسر : الميت ، ويفتح ، أو بالكسر الميت ؛ وبالفتح السرير ، أو عكسه ؛ أو بالكسر السرير مع الميت ، والمراد هنا الميت ، وهذا المثل والمثلان قبله فى الأصل مشوهة مختلطة هكذا : لن تعدم الحسناء ما لم يعدم الغاوى لا يما لا يلك فى أهلك كالجنازة » . (٧) الجد : الحظ .

أمرَه . من سرَّه بنوه ساءته نفسه . من تعظَّم على الزمان أهانه . من تعرض للسلطان آذاه ، ومن تطامن له تخطّاه . من خَطا يَخْطُو(١) . كل مبذول مَملول . كل ممنوعٍ مرغوبٌ فيه . كل عزيز تحت القدرة ذليلٌ . لكل مقام مقال . لكل زمان رجال . لكل أجل كتابٌ . لكل عمل ثوابٌ . لكل نبأ مستقرّ . لكل سرّ مستودع . قيمة كل إنسان ما يُحْسِن . اطلب لكل غَلَق(٢) مفتاحاً . أكْثِرْ فى الباطل يكن حقّاً . عند القَنَط(٣) يأتى الفرج . عند الصباح يُحْمَد السُّرَى(٤) . الصدق مَنْجَاة ، والكذب مَهْوَاة . الاعتراف يهدم الاقتراف . ربَّ قول أنفذُ من صَوْل . رب ساعة ليس بها طاعة . رب عَجَلَةٍ تُعْقِبُ رَيْثاً(٥) . بعض الكلام أقطعُ من الحسام . بعض الجهل أبلغ

---

(١) يريد : من حاول الخطو وعالجه استطاعه ومرن عليه ، أى أن من أراد أمرا وتحيل له وأخذ فى معالجته وممارسته ، تم له ما يبغى ، وهو كقولهم : إنما العلم بالتعلم ، « ورفع يخطو فى المثل حسن لأن الشرط ماض» . (٢) الغلق : القفل كالمغلاق . (٣) القنط والقنوط : اليأس .

(٤) السرى : السير ليلا ، ويروى « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ، وفى الميدانى : « أن أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو باليمامة أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائى : قد سلكتها فى الجاهلية ، هى خمس للإبل الواردة (فلاة خمس بكسر الخاء : بعد وردها حتى يكون ورد النعم اليوم الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه) ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشترى مائة شارف (الشارف الناقة المسنة) فعطشها ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم سلك المفازة ، حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل ، وخشى أن يذهب ما فى بطون الإبل نحر الإبل ، واستخرج ما فى بطونها من الماء ، فسقى الناس والخيل ومضى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا هل ترون سدرا عظاما (السدر بالكسر شجر النبق) فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ، ثم هجموا على الماء فقال خالد رجزا منه « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

(٥) الريث : الإبطاء ويروى تهب ريثا ، وفى الميدانى : « أن أول من قال ذلك مالك بن عوف ابن أبى عمرو بن عوف بن محلم الشيبانى ، وكان سنان بن مالك بن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيما ، فأراد أن يرحل بامرأته وهى أخت مالك بن عوف ، فقال له مالك : أين تظعن يا أخى ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة . قال : لا تفعل فإنه ربما خيلت ، وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك فأبى ، ومضى فعرض له مروان القرظ بن زنباع العبسى ، فأعجله عنها وانطلق بها ، وجعلها بين بناته وإخوته ولم يكشف =

من الْحِلْم . ربيع القلب ما اشتهى . الهَوَى شديد العمى . الهوى الإله المعبود . الرأى نائم ، والهوى يقظان . غلب عليك من دعا إليك . لا راحة لحسود ولا وفاء . لا سرورَ كَطِيب النَّفْسِ . العمر أقصر من أن يحتمل الْهَجْر . أحق النـــاس بالعفو أقدرهم على العقوبة . خير العلم مَا نَفَع . خير القول مَا اتُّبِـعَ . الْبِطْنَة(١) تُذهب الْفِطْنَة . شر العمى عمى القلب . أوثق الْعُرَى كلمة التقوى(٢) . النساء حبائل الشيطان . الشباب شُعْبة من الجنون . الشقى من شَقِىَ فى بطن أمه . السعيد من وُعظ بغيره . لـكل امرئ فى بدنه شُغْل . من يعْرِفِ البلاء يَصْبِرْ عليه . المقادير تُرِيك مالا يخْطر ببالك . أفضل الزاد ما تُزُوِّدَ للمَعَاد . الفَحْل أحْمَى للشَّوْل(٣) . صاحبُ الْحُظوة غداً ، من بلغ المَدَى . عواقب الصبر محمودة . لا تُبْلَغ الغاياتُ بالأمانىّ . الصَّرِيمة(٤) على قدر العزيمة . الضيف يُثنى أو يَذُم . من تفـكر اعتبر . كم شاهدٍ لك لاينطق. ليس منك مَنْ غشَّك. مانظر لأمرئٍ مثلُ نفسه . ماسد فقرك إلا ملكُ يمينك. ماعلى عاقلٍ ضيعةٌ . الغِنى فى الغُرْبة وطَن. المُقِلُّ فى أهله غريب، أول المعرفة الاختبار : يَدُكَ منك و إن كانت شَلَّاء . أنفُكَ منك وإنْ كانَ أجْدَعَ(٥) .

= لها ستّرا فقال مالك بن عوف لسنان : ما فعلت أختى ؟ قال : نفتنى عنها الرماح ؛ فقال مالك : « رب عجلة تهب ريثا . ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا » ، فأرسلها مثلا ، يضرب للرجل يشتد حرصه على حاجة ، ويخرق فيها حتى تذهب كلها .

(١) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام . (٢) انظر خطبة عبد الله بن مسعود .

(٣) الشول : جمع شائلة وهى من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، وأحمى : أفعل من الحماية . (٤) الصريمة : قطع الأمر (والعزيمة) .

(٥) ويروى « منك أنفك وإن كان أجدع » وفى الميدانى : « أول من قال ذلك قنفذ بن جعونة المازنى للربيع بن كعب المـازنى . وذلك أن الربيع دفع فرسا كان قد أبر على الخيل (أى زاد) كرما وجودة إلى أخيه كيش ليأتى به أهله ؛ وكان كيش أنوك مشهورا بالحمق ، وكان رجل من بنى مالك يقال له قراد ابن جرم قدم على أصحاب الفرس ليصيب منهم غرة فيأخذها ، وكان داهية فمكث فيهم مقيما لا يعرفون نسبه ولا يظاهره هو ، فلما نظر إلى كيش راكبا الفرس وركب ناقته ثم عارضه ، فقال ياكيش : هل لك فى عانة لم أر مثلها سمنا ولا عظما (العانة : القطيع من حمر الوحش) وعير معها من ذهب ؟ فأما الأتن (بضمتين جمع أتان) فتروح بها إلى أهلك فتملأ قدورهم ، وتفرح صدورهم ، وأما العير فلا افتقار بعده =

من عُرِفَ بالكذب جاز صدقه[1] . الصحة داعية السَّقَم . الشباب داعية الهَرَم . كثرة الصِّياح من الفَشَل . إذا قَدُمَت المصيبة تُرِكت التعزية . إذا قَدُم الإخاء سَمُج الثناء . العادة أملك من الأدب . الرفق يُمْن والخُرقُ شؤم . المرأة رَيْحَانة وليست بقَهْرَمانة[2] . الدالّ على الخير كفاعله . المحاجزة قبل المناجزة . قبل الرِّماية تملأ الكنائن . لكل ساقطةٍ لاقطةٌ . مَقْتَل الرجل بين فكَّيه . تَرْكُ الحركة غفلة . الصمت حُبْسَة . مَنْ خُيِّرَ خَبَرَ . إن تَسْمَع تُمْطَر[3] . كفى بالمرء خِيانةً أن يكون أمينا للخَوَنة . قَيِّدوا النِّعَم بالشكر . من يزرع المعروف يحصد الشكر . لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير . أعظم من المصيبة سوء الخلف منها . من أراد البقاء فليوطِّن نفسهُ على المصائب . لقاء الأحبة مَسْلاَة للهمّ . قطيعة الجاهل كصلة العاقل . من رضى على نفسهِ كثُرَ الساخط عليهِ . قتلت أرضٌ جاهلَهَا، وقتل أرضاً عارفُهَا . أدوأ الداء الخلق الدنىّ ، واللسان البَذِىّ. إذا جعلك السلطان أخًا فاجعله ربًّا . احذر الأمين ولا تأمَنِ الخائن . عند الغاية يُعْرف السَّبْقُ . عند الرّهان يُحْمد المضمار . السؤال و إن قَلّ ، أكثر من النوال و إن جَلّ. كافىء المعروف بمثله أو انشُره . لا خُلَّةَ[4] مَعَ عَيْلة . لا مروءة مع ضُرّ ، ولا صبر مع شكوى .

= قال له كيش : وكيف لنا به ؟ قال : أنا لك به ؛ وليس يدرك إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلا بليل ، ولا يراه غيرى ، قال كيش : فدونكه ؛ قال نعم وأمسك أنت راحلتى ، فركب قراد الفرس وقال : انتظرنى فى هذا المكان إلى هذه الساعة من غد ؛ قال : نعم ومضى قراد : فلم يزل كيش ينتظره حتى أمسى من غده وجاع ، فلما لم ير له أثرا انصرف إلى أهله وقال فى نفسه : إن سألنى أخى عن الفرس قلت تحول ناقة ، فلما رآه أخوه الربيع عرف أنه خدع عن الفرس ، فقال له : أين الفرس ؟ قال : تحول ناقة ؛ قال فما فعل السرج ؟ قال : لم أذكر السرج فاطلب له علة ، فصرعه الربيع ليقتله ؛ فقال له قنفذ بن جعونة : ته عما فاتك ، فإن أنفك منك وإن كان أجدع ؛ فذهبت مثلا .

(١) فى مجمع الأمثال (٢ : ١٧٥) : « من عرف بالصدق جاز كذبه ؛ ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه » . (٢) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ؛ والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس . (٣) أى إن تفتح أذنك للأقاويل تمطر وابلا منها .

(٤) الخلة : الصداقة المختصة لا خلل فيها . والعيلة الفقر .

ليس من العدل، سرعة العَذْلِ (١) . عبدُ غيرك حرٌّ مثلك . لا يَعْدَم الخِيَارَ، من استشار. الوضيع من وضع نفسه . المَهِين من نَزَل وحْدَه من أكثر أهجر (٢) . كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع » .
(العقد الفريد ١ : ٢٧٢)

* * *

ومن أمثال أكثم بن صيفي أيضاً :

« في الجريرة تَشْتَرِكُ العشيرة (٣) . إذا قُرِعَ الفؤاد ذهب الرُّقاد . هل يُهلكني فقدُ ما لا يعود ؟ أعوذ بالله أن يَرميني امرؤ بدائه . رُبَّ كلام ، ليس فيه اكتتام . حافظ على الصديق ، ولو في الحريق . ليس بيسير ، تقويم العسير . إذا أردت النصيحة ، فتأهب للظِّنَّة . متى تعالج مال غيرك تَسْأَم . غَثُّكَ خير من سمين غيرك . لا تَنْطَحُ جَمَّاءُ (٤) ذاتَ قَرْن . قد يُبْلَغ الخضْم بالقَضْم (٥) . قد صَدَع الفِرَاقُ ، بين الرِّفاق . استأنُوا (٦) أخاكم ، فإن مع اليوم غداً . الحرُّ عَزُوف (٧) . لا تطمع في كل ما تسمع » .

(جمهرة الأمثال ٢ : ١٠٣)

٨٨ — نصيحة الجمانة بنت قيس بن زهير لجدها الربيع بن زياد

كان قيس بن زُهَيْر العَبْسِي قد اشترى من مكة دِرْعًا حَسَنَةً ، تسمى ذات الفُضُول ، وَوَرَدَ بها إلى قومه ، فرآها عمه الربيع بن زياد ، وكان سيد بني عَبْس ، فأخذها منه

(١) اللوم . (٢) الإهجار : الافحاش وهو أن يأتي في كلامه بالفحش .

(٣) مثل يضرب في الحث على المواساة .

(٤) الجماء : الشاة بلاقرن مؤنث الأجم . (٥) القضم : الأكل بأطراف الأسنان ، والخضم الأكل بأقصى الأضراس ، ومعنى المثل : قد تدرك الغاية البعيدة بالرفق . (٦) انتظروا .

(٧) من عزفت نفسه عنه : إذا زهدت فيه وانصرفت عنه أي أنف راغب عن الدنايا .

غضبا ، فقالت الجمانة بنت قيس لأبيها : دعني أناظرْ جدّي ، فإن صلح الأمر بينكما ، وإلاّ كنتُ من وراء رأيك ، فأذن لها ، فأتت الربيع فقالت :

« إذا كان قيسٌ أبي ، فإنك يا ربيعُ جدّي ، وما يجب له من حق الأبوّة عليّ ، إلا كالذى يجب عليك من حق البنوّة لي ، والرأيُ الصحيحُ تبعثه العناية ، وتجلّي عن محضه النصيحةُ ، إنك قد ظلمتَ قيساً بأخذ درعه ، وأجدُّ مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارضُ منتصرٌ ، والبادي أظلم ، وليس قيسٌ ممّن يُخوَّفُ بالوعيد ، ولا يردعُه التهديدُ ، فلا تركنَنَّ إلى منابذته ، فالحزمُ في متاركته ، والحربُ متلفةٌ للعباد ، ذهّابةٌ بالطارف والتلاد ، والسّلمُ أرخى للبال ، وأبقى لأنفس الرجال ، وبحقٍّ أقول : لقد صدعتُ بحكمٍ ، وما يدفعُ قولي إلا غيرُ ذي فهم » ، ثم أنشأت تقول :

أبي لا يرى أن يترك الدهرَ درعَهُ   وجدّي يرى أن يأخذ الدرع من أبي

فرأيُ أبي رأيُ البخيل بماله   وشيمةُ جدّي شيمةُ الخائف الأبي

(بلاغات النساء ص ١٢٥)

٨٩ — وصف عصام الكندية أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني

لما بلغ الحارثَ بن عمرو ملك كندة جمالُ أمِّ إياس بنت عوف بن محلّم الشيباني ، وكمالُها وقوّة عقلها ، أراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من كندة ، يقال لها عصام ، ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامة بنت الحارث ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت : أي بُنَيّة ، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك فيه ، فدخلت عصام عليها ، فنظرت إلى مالم تر عينها مثله قطُّ بهجةً وحسناً وجمالا ، فإذا هي أكمل الناس عقلا ، وأفصحهم لسانا ، فخرجت من عندها وهي تقول : (ترك الخداعَ من كشفَ

القِنَاعَ) فذهبت مثلا ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها : (ما وراءكِ يا عِصَامُ) ؟ فأرسلها مثلا ، قالت : (صَرَّحَ المَخْضُ عن الزُّبْدِ[١]) ، فذهبت مثلا . قال أخبريني ، قالت : أُخبرك صدقًا وحقًا :

« رأيت جَبْهة كالمرآة الصَّقِيلة ، يَزِينها شَعْر حَالِكٌ ، كأذناب الخيل المضفورة[٢] ، إنْ أرسَلَتْه خِلْتَه السلاسلَ ، وإن مَشَطَتْه قلتَ عنا قيدُ كَرْمٍ جَلاهَا الوَابلُ[٣] ، وحاجبين كأنهما خُطا بِقَلَمٍ ، أو سُوِّدا بِحُمَمٍ[٤] قد تقوسا على عيني الظَّبية العَبْهَرَة[٥] التي لم يَرُعْها قانص ، ولم يُذْعِرها قَسْورة[٦] ، بينهما أنف كَحَدِّ السيف المصقول[٧] ، لم يَخْنِس به[٨] قِصَر ، ولم يَمْض[٩] به طول ، حَفَّتْ به وَجْنَتَان كالأُرْجُوَان[١٠] ، في بياض مَحْضٍ كالجُمَان[١١] ، شُقَّ فيه فم كالخاتَمِ ، لذيذ المُبْتَسَم ، فيه ثَنَايَا غُرٌّ ، ذوات أُشُرٍ[١٢] ، وأسنانٌ تبدو كالدُّرر ، وريق كالخمر له نَشْرُ الرَّوض بالسَّحَرِ ، يتقلب فيه لسانٌ ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقلٌ وافر ، وجواب حاضر ، تلتقي دونه شَفَتَان حمراوان كالورد ، يَجْلِبان ريقا كالشَّهْدِ ، تحت ذلك عنق كإبريق الفِضَّة ، رُكِّبَ في صدر كصدر تِمْثال دُمْية[١٣] ، يتصل بها عَضُدان ممتلئان لحماً ، مُكْتَنِزَان[١٤] شَحْماً ، وذراعان ليس فيهما عظمٌ يُحَسُّ ، ولا عِرْق يُجَسُّ ، رُكِّبَت فيهما كَفَّان ، دقيقٌ

(١) مخض اللبن : أخذ زبده ، والتصريح : تبيين الأمر ، وهو مثل يضرب للأمر إذا انكشف وتبين . (٢) في الأصل « المقصورة » وهو تحريف وصوابه « المضفورة » .

(٣) المطر الشديد الضخم القطر . (٤) الحمم : الفحم .

(٥) العبهرة والعبهر : الرقيقة البشرة الناصعة البياض ، والسمينة الممتلئة الجسم .

(٦) القسورة : الرماة من الصيادين ، الواحد قسور .

(٧) في مجمع الأمثال « الصنيع » وهو السيف الصقيل المجرب . (٨) خنس عنه كضرب وكرم تأخر ، والخنس : محركة تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، خنس كفرح فهو أخنس وهي خنساء » . (٩) وفي جمهرة الأمثال « ولم يمن » . (١٠) الأرجوان : صبغ أحمر .

(١١) الجمان : اللؤلؤ ، أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة . (١٢) أشر الأسنان : التحزيز الذي فيها . (١٣) الدمية : الصورة المنقشة من الرخام أو عاج . (١٤) اكتنز : اجتمع وامتلأ .

قَصَبُهُما ، لَيِّنٌ عَصَبُهما ، يُعقَدُ إن شئت منهما الأنامل ، وَتُرَكَّبُ الفصوصُ فى حُفَر المفاصل ، وقد تربَّعَ فى صدرها حُقَّان ، كأنهما رُمَّانتان ، يَخرِقان عليها ثيابَها ، تحت ذلك بطنٌ طُوِى كطَيِّ القَباطِيِّ[1] المُدْمَجَةِ ، كُسِيَ عُكَناً[2] كالقراطيس المُدْرَجَة[3] تحيط تلك العُكَنُ بِسُرَّةٍ كَمُدْهُنِ[4] العاج المَجْلوّ ، خلف ذلك ظهرٌ كالجدْوَلِ ، ينتهى إلى خَصْرٍ ، لولا رحمةُ الله لانبَتَرَ ، تحته كَفَلٌ[5] يُقعِدها إذا نهضت ، وَيُنْهِضها إذا قعدت، كأنه دِعصُ[6] رملٍ ، لَبَدَه سقوط الطَّلِّ ، يحمله فخِذَان لَفَّاوَان[7] كأنهما نَضِيد الجُمان ، تحتهما ساقان ، خَدْلَتان[8] كالبَرْدِيّ ، وُشِّيَتا بشعر أسود ، كأنه حِلَق الزَّرَد ، يحمل ذلك قَدَمان ، كَحَذْو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حَمْلَ ما فوقهما ، فأما ماسوى ذلك فتركت أن أصفَه ، غير أنه أحسن ماوصفهُ واصف بنظم أو نثر » ، فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوَّجهُ إياها[9] .

(العقد الفريد ٣ : ٢٣٥ ، ومجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، وجمهرة الأمثال ٢ : ٢٧)

---

(١) القباطى (بضم الأول مع تشديد الآخر) وقباطى (بفتح الأول مع تخفيف الآخر) جمع قبطية (بالضم على غير قياس وقد تكسر) : ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل فى مصر .

(٢) العكن : جمع عكنة (كقرصة) وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (٣) المطوية .

(٤) المدهن : قارورة الدهن . (٥) عجز .

(٦) الدعص : الكثيب من الرمل المجتمع . (٧) اللفاء : الفخذ الضخمة (والضخمة الفخذين) .

(٨) ساق خدلة : ممتلئة ضخمة (والخدلة المرأة الغليظة الساق المستديرتها وفى العقد : « خد لجتان » . (بفتح الخاء والدال وتشديد اللام) والخدلجة : المرأة الممتلئة الذراعين والساقين .

(٩) فى مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال ، أن الذى تزوج أم إياس هو الحارث بن عمرو ، والحارث هذا هو جد امرىء القيس ، وذكر صاحب العقد أن الذى تزوجها هو عمرو بن حجر ، وأنها ولدت له الحارث ابن عمرو جد امرىء القيس غير أنا نلاحظ أنه قال فى مقدمة هذا الوصف : « ثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها ما وراءك ياعصام ؟ . . . . الخ » .

٩٠ — وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس

فلما حُملت إلى زوجها قالت لها أمها أُمامة بنت الحارث :

« أى بنيةُ : إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضل أدبٍ ، تُرِكَتْ لذلك منكِ ، ولكنها تذكِرَة للغافل ، ومَعُونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لِغِنَى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، كنتِ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلِقن ، ولهنّ خُلِق الرجال .

أى بنية : إنك فارقتِ الجوَّ الذى منه خرجتِ ، وخلّفتِ العُشَّ الذى فيه دَرَجْتِ ، إلى وَكْرٍ لم تعرفيه ، وقرين لم تألَفِيه ، فأصبح بملكه[1] عليكِ رقيباً ومليكاً ، فكونى له أمَةً يكن لك عبداً وشيكاً[2] . يا بنية : احملى عنى عشر خصال تكن لكِ ذُخْراً وذِكراً ، الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقَع عينهُ منكِ على قبيح ، ولا يَشَمّ منكِ إلا أطيبَ ريح ، والكحل أحسن الحسْن ، والماء أطيب الطِّيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهُدُوّ عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع مَلْهَبَة ، وتنغيص النوم مَغْضَبَة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وَحَشَمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سرًّا ، ولا تَعصِى له أمراً ، فإنكِ إن أفشيت سرّه ، لم تأمَنِي غَدرَه ، وإن عَصَيْتِ أمره ، أوغَرْتِ صدرَه ، ثم اتقِى من

---

(١) أملكه إياها : زوجه فلكها ملكا ، مثلث الميم .

(٢) الوشيك ، السريع : أى يكن عبدا سريع الإجابة .

ذلك الفَرَحَ إن كان تَرِحا ، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظامًا ، يكن أشدَّ ما يكون لك إكرامًا ، وأشَدَّ ما تكونين له موافقة ، يكن أطوَلَ ما تكونين له مُرَافقَةً ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين ، حتى تُؤْثِرِى رضاه على رضاكِ ، وهواه على هواكِ فيما أحببت وكَرِهتِ ، والله يَخير لك » .

(مجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٢٣)

الخطب والوصايا

فى

عصر صدر الإسلام

خطب النبي صلى الله عليه وسلم

١ – أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه

حَمِد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إنَّ الرَّائِدَ[1] لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، والله لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جميعًا ما كَذَبْتُكم ، ولو غَرَرْتُ الناس جميعًا ما غَرَرْتُكم ، وَاللهِ الذى لاَ إلهَ إلاَّ هو إنى لرسُول الله إليكم خاصَّةً ، وَ إلى الناس كافَّةً ، والله لتموتُنَّ كما تنامون ، وَلَتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون ، ولَتُحَاسَبُنَّ بما تعملون ، وَلَتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحسانًا ، و بالسوء سوءًا ، و إنها لَجَنَّةٌ أبدًا ، أو لنارٌ أبدًا » .
(السيرة الحلبية ١ : ٢٧٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٧)

(١) المرسل فى طلب الكلأ .

٢ — أول خطبة خطبها بالمدينة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس فقَدِّموا لأنفسكم ، تَعْلَمُنَّ والله لَيُصْعَقَنَّ أَحَدُكُمْ ، ثم ليدَعَنَّ غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له تَرْجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلَّغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدَّمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً ، فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قُدَّامَهُ فَلاَ يرى غير جَهَنَّمَ ، فمن استطاع أن يقى وجْهَهُ من النار ، ولو بِشِقٍّ من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تُجْزَى الْحَسَنَةُ عشْرَ أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف[1] ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته » . (سيرة ابن هشام ١ : ٣٠٠)

٣ — خطبته فى أول جمعة جمعها بالمدينة

« الحمدلله أَحْمَدُهُ وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكْفُرُهُ وأعادى من يَكْفُرُهُ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فَتْرَةٍ من الرسل، وَقِلَّةٍ من العلم ، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان ، ودنوٍّ من الساعة ، وقُرْب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رَشِدَ[2] ، ومن يَعْصِهِمَا فقد غَوِىَ وفرّط ، وَضلَّ ضلالاً بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خَيْرُ ما أوْصى به المسلمُ المسلمَ أن يَحُضَّهُ على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحْذَروا ما حذَّركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحةً ، ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وإن

---

(١) ضعف الشىء مثله ، وضعفاه مثلاه ، أو الضعف المثل إلى مازاد ، ويقال لك ضعفه يريدون مثليه وثلاثة أمثاله لأنه زيادة غير محصورة .

(٢) كنصر وفرح .

تقوى الله لمن عمل به على وَجَل ومخافة من ربه، عونُ صِدْق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السرِّ والعلانية لا ينوى بذلك إلا وَجْهَ الله ، يكن له ذكراً فى عاجل أمره ، وَذُخْرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم ، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أن بينه وبينه أَمَدًا بعيداً ، ويحذِّركم الله نفسَهُ ، والله رءوف بالعباد ، والذى صَدَقَ قوْلَهُ ، وأنجز وَعْدَهُ لاَ خُلْفَ لذلك ، فإنه يقول عز وجل : « مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ ، وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ » فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية ، فإنه من يَتَّقِ الله يُكَفِّرْ عنه سيئاتِهِ ، وَيُعْظِمْ له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيما ، وإن تقوى الله يوَقِّى مقته ، ويوقى عقوبته ، ويوقى سُخْطَه ، وإن تقوى الله يُبَيِّض الوجوه ، ويرضى الرَّبَّ ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحَظِّكم ولا تُفَرِّطُوا فى جَنْبِ الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونَهَجَ لكم سَبِيلَهُ ، ليعلم الذين صدقوا وَيعلمَ الكاذبين ، فَأَحْسِنُوا كما أحسن الله إليكم ، وَعادُوا أعداءه ، وَجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، لِيَهْلِكَ من هلَكَ عن بَيِّنَةٍ ، ويحيا من حَىَّ عن بينة ، وَلا قوَّة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، وَاعملوا لما بعد اليوم ، فإنه من يُصْلِحْ ما بينه وبين الله يَكْفِهِ الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوَّة إلا بالله العظيم » .

(تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٥)

٤ — خطبة له يوم أحد

قام عليه الصلاة والسلام فخطب الناس فقال :

« أيها الناس أوصيكم بما أوصانى الله فى كتابه ، من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه ، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخرٍ لِمَن ذكر الذى عليه ، ثم وطّن نفسه على الصبر واليقين ، والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديدٌ كربه ، قليلٌ من يصبر عليه إلا

من عُزم له على رشده ، إن الله مع من أطاعه ، و إن الشيطان مع من عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذى أمركم به ، فإنى حريص على رشدكم . إن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو مما لا يحبه الله ، ولا يعطى عليه النصر .

أيها الناس إنه قُذف فى قلبى أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غَفَرَ له ذنبه ، ومن صلى على محمد وملائكته عشرا ، ومن أحسنَ وقع أجره على الله فى عاجل دنياه ، أو فى آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نَفَثَ الرُّوح الأمين فى رُوعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لاينقص منه شىء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجملوا فى طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يُقدَر على ما عنده إلا بطاعته ، قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شُبَهًا من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عُصم ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى ؛ ألا و إن حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده، والسلام عليكم » .

(شرح ابن أبى الحديد ٣ : ٣٦٥)

٥ ـ خطبته بالخيف

وخطب بالخيف من منًى فقال :

« نَضَّرَ[١] الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرب حاملِ فقهٍ لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يَغِلُّ[٢] عليهنَّ قلبُ المؤمنِ : إخلاصُ العمَلِ لله ، والنصيحةُ لأولي الأمر ، ولزومُ الجماعة ، إنَّ دعوتهم تكون من ورائِه ، ومن كان همه الآخرةَ جمع الله شملَهُ ، وجعل غِناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرّق الله أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له » . (إعجاز القرآن ص ١١٢)

٦ ـ خطبة له عليه الصلاة والسلام

ومن خطبه أيضًا أنه خطب بعد العصر فقال :

« ألا إنَّ الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوَة ، ألا وإن الله مستخلِفكم فيها فناظِرٌ كيف تعملون فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علِمَه . ولم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلَّا حمرة على أطراف السَّعَف فقال : إنهُ لم يبق من الدنيا فيما مضى إلَّا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى » . (إعجاز القرآن ص ١١٣)

---

(١) من النضرة والنضارة : وهي الحسن .

(٢) غل صدره يغل كضرب غلا : وهو الحقد والضغن .

٧ – خطبة له عليه الصلاة والسلام

« إن الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وأشهد أن لا إلَهَ إلَّا الله وحده لاشريك له ، إنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتابُ اللهِ ، قد أفلح مَنْ زَيَّنَهُ اللهُ فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديثِ النَّاس ، إنه أصدق الحديث وأبلغُه ، أَحِبُّوا من أحب الله ، وأَحِبُّوا الله من كل قلوبكم ، ولَا تَمَلُّوا كلامَ الله وذِكرَه ، ولا تَقْسُو عليه قلوبكم ، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، اتقوا الله حَق تُقَاتِه[١] ، وصَدِّقوا صالح ما تعملون بأفواهكم ، وتحابُّوا بِرُوحِ الله بينكم ، والسلام عليكم ورحمة الله » . (إعجاز القرآن ص ١١٠)

٨ – خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس إن لكم مَعَالِمَ[٢] فانتهوا إلى مَعَالمكم ، وإن لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين ، أَجَلٍ قد مضى لايدرى ما الله فاعلٌ فيه ، وَأَجَلٍ بَاقٍ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده : ما بعد الموت من مُسْتَعْتَب[٣] ، ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجَنَّةُ أو النار .

(تهذيب الكامل ١ : ٥ ، إعجاز القرآن ١١٠ ، البيان والتبيين ١ : ١٦٥ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٣ ، وغرر الخصائص الواضحة ١٥٠) .

---

(١) التقاة : التقوى .

(٢) جمع معلم كمذهب ؛ وهو الأثر يستدل به على الطريق ؛ والمراد حدود الشريعة المطهرة .

(٣) استعتبه : أعطاه العتبى (وهى الرضا والصفح) وطلب إليه العتبى .

٩ — خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس كأنَّ الموت فيها على غيرنا قد كُتِب ، وَكَانَّ الحق فيها على غيرنا قد وَجَب ، وَكَأَنَّ الذى نُشَيِّعُ من الأموات سَفْرٌ ، عمَّا قليلٍ إلينا راجعون ، نبوِّئهم أجداثَهم ، ونأ كل من تُراثهم ، كأنَّا مُخَلَّدُونَ بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأَمِنَّا كلَّ جائحة(١) ، طُوبَى(٢) لِمَنْ شغله عَيْبُهُ عن عيوب الناس ، طُوبَى لِمَنْ أنفق مالًا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفِقْهِ والحِكمة ، وخالط أهل الذل والمَسْكَنَة ، طُوبَى لِمَنْ زَكَتْ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَطَابَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَعَزَل عن الناس شرَّه ، طُوبَى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفَضْلَ من قوله ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّة ، ولم تَسْتَهْوِهِ البِدْعَة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٣)

١٠ — خطبة له عليه الصلاة والسلام

ألَا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ، وَبَادِرُوا الأعمال الصالحة قبل أن تُشْغَلُوا ، وَصِلُوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السرِّ وَالعَلَانِيَةِ ، تُرْزَقُوا وَتُؤْجَرُوا وَتُنْصَرُوا . واعلموا أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد افترض عليكم الجمعة ، فى مقامى هذا ، فى عامى هذا ، فى شهرى هذا ، إلى يوم القيامة ، حياتى ومن بعد موتى ، فمن تركها وله إمامٌ ، فلا جَمَعَ الله له شَمْلَه ، ولا بارك له فى أمره ، ألَا ولا حجَّ لهُ ، ألَا ولا صومَ لهُ ، ألَا ولا صدقةَ لهُ ، ألَا وَلَا بِرَّ لهُ ، ألَا ولا يَؤُمُّ أعْرَابِىٌّ مُهَاجِرًا ، ألَا ولا يَؤُمُّ فاجِرٌ مؤمنًا ، إلَّا أنْ يَقْهَرَهُ سُلْطَانٌ يخاف سيفه أو سَوْطَهُ » . (إعجاز القرآن ص ١١٠)

---

(١) الجوح : الإهلاك والاستئصال كالاجتياح . (٢) مؤنث أطيب ؛ والحسنى، والخير، وشجرة فى الجنة أو الجنة .

١١ — خطبته يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال : « لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شريك له ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، ونصر عَبْدَه ، وهزم الأحزاب وَحْدَهُ ، أَلَا كلُّ مَأْثُرَةٍ[١] أو دمٍ أو مالٍ يُدَّعَى ، فهو تحت قَدَمَيَّ هاتين ، إِلَّا سِدَانَةَ البيت[٢] ، وسِقَايَةَ الحاجِّ ، أَلَا وَقَتْلُ الخطأ مِثْلُ الْعَمْدِ بالسوط والعصا ، فيهما الدِيَةُ مُغَلَّظَةً ، منها أربعون خَلِفَةً[٣] فى بطونها أولادها ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهلية ، وَتَعَظُّمَهَا[٤] بالآباء ، الناسُ من آدمَ ، وآدمُ خُلِقَ من تراب ، ثم تلا : (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) الآية يا معشر قريش (أو يا أهل مكة) ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٢٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٢١ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٣) .

١٢ — خطبته فى الاستسقاء

روى أن أعرابيًّا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فى عام جَدْب ، فقال : أتيناك يا رسول الله ، ولم يَبْقَ لنا صبي يَرْتَضِع ، ولا شَارِفٌ[٥] يَجْتَرّ ثم أنشده :

أتيناك وَالْعَذْراء يَدْمَى لَبَانُهَا[٦] وقد شُغِلَتْ أُمُّ الرضيع عن الطفل
وألقى بِكَفَّيْهِ الفتى لاستكانةٍ من الجوع حتى ما يُمِرّ ولا يُحْلِي[٧]

---

(١) المأثرة : المكرمة . (٢) خدمة الكعبة . (٣) الخلفة : الحامل من النياق .
(٤) تعظم : تكبر . (٥) الشارف من النوق : المسنة الهرمة كالشارفة . (٦) أى يدمى صدرها لامتهانها نفسها فى الخدمة حيث لاتجد ماتعطيه من يخدمها من الجدب وشدة الزمان . (٧) أى مايضر وما ينفع ، أو ما يأتى بكلمة ولا فعلة مرة ولا حلوة .

ولا شَيْءَ مما يأكل الناس عندنا سوى الحَنْظَلِ العَامِيِّ والعِلْهِزِ الفَسْلِ (١)

وليس لنا إلا إليـــك فِرَارُنا وأين فِرَارُ الناس إلا إلى الرُّسْلِ ؟

فقام النبي صلى الله عليه وسلم يجرُّ رداءه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال: « اللهم أَسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا ، مَرِيئًا هنيئًا مَرِيعًا(٢) ، سَحًّا سِجَالاً(٣) ، غَدَقًا(٤) طَبَقًا(٥) ، دِيَمًا دِرَرًا(٦) ، تُحْيِي به الأرض ، وتُنْبِتُ به الزرع ، وَتُدِرُّ به الضرْع ، واجعله سُقْيًا نَافِعَةً ، عاجلا غيرَ رَائِثٍ(٧) .

فو الله ما ردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يده إلى نَحْرِهِ ، حتى ألقت السماء أَرْوَاقَها(٨) ، وجاء الناس يَضِجُّونَ : الغرقَ الغرقَ يا رسول الله ، فقال : اللهم حَوَالَيْنَا ولا علينا ! فانجاب(٩) السحاب عن المدينة ، حتى استدار حولها كالإكليل ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه(١٠) . (شرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ٣١٦)

١٣ — خطبته في حجة الوداع

« الحمد لله نحمده وَنستعينهُ وَنستغفره وَنتوب إليهِ ، وَنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومِنْ سَيِّئَاتِ أعمالِنَا ، منْ يَهْدِ اللهُ فلاَ مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ ، وَأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه ، أوصيكم

---

(١) العامى : الذى أتى عليه عام ، قال الشاعر : « من أن شجاك طلل عامى » والعلهز : طعام من الدم والوبر كان يتخذ فى المجاعة ، والفسل : الرديء الرذل من كل شيء .

(٢) المريع الخصيب ، أى تخصب به الأرض التى ينزل عليها . (٣) أى متداولا بين البلاد ، ينال كل منها نصيبه منه ، والسجل بالفتح : النصيب والدلو المملوءة العظيمة ، ويقال الحرب سجال : أى نصرتها بين القوم متداولة سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء . (٤) الغدق : الماء الكثير .

(٥) أى مائثا للأرض مغطيا لها ، يقال غيث طبق : أى عام واسع يطبق الأرض .

(٦) هو جمع درة بالكسر ، يقال للسحاب درة: أى صب واندفاق ، وقيل الدرر : الدار ، كقوله تعالى: « دِينًا قِيَمًا » أى قائما .

(٧) أى غير بطيء . (٨) ألقت السحابة أرواقها : أى مطرها ووبلها .

(٩) انكشف . (١٠) النواجذ : أقصى الأضراس .

عباد الله بتقوى الله ، وَأحثكم على طاعته ، وَأستفتح[١] بالذى هو خير ، أما بعد : أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وَأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلّغتُ ؟ اللهمّ اشهد ! فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها ، وَإن ربا الجاهلية موضوع ، وَإن أول ربًا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وَإن دماء الجاهلية موضوعة ، وَإن أوّل دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب[٢] ، وَإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السّدانة وَالسّقاية ، وَالعَمْدُ قَوَد[٣] ، وَشبه العمد مَا قُتِلَ بالعصا والحجر وفيهِ مائة بعير ، فمن زَادَ ، فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه[٤] قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تُحَقِّرُونَ من أعمالكم ، أيها الناس : إنما النّسىء[٥] زِيَادَةٌ

---

(١) الاستفتاح : الافتتاح والاستنصار . (٢) وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته بنو هذيل .

(٣) القود : القصاص ، أى من قتل عمدا يقتل . (٤) فى رواية الكامل لابن الأثير : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه يطاع فيما سوى ذلك ؛ وقد رضى بما تحقرون من أعمالكم » . (٥) أى تأخير حرمة شهر إلى آخر ؛ وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه ، وحرموا مكانه شهرا آخر فيحلون المحرم ، ويحرمون صفرا ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعا الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على الشهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ، وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكنانى ،كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم ينادى فى القبائل : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم . فحرموه — زيادة فى الكفر ، أى كفر آخر ضموه إلى كفرهم . ليواطئوا : أى يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة ، وكانوا ربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراما أيضا ، ولذا نص على العدد المبين فى الكتاب والسنة ؛ وكان وقت حجهم يختلف من أجل ذلك ، وكان فى السنة التاسعة التى حج فيها أبو بكر بالناس فى ذى القعدة ، وفى حجة الوداع فى ذى الحجة ، وهو الذى كان على عهد إبراهيم الخليل ومن قبله من الأنبياء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام « إن الزمان قد استدار . . . . الخ » — راجع تفسير الألوسى ج ٣ ص ٣٠٥

فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحِلُّونَهُ عامًا ويحرمونه عامًا ليواطِئوا عِدَّة ما حَرَّمَ الله ، وَإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات وَالأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات ، وَوَاحد فرد : ذو القَعدة ، وَذو الحِجَّة ، وَالمحرَّمُ ، وَرجب[1] الذى بين جُمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقًا ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يُوطِئن فَرْشكم غيركم، وَلايُدْخِلنَ أحَدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولايأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذِنَ لكم أن تَعضُلُوهُنَّ[2] وَتهجروهن فى المضاجع وَتضربوهن ضربًا غير مُبَرِّحٍ ، فإن انتهين وَأطعنكم فعليكم رِزْقُهُنَّ وَكسوتهن بالمعروف ، وَإنما النساء عندكم عوَانٍ[3] لاَ يَملِكْنَ لأنفسهن شيئًا ، أخذتموهن بأمانة الله ، وَاستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، وَاستوصوا بهن خيرًا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، وَلا يَحِلُّ لامرئ مالُ أخيهِ إلا عن طِيب نفس منهُ ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! فلا تَرْجِعُنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تَضِلُّوا بعده ، كتاب اللهِ ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إن ربكم وَاحد ، وَإن أباكم وَاحد ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ ، وَآدَمُ من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وَليس لعربى على عجمى فَضْلٌ إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! قالوا نعم . قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

---

(١) قالوا فى تثنية رجب وشعبان رجبان للتغليب .

(٢) العضل : الحبس والتضييق . (٣) جمع عانية من عنا ، أى خضع وذل ، والعانى : الأسير

أيها الناس : إن الله قد قَسَمَ لِـكل وَارِثٍ نصيبَهُ من الميراث ، وَلا يجوز لِوَارِثٍ وَصِيَّة ، ولا يجوز وَصِيَّةٌ فى أكثرَ من الثلث ، وَالولد لِلفِرَاشِ وَلِلعَاهِرِ الحَجَرُ[(١)] ، من ادَّعَى إلى غير أبيهِ ، أو تولَّى غيرَ مَوَالِيهِ ، فعليهِ لعنة الله والملائـكة وَالناس أجمعين ، لاَ يُقْبَلُ منهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ[(٢)] ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥ ، العقد الفريد ٢ : ١٣ ، إعجاز القرآن ١١١ ، شرح ابن أبى الحديد ١ : ٤١ ، تاريخ الطبرى ٣ : ١٦٨ ، الـكامل لابن الأثير ٢ : ١٤٦ ، سيرة ابن هشام ٢ : ٣٩٠)

١٤ — خطبته فى مرض موته

عن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه فوجدته مَوْعُوكًا قد عصَبَ رأسهُ ، فقال : خذ بيدى يا فضلُ ، فأخذتُ بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال ناد فى الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أما بعد : أيها الناس فإنى أحمدُ إليكم الله الذى لا إلٰهَ إلاَّ هو ، وإنه قد دنا منى خُفُوقٌ[(٣)] من بين أظهُرِكم ، فمن كنتُ جلدْتُ لهُ ظَهْرًا ، فهذا ظَهْرِى فَلْيَسْتَقِدْ[(٤)] منه ومن كنت شتمْتُ لهُ عِرْضًا ، فهذا عِرْضى فَلْيَسْتَقِدْ منهُ ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منهُ ، ولا يَخْشَ الشَّحْنَاء مِنْ قِبَلِي ، فإنها ليست من شأنى ، ألاَ وإنَّ أحَبَّكمْ إلَىَّ مَنْ أخذ منِّى حقًّا إن كان لهُ ، أو حَلَّلنى فلقيت ربى وأنا طيِّبُ النفس ، وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عنى حتى أقُومَ فيكم مرارًا » .

---

(١) والعاهر : أى الزانى ، أى لاحق له فى النسب ولا حظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب ، أى لاشىء له .

(٢) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية ، وقيل الصرف القيمة . والعدل المثل ، وأصله فى الفدية يقال : لم يقبلوا منهم صرفا ولا عدلا ، أى لم يأخذوا منهم دية ولم يقتلوا بقتيلهم رجلا واحدا ، أى طلبوا منهم أكثر من ذلك ، ثم جعل بعد فى كل شىء حتى صار مثلا فيمن لم يؤخذ منه الذى يجب عليه وألزم أكثر منه .

(٣) خفق النجم يخفق خفوقا : غاب ، والطائر طار ، والليل ذهب أكثره . (٤) فليقتص (من القود) وهو القصاص ، أقاد القاتل بالقتيل قتله به ، واستقاد الحاكم سأله ان يقيد القاتل بالقتيل .

ثمّ نزل فصلّى الظهر ، ثمّ رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى ، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم ، فأعطاه عِوضَها ، ثم قال : « أيها الناس ، من كان عنده شيء فَلْيُؤَدِّهِ وَلا يقل فُضُوحُ الدنيا ، ألا وَإن فضوح الدنيا أهْوَنُ من فضوح الآخرة » ثم صلى على أصحاب أُحُد وَاستغفر لهم ، ثم قال : « إن عبدًا خيره الله بين الدنيا و بين ما عنده فاختار ما عنده ، فبكى أبو بكر ، وَقال : فديناك بأنفسنا وَآبائنا » .

(تاريخ الطبرى ٢ : ١٩١ : والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٤)

١٥ — خطبة أكثم بن صيفي يدعو قومه إلى الإسلام

لما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام بمكة ، ودعا الناس إلى الإسلام بعث أكثم ابن صيفى ابنهُ حُبَيْشًا ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقام فيهم خطيباً فقال :

« يا بنى تميم : لاَتُحْضِرُونى سَفيهاً ، فإنه مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ(١) ، إن السفيه يُوهِنُ مَنْ فَوْقَهُ ، وَيُثَبِّتُ مَنْ دُونَهُ(٢) . لا خير فيمن لا عقلَ له . كَبِرَتْ سِنِّى ودخلتنى ذِلَّة ، فإذا رأيتم منى حَسَناً فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غيرَ ذلك فقوّمونى أَسْتَقِمْ . إنّ ابنى شافَهَ هذا الرجل مشافهةً ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف ، وينهَى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وَخَلْعِ الأوثان ، وترك الحَلِفِ بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أنّ الفَضْلَ فيما يدعو إليه ، وأن الرأى تركُ

---

(١) خال : ظن ، ومضارعه إخال بالكسر وهو الأفصح ، وبنو أسد يقولون أخال بالفتح وهو القياس ، وقوله « من يسمع يخل » مثل ، معناه من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم المكروه .

(٢) فى مجمع الأمثال « ويثبت من دونه » من أثبته : أى أثخنه بالجراح ، والمعنى يضعف ويوهن ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ » ليثبتوك : أى ليجرحوك جراحة لاتقوم معها أو ليحبسوك ، وفى سرح العيون « ويتبب من دونه » من تببه بالتشديد: أى أهلكه؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » .

ما يُنهى عنه ، إن أحق الناس بمعونة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقًّا ، فهو لكم[1] دون الناس ، وإن يكن باطلا كنتم أحقَّ النَّاسِ بالكفِّ عنه وبالستر عليه ، وقد كان أُسْقُفُّ نجْرانَ يُحدِّث بصفته ، وكان سُفْيان بن مُجاشِع يحدِّث به قبله ، وَسَمَّى ابنه محمدًا ، فكونوا فى أمره أولا ، ولا تكونوا آخِرًا ، ائتوا طائعين قبل أن تأْتُوا كارهين ، إن الذى يدعو إليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو لم يكن دينًا كان فى أخلاق الناس حَسَنًا ، أطيعونى واتَّبِعوا أمرى ، أسْأَلْ لكم أشياء لا تُنْزَع منكم أبدًا ، وأصبحتم أعزَّ حَيٍّ فى العرب ، وأكثرهم عددًا ، وأوسعهم دارًا ، فإنى أرى أمرًا لا يَجْتنبه عزيزٌ إلا ذَلّ ، ولا يَلْزَمه ذليل إلا عزّ ، إن الأوَّل لم يدَعْ للآخِرِ شيئًا ، وهذا أمرٌ له ما بَعْدَه ، من سبق إليه غمر المعالى[2] ، واقتدى به التالى والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز » .

فقال مالك[3] بن نُوَيْرَةَ : قد خَرِف شيخكم ، فلا تتعرضوا للبلاء ، فقال أكثم : ويل للشَّجِيِّ من الخلِيِّ ، وَالَهفِي على أمرٍ لم أشْهَدْهُ ولم يَسَعْنى[4] .

ثم رحل إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فمات فى الطريق ، وبعث بإسلامه مع من أسلم ممن كان معه[5] . (مجمع الأمثال ٢ : ٢١٨ ، سرح العيون ص ١٤) .

---

(١) يريد العرب .

(٢) من غمره الماء : أى غطاه . (٣) وقد أسلم ثم ارتد بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فيبعض بنى تميم ، وسار إليه خالد بن الوليد فقتله ، وقصته فى التاريخ مشهورة .

(٤) وفى سرح العيون : ولم يسبقنى . (٥) وذكر عن ابن عباس أن قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ » نزل فى أكثم ومن تبعه من أصحابه .

١٦ — وصية أبي طالب لوجوه قريش عند موته

لما حضرت أبا طالب[1] الوفاةُ ، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال :

« يا معشر قريش : أنتم صفوَةُ الله من خَلْقِهِ ، وَقَلْب العرب ، فيكم السيد المُطاع ، وفيكم المِقْدَامُ الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المَآثِرِ نصيباً إلا أحرزْتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حَرْب ، وعلى حربكم أُلَّبٌ[2] ، وإنى أُوصيكم بتعظيم هذه البَنِيَّةِ — يعنى الكعبة — فإن فيها مَرْضاة للرب ، وَقِوَامًا للمعاش ، وثباتاً لِلوَطْأَةِ ، صِلُوا أرحامكم فإن فى صِلَةِ الرَّحِم مَنْسَأَةً[3] فى الأَجَل ، وزيادة فى العدد ، اتركوا البَغْىَ والعقوق ، ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرفَ الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبةً فى الخاصِّ ، وَمَكْرُمة فى العامِّ .

وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين فى قريش ، وَالصِّدِّيق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاءنا بأمرٍ قَبِلَه الجَنَانُ[4] ، وأنكره اللسان ، مخافةَ الشَّنَآن[5] ، وَأَيْمُ اللهِ كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمُسْتَضْعَفِينَ من الناس قد أجابوا دعوته ، وَصَدَّقوا كلمته ، وعَظَّموا أمره ، فخاض بهم غمراتِ الموت ، وصارت رؤساء قريش وصناديدُها أذنابا ، ودُورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً[6] ، وإذا

---

(١) توفى فى السنة العاشرة من النبوة وهو ابن بضع وثمانين سنة ، وإسلامه مختلف فيه « اقرأ فصلا طويلا فى ذلك فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٣١١ » .

(٢) أى ذوو ألب ، والألب : التدبير على العدو من حيث لا يعلم .

(٣) أى فسحة وامتدادا : من نسأه ، أى أخره . (٤) القلب . (٥) البغض والكراهية .

(٦) سادة .

أعظمُهم عليه أحْوَجُهُمْ إليه ، وأبعدهم منه أحْظَاهم عنده ، قد مَحَضَتْه(١) العرب ودادَها وأصْفَت له بلادَها ، وأعطته قِيَادَها ، يامعشر قريش : كونوا له وُلاَةً ، وَلِحِزْبِهِ حُمَاةً ، والله لاَ يسلُكُ أحدٌ سبيلَه إلا رَشَد ، ولا يأخذ بِهَدْيِهِ أحد ، إلا سَعِدَ ، ولو كان لنفسي مدة ، وفى أجَلِي تأخير ، لكففت عنه الهَزَاهِزَ(٢) ، ولدافعت عنه الدَّوَاهى » .

(بلوغ الأرب ١ : ٣٢٧)

(١) محضه الود ، وأمحضه : أخلصه .

(٢) الهزاهز والهزهزة : تحريك البلايا والحروب الناس .

خطب الوفود

١٧ — خطبة عطارد بن حاجب بن زرارة

بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع الهجرة عُطَارِدُ بن حاجب بن زُرارةَ ، فى أشراف من بنى تميم ، فلما دخل الوفدُ المسجد نادَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراءِ الحُجُرات : أن اخرج إلينا يا محمد ، فآذى ذلك من صياحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم ، فقالوا : يا محمد ، جئناك لنفاخِرك ، فأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا ، قال نعم ، قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام إليه عطارد فقال :

« الحمد لله الذى له علينا الفضلُ ، وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكًا ، ووهب لنا أموالاً عِظَامًا ، نفعل فيها المعروف ، وَجَعَلَنَا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عُدَّة ، فَمَنْ مِثْلُنَا فى الناس ؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن يفاخِرْنا فَلْيُعَدِّدْ مِثْلَ ما عَدَّدْنا ، وإنَّا لَوْ نشاء لأكثرْنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نُعرف بذلك أقول هذا الآن لِتَأْتُونا بمثل قولنا ، وأمرٍ أفضل من أمرنا ، ثم جلس » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشَّمَّاس ، قم فأجب الرجل فى خطبته ، فقام ثابت فقال :

١٨ خطبة ثابت بن قيس بن الشماس

« الحمد لله الذى : السمواتُ والأرضُ خَلْقُهُ ، قَضَى فيهن أَمْرَهُ ، وَوَسعَ كُرْسِيَّهُ عِلْمُهُ ، ولم يك شىءٌ قَطُّ إلاَّ من فضْله ، ثم كان من قدرته أن جَعَلَنَا ملوكًا ، واصطفى

من خير خلقه رسولا ، أكْرَمَهُمْ نَسَبًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأفضلهم حسبًا ، فأنزل عليه كتابه ، وَأْتَمَنَهُ على خلقه ، فكان خِيرَةَ الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس أنسابًا ، وأحسن الناس وجوهًا ، وخير الناس فعالاً ، ثم كان أول الخلق استجابة لله ، حين دعاه رسُول الله صلى الله عليه وسلم نحْنُ ، فنحن أنصار الله . ووزراء رسوله ، نقَاتِلُ الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله مَنَعَ ماله وَدَمَهُ ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدًا ، وكان قتلُه علينا يسيرًا ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين وللمؤمنات ، والسلام عليكم » .

ثم قالوا يا محمد : ائذن لشاعرنا ، فقال نعم ، فقام الزِّبرِقان بن بدر ، فأنشد قصيدة فى الفخر ، وبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى حسان بن ثابت فردَّ عليه ، فقال الأقرع ابن حابس التميمى . إن هذا الرجل لَمُؤَتّى له ، لخَطيبه أخطب من خطيبنا ، ولَشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوّزهم رسُول الله صلى الله عليه سلم ، فأحسن جوائزهم .

(تاريخ الطبرى ٣ : ١٥٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٩ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٦٣) وصبح الأعشى ١ : ٣٧٣ .

١٩ — عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر
بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسأل رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم عمرَو بن الأهتم عن الزِّبْرِقان بن بدر[1] فقال عمرو : « مطاع فى أدْنَيْه[2] ، شديد العارضة[3] . مانع لما وراء ظهره » فقال الزبرقان :

---

(١) هما سيدان من بنى تميم . (٢) أى فى الأدنين منه : أى الأقربين ، وأصله أدنين حذفت نونه لإضافته إلى الضمير . (٣) العارضة : قوة الكلام وتنقيحه ، والرأى الجيد .

« والله يا رسول الله ، إنه ليعلم منى أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلّا ضيق الصدر ، زَمِرَ المروءة[١] ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، حديث الغنى » فلما رأى أنه خالف قولُه الآخر قولَه الأول ، ورأى الإنكار فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله رضيت ، فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » .

(البيان والتبيين ١ : ٣١ ، والعقد الفريد ١ : ١١٧ ، ومجمع الأمثال الميدانى ١ : ٥)

٢٠ — خطبة طَهفة بن أبى زهير النهدى

بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قَدِمَتْ وفودُ العرب على النبى صلى الله عليه وسلم قام طَهْفَةُ بن أبى زُهَيْرٍ النَّهْدِى فقال : « يا رسول الله أتيناك من غَوْرَى[٢] تِهامة بأكوار المَيْس ، ترمى بنا العِيس[٣] نستحلب الصَّبير[٤] ، ونستجلب الخبير[٥] ، وَنَسْتَعْضِدُ[٦] الْبَرِيرَ ، وَنَسْتَخِيل الرِّهَامَ[٧] ، ونستحيل الجهام[٨] ، من أرضٍ غائلةِ النِّطَاء[٩] ، غَليظةِ الْوِطَاء ، نَشِفَ المُدْهُن[١٠] ،

---

(١) قليل المروءة . (٢) الغور : كل ما انحدر مغربا عن تهامة ، والأكوار : جمع كور بالضم ، وهو الرحل أو بأداته ، والميس : شجر عظام أى بالأكوار المصنوعة منه . (٣) العيس جمع عيساء : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . (٤) الصبير : السحاب الكثيف . (٥) العشب .

(٦) استعضد الثمرة : اجتناها ، والبرير : ثمر الأراك ، وكانوا يأكلونه وقت الجدب لقلة الزاد .

(٧) الرهم جمع رهمة بالكسر : وهى المطر الضعيف الدائم . ونستخيل : نخال ونظن . وسحابة مخيلة بضم فكسر : أى تحسبها ماطرة . (٨) الجهام : السحاب قد أراق ماءه . (٩) النطاء : البعد ، أى بعيدة بعدا مهلكا . (١٠) مستنقع الماء : أو كل موضع حفره سيل ، ونشف الحوض الماء : شربه .

وَيَبِسَ الجِعْثِنُ [١] ، وَسَقَطَ الأُمْلُوجُ [٢] ، ومات العُسْلوجُ [٣] ، وهلك الهَدِيُّ [٤] ، ومات الوَدِيُّ [٥] ، بَرِئْنَا يا رسول الله من الوَثَنِ والعَنَنِ [٦] ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوةُ السلام ، وشريعة الإسلام ، ما طَمَى [٧] البحر ، وقام تِعَارُ [٨] ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ [٩] أغفالٌ ، ما تَبِضُ [١٠] بِبِلالٍ ، وَوَقِيرٌ [١١] كثير الرَّسَل ، قليل الرِّسْل ، أصابتها سُنَيَّةٌ حمراءُ مُؤْزِلَةٌ [١٢] ، ليس بها عَلَلٌ ولا نَهَلٌ » .

٢١ — رده صلى الله عليه وسلم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم بارك لهم فى مَحْضها [١٣] وَمَخْضها وَمَذْقها ، وابعث راعيها فى الدَّثْر [١٤] بيانع الثَّمَر ، وافجُرْ له الثَّمَد [١٥] ، وبارك له فى المال والولد . من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله إلّا الله كان مخلصاً ، يا بنى نَهد ، وَدائع [١٦] الشرك ، ووضائع المُلْك ، لا تُلْطِط فى الزَّكاة ، ولا تُلحِد فى الحياة ، ولا تَثاقَلْ عن الصلاة » (العقد الفريد ١ : ١١٣)

---

(١) أصل النبات . (٢) ورق كورق السرو لشجر بالبادية . (٣) مالان واخضر من القضبان . وعسلجت الشجرة : أخرجته . (٤) مايهدى إلى مكة لينحر . (٥) الودى الفسيل (النخل الصغار) . (٦) الصنم الصغير . (٧) امتلأ وعلا . (٨) جبل ببلاد قيس . (٩) مهملة . والأغفال جمع غفل بالضم : وهو ما لاسمة عليه من الدواب . (١٠) بض الماء يبض : سال قليلا قليلا ، والبلال : البلل ، والمراد قلة اللبن . (١١) القطيع من الغنم . (١٢) الرسل : القطيع من كل شىء ، والرسل : اللبن ، وسنية : تصغير تعظيم لسنة ، وهى القحط والمجاعة ، وحمراء : أى شديدة ، ومؤزلة : ذات أزل بسكون الزاى ، وهو الضيق والشدة . (١٣) اللبن الخالص ، ومخض اللبن : أخذ زبده : والمذيق : اللبن الممزوج بالماء ، مذقه فامتذق . (١٤) الدثر : المال الكثير . وقيل هو الكثير من كل شىء ، وأراد به هنا الخصب والنبات الكثير .

(١٥) الماء القليل لامادة له ، أو مايظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف . (١٦) أى الغنائم التى تغنم من المشركين وتودع بيت مال المسلمين ، ليقووا بها على شئونهم ، والوضائع جمع وضيعة : وهى —

٢٢ ـ خطبة ظبيان بن حداد

بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم

وفد ظَبْيَان بن حَدَّاد فى سَرَاة مَذْحِج على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعد السلام على رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، والثناء على الله عزَّ وجل بما هو أهله :

« الحمد لله الذى صَدَعَ[١] الأرض بالنبات ، وفتق السماء بالرَّجْع[٢] ، ثم قال : نحن قوم من سَرَاةِ مَذْحِج مِن يُحَابِر[٣] بْنِ مالك ، ثم قال : فَتَوَقَّلَتْ[٤] بنا القِلَاصُ من أعالى الحوف ورءوس الهضَاب ، يرفعها عُرَرُ[٥] الرُّبا ، ويخفضها بُطْنان الرِّقاق ، وَتَلْحَقُهَا دياجى الدُّجَى ، ثم قال : وسَرَوَات الطائف كانت لبنى مَهْلَائِيل بن قَيْنَانٍ ، غرسوا وِدْيَانه ، وَذَلَّلُوا خِشَانه[٦] وَرَعَوا قُرْبانه ، ثم ذكر نوحًا حين خرج من السفينة بمن معه ، قال فكان أكثر بنيه بنات ، وأسرعهم نباتا ، عادٌ وثمود ، فرماهم الله بالدُّمالِق[٧] ، وأهلكهم بالصواعق ؛ ثم قال : وكانت بنو هانئ من ثمود تسكن

= ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور . يريد أن يقول لهم : إن موارد المال للأمة الإسلامية هما هذان الركنان الغنائم والزكاة ، فلا تمطلوا الزكاة ، ولذا عقب ذلك القول بقوله : لاتلطط فى الزكاة أى لاتمنعها : لططت حقه جحدته كألططت ، ولا تلحد فى الحياة : أى لايجرى منكم ميل عن الحق ما دمتم أحياء ، ولا تثاقل عن الصلاة : أى عن أدائها فى وقتها ، ويروى : ولا يلطط فى الزكاة ، ولا يلحد فى الحياة (بالبناء للمجهول) ولا تثاقل عن الصلاة . (١) شق . (٢) المطر بعد المطر . (٣) هو مراد بن مالك (وهو مذحج) ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . (٤) توقل فى الجبل : صعد ، والقلاص جمع قلوص : وهى الناقة الشابة أو الباقية على السير ، والحوف : بلد بعمان . (٥) فى الأصل : « عوار » ولا معنى له هنا ، وأرى أن صوابه « عرر » جمع عرة كقبة وعرة السنام : الشحمة العليا ، أى ذروته وأعلاه : أى أنها تسير فى أعالى الربا وذراها : وربما كان الأصل « عراعر » بفتح العين الأولى جمع عرعرة بضمهما ، وعرعرة الجبل والسنام وكل شىء : رأسه ، وبطنان جمع باطن : وهو الغامض من الأرض : أى المطمئن منها ، والرقاق جمع رق بالفتح ، وهى كل أرض إلى جنب واد ينبسط الماء عليها أيام المد ثم ينضب ودياجى الليل حنادسه كأنه جمع ديجاة ، والدجى جمع دجية : وهى الظلمة . (٦) الخشن والأخشن : الأخرش من كل شىء جمعه خشان . (٧) الأملس : المستدير من الحجارة .

الطائف ، وهم الذين خَطُّوا مشاربها ، وأتَوْا جِدَاولها[١] ، وَأحْيَوْا غِراسها ، ورفعوا عريشها ، ثم قال : وإن حمير ملكوا مَعَاقِلَ الأرض وَقَرَارها ، وكُهُولَ الناس وأغمَارَها[٢] ورءوس الملوك وعَرَارها ، فكان لهم البيضاء والسوداء ، وفارس الحمراء ، والجزية الصفراء[٣] ، فبطروا النعم ، واستحقوا النِّقم ، فضرب الله بعضهم ببعض ، ثم قال : وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر ، ففتحوا فيها الشرائع[٤] ، وَبنَوا فيها المصانع[٥] ، واتخذوا الدسائم[٦] ، ثم ترامت مذحِج بأسنَّتها ، وتنزَّت[٧] بأعِنَّتها ، فغلب العزيز أذلَّها ، وقتل الكثير أقلها ، ثم قال : وكان بنو عمرو ابن خالد بن جذِيمَة يَخبِطُون عَضِيدها[٨] ، ويأكلون حَصِيدها ، وَيرشِّحُون[٩] حصيدها » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن نعيم الدنيا أقل وأصغر عند الله من خُرء بُعَيِّضَة ، ولوعَدَلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خلاق ، ولا لمسلم منها لحاق » .

(العقد الفريد ١ : ١١٠)

٢٣ - خطبة مالك بن نمط

بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم

وقدم وفد هَمْدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم مالك بن نَمَط أبو ثور فقام بين يديه ثم قال :

---

(١) أى الماء تأتية سهل وأصلح مجراه ، أى مهلوا طرق المياه إليها . (٢) جمع غمر مثلث الغين : وهو الحدث لا تجربة له ، والعرار : الرفعة والسودد . (٣) أى الذهبية . (٤) جمع شريعة ، وهى مورد الشاربة كالمشرعة . (٥) المبانى من القصور والحصون . (٦) جمع دسيمة ، وهى الجفنة والسكرة . (٧) تنزى : توثب وتسرع . (٨) العضيد : ما قطع من الشجر ؛ أى يضربونه ليسقط ورقه فيتخذوه علفا لإبلهم . (٩) الترشيح : التربية وحسن القيام على المال ، والخضيد : ماخضد من الشجر ونحى عنه ، وكل ماقطع من عود رطب (فعيل بمعنى مفعول) أى يصلحونه ويقومون بأمره .

« يا رسول الله ، نَصِيَّة [١] من هَمْدَانَ ، من كل حاضِرٍ وَبَادٍ ، أتوكَ عَلَى قُلُصٍ نَوَاجٍ [٢] ، متصلةٌ بحبال الإسلام ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، مِن مِخْلاَفِ [٣] خارفٍ [٤] ، وَيَامٍ ، وشَاكِرٍ ، أهل السَّواد والقُرَى ، أجابوا دعوة الرسول ، وفارقوا آلِهةَ الأنْصابِ [٥] عهدُهم لاينُقَضُ ، ما أقام لَعْلَعُ [٦] ، وما جرى اليَعْفورُ بِصُلَّعٍ [٧] » .

(صبح الأعشى ٢ : ٢٤٤)

٢٤ — سفانة بنت حاتم

بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم

حَدَّث الإمام علىٌّ كرَّم الله وجهه قال : لما أتينا بسبايا طَيِّئٍ ، كانت فى النساء جارية جميلة — وهى سَفَّانة بنت حاتم [٨] — فلما رأيتها أُعْجِبْتُ بها ، فقلت لأطلبنَّها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلها من فيئى ، فلما تَكَلَّمَتْ أُنْسِيتُ جمالها ، لما سمعت من فصاحتها ، فقالت :

« يا محمد : هلك الوالد ، وغاب الوافِد ، فإن رأيْتَ أن تُخَلِّيَ عنى ، فلا تُشْمِتَ بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى [٩] . كان أبى يَفُكُّ العانى [١٠] ، وَيَحْمِى الذِّمار ،

---

(١) النصية من القوم : الخيار ، وهمدان : من عرب اليمن . (٢) القلص : جمع قلوص ؛ وهى من الإبل الشابة أو الباقية على السير ، والنواجى : جمع ناجية ، وهى المسرعة فى السير . (٣) المخلاف الكورة . (٤) خارف : لقب مالك بن عبد الله أبى قبيلة من همدان ، ويام ، وشاكر ، قبيلتان من همدان باليمن . (٥) الأنصاب : جمع نصب بضمتين ، وهو حجر نصب وعبد من دون الله ، وقيل النصب جمع واحدها نصاب ، قيل هى الأصنام وقيل غيرها . (٦) اسم جبل . (٧) اليعفور : ولد البقرة الوحشية ، والصلع : الموضع لاينبت شيئا .

(٨) السفانة فى الأصل : اللؤلؤة . (٩) جواب الشرط محذوف وهذا تعليل له أى فافعل فإنى . .

(١٠) العانى : الأسير .

وَيَقرِى الضّيف ، وَيُشْبع الجائع ، وَيُفرِّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، وَيُفْشِى السلام ، ولم يَرُدَّ طالبَ حاجة قَطُّ ، أنا بنت حاتم طيئ » .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان ابوك إسلامياً لترَحَّمْنا عليه ، خَلُّوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » . (الأغانى ١٦ : ٩٣)

٢٥ — وصية دريد بن الصمة

قال دُريد بن الصِّمَّة لمالك بن عوف النَّصْرِى قائِد هوازِن يوم حُنَيْن[١] :

« يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم له ما بعده من أيام ، مالى أسمع رُغاء البعير ، ونَهِيق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار[٢] الشاء . قال : سقتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهلَه وماله ، ليقاتل عنهم، فَأَنْقَضَ به[٣]، ثم قال راعى[٤] ضأنٍ والله ، وهل يردّ المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لك ، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك ، فُضِحْت فى أهلك ومالك ، ويحك ، إنك لم تصنع بتقديم البَيْضَة[٥] بيضةِ هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعَلْياء قومهم ، ثم ألق الصُّبا[٦] عَلَى متون الخيل ، فإن كانت لك لِحَق بك من وَرَاءكَ ، وإن كانت عليك ، كنت قد أحرزت أهلك ومالك .

---

(١) غزوة حنين كانت بين المسلمين وبين هوازن وثقيف سنة ثمان بعد الفتح انهزم فيها المسلمون أولا ثم لموا شعثهم وشدوا على عدوهم فهزموهم . (٢) اليعار : صوت الغنم أو المعزى أو الشديد من أصوات الشاء . (٣) يقال أنقض أصابعه : ضرب بها لتصوت ، وأنقض بالدابة : ألصق لسانه بالحنك ثم صوت فى حافتيه . (٤) يضرب به المثل فى الحمق فيقال : « أحمق من راعى ضأن » .

(٥) بيضة القوم : جماعتهم وأصلهم ، وفى الحديث : « ولا تسلط عليهم عدوا من عدوهم فيستبيح بيضتهم » يريد جماعتهم وأصلهم . (٦) أى ذوى الصبا : أى الشبان .

قال لا والله ما أفعل ، إنك قد كبرت وَذَهَلَ عَقْلُكَ . قال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يَفُتْنِي ، ثم أنشأ يقول :

يا ليتنى فِيهَا جَذَعْ أَخُبُّ فيها وَأَضَعْ(١)
أقود وَطْفَاءَ الزَّمَعْ كأنها شاة صَدَعْ(٢)

(سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، العقد الفريد ١ : ٤١)

٢٦ — وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه

أوصى عُمَيْر بن حبيب بنيه فقال :

« يا بنى إياكم ومخالطةَ السفهاء ، فإن مجالستهم داء ، وإن من يحلُم عن السَّفيه يُسَر بحلمه ، ومن يُجِبْه يندم ، ومن لاَ يَقَرّ بقليل ما يأْتى به السفيه ، يقر بالكثير . وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطِّن قبل ذلك على الأذى ، وليُوقِنْ بالثواب من الله عزَّ وجلّ ، إنه من يوقن بالثواب من الله عزَّ وجلَّ لا يجد مَسَّ الأذى » .

(الأمالى ٢ : ٦٠)

٢٧ — وصية قيس بن عاصم المنقرى لبنيه

أوصى قيس بن عاصم المِنْقَرى بنيه فقال :

« يا بنى ، خذوا عنى ، فلا أحد أصلح لكم منى ، إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم ، فسوِّدوا أكبركم ، فإن القوم إذا سوّدوا أكبرهم خَلَفوا أباهم ، وإذا سوّدوا

---

(١) الخبب : ضرب من العدو ، ووضعت الناقة وأوضعت : أسرعت فى سيرها .

(٢) الوطف : كثرة شعر الحاجبين والعينين ، والزمع جمع زمعة : وهى هنة زائدة وراء الظلف أو الشعرات المدلاة فى مؤخر رجل الشاة ، والصدع : من الأوعال والإبل الفتى الشاب القوى .

أصغرهم ، أزرى ذلك بهم فى أكفائهم ، وإياكم ومعصية الله ، وقطيعة الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتَّضَع ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه مَنْبَهَةٌ للكريم ، وَجُنَّةٌ لِعِرْض اللئيم ، وإياكم والمسألة ، فإنها أخِرُ[1] كَسْب الرجل ، وإن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنياحة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عنها ، وادفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفنى ، فقد كانت بينى وبينهم مشاحنات فى الجاهلية والإسلام ، وأخاف أن يُدْخِلوا عليكم بى عارًا ، وخذوا عنى ثلاث خصال: إياكم وكلَّ عِرْق لئيم أن تلابسوه فإنه إن يَسْرُرْكم اليوم ، يَسُؤْكم غدًا ، واكظِموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم ، فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائنَ آباءٌ لنا سلفوا فلن تَبِيدَ وللآباء أبناء

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١١)

(١) أخر بقصر الهمزة لاغير : أى أدنى وأرذل ، ومن رواه بالمد أخطأ .

خطب يوم السقيفة

لمـا قُبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا : نُوَلِّى هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بنى عمه ، إنى لا أقدر لشـكواىَ أن أُسْمِعَ القوم كلهم كلامى ، ولـكن تَلَقَّ منى قولى فأَسْمِعْهُمُوه ، فـكان يتـكلم ويحفظ الرجل قوله : فيرفع صوته ، فيسمع أصحابه :

٢٨ ـ خطبة سعد بن عبادة

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا معشر الأنصار ، لـكم سابقةٌ فى الدين ، وفضيلةٌ فى الإسلام ، ليست لقبيلة من العرب ، إنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام لَبِثَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وَخَلْعِ الأندادِ والأوثانِ ، فما آمَنَ به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أنْ يُعِزُّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضَيْماً عُمُّوا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلةَ ساق إليكم الـكرامة ، وخَصَّـكم بالنعمة ، فرزقـكم الله الإيمان به و برسوله ، والمَنْعَ له ولأصحابه ، والإعْزَازَ له ولدينه ، والجِهَادَ لِأعدائِه ، فـكنتم أشدَّ الناس على عدوِّه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طَوْعًا وَكَرْهًا ، وأعطى البَعِيدُ المَقَادَةَ صَاغِرًا دَاخِراً[1] ، حتى أثخن[2]

(١) صاغرا ذليلا : من دخر كنع وفرح دخورا ودخرا بالتحريك .

(٢) أثخن فلانا : أوهنه ، والمراد أخضع .

الله عزَّ وجلَّ لرسولِهِ بكم الأرضَ ، ودانت بأسيافكم له العربُ ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قريرُ عينٍ ، اُستَبِدُّوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دونَ الناس » .

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقْتَ فى الرَّأى ، وَأَصَبْتَ فى القول ، ولن نَعْدُوَ ما رَأَيْتَ نوَلِّيكَ هذا الأمر ، وأتى عمرَ الخبرُ ، فأقبل إلى أبى بكر فقال : « أما علمت أنَّ الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمر سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ؟ وَأَحْسَنُهُمْ مقالةً من يقول : مِنَّا أميرٌ وَمِنْ قُرَيْشٍ أميرٌ » فمضيا مسرعين نحوهم ، فلقيا أبا عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاح فتماشَوْا إليهم ثلاَثَتُهُم ، فجاءوا وهم مجتمعون . فقال عمر : أتيناهم وقد كنت زَوَّيت[1] كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق . فقال لى أبو بكر : رُوَيداً حتى أتكلم ، ثمَّ انطق بَعْدُ بما أحببْتَ فنطق . فقال عمر : فما شىء كنت أردت أن أقوله إلَّا وقد أتى به أو زاد عليه » .

٢٩ — خطبة أبى بكر رضى الله عنه

حمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال :

« إنّ الله بعث محمَّدًا رسولاً إلى خلقهِ ، وشهيداً على أُمتهِ ، ليعبدوا الله وَيُوَحِّدُوه ، وهم يعبدون من دونه آلِهَةً شَتَّى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعةٌ ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حَجَرٍ منحوت ، وَخَشَبٍ منجور[2] ، ثم قرأ : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، وَقَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) فَعَظُمَ على العرب أن يتركوا دينَ آبائهم . فَخَصَّ اللهُ المهاجرين الأوَّلين من

---

(١) زواه يزويه جمعه ، والمراد أعددت . ورواية العقد الفريد (٢ : ٢٠٤) زورت كلاما فى نفسى ، وزور الشىء حسنه وقومه ، والمراد أيضا هيأت وأعددت . (٢) النجر : نحت الخشب .

قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم ، وكلُّ الناس مخالفٌ زارٍ[1] عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشَنَفِ[2] الناس لهم ، وإجماعِ قومهم عليهم ، فهم أوّلُ منْ عَبَدَ اللهَ فى الأرض، وآمَنَ بالله وَ بالرَّسُول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر مِنْ بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلاّ ظالمٌ ، وأنتم يا معشر الأنصار مَنْ لا يُنْكَرُ فَضْلُهُمْ فى الدِّين ، ولا سابِقَتُهُمُ العَظِيمَةُ فى الإسلام ، رَضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله ، وَجعل إليكم هِجْرَتَهُ وفيكم جِلَّةُ أزْوَاجِهِ وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأُمراء ، وَأنتم الوزراء ، لا تُفتَاتُونَ بِمَشُورَةٍ وَلا تُقْضَى دُونكم الأمُورُ » .

« هذه رواية الطبرى لتلك الخطبة ، وأوردها غيره بنص آخر ، وها كه » :

٣٠ — نص آخر لخطبة أبى بكر يوم السقيفة

حمد الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال :

« أيها الناس : نحن المهاجرون، أوَّل الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وَأوْسَطهُمْ داراً ، وَأحْسَنُهُمْ وجوهاً ، وأكثر الناس ولادةً فى العرب ، وَأمَسُّهُم رَحِمًا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسْلَمْنا قبلكم ، وَقُدِّمْنَا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « وَالسَّابِقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإحْسَانٍ » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار . إخْوَانُنَا فى الدين . وشركاؤنا فى الفيء[3]، وأنصارنا على العدو ، آوَيتم وَوَاسيتم ، فجزاكم الله خيرًا ، فنحن الأُمراء ، وَأنتم الوزراء ،

(١) زرى عليه زراية : عابه . (٢) شنف له كفرح : أبغضه وتنكره فهو شنف .

(٣) الغنيمة والخراج .

لاَ تدينِ العَرَبُ إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تَنْفَسُوا[1] على إخوانكم ما منحهم الله من فضله » .

(العقد الفريد ٢ : ١٣٠ — ٢٠٤ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٣ ، البيان والتبيين ٣ : ١٤٧ والإمامة والسياسة ١ : ٧)

٣١ — خطبة الحباب بن المنذر

ثمّ قام الُحبَاب بن المنذر بن الَجمُوح فقال :

« يا معشر الأنصار : امْلِكُوا عليكم أمركم ، فإن الناس فى فَيْئِكُمْ وفى ظلكم ، وَلن يجترئ مجترئٌ على خلافكم ، وَلن يَصْدُرَ الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العزِّ والثروة ، وَأولو العدد وَالمَنَعة والتجربة ، وَذوو البأس والنجدة ، وَ إنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، وَلا تختلفوا فَيَفْسُدَ عليكم رأيكم ، وَيَنْتَقِضَ عليكم أمرُكم ، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنا أمير وَمنهم أمير » .

٣٢ — خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

فقال عمر : « هيهات لا يجتمعُ اثنان فى قَرَن[2] ، وَالله لا تَرْضَى الْعَرَبُ أن يُؤَمِّرُوكُمْ وَنَبيُّهَا من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولِّى أمرها مَنْ كانت النبوة فيهم وَوَلِيُّ أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجةُ الظاهرة ، وَالسلطانُ المبين ، من ذا ينازعنا سلطانَ محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وَعشيرته، إلا مُدْلٍ بباطل، أومُتَجَانِفٌ[3] لإثمٍ ، أو متَوَرِّط فى هَلَكَة ؟ » .

---

(١) نفس عليه بخير (كفرح) حسده ، ونفس عليه الشىء نفاسة لم يره أهلا له .

(٢) حبل .   (٣) مائل جانح .

٣٣ – خطبة أخرى للحباب بن المنذر

فقام الحباب بن المنذر، فقال:

« يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم، وَلا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه، فَأَجْلُوهُمْ عن هذه البلاد، وتولَّوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحَقُّ بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين مَنْ دان ممن لم يكن يَدين؛ أنَا جُذَيلها المُحَكَّك، وَعُذَيقها المُرَجَّب[1]، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جَذَعَةً[2] ».

فقال عمر: إذن يقتلك الله، قال: بل إياك يقتل، فقال أبو عبيدة:

يا معشر الأنصار: إنكم أوَّلُ من نصر وآزر، فلا تكونوا أوَّلَ من بَدَّلَ وَغَيَّرَ.

٣٤ – خطبة بشير بن سعد

فقام بشير بن سعد – أبو النعمان بن بشير – فقال:

« يا معشر الأنصار، إنا والله لَئِنْ كُنَّا أولِى فضيلة فى جهاد المشركين، وسابقة فى هذا الدين، ما أردنا به إلاَّ رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكدحَ لأنفسنا، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغى به من الدنيا عَرَضاً، فإنَّ الله وَلِيُّ المِنَّةِ علينا

(١) الجذيل: تصغير الجذل (بالكسر)، وهو أصل الشجرة، وعود ينصب للإبل الجربى لتحتك به وتتمرس، والمحكك الذى تتحكك به، والعذيق تصغير العذق (بالفتح)، وهو النخلة. والمرجب: الذى جعل له رجبة، وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف، والتصغير هنا يراد به التكبير والتعظيم، وهو مثل، والمراد أنه رجل يستشفى برأيه وعقله. (٢) الجذعة: الشابة الفتية؛ يريد الحروب والغارات.

بذلك ، ألا إن محمدًا صلى اللهُ عليه وسلم من قريش ، وقومُهُ أَحَقُّ به وأولى ، وايم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمرَ أبدًا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

فقال أبوبكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيّهما شئتم فبايعوا ، فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدّمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ ابسط يدك نبايعك ، وقام الناس إليه فبايعوه .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٨)

خطب أبي بكر الصديق ووصاياه

رضي الله عنه

٣٥ - خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم

دخل أبو بكر الصديق رِضوان الله عليه ، على النبي عليهِ الصلاة والسلام وهو مُسَجًّى[١] بثوب ، فكشف عنهُ الثوب ، وقال :

« بأبي أنت وأمي ! طِبْتَ حَيًّا ، وطِبْتَ ميتاً ! وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوّة ، فَعَظُمْتَ عن الصفة ، وَجَلَلْتَ عن البكاء ، وَخَصَصْتَ حتى صرت مَسْلاة[٢] ، وَعَمَمْتَ حتى صرْنا فيك سَوَاء[٣] ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك[٤] ، لجُدْنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نَهيت عن الْبكاء ، لَأَنفَدْنا عليك ماء الشُّئُون[٥] ، فأما ما لاَ نستطيع نفيَهُ عنا ، فكمَدٌ وإدنافٌ[٦] ، يَتحَالفانِ ولاَ يَبْرَحانِ

---

(١) تسجية الميت : تغطيته . (٢) خص الشيء من باب قعد خصوصا فهو خاص : خلاف عم ، مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متعديا ولازما) ، والمعنى إنك يارسول الله قد صرت بموتك مسلاة الناس فإنك مع ما اختصصت به من مناقب النبوة قد نزل بك الموت ، فللعباد فيك أسوة حسنة .

(٣) أي عمت مصيبتك جميع المسلمين فصرنا نحن وقرابتك سواء في الحزن عليك والتفجع لفقدك .

(٤) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» قالت عائشة : فسمعته وقد شخص بصره ؛ وهو يقول : « في الرفيق الأعلى » فعلمت أنه خير ، فعلمت أنه لا يختارنا إذن ، وقلت هو الذي كان يحدثنا وهو صحيح . (٥) جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين .

(٦) دنف المريض كفرح ، وأدنف : ثقل ، والشمس : دنت للغروب واصفرت .

اللهم فأبْلِغهُ عنا السلام ، اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنـكن من بالك ، فلولا ما خَلَّفْتَ من السكينة لم نَقُمْ لِمَا خَلَّفْتَ مِنَ الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا » !

ثم خرج إلى الناس وهم فى شديد غَمَرَاتهم ، وعظيم سكراتهم ، فخطب خطبة قال فيها :

« أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أنَّ الـكتاب كما نَزَل ، وأنَّ الدِّين كما شرع، وأنَّ الحديث كما حَدَّث ، وأن القول كما قال ، وأنَّ الله هو الحق المبين ... فى كلام طويل ، ثم قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإنَّ مُحَمَّدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حَيٌّ لا يموت ، وإنَّ الله قد تقدَّم إليكم فى أمره ، فلاتَدَعوه جَزَعا ، وإنَّ الله قداختارلنبيهِ ماعنده على ماعندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابَهُ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنـكر . (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ[1])، وَلا يَشْغَلَنَّـكُمُ الشيطان بموت نبيكم، ولا يَفْتِنَنَّـكُمْ عن دينـكم ، فعاجلوه بالذى تُعْجِزُونَهُ ، ولا تستنظروه فَيَلْحَقَ بكم » .

(زهر الآداب ١ : ٣٥)

٣٦ - خطبته بعد البيعة

حمد الله وأثنى عليهِ ، ثم قال :

« أيها الناس: إنى قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فَسَدِّدُونِى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيتهُ فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضَّعيفُ حتى آخذ الحق لهُ ، وأضعفـكم عندى القوىّ حتى آخذ الحق منهُ ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولـكم » .

(العقد الفريد ٢ : ١٣٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ٢٣٤ ، وتهذيب الـكامل ١ : ٦ ، وتاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٣ ، وابن أبى الحديد م ٢ : ٨ ، و م ٤ : ١٦٧ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٤٣٠) .

---

(١) القسط : العدل .

٣٧ ـ خطبة أخرى له بعد البيعة

وقال الطبرى : نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من متوفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم : لِيُتَمَّ بعث أسامة : ألا لا يبقينّ بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره، وقام فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يأيها الناس : إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعصمه من الآفات ، وإنما أنا متَّبِع ، ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعونى ، وإن زِغْت فقوِّمونى : وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ ، وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمَظْلَمَةٍ[1] ضَرْبةِ سوط فما دونها ، ألا وإن لى شيطاناً[2] يعترينى ، فإذا غضبت فاجتنبونى ، لا أُؤثِّر فى أشعاركم وأبشاركم[3] ، ألا وإنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غُيِّبَ عنكم علمه ، فإن استطعتم ألا يمضى هذا الأجل إلا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا فى مَهَل آجالكم من قبل أن تُسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، فإن قوماً نَسُوا آجالهم ، وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فإياكم أن تكونوا أمثالهم ، الجِدَّ الجِدَّ ، وَالْوَحَا[4] الْوَحَا ، والنَّجاء[5] النَّجاء، فإن وراءكم طالباً حثيثاً[6] ، أجلاً مَرُّهُ سريع ، احذروا الموت واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولا تَغْبِطُوا[7] الأحياء إلا بما تَغْبِطُون به الأموات»

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢١١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٦٧)

---

(١) الظلامة . (٢) قال ابن أبى الحديد : وأراد بالشيطان الغضب ، ولم يرد أن له شيطانا من مردة الجن يعتريه إذا غضب ، ولو كان له شيطان من الجن يعتاده وينوبه لكان فى عداد المصروعين من المجانين ؛ وما ادعى أحد على أبى بكر هذا لا من أوليائه ولا من أعدائه . (٣) أبشار جمع بشر ، وهو جمع بشرة: وهى ظاهر الجلد . (٤) العجلة والإسراع ، وحى وتوحى : أسرع ، ووحاه ، عجله .

(٥) الإسراع أيضا . (٦) سريعا . (٧) غبطه : تمنى مثل حاله من غير أن يريد زوال نعمته عنه .

٣٨ — خطبة أخرى

قال الطبرى : وقام ايضاً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله عزّ وجلّ لاَ يَقْبَلُ من الأعمال إلا ما أُرِيدَ به وَجْهُهُ ، فَأَرِيدُوا الله بأَعمالكم ، واعلموا أن ما أَخْلَصْتُمْ لله من أعمالكم فَطَاعَةٌ أُتيتموها ، وَحَظ ظَفِرْتُمْ به ، وَضَرَائِبُ أديتموها ، وَسَلَف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقيةٍ ، لحين فقركم وحاجتكم ، أعتبروا عِبَادَ الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين كانوا أمسِ ؟ وَأين هم اليومَ ؟ أين الجبارون ؟ وَأين الذين كان لهم ذِكْرُ القتال والغَلَبَةِ فى مواطن الحروب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، وَصاروا رَمِياً ، قد تركت عليهم القالاتُ[1] الَخبِيثَاتُ ، وإنما الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وَعَمَرُوهَا ؟ قد بَعِدُوا ، وَنُسِى ذكرهم ، وصاروا كلا شىء ، ألا وإن الله قد أبقى عليهم التَّبِعَاتِ ، وَقَطَعَ عنهم الشهواتِ ، وَمَضَوا وَالأعمالُ أعمالُهُمْ ، وَالدنيا دنيا غيرِهم ، وَبقينا خَلَفًا من بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نَجَوْنَا ، وَإن اغتررنا كنا مثلهم ، أين الوِضَاء[2] الحسنةُ وجوهُهم ، المُعْجَبُونَ بِشَبَابِهِم ؟ صاروا تراباً ، وَصار ما فرّطوا فيهِ حسرةً عليهم ، أين الذين بنوا المدائن وَحصّنوها بالحوائط ، وَجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاويةً ، وَهم فى ظُلُمَاتِ القبور ، هل تُحِس منهم من أحد ، أو تسمع لهم رِكزاً[3] ؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدّموا ، فَحَلُّوا عليه ، وأقاموا للشِّقْوَةِ وللسعادة فيما بعد الموت ،

---

(١) القول : فى الخير ، والقال والقيل والقالة : فى الشر. (٢) الوضاء جمع وضىء : وهو الحسن والنظيف ، وهو أيضا وضاء بضم الواو وتشديد الضاد ، وجمعه وضاءون . (٣) الصوت الخفى .

ألا إن الله لاشريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سببٌ يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه بهسوءا إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مَدينون، وأن ما عنده لاَ يُدْرَكُ إلا بطاعته، أما وإنه لا خيرَ بخيرٍ بعده النارُ، ولا شرَّ بِشَرٍّ بعده الجنة.

(تاريخ الطبرى ٣ : ٣١١، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ١٦٧)

٣٩ — خطبة له

ومن خطبةٍ: «حمد الله وأثنى عليهِ وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك، فرفع الناس رءوسهم، فقال: مالكم يامعشر الناس؟ إنكم لطعَّانون عجِلون، إن من الملوك مَنْ إذا مَلَكَ زَهَّدَهُ الله فيما فى يده، ورغَّبَهُ فيما فى يَدَىْ غيره، وانتقصهُ شطْرَ أجله، وَأشْرَبَ قَلْبَهُ الإشفاقَ، فهو يَحْسُدُ على القليل، ويتسخط[1] الكثيرَ، ويسأم الرخاء، وتنقطع عنهُ لذة البهاء، لايستعمل العبرة، ولا يسكُنُ إلى الثقة، فهو كالدرهم القَسِىّ[2]، والسَّراب الخادع، جَذِل الظاهر، حزين الباطن. فإذا وَجَبَتْ[3] نفسه، ونَضَبَ عمره، وضحا ظِلُّهُ[4]، حاسبهُ الله فأشدَّ حسابَهُ، وأقلَّ عفوَهُ. ألا إن الفقراء هم المرحومون، وخير الملوك من آمن بالله، وحكم بكتاب الله وسنة نبيهِ صلى الله عليه وسلم، وإنكم اليوم على خلافة نبوة، وَمَفْرِق مَحَجَّة، وَسَتَرَوْن بعدى مُلْكا عَضُوضاً[5]، وأُمة شَعَاعًا[6]، وَدَمًا مُفاحًا[7]، فإن كانت للباطل نَزْوَة[8]، ولأهل الحق جَوْلة، يعفو لها الأثَرُ، وتموت السنن، فالزموا المساجد،

---

(١) تسخط عطاءه: استقله ولم يقع منه موقعا. (٢) الزائف. (٣) مات. ووجبت الشمس: غابت؛ والعين غارت. (٤) مات أيضا. (٥) العضوض: مايعض عليه، وملك عضوض: فيه عسف وظلم. (٦) متفرقة. (٧) أفاحه: أراقه. (٨) وثبة.

واستشيروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصَّفقة بعد طول التناظر ، أى بلاد خَرْشَنَةَ[1] إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أدناها » .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٣ ، وزهر الآداب ١ : ٣٩) .

٤٠ — خطبة له

وخطب أيضا فقال :

« الحمد لله ، أحمده ، وأستعينهُ ، وأستغفره ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأستهدى الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهد الله فهو المهتدى ، وَمَنْ يُضْلِلْ فلن تجد له وليا مرشدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ولهُ الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حى لا يموت ، يُعزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ مَنْ يشاء بيده الخير ، وهو على كلِّ شىء قدير ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسولهُ ، أرسله بالهدى ودين الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كله ولو كره المشركون ، إلى الناس كافةً ، رحمةً لهم ، وحجة عليهم والناس حينئذ على شرِّ حال فى ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ، ودعوتهم فِرْية ، فأعَزَّ اللهُ الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألَّفَ بين قلوبكم أيها المؤمنون ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفَا حُفْرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . فأطيعوا الله ورسوله ، فإنه قال عزَّ وجل : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » .

أما بعد أيها الناس : إنى أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كلِّ أمر ، وعلى كلِّ حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير ، مَنْ يَكْذِبْ

---

(١) خرشنة : بلد بالروم ، والمراد بلاد الروم .

يَفْجُرْ ، ومن يفجرْ يَهْلِكْ ، وإياكم والفخرَ ، وما الفخرُ من خلق من التراب ، وإلى التراب يعود ؟ هو اليوم حى ، وغدًا ميت ، فاعلموا وعُدُّوا أنفسكم فى الموتى ، وما أشكَلَ عليكم فردوا علمَهُ إلى الله ، وقدموا لأنفسكم خيرًا تجدوه مُحْضَرا ، فإنه قال عزَّ وجل « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » . فاتقوا الله عباد الله وراقبوه ، واعتبروا بمن مضى قبلكم ، واعلموا أنه لابد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرِها وكبيرِها ، إلا ماغفر الله ، إنه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم ، والمستعان الله ، ولاحول ولا قوة إلا بالله « إن الله وملائكتهُ يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » اللهم صلِّ عَلَى محمد عبدك ورسولك ، أفضلَ ماصلّيت عَلَى أحد من خلقك ، وزكِّنا بالصلاة عليه ، وألحقنا به ، واحْشُرْنا فى زُمْرَتِهِ ، وأَوْرِدنا حَوْضَهُ . اللهمَّ أعنَّا عَلَى طاعتك ، وانصرنا عَلَى عدوِّك . (العقد الفريد ٢ : ١٣١)

٤١ — خطبة له

وخطب أيضاً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال:

« أوصيكم بتقوى الله ، وأن تُثْنُوا عليه بما هو أهله ، وأن تَخلِطُوا الرغبة بالرَّهبة ، وتجمعوا الإلحافَ بالمسألة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ عَلَى ذلك مواثيقكم ، وعوَّضكم بالقليل الفانى الكثيرَ الباقى ، وهذا كتابُ الله فيكم لا تَفْنَى عجائبه ، ولا يُطْفَأُ نُورُه ، فثقوا بقوله ،

وانتصحوا[١] كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ، وَوَكّل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ماتفعلون[٢] » .

(العقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٢)

٤٢ — خطبة له فى الأنصار

ووصل إليهِ مال من البحرين ، فساوَى فيهِ بين الناس ، فغضبت الأنصار ، وقالوا لهُ فَضِّلْنا ، فقال أبو بكر صدقتم ، إن أردتم أن أُفَضِّلكم صار ما عَمِلتموه للدنيا ، وإن صَبَرتم كان ذلك لله عزَّ وجل ، فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى وانصرفوا ، فرَقِيَ أبو بكر المنبر ، فحمد الله وأثنى عليهِ وصلى عَلَى النبى صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« يامعشر الأنصار : إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم فى ظِلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، قلتم : وإن لكم من الفضل مالا يُحْصِيهِ العدد وإن طال به الأَمَدُ . فنحن وأنتم كما قال طُفَيْلٌ الْغَنَوِىُّ :

جزى الله عنا جعفراً حين أَزْلِقَتْ   بنا نعلُنا فى الواطئين فزَلَّتِ
أبَوْا أن يَمَلُّونَا ، ولو أن أُمَّنَا   تُلاقى الذى يَلْقَوْنَ منا لَمَلَّتِ
هُمُ أسكنونا فى ظِلاَلِ بيوتهم   ظلال بيوتٍ أدفأت وأظَلَّتِ

(زهر الآداب ١ : ٣٩ وصبح الأعشى ١٣ : ١٠٨)

---

(١) انتصح فلان : قبل النصيحة ، يقال : انتصحنى فإنى لك ناصح . (٢) ورد عقب ذلك « ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه . . . الخ » مما أورده ابن جرير الطبرى فى الخطبة التى أسلفنا ذكرها ص ١٨١ .

٤٣ — وصيته لأسامة بن زيد

وأوصى أُسَامَةَ بن زيد وجيشه حين سيَّرَهُ إلى أُبْنَى(١) ، فقال :

« يأيها الناس : قِفُوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تَغُلُّوا(٢) ، ولا تغدروا(٣) ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تَعْقِروا(٤) نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لِمَأْكَلة(٥) ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم لهُ ، وسوف تَقْدَمُون عَلَى قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها ، وَتَلْقَوْنَ أقوامًا قد فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفِقُوهم(٦) بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله(٧) » .

(تاريخ الطبرى ٣ : ٢١٣ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٦٢)

٤٤ — وصيته لعمرو بن العاص والوليد بن عقبة

وشيع عمرو بن العاص والوليد بن عقبة مَبْعَثَهُمَا عَلَى الصدقة ، وأوصى كلَّ واحد منهما بوصية واحدة :

« اتق الله فى السرِّ والعلانية ، فإنه من يتق الله يجعل لهُ مخرجاً ، ويرزقه من حيث

(١) موضع بقرب مؤتة بمشارق الشام قتل فيه والده زيد بن حارثة . (٢) غل يغل كنصر : خان كأغل ، وغل صدره يغل كضرب غليلا وغلا : حقد . (٣) غدره وغدر به كنصر وضرب وسمع.
(٤) قعر النخلة : كمنع فانقعرت قطعها من أصلها فسقطت . (٥) المأكلة : ما أكل .
(٦) خفقه : ضربه بشيء عريض . (٧) وأورد العقد الفريد هذه الوصية وذكر أنها وصية من أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان — راجع العقد ج ١ ص ٤٠ .

لا يحتسب ، ومن يتق الله يكفِّر عنه سيئاته ، ويُعْظِم له أجرًا ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عِباد الله ، إنك فى سبيل من سبل الله ، لا يسعك فيه الإِدْهَانُ[1] والتفريطُ والغفلةُ عما فيه قِوام دينكم ، وعصمة أمركم فَلَا تَنِ ، ولا تَفْتُرْ » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٩)

خطب الفتوح فى عهد أبى بكر

٤٥ — وصيته لخالد بن الوليد

ووصى أبو بكر خالد بن الوليد فقال :

« سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً من الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجَوْلة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأَدِلاَّء ، ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البَيات ، فإن فى العرب غِرة ، وأقلل من الكلام ، فإن مالك ما وُعِىَ عنك ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكِلْهم إلى الله فى سريرتهم ، وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه » .

(العقد الفريد ١ : ٤٠)

٤٦ — خطبة خالد بن الوليد

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد بعث المثنى بن حارثة على جيش إلى العراق ، فقدم العراق فقاتل وأغار على أهل فارس ونواحى السواد ، ثم بعث أخاه مسعودا إلى أبى بكر يستمده .

فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد — وكان باليمامة — أن يسير إلى العراق ، فلما قرأ خالد الكتاب .

قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

---

(١) الإدهان : المداهنة والغش .

« الحمد لله والله أهله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد : فإن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلينا يحضنّا على طاعة ربنا ، وجهاد عدونا وعدو الله ، وبالجهاد في سبيل الله أنجز الله دعوتنا ، وجمع كلمتنا وأمنيتنا ، والحمد لله رب العالمين ، ألا إني خارج ومعسكر وسائر إن شاء الله ومعجّل، فمن أراد ثواب العاجل والآجل فلينكمش [1] » :

٤٧ — خطبة لأبي بكر في ندب الناس لفتح الشأم

وَخطب يندب الناس لفتح الشأم ، فحمد الله وَأثنى عليه ، وصلى عَلَى رسوله ، وقال:

« ألا إن لكل أمرٍ جوامعَ ، فمن بَلَغَهَا فهي حَسْبهُ ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجِد وَالقَصْد ، فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجرَ لمن لا حِسْبَةَ له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن في كتاب الله من الثواب عَلَى الجهادِ في سبيل الله، كما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصّ به ، هي التجارة التي دل الله عليها ، ونجّى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٣٠)

---

(١) انكمش : أسرع .

فتح الشام

حدث أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري صاحب فتوح الشام قال : لما أراد أبو بكر رحمة الله عليه أن يجهز الجنود إلى الشأم ، دعا عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه فقال:

٤٨ — خطبة أبي بكر

« إن الله تبارك وتعالى لا تُحصَى نعمه ، ولا تبلغ جزاءها الأعمالُ ، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم ، فقد جمع كلمتكم ، وأصلح ذات بينكم ، وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركوا بالله ، ولا أن تتخذوا إلها غيره ، فالعرب اليوم بنو أم وأب ، وقد أردت أن أستنفرهم إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ، ويجعل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر . فمن هلك منهم هلك شهيدا ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين ، مستوجبا على الله عز وجل ثواب المجاهدين ، هذا رأيي الذي رأيت فليشر علىّ أمرؤ بمبلغ رأيه » .

٤٩ — خطبة عمر

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« الحمد لله الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه ، والله ما استَبقْنا إلى شيء من الخير قطُّ إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، قد والله أردتُ لقاءك لهذا الرأي

الذى ذكرتَ ، فما قضى اللهُ أن يكون ذلك حتى ذكرتَه الآن ، فقد أصبتَ ، أصاب الله بك سبلَ الرشاد ، سرِّب إليهم الخيل فى إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تتبعها الجنود . فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومُعِز الإسلام وأهله ، ومنجزُ ما وعَدَ رسولَه » . (فتوح الشام ص ١ وتاريخ ابن عساكر ١ : ١٢٦ - ١٢٧)

٥٠ — خطبة عبد الرحمن بن عوف

ثم إن عبد الرحمن بن عوف قام فقال :

« ياخليفة رسول الله ، إنها الروم و بنو الأصفر ، حَدّ حديد ، وركن شديد ، والله ما أرى أن تُقحم الخيل عليهم إقحاما ، ولـكن تبعث الخيل ، فتُغير فى أدانى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مرارا أضروا بعدوهم ، وغنموا من أدانى أرضهم ، فقوُوا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصى أهل اليمن ، و إلى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جميعا . فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك ، و إن شئت بعثت على غزوهم غيرك » .

ثم جلس وسكت الناس .

قال لهم أبو بكر ماترون ؟ رحمكم الله . فقام عثمان بن عفان رضوان الله عليه . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى عَلَى النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« رأيى أنك ناصح لأهل هذا الدين ، عليهم شفيق . فإذا رأيت رأيا علمته لهم رشدا وصلاحا وخيراً ، فاعزم على إمضائه ، فإنك غير ظنين ولا متّهم عليهم » .

فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار :

« صدق عثمان فيما قال ، ما رأيت من رأى فأمض ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، ولا نتهم رأيك ، ولا نتخلف عن دعوتك و إجابتك » .

فذكروا هذا وشبهه ، وعلى بن أبى طالب رحمة الله عليه فى القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر : ما ترى يا أبا الحسن ؟ قال :

« أرى أنك مبارك الأمر ، ميمون النقيبة ، وأنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت إن شاء الله » .

فقال له أبو بكر : بشرك الله بخير ، فمن أين علمت هذا ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لايزال هذا الدين ظاهرا على كل من ناوأه ، حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين » فقال أبو بكر : سبحان الله ! ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتنى سرك الله فى الدنيا والآخرة .

٥١ — خطبة أبى بكر

ثم إن أبا بكر رحمة الله عليه ورضوانه قام فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكره بما هو أهله ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأعزكم بالجهاد ، وفضّلكم بهذا الدين على أهل كل دين . فتجهّزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشأم ، فإنى مؤمّر عليكم أمراء وعاقد لهم ألوية ، فأطيعوا ربكم ، ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطُعمتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

فسكت الناس ، فو الله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم ، فقام عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه فقال : يامعشر المسلمين ما لكم لا تجيبون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ دعاكم لما يحييكم .

٥٢ — خطبة خالد بن سعيد بن العاص

فقام خالد بن سعيد بن العاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى عَلَى النبى صلى الله عليه وعلى آله ، ثم قال :

« الحمد لله الذى لا إله إلا هو ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره عَلَى الدين كله ولو كره المشركون ، فإن الله منجز وعده ، ومُعز دينه ، ومُهلك عدوه » ثم أقبل عَلَى أبى بكر فقال : « نحن غير مخالفين لك ، ولا متخلفين عنك ، وأنت الوالى الناصح الشفيق ، ننفِر إذا استنفرتنا ، ونطيعك إذا أمرتنا ، ونجيبك إذا دعوتنا » .

ففرح أبو بكر بمقالته ، وقال له : « جزاك الله من أخ وخليل خيراً ، فقد أسلمت مرتغبا ، وهاجرت محتسبا ، وهربت بدينك من الكفار ، لكى يطاع الله ورسوله ، وتكون كلمة الله هى العليا ، فتيسَّر رحمك الله » .

فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز وخرج هو وإخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته ، فكان أول من عسكر ، وأمر أبو بكر بلالا فنادى فى الناس : أن انفروا إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، فنفروا إليه — وكان خالد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره الإمارة واستعفى أبا بكر فأعفاه — (فتوح الشام ص١)

ورأى أبو بكر أن يكتب كتابا إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد ، ويرغبهم فى ثوابه ، وبعث الكتاب مع أنس بن مالك .

قال أنس : أتيت أهل اليمن جناحا جناحا وقبيلة قبيلة ، أقرأ عليهم كتاب أبى بكر وإذا فرغت من قراءته قلت :

« الحمد لله ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنى رسول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول المسلمين إليكم ، ألا وإنى قد تركتهم معسكرين ، ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم ، فعجلوا إلى إخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون » .

فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ، ويسمع منى هذا القول يحسن الرد على ، ويقول : نحن سائرون وكأنا قد فعلنا .

٥٣ — خطبة ذى الكلاع

حتى انتهيت إلى ذى الكلاع ، فلما قرأت عليه الكتاب ، وقلت هذا المقال ؛ دعا بفرسه وسلاحه ، ونهض فى قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك ، وأمر بالمعسكر فما برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن وسارعوا ، فلما اجتمعوا إليه قام فيهم :

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أيها الناس إن من رحمة الله إيا كم ، ونعمته عليكم ، أن بعث فيكم رسولا ، وأنزل عليه كتابا فأحسن عنه البلاغ ، فعلمكم مايرشدكم ، ونها كم عما يفسدكم ، حتى علمكم مالم تكونوا تعلمون ، ورغبكم فى الخير فيما لم تكونوا ترغبون ، ثم قد دعا كم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين ، واكتساب الأجر العظيم ، فلينفر من أراد النفير معى الساعة » .

فنفر بعدد من أهل اليمن كثير ، وقدموا على أبى بكر ففرح بمقدمهم .

(فتوح الشام ص ٦)

٥٤ — وصية خالد بن سعيد بن العاص لأبى بكر

ولما أراد خالد بن سعيد بن العاص أن يغدو سائرا إلى الشأم ، لبس سلاحه ، وأمر إخوته فلبسوا أسلحتهم ، عمرا والحكم وأبان ، وغلمته ومواليه ، ثم أقبل إلى أبى بكر رضى الله عنه بعد صلاة الغداة وصلى معه ، فلما انصرفوا قام إليه هو وإخوته ، فجلسوا إليه فحمد الله خالد وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« يا أبا بكر ، إن الله أكرمنا وإياك والمسلمين طُرًّا بهذا الدين ، فأحقُّ من أقام السنة ، وأمات البدعة ، وعَدَل فى السيرة ، الوالى على الرعية ، وكل امرئ من أهل هذا الدين محقوق بالإحسان ، وَمَعْدَلَة الوالى أعم نفعا ، فاتق الله يا أبا بكر فيمن ولاك الله أمره ، وارحم الأرملة واليتيم ، وأعِن الضعيف المظلوم ، ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيتَ عنه آثرَ عندكَ فى الحق منه إذا سخِطتَ عليه ، ولا تغضب ما قدرتَ على ذلك ، فإن الغضب يجر الجور . ولا تحقِد على مسلم وأنت تستطيع ، فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدوا ، وإن اطلع على ذلك منك عاداك ، فإذا عادى الوالى الرعية ، وعادت الرعية الوالى ، كان ذلك قمنًا أن يكون إلى هلاكهم داعيا ، وكن لينا للمحسن ، واشدد على المريب ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم » .

ثم قال : هات يدك ، فإنى لا أدرى : هل نلتقى فى الدنيا بعد هذا اليوم ؟ فإن قضى الله لنا التقاء فنسأل الله عفوه وغفرانه ؛ وإن كانت هى الفرقة التى ليس بعدها التقاء ، فعرفنا الله وإياك وجه النبى صلى الله عليه وسلم فى جنات النعيم » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، ثم بكى وبكى خالد والمسلمون ، وظنوا أنه يريد الشهادة . (فتوح الشأم ص ١٧)

٥٥ — وصية أبى بكر لخالد بن سعيد بن العاص

فلما خرج من المدينة قال له أبو بكر رضى الله عنه :

« إنك قد أوصيتنى برشدى وقد وعيته ، وأنا موصيك فاستمع وصيتى وَعِها ، إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة فى الإسلام ، وفضيلة عظيمة ، والناس ناظرون إليك ، ومستمعون منك ، وقد خرجت فى هذا الوجه العظيم الأجر ، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه لِحسبة ونية صادقة إن شاء الله ، فثبِّت العالم ، وعلِّم الجاهل ، وعاتب السفيه المترَف ، وانصح لعامة المسلمين، واخصص الوالى على الجند من نصيحتك ومشورتك مايحق الله وللمسلمين عليك واعمل لله كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى ، واعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مساءلون ومحاسَبون ؛ جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولنِقَمه من الخائفين ثم أخذ يده فودعه » .

وجهز أبو بكر أربعة جيوش على أحدها عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين ، وعلى الثانى شرحبيل ابن حسنة ووجهه إلى الأردن ، وعلى الثالث يزيد بن أبى سفيان ووجهه إلى البلقاء ، وعلى الرابع أبو عبيدة عامر بن الجراح ووجهه إلى حمص ، وشيع الأمراء ووصاهم . (فتوح الشام ص ١٨)

٥٦ — وصية أبى بكر لعمرو بن العاص

ولما أجمع أبو بكر أن يبعث الجيوش إلى الشأم كان أول من سار من عماله عمرو ابن العاص .

وخرج أبو بكر يمشى إلى جنب راحلة عمرو بن العاص وهو يوصيه ويقول :

« يا عمرو اتق الله فى سر أمرك وعلانيته ، واستَحْيه فإنه يراك و يرى عملك ، وقد رأيت تقديمى إياك على من هوأقدم سابقةً منك ، ومن كان أعظم غَناء عن الإسلام وأهله منك ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بما تعمل وجه الله ، وكن والدا لمن معك . ولا تكشِفنَّ الناس عن أستارهم ، واكتف بعلانيتهم ، وكن مجدا فى أمرك ، واصدُق اللقاء إذا لاقيت ولا تجبن ، وتقدم فى العلوم[1] وعاقب عليه ، و إذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . . . . فى وصية له طويلة » .

(تاريخ ابن عساكر ١ : ١٢٩)

٥٧ — وصية أخرى

وأمد أبو بكر أبا عبيدة بجيش عليه عمرو بن العاص ، فلما أراد الشخوص خرج معه أبو بكر رضى الله عنه يشيعه وقال :

« يا عمرو إنك ذو رأى وتجربة بالأمور وتبصرة بالحرب . وقد خرجت مع أشراف قومك ، ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تألُهم نصيحة ، ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود فى الحرب ، مباركٍ فى عواقب الأمور » فقال له عمرو : ماأخلَقنى أن أصدق ظنك وأن أقبل رأيك ، ثم ودعه وانصرف» .

(فتوح الشام ص ٤١)

٥٨ — وصية أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان

ودعا يزيد بن أبى سفيان فعقد له وأوصاه فقال :

« يا يزيد ، إنى أوصيك بتقوى الله وطاعته ، والإيثار له ، والخوف منه ، و إذا لقيت

---

(١) هكذا فى الأصل .

العدو فأظفركم الله بهم ، فلا تغلُل ولا تمثِّل ، ولا تغدر ولا تجبُن ، ولا تقتلوا وليدا ، ولا شيخا كبيراً ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلا ولا تَعْقِرَنَّه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تَعْقِروا بهيمة إلا لمأ كَلَةٍ ، وستمرون بقوم فى الصوامع ، يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط رءوسهم ، حتى كأن أوساط رءوسهم أفاحيص[1] القطا ، فاضربوا ما فحصوا من رءوسهم بالسيوف ، حتى يُنيبوا إلى الإسلام ، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب » ثم أخذ يده فقال : « إنى أستودعك الله وعليك سلام الله ورحمته » ثم ودّعه وقال : «إنك أول أمرائى ، وقد وليتك على رجال من المسلمين أشراف غير أوزاع[2] فى الناس ، فأحسن صحبتهم ، ولتكن لهم كَنَفاً واخفض لهم جناحك وشاورهم فى الأمر ، أحسن الله لك الصحابة وعلينا الخلافة » . (فتوح الشام ص ٨)

٥٩ — وصية أخرى ليزيد بن أبى سفيان

ووصى يزيد بن أبى سفيان أيضا حين وجَّهه لفتح الشام قال :

« إنى قد وليتك لِأَبْلُوَكَ وَأُجَرِّبك وَأُخَرِّجَك[3] ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزِدْتك ، و إن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله ، فإنه يَرَى من باطنك مثل الذى يَرَى من ظاهرك ، و إن أولى الناس بالله أشدهم تولِّيا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرُّباً إليه بعمله ، وقدولَّيتك عمل خالد[4] ، فإيَّاكَ وَعُبِّيَّةَ[5] الجاهلية ، فإنَّ الله يُبْغِضُها وَيُبغِضُ

---

(١) جمع أفحوص وهو مايجثم فيه القطا . (٢) أى ليسوا بأدنياء ولا ضعفاء ولا جفاة .

(٣) خرجه : دربه وعلمه . (٤) هو خالد بن سعيد العاص ، وكان أبو بكر سيره إلى الشام أولا ثم عزله . (٥) العبية : الكبر والفخر ، وفى الحديث : « إن الله قد وضع عنكم عبية الجاهلية » يعنى الكبر .

أهلها ، وإذا قَدِمْتَ عَلَى جندك فأحْسِنْ صُحبَتَهُمْ وابدأهم بالخير ، وَعِدْهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجِزْ ، فإنَّ كثيرَ الكلام يُنْسِي بَعْضُهُ بعضاً ، وأَصْلِح نفسكَ يَصْلُحْ لك الناس ، وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشُّع فيها ، وإذا قَدِمَ عليك رُسُلُ عدوكَ فأكرِمهم وأقلِل لُبثَهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تُرَيِّثهم[1] فيرَوْا خَلَلَكَ ، وَيعلموا عِلْمَكَ ، وأنزلهم فى ثروة عسكرك ، وامنع من قِبَلَكَ من محادثتهم ، وكن أنت المتولِّيَ لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلانيتك ، فيختلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدُق الحديث تُصْدَق المشورةَ ، ولا تَخْزُنْ عن المُشير خبَرك ، فتُؤْتَى من قِبَلِ نفسِكَ ، واسمُرْ بالليل فى أصحابك تأتِكَ الأخبار ، وتنكشف عندك الأستار ، وأكثِرْ حَرَسَكَ وَبَدِّدْهم فى عسكرك ، وأكثِرْ مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدتَهُ غَفَلَ عن مَحْرَسه ، فأحْسِنْ أدَبَهُ وَعاقِبْهُ فى غير إفراط ، وعَقِّب[2] بينهم بالليل ، واجعل النَّوْبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها أيسرها لقربها من النهار ، ولا تخَفْ من عقوبة المستحق ، ولا تَلِجَّنَّ فيها ، ولا تُسْرِعْ إليها ، ولا تَخْذَ لها مُدْقِعاً[3] ، ولا تَغفُلْ عن أهل عسكرك فتُفْسِدَهُ ، ولا تجسَّسْ عليهم فتَفْضَحَهُمْ ، ولا يكشف الناس عن أسرارهم ، واكتفِ بعلانيتهم ، ولا تجالس العبَّاثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء ، واصْدُقِ اللقاء ، ولا تجْبُنْ فيَجْبُنَ الناس ، واجتنب الغُلُول[4] فإنه يقرِّبُ الفقر ، ويدفع النصر ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له » . (تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ١٩٦)

---

(١) من الريث : وهو الابطاء . (٢) عقبه تعقيبا : جاء بعقبه . (٣) لاتخذ : من خذا يخذو كنصر وخذى يخذى كرضى إذا استرخى ، والمدقع : الملصق بالدقعاء أو الهارب أو أشد المزلى هزالا ؛ أى ولا تضعف ، ولا تجبن أمام تنفيذ العقوبة وهو مقابل لقوله : ولا تسرع إليها .

(٤) غل غلولا : خان .

٦٠ — دعاء أبي بكر

وكان أبو بكر رحمة الله عليه يدعو فى كل يوم غُدوةً وَعَشِيَّةً فى دُبُر صلاة الغداة و بعد العصر يقول :

« اللهم إنك خلقتنا ولم نكُ شيئا ، ثم بعثت إلينا رسولا ، رحمة منك لنا ، وفضلا منك علينا ، فهديتنا وكنا ضُلّالا ، وحبّبت إلينا الإيمان وكنا كفارا ، وكثّرتنا وكنا قليلا وجمعتنا وكنا أشتاتا، وقوّيتنا وكنا ضعافا ، ثم فرضت علينا الجهاد، وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، اللهم لأصبحنا أن نطلب رضاك ، ونجاهد أعداءك، من عدل بك ، وعبد معك إلٰها غيرك ، تعاليت عما يقولون علوا كبيراً ، اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين ، اللهم افتح لهم فتحا يسيرا ، وانصرهم نصرا عزيزا ، واجعل لهم من لدنك سلطانا نصيرا ، اللهم شجِّع جُبنهم وثبت أقدامهم ، وزلزل بعدوهم ، وأدخل الرعب قلوبهم ، واستأصل شأفتهم ، واقطع دابرهم ، وأبِد خضراءهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ، وكن لنا وليا ، وبنا حفِيا ، وأصلح لنا شأننا كله ونياتنا وقضاءنا وتبعاتنا ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، واغفر لنا والمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم » . (فتوح الشام ص ٩)

٦١ — وصيته لشرحبيل بن حسنة

ووجه شُرَحْبيل بن حَسَنة ، وودعه فقال له : يا شرحبيل ، ألم تسمع وصيتى ليزيد ابن أبي سفيان ؟ قال : بلى ، قال : فإنى أوصيك بمثلها ، وأوصيك بخصال أغفلتُ ذكرهن

ليزيد : أوصيك بالصلاة فى وقتها ، و بالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل وبعيادة المرضى ، و بحضور الجنائز ، وذكر الله كثيرا على كل حال » (فتوح الشام ص ١١)

٦٢ — وصيته لأبى عبيدة بن الجراح

ولما أراد أن يبعث أبا عبيدة بن الجراح دعاه فودعه ثم قال له :

« اسمع سماعَ من يريد أن يفهم ما قيل له ، ثم يعمل بما أمر به ، إنك تخرج فى أشراف الناس ، و بيوتات العرب ، وصُلحاء المسلمين ، وفُرسان الجاهلية ، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحَمِيَّة ، وهم اليوم يقاتلون على الحِسْبة والنية الحسنة ، أحسِنْ صحبة مَن صَحِبك ، وليكن الناس عندك فى الحق سواء ، واستعن بالله وكفى بالله معينا، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ، اخرج من غد إن شاء الله » . (فتوح الشام ص ١٢)

٦٣ — وصيته لأبى عبيدة بن الجراح أيضا

فلما كان من الغد خرج أبو بكر رضى الله عنه يمشى فى رجال من المسلمين ، حتى أتى أبا عبيدة ، فسار معه حتى بلغ ثَنِيَّة الوداع ، ثم قال حين أراد أن يفارقه :

« يا أبا عبيدة ، اعمل صالحا . وعش مجاهدا ، وتوف شهيدا ، يعطك الله كتابك بيمينك ، ولْتقَرَّ عينك فى دنياك وآخرتك ، فو الله إنى لأرجو أن تكون من التوابين الأوّابين المُخبتين(١) الزاهدين فى الدنيا ، الراغبين فى الآخرة ، إن الله قد صنع بك خيرا وساقه إليك ، إذ جعلك تسير فى جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين ، فقاتل من كفر بالله وأشرك به ، وعَبَد معه غيره » . (فتوح الشام ص ١٤)

---

(١) فى الأصل « المخشتين » ، وأخبت : خشع وتواضع .

٦٤ — خطبة أبى بكر

وسار أبو عبيدة حتى إذا دنا من الجابية بلغه أن هرقل ملك الروم بأنطاكية ، وأنه قد جمع لهم جموعا كثيرة ، فكتب أبو عبيدة إلى أبى بكر يخبره بذلك ، فقام أبو بكر رضى الله عنه فى الناس

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم المسلمين معافَوْن مكلَّئون[1] ، مدفوع عنهم ، مصنوع لهم ، وقد ألقى الله الرعب فى قلوب عدوهم منهم ، وقد اعتصموا بحصونهم ، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم ، وقد جاءتنى رسلهم يخبروننى بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم ، حتى نزل قرية من قرى الشأم فى أقصى الشام ، وقد بعثوا إلىّ يخبروننى أنه قد وجه إليهم هرقل جندا من مكانه ذلك ، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم يشدد الله بكم ظهورهم ، ويكبت بهم عدوهم ، ويلق بهم الرعب فى قلوبهم . فانتدبوا رحمكم الله مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص . واحتسبوا فى ذلك الأجر والخير فإنكم إن نُصرتم فهو الفتح والغنيمة . وإن تهلكوا فهى الشهادة والكرامة » .

(فتوح الشام ص ٢٧)

٦٥ — وصية أبى بكر لهاشم بن عتبة

ولما سار هاشم بن عتبة ودعه أبو بكر رضى الله عنه وقال له :

« ياهاشم إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره و بأسه ونجدته ، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبَل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر ، واعلم أنك لا تخطو خطوة ، ولاتنفق نفقة ، ولايصيبك ظمأ ولا نصب ولامخمصة[2] فى سبيل الله إلا كتب الله لك به عملا صالحا ، إن الله لايضيع أجر المحسنين » .

---

(١) محروسون .   (٢) جوع .

فقال هاشم : إن يرد الله بى خيرا يجعلنى كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله ، وأنا أرجو إن أنا لم أقتل أن أقتل ثم أقتل إن شاء الله .

فقال له عمه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « يابن أخى لاتطعن طعنة ولاتضربن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله ، واعلم أنك خارج من الدنيا رشيدا ، وراجع إلى الله قريباً ، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدَم صدق قدَّمته ، أو عمل صالح أسلفته » .

فقال أى عم : لا تخالن[1] منى غير هذا ، إنى إذاً لمن الخاسرين ، إن جعلت حلى وارتحالى وغدوى ورواحى وسيفى وطعنى برمحى وضربى بسيفى رياء للناس .

ثم خرج فقدم على أبى عبيدة فتباشر بمقدمه المسلمون . (فتوح الشام ص ٢٨)

٦٦ — خطبة خالد بن الوليد يوم اليرموك

ووجه هرقل إلى كل جيش من جيوش المسلمين جيشا يفوقه ، فأشار عمرو بن العاص على الأمراء بالاجتماع ، فأرسلوا إلى أبى بكر فى ذلك فأشار عليهم بمثل رأى عمرو .

فاجتمعوا باليرموك وكل واحد من الأمراء أمير على جيشه ، والروم أمامهم ، وبين الفريقين خندق ؛ فكان الروم يقاتلون باختيارهم ، وإن شاءوا احتجزوا بخنادقهم ، فأرسل الأمراء إلى أبى بكر يستمدونه .

فكتب إلى خالد بن الوليد أمير جند العراق يأمره أن يستخلف على جنده بعد أن يأخذ معه نصفه ويتوجه إلى الشام مدداً لأمرائه ؛ فسار إلى الشام ؛ ووافى المسلمين وهم متضايقون ، إذ وصل باهان بجيش مددا للروم ، فولى خالد قتاله ، وقاتل كل أمير من بإزائه متساندين(٢) ، فرأى خالد أن هذا القتل لا يجدى نفعا مادامت كل فرقة من الجيش لها أمير فجمع الأمراء وخطبهم .

فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلِصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية ، على تساند

---

(١) فى الأصل « لا تخالن » . (٢) أى تحت رايات شتى لاتجمعهم راية أمير واحد .

وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن مَن وراءكم[1] لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبّته » .

قالوا : فهات فما الرأى؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنّا سنتياسر[2] ، ولو علم بالذى كان ويكون لما جمعكم . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرّقت بينكم ، فالله الله فقد أُفرد كل رجل منكم ببلد من البُلدان ، لا ينتقص منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه أن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينقُصكم عند الله ، ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلمّوا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور[3] الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمّر كلكم ودعونى أتأمّر اليوم » فأمّروه وانتهت الموقعة بهزيمة الروم شر هزيمة (سنة ١٣ هـ) .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٣٣ والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٠)

٦٧ — خطبة أبى عبيدة فى وقعة اليرموك

ولما برز المسلمون إلى الروم فى وقعة اليرموك سار أبو عبيدة فى المسلمين ثم قال :

« ياعباد الله ، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، فإن وعد الله حق ، يا معشر المسلمين اصبروا ، فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومَدْحضة للعار ، فلا تبرحوا مصافّكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدءوهم بقتال ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرَق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله ، حتى آمركم إن شاء الله» .

(فتوح الشام ص ١٩٥)

---

(١) يعنى أبا بكر . (٢) التياسر : التساهل . (٣) نتعاقب عليها .

٦٨ - قصص معاذ بن جبل

وخرج مُعاذ بن جبل يقص على الناس ويقول :

« ياقراء القرآن ، ومستحفظى الكتاب ، وأنصار الهدى ، وأولياء الحق ، إن رحمة الله — والله — لاتُنال ، وجنته لا تدخل بالأمانى ، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل ، ألم تسمعوا لقول الله « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » .

أنتم إن شاء الله منصورون ، فأطيعوا الله ورسوله ، وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فُرّاراً من عدوكم ، وأنتم فى قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ ولا ملتجأ من دونه ولا متعزز بغير الله » .

فجعل يمشى فى الصفوف ويحرضهم ويقص عليهم ثم انصرف إلى موقفه .

(فتوح الشام ص ١٩٥)

٦٩ — خطبة عمرو بن العاص

ومر عمرو بن العاص يومئذ على الناس ، فجعل يعظهم ويقص عليهم ، ويحرضهم ويقول :

« أيها الناس : غضوا أبصاركم ، واجْثُوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، والزموا مراكزكم ومصافكم ، فإذا حمل عليكم عدوكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة ، فثبوا فى وجوههم وثوب الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويمقُتُ الكذب ويعاقب عليه ،

ويجزى بالإحسان ، لقد بلغنى أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً[1] ، وقصرا قصرا ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو قد صدقتموهم الشَّدَّةَ لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل[2] » . (فتوح الشام ص١٩٦)

٧٠ ـ خطبة أبي سفيان بن حرب

وكان أبوسفيان بن حرب يسير فى الناس يوم اليرموك ، ويقف على أهل كل راية وعلى كل جماعة فيحرض الناس ويحضهم ويعظهم ويقول :

« إنكم يامعشر المسلمين أصبحتم فى دار العجم ، منقطعين عن الأهل[3] ، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله ، أصبحتم بإزاء عدو كثير عددهم ، شديد عليكم حنقهم ، وقد وترتموهم فى أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وبلادهم ، فلا والله لاينجيكم منهم اليوم وتبلغون رضوان الله إلا بصدق اللقاء ، والصبر فى مواطن المكروه ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتقربوا بها إلى خالقكم ، ولتكن هى الحصون التى تلجئون إليها ، وبها تمنعون » .

وقاتل أبوسفيان يومئذ قتالا شديداً ، وأبلى بلاء حسنا . (فتوح الشام ص ١٩٧)

٧١ ـ وصية أبي بكر لعمر رضى الله عنهما عند موته

« إنى مستخلفك من بعدى ، ومُوصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تُقْبَل نَافِلَةٌ حتى تُؤَدَّى الْفَرِيضَةُ ، فإنما ثَقُلَتْ موازين من ثقلت موازينهُ يوم القيامة باتباعهم الْحَقَّ فى الدنيا وثِقَلِهِ عليهم ،

---

(١) القرية . (٢) الحجل : الذكر من القبج .

(٣) فى الأصل « الأبل » وهو تحريف .

وحُقّ لميزان لا يوضع فيهِ إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينهُ يوم القيامة باتباعهم الباطلَ وخفتهِ عليهم ، وَحُقّ لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرَهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتُهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يُلْقِى بيده إلى التهلُكة ، فإذا حفِظْت وصيتى فلا يكن غائب أحَبّ إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكن غائبٌ أبغضَ إليك من الموت ولست بمعجز الله » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٨ ، والعقد الفريد : ٢٩٨)

٧٢ ـ كلامه لعبد الرحمن بن عوف فى علته التى مات فيها

وقال عبد الرحمن بن عوف :

«دخلت يوماً على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فى علته التى مات فيها ، فقلت له : أراكَ بارئاً يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : أمَا إنى على ذلك لشديد الوجع ، وَلَمَا لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد عَلَىّ من وجعى ، إنى وَلّيْت أموركم خيرَكم فى نفسى ، فكلكم وَرِمَ أنفُه أن يكون له الأمرُ من دونه ، والله لتتخِذُنّ نَضَائِدَ[1] الدِّيباج وستور الحرير ، ولتألَمُنّ النومَ على الصوف الأذْرَبِىّ[2] ، كما يألَمُ أحدكم النوم على حَسَك السَّعْدَان[3] ، والذى نفسى بيده ، لأن يُقَدَّم أحدكم فتضرَبَ

---

(١) جمع نضيدة ؛ وهى الوسادة وما ينضد من المتاع . (٢) نسبة إلى أذربيجان .

(٣) نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه ويغذوها غذاء لايوجد فى غيره ، وفى المثل : مرعى ولا كالسعدان .

عنقه فى غير حَدّ خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، يا هادى الطريق جُرْت إنما هو والله الفجر أو البُجْر[١] » .

فقلت : خفض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا يَهيضك[٢] إلى ما بك ، فو الله ما زلتَ صالحاً مصلحاً ، لا تأسى على شىء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلاّ خيراً .

(تهذيب الكامل ١ : ٦ ، وإعجاز القرآن ١١٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٠٨ ، وتاريخ الطبرى ٤ : ٥٢)

٧٣ — خطبة السيدة عائشة فى الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه فأرسلت إلى أَزْفَلةٍ[٣] من الناس ، فلما حضروا أسْدَلَت[٤] أستارها ، وَعَلَتْ وِسادها ، ثم قالت :

« أبى وما أبِيَه ، أبى والله لاَ تَعْطُوه الأيدى[٥] ، ذاك طَوْد مُنيف[٦] ، وَفَرْع[٧] مديد ، هيهاتَ كَذَبت الظنون ، أنجح[٨] إذ أكديتم ، وسبق إذ وَنَيْتُم[٩] ، سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأَمَد[١٠] ، فتى قريش ناشئاً ، وكهفها[١١] كهلا ، يفك عانيها ، وَيَرِيش[١٢] مُمْلِقها ، وَيَرْأَب شَعْبَها[١٣] ، وَيَلُمُّ شَعَثَها ، حتى حَلِيته[١٤] قلوبها ، ثم

---

(١) الشر والأمر العظيم . يقول : إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر والطريق أبصرت قصدك ؛ وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه ؛ وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييرها أهلها .

(٢) هاض العظم : كسره بعد الجبور .

(٣) جماعة . (٤) سدله يسدله : كنصر وضرب وأسدله أرخاه . (٥) تتناوله .

(٦) الطود : الجبل ، والمنيف : المشرف . (٧) فرع كل شىء أعلاه ، ومن القوم شريفهم .

(٨) أنجح : صار ذا نجح . (٩) الكدية : بضم فسكون الأرض الغليظة ، والصفاة العظيمة الشديدة ، وحفر فأكدى إذا صادفها فلا يمكنه الحفر (وسأله فأكدى وجده مثلها) : وونيتم أى فترتم وضعفتم

(١٠) الغاية والمنتهى . (١١) الكهف : الوزر والملجأ ، والكهل من جاوز الثلاثين أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين . (١٢) راش السهم يريشه ألزق عليه الريش كريشه ؛ والمراد يعينه ويساعده .

(١٣) يصلح . والشعب : الصدع . (١٤) حلى الشىء : استحلاه .

استشرى[١] فى دين الله ، فما برحت شكيمته[٢] فى ذات الله عزّ وجلّ ، حتى اتخذ بفِنَائِهِ مسجداً ، يحيي فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمه الله غزير الدَّمعة ، وَقيذ[٣] الجوانح ، شَجِيّ النَّشِيج[٤] ، فانقَضّت إليه نسوان مكة وَوِلدانها ، يسخرون منه و يستهزئون به « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَيَمُدُّهُمْ فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »[٥] فأكبرت ذلك رجالاتٌ من قريش ، فحنت قسيّهَا ، وَفَوَّقَت سهامها[٦] ، وامتثلوه[٧] غرضاً ، فما فَلّوا له صَفَاة[٨] ، ولا قصفوا له قناة ، ومرّ على سِيسائِهِ[٩] ، حتى إذا ضرب الدين بجِرانه[١٠] ، ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجًا ، ومن كل فرقة أرسالاً[١١] وأشتاتًا ، اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قَبَضَ الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رِوَاقه[١٢] ، وَمَدَّ طُنُبه[١٣] ، وَنَصَبَ حبائله ، وأجلب[١٤] بخيله ورجله ، واضطرب حبل الإسلام ، وَمَرِج[١٥] عهده ، وماج أهله ، وَبُغِيَ الغوائلُ ، فظنت رجال أن قد أكثبت[١٦] أطماعُهُم ، ولات حين الذى يرجون ، وأنَّى والصِّديقُ بين أظهرهم ، فقام حاسراً مشمّراً ،

---

(١) غضب ولج .

(٢) الشكيمة الأنفة وفى اللجام الحديدة المعترضة فى فم للفرس . وهو شديد الشكيمة أنف أبي لاينقاد .

(٣) الوقيذ : الصريع والشديد المرض المشرف . (٤) الشجى : الحزين ، والنشيج : صوت البكاء نشج الباكى ينشج كجلس غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب . (٥) العمه بفتحتين التردد فى الضلال .

(٦) فوق السهم : جعل له فوقا ، وهو موضع الوتر من السهم . (٧) امتثلوه : مثلوه .

(٨) الحجر الصلد : الضخم . (٩) شاكلته . حمله على سيساء الحق أى على حده ، والسيساء : عظم الظهر ، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر . (١٠) جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

(١١) جمع رسل بفتحتين ، وهو القطيع من كل شيء . (١٢) فسطاطه . (١٣) حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد . (١٤) أجلب : صاح ، والخيل : الخيالة ؛ ومنه « ياخيل الله اركبى » والرجل : اسم جمع راجل كالصحب والركب ، أى صاح بالركاب والمشاة وقرئ ورجلك بكسر الجيم وضمها .

(١٥) المرج : بفتحتين الفساد والقلق والاختلاط والاضطراب (وإنما يسكن مع الهرج) .

(١٦) أكثب : قرب ، والنهز جمع نهزة بضم النون وهى الفرصة .

فجمع حاشيتَيْهِ(١) ، ورفع قُطريه(٢) ، فردّ رَسَن(٣) الإسلام على غَرْبه(٤) ، ولَمَّ شَعَثَهُ بطبه ، وانتاش(٥) الدين فنعشهُ ، فلما أراح(٦) الحقّ على أهله ، وقرّر الرءوس على كواهلها(٧) ، وحقن الدماء فى أُهُبها(٨) ، أتتهُ منيتهُ ، فسدّ ثُلْمته بنظيره فى الرحمة ، وشقيقه فى السيرة والمَعدَلة ، ذاك ابن الخطاب ، فلله دَرّ أُمّ(٩) حملت به ، وَدَرّت عليه ، لقد أوحدت(١٠) به ، ففنّخ(١١) الكفرة ، وديَّخها(١٢) ، وشرد الشرك شَذَرَ مَذَر(١٣) ، وبَعج(١٤) الأرض وبخَعها(١٥) ، فقاءت أُكُلَها(١٦) ولفظت خَبْأها ، تَرْأَمه(١٧) وَيَصْدِفُ عنها ، وَتَصَدّى(١٨) له ويأباها ، ثم وزع فيها فيئها ، وودّعها كما صحبها ، فأرونى ماذا ترتئون ، وأىّ يومَىْ أبى تنقِمون ، أيوم إقامتِه إذ عدل فيكم أم يوم ظَعْنه إذ نظر لكم(١٩) ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : أنشُدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئًا ، قالوا : اللهم لا »

(صبح الأعشى ١ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٠٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٠)

---

(١) حاشية كل شىء : جانبه وطرفه . (٢) القطر : الناحية . (٣) الحبل .
(٤) الغرب : حد الشىء . (٥) انتشل ، ونعشه الله كأنعشه ، ونعشه : رفعه .
(٦) أراح على فلان حقه : رده عليه . (٧) الكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق .
(٨) جمع إهاب : وهو الجلد ، والمراد الأجسام . (٩) الدر : اللبن والنفس والعمل .
(١٠) أوحدت المرأة : ولدت واحدا ، أى جاءت به منفردا لا نظير له . (١١) أذل وقهر .
(١٢) داخ البلاد ودوخها وديخها : قهرها واستولى على أهلها . (١٣) تفرقوا شذر مذر : ذهبوا فى كل وجه . (١٤) شقها : كناية عن الفتح . (١٥) قهر أهلها واستخرج مافيها من الكنوز وأموال الملوك . (١٦) الأكل : ما يؤكل ؛ أى أخرجت خيراتها . (١٧) تعطف عليه ، ويصدف أى يعرض . (١٨) تتعرض . (١٩) أى فيما يصلحكم فول عليكم عمر .

٧٤ — رثاؤها لأبيها

لما توفى أبو بكر رضى الله عنه ، وقفت عائشة على قبره فقالت :

« نضَّر[١] الله وجهك يا أبتِ ، وشكر لك صالحَ سعيك ، فلقد كنتَ للدنيا مُذِلاًّ بإدبارك عنها ، وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رُزْؤك ، وأعظم المصائب بعده فَقْدُكَ ، إن كتاب الله ليَعِدُ بحسن الصبر فيك حُسْنَ العوَض منك ، وأنا أستنجز موعود الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه[٢] بالاستغفار لك ، أما لئن قاموا بأمر الدنيا ، لقد قمت بأمر الدين ، لما وَهَى شَعْبه[٣] ، وتفاقم صَدْعه[٤] ، وَرَجَفت[٥] جوانبه ، فعليك سلام الله توديعَ غيرِ قالية[٦] لحياتك ، ولا زاريةٍ[٧] على القضاء فيك » .

(زهر الآداب ١ : ٤٠ ، العقد الفريد ٢ : ٧ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٧ ، البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

---

(١) من النضرة والنضارة بفتح النون وهى الحسن .

(٢) أطلب قضاءه . (٣) وهى ضعف ، والشعب الجمع . (٤) الصدع : الشق .

(٥) اضطربت . (٦) مبغضة . (٧) عائبة ولائمة .

خطب عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

٧٥ — خطبته حين ولى الخلافة

لما استخلف عمر رضى الله عنه صعد المنبر فقال : « إنى قائل كلمات فأمِّنوا عليهن » فكان أول منطق نطق به حين استخلف ، قال :

« إنما مثل العرب مثل جمل أَنِفٍ[1] اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنَّهم على الطريق » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٥٤ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٨)

٧٦ — خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة فى عيون الأخبار : لما ولى عمر صعد المنبر فقال :

« ما كان الله ليرانى أرى نفسى أهلا لمجلس أبى بكر ، ثم نزل عن مجلسه مِرْقاة فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : « اقرءوا القرآن تُعرَفُوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله إنه لم يَبْلُغْ حَقُّ ذى حَقٍّ أن يطاع فى معصية الله ، ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله

(١) أنف البعير : اشتكى أنفه من البرة فهو أنف وآنف ؛ وفى الحديث : « المؤمن كالجمل الأنف إن قيد انقاد ؛ وإن استنيخ على صخرة استناخ » وذلك للوجع الذى به فهو ذلول منقاد .

بمنزلة والى اليتيم ، إن أستغنيتُ عففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، تَقَرُّمَ[1] البَهمة[2] الأعرابية ، القضمَ لا الخضمَ[3] » .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٧٧ — خطبة له

وذكر الطبرى أنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكَّر الناس بالله عزَّ وجل واليوم الآخر ، ثم قال :

«يأيها الناس : إنى قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيرَكم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعًا[4] بما ينوب من مُهِمِّ أموركم ، ما توليت ذلك منكم ، ولكنى عمرَ مُهِمًّا مُحْزِنًا انتظار مُوافقة الحساب بأخذحقوقكم كيف آخذها ، ووضعِها أين أضعها ، وبالسير فيكم كيف أسير ، فربِّى المستعان ، فإن عمر أصبح لايثق بقوَّة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عزَّ وجل برحمته وعونه وتأييده » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ ص ١٢٤)

٧٨ — خطبة له

ثم خطب فقال :

« إن الله عز وجل قد ولَّانى أمركم ، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وإنى أسأل الله أن يعيننى عليه ، وأن يَحرُسَنِى عنده كما حرسنى عند غيره ، وأن يُلهِمَنِى العدل

---

(١) تقرم الصبى أكل أكلا ضعيفا ، وذلك فى أول أكله . (٢) البهمة : أولاد الضأن والمعز والبقر . (٣) القضم : الأكل بأطراف الأسنان والخضم الأكل بأقصى الأضراس .

(٤) الذى فى كتب اللغة « اضطلاع » يقال هو مضطلع بهذا الأمر ، أى قوى عليه .

فى قسمكم كالذى أمرنى به ، وإنى امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغيّر الذى وليتُ من خلافتكم من خلق شيئاً إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل ، وليس للعباد منها شىء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغيَّرَ منذ وَلِى ، أَعقِلُ الحق من نفسى ، وأتقدّم وأبين لكم أمرى ، فأيما رجلٍ كانت له حاجة ، أو ظُلِمَ مَظْلِمَةً ، أو عتب علينا فى خلق فليؤذِنّى ، فإنما أنا رجل منكم ، فعليكم بتقوى الله فى سركم وعلانيتكم وحُرُماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلىّ ، فإنه ليس بينى و بين أحد من الناس هَوَادة ، وأنا حبيب إلىّ صلاحُكم، عزيز على عَنَتُكُمْ ، وأنتم أُناسٌ عامّتكم حَضَر فى بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضَرع ، إلاّ ما جاء الله به إليه ، وإن الله عزّ وجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ، ومُطَّلع على ما يحضرنى بنفسى إن شاء الله ، لا أَكِلُهُ إلى أحد ، ولا أستطيع ما بَعُدَ منه إلا بالأُمناء وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ١٢٤)

٧٩ — خطبة أخرى

وقال ابن عبد ربه : وخطب إذ ولى الخلافة : صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

«يأيها الناس ، إنى داعٍ فأمِّنوا ، اللهم إنى غليظ فليِّنّى لأهل طاعتك ، بموافقة الحقِّ ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغِلْظَة والشدة على أعدائك ، وأهلِ الدَّعارة[1] والنفاقِ ، من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إنى شحيح ، فَسَخِّنى

---

(١) الفجور .

فى نوائب المعروف ، قَصْدًا من غير سَرَف ولا تبذير ولا رياء ولا سُمْعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهَكَ والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خَفْضَ الجَناح ، وَلِينَ الجانب للمؤمنين ، اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان ، فأَلْهِمنى ذكرك على كل حال ، وَذِكْرَ الموت فى كل حين . اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتنى باليقين والبرِّ والتقوى ، وذكر المَقَام بين يديك ، والحياء منك ، وارزقنى الخشوعَ فيما يرضيك عنى ، والمحاسبةَ لنفسى ، وإصلاحَ الساعاتِ والحذرَ من الشُّبُهَات ، اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهمَ له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير » . (العقد الفريد ٢ : ١٣٣)

٨٠ — خطبة له

وخطب أيضًا ، فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم :

« أيها الناس ، إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتأمُلون ما لاَ تُدْرِكون ، وأنتم مؤجَّلون فى دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحى ، فمن أَسَرَّ شيئًا أُخِذَ بسريرته ، ومن أعلن شيئا أخذ بعلانيته ، فأظهِرُوا لنا أحسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فإنه من أظهر لنا قبيحا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظنَنَّا به حسناً ، واعلموا أن بعض الشُّحِّ شُعْبَةٌ من النفاق ، فأنفِقوا خيراً لأَنفسكم ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أيها الناس أطيبوا مثواكم ، وأصلحوا أموركم ، واتقوا الله ربكم ، ولا تُلبسوا نساءكم القُبَاطىَّ[1] فإنه إن لم يَشِفَّ فإنه يَصِفُ . أيها الناس : إنى لَوَدِدْتُ

(١) القباطى (بضم الأول وتشديد الآخر ، أو القباطى بفتح الأول وتخفيف الآخر) ثياب كتان بيض رقاق كانت تعمل فى مصر جمع قبطية (بضم القاف نسبة إلى القبط على غير قياس وقد تكسر) وشف الثوب يشف رق فحكى ماتحته ، وقوله : فإنه يصف أى ماتحته من أجزاء البدن ويحددها لرقته وطراوته

أن أنجو كَفافًا لا لىَ ولا علىّ ، وإنى لأرجو إن عُمِّرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ؛ وأن لا يبقى أحد من المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله وإن لم يُعمل إليه نفسه ، ولم يُنْصب إليه بدنه ، وأصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ، وَلَقَليل فى رفق خيرٌ من كثير فى عنف ، والقتل حتف من الحتوف ، يصيب البَرّ والفاجر ، والشهيد من احتسب نفسه ، وإذا أراد أحدكم بعيراً فَلْيَعْمِد إلى الطويل العظيم فليضرب به بعصاً ، فإن وَجده حديد الفؤاد فَلْيَشْتَرِه » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٦ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ١٢٥)

٨١ — خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لِأهونِ خلقه عليه ، فجعل لكم عامَّةَ خلقه ، ولم يجعلكم لشىء غيره ، وسَخَّرَ لكم مافى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نِعمَهُ ظاهرةً وَبَاطِنَةً ، وحملكم فى البرِّ والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ، ومن نعم الله عليكم نِعم عَمّ بها بنى آدم ، ومنها نِعم اختص بها أهلَ دينكم ، ثم صارت تلك النِّعم خواصُّها وعوامُّها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النِّعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصّة إلا لو قُسِم ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها ، وَفَدَحَهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَخْلَفون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أُمّتان ، أُمّة مستعبَدَة للاسلام وأهله ،

يتجرون لكم ، تستصفون[١] معايشهم وكدائحهم وَرَشْحَ جباههم ، عليهم المئونة ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وَسَطَوَاته فى كل يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رعبا ، فليس لهم مَعْقِلٌ يلجئون إليه ، ولا مَهْرَب يتقون به ، قد دَهَمَتْهُم جنود الله عز وجل ، ونزلت بساحتهم مع رَفَاغة[٢] العيش ، واستفاضة المال ، وتتابع البعوث ، وسَدِّ الثغور بإذن الله فى العافية الجليلة العامة ، التى لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام ، والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد ، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكرُ الشاكرين ، وَذِكْرُ الذاكرين ، واجتهادُ المجتهدين ، مع هذه النعم التى لا يحصى عددها ، ولا يقدرُ قدرها ، ولا يستطاع أداء حقها ، إلا بعون الله ورحمته ولطفه . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو ، الذى أبلانا هذا ، أن يرزقنا العمل بطاعته ، والمسارعة إلى مرضاته . فاذكروا عباد الله بلاء الله عندكم ، واستتموا نعمةَ الله عليكم ، وفى مجالسكم مَثْنَى وَفُرَادَى فإن الله عز وجل قال لموسى : « أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ » وَقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فى الأَرْضِ » فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خيرَ الدنيا على شُعْبَة من الحق تؤمنون بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله ودينه ، وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ، ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة ، وأعظم الناس بالله جهالة . فلو كان هذا الذى ابتلاكم به لم يكن معه حظ فى دنياكم . غير أنه ثقةٌ لكم فى آخرتكم ؛ التى إليها المعاد وَالمُنْقَلَب ، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه ، كنتم أحرياء أن تَشِحُّوا على نصيبكم منه ، وأن تُظْهِرُوه على غيره فَبَلْهَ[٣] ما أنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا ، وكرامة الآخرة ، أو لمن شاء أن يجمع له ذلك منكم . فأذكركم الله الحائل بينكم و بين قلوبكم ، إلا ماعرفتم حق الله

---

(١) استصفى الشيء : أخذ منه صفوه .

(٢) رفغ عيشه ككرم رفاغة : اتسع ، والرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب والسعة .

(٣) بله : اسم فعل بمعنى دع واترك ، فما بعدها منصوب ، ومصدر بمعنى الترك ، فما بعدها مجرور بالإضافة ، واسم مرادف لكيف فما بعدها مرفوع بالابتداء .

فعَمِلتم له ، وقَسَرتم أنفسكم على طاعته ، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفا لزوالها ولانتقالها ، ووجلا من تحويلها ، فإنه لاشيء أسلب للنعمة من كفرانها ، وإنّ الشكر أمن للغِيَر ، ونماء للنعمة ، واستجلاب للزيادة ، وهذا لله عليّ من أمركم ونهيكم واجب » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٧ وشرح ابن أبى الحديد م ٣ ص ١٢٥)

٨٢ — خطبة له

وخطب أيضا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أُبَيَّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ، فليأت زيدَ بن ثابت . ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت مُعاذَ ابن جَبَل . ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فإن الله جعلنى له خازنا وقاسما ، إنى بادئٌ بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابى ، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلايلومنّ رجل إلا مُنَاخَ راحلته ، إنى قد بقيت فيكم بعد صاحبى ، فابتُليت بكم ، وابتليتم بى ، وإنى لن يحضرنى من أموركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة ، فلئن أحسنوا لأُحسِنَنّ إليهم، ولئن أساءوا لأُنَكِّلَنّ بهم» . (العقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٣ — خطبة له

وخطب أيضا فقال :

« الحمد لله الذى أعزّنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، ورَحِمَنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الشَّتات ، وَأَلَّف بين قلوبنا ، ونصرنا على

عدونا ، وَمكّن لنا فى البلاد ، وجعلنا به إخواناً متحابِّين ، فاحْمَدُوا الله على هذه النعمة ، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها ، فإن الله قد صَدَقكم الوعد ، بالنصر على من خالفكم ، وَإياكم والعملَ بالمعاصى ، وكُفْرَ النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ، ولم يَنْزِعُوا إلى التوبة ، إلاّ سُلبوا عِزَّهم ، وَسُلِّطَ عليهم عدوُّهم . أيها الناس : إن الله قد أعزَّ دعوة هذه الأُمة ، وجمع كلمتها ، وأظهر فَلْجها[1] ونصرها وشرفها ، فاحمدوه عباد الله على نعمه ، واشكروه على آلائه ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين » . (العقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٤ — خطبة له

وخطب عمر الناس فقال :

« والذى بعث محمدا بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات ، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب » .

قال أبو زيد « آل الخطاب » يعنى نفسه ما يعنى غيرها . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٨)

٨٥ — خطبة له

وخطب أيضًا فقال :

« أيها الناس : إنه أَتَى عَلَيَّ حِينٌ ، وَأنا أحْسَب أن مَنْ قَرَأَ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وإنه قد خُيِّلَ إلَيَّ أن أقوامًا يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوه بأعمالكم ، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل ، وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهُرِنا ، فقد رُفِعَ الوحى ، وذهب النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم ، ألا فمن أظهر لنا خيراً ظَنَنَّا به خيراً ، وأثنينا به عليه ،

---

(١) الفلج : الظفر والفوز .

ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا ، وأبغضناه عليه ، أَقْدَعُوا[1] هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طُلَعَة[2] وإنكم إلاَّ تَقْدَعُوهَا تَنْزِعْ بكم إلى شرِّ غاية ، إن هذا الحق ثقيل مَرِيء[3] ، وإن الباطل خفيف وَبِيء[4] ، وَتَرْكُ الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرةٍ زرعت شَهْوَةً ، وشهوةِ ساعةٍ أورثت حزنًا طويلاً » .

وفى رواية صاحب العقد : « ألا وإنى إنما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ، ويأخذوا أموالكم ، ألا من رابه شىء من ذلك فَلْيَرْفَعْهُ إلىَّ ، فوالذى نفسى بيده لَأُقِصَّنَّكُمْ منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن بَعَثْتَ عاملاً من عمالك، فأَدَّبَ رَجلاً من رعيتك فضربه، أتُقُصُّه منه؟ قال: نعم والذى نفس عمر بيده لأقصَّنَّه منه،فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه » .

وفى رواية الطبرى :

وخطب عمر الناس يوم الجمعة فقال :

« اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار ، أنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقيموا فيهم فيئهم ، وأن يعدلوا ، فإن أشكل عليهم شىء رفعوه إلىَّ » .

« يا أيها الناس : إنى والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىَّ ، فوالذى نفس عمر بيده لأُقصَّنَّه منه » .

فوثب عمرو بن العاص فقال :

يا أمير المؤمنين : أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيّة فأدَّبَ بعض رعيته إنك لتقصنه منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ، وكيف

(١) قدعه كمنعه : كفه . (٢) نفس طلعة : تكثر التطلع إلى الشىء . (٣) حميد العاقبة .

(٤) وخيم العاقبة .

لا أقصّه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقُصّ من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمِّروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِرُوهم ، ولا تنزلوهم الغِياض فتضيِّعوهم » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٢ وتاريخ الطبرى ٥ : ١٩)

٨٦ — خطبته عام الرمادة

وخطب عام الرّمادة[1] بالعباس رحمه الله :

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنا نتقرّب إليك بعمِّ نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله ، فإنك تقول : (وَقَوْلُكَ الْحَقُّ) « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك فى عمه ، اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً ، اللهم أنت الراعى لا تُهمِل الضالّة ، ولا تدع الكَسِيرَة بمَضْيَعَة ، اللهم قد ضَرَعَ الصَّغِيرُ وَرَقّ الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السِّرَّ وأخفى ، اللهم أغِثْهُمْ بغِيَاثِكَ ، قبل أن يَقْنَطُوا فَيَهْلِكُوا ، فإنه لا ييأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القوم الكافرون » .

فما برحوا حتى عَلَّقُوا الحِذاء ، وَقَلَّصُوا المآزر ، وطفق الناس بالعباس يقولون : « هنيئاً لك يا ساقى الحرمين » .

(العقد الفريد : ١٣٢)

(١) فى السنة الثامنة عشرة أصابت الناس مجاعة شديدة بالمدينة وما حولها فكانت تسفى إذا ريحت ترابا كالرماد ؛ فسمى ذلك العام عام الرمادة (الطبرى ٤ : ٢٢٣) .

٨٧ — خطبته وقد بلغه أن قوما يفضلونه على أبى بكر

وبلغه أن قوما يفضلونه على أبى بكر الصديق ، فوثب مُغْضَبًا حتى صَعِدَ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أيها الناس : إنى سأخبركم عنى وعن أبى بكر ، إنه لما توفِّى رَسُول اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلم ارتدت العرب ، ومنعَتْ شاتَها وبعيرها ، فأجمع رأيُنا كلُّنا أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم أنْ قلنا له ياخليفة رسول الله : إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يُمِدُّه الله بهم ، وقد انقطع ذلك اليوم ، فالزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب ، فقال أبو بكر : أوكلكم رأيه على هذا ؟ فقلنا نعم ، فقال : والله لأَنْ أَخِرَّ من السماء فتخطَفَنى الطير ، أحب إلىَّ من أن يكون رأيِى هذا ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وكبَّرَه ، وصلى عَلَى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عَلَى الناس فقال :

« أيها الناس : من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . أيها الناس : أأن كثر أعداؤكم ، وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله لَيُظْهِرَنَّ الله هذا الدين عَلَى الأديان كلها ، ولو كَرِه المشركون ، قولُهُ الحق ، ووعده الصدق ، بل نَقْذِفُ بالحقِّ عَلَى الباطل فَيَدْمَغُه فإذا هو زاهق . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . والله أيها الناس : لو منَعُونى عِقالاً[1] لجاهدتهم عليه ، واستعنت عليهم الله وهو خير معين » ثم نزل .

(تهذيب الكامل ١ : ٨)

---

(١) العقال : زكاة عام من الإبل والغنم ، أو المراد به الحبل مبالغة فى التشدد .

خطب الفتوح فى عهد عمر

فى فتح فارس

كان المُثَنَّى بن حارثة الشَّيْبَانِى أمير جيش العراق قدم على أبى بكر بالمدينة يستمده فألفاه مريضاً ، ووصى أبو بكر عمر بالمبادرة إلى إرسال الجيوش معه ، فكان أول ما عمل به عمر ، أن نَدَبَ الناس مع المثنى إلى أهل فارس ، قبل صلاة الفجر ، من الليلة التى مات فيها أبو بكر ـ وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم ، وشوكتهم ، وعزهم ، وقهرهم الأمم ـ وجعل يندبهم ثلاثة أيام فلا ينتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفى ـ والد المختار ـ وتتابع الناس ، وتكلم المثنى بن حارثة فقال :

٨٨ ـ خطبة المثنى بن حارثة الشيبانى

« أيها الناس : لا يَعْظُمَنَّ عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تَبَحْبَحْنَا[1] رِيف فارس ، وغلبناهم على خير شِقَّي السَّوَاد ، وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأنا من قِبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

٨٩ ـ خطبة عمر رضى الله عنه

وقام عمر فى الناس فقال :

« إن الحجاز ليس لكم بدار إلاَّ على النُّجْعَة[2] ، ولا يَقْوَى عليه أهله إلاَّ بذلك ،

---

(١) تبحبح : تمكن فى المقام والحلول كبحبح ، والدار توسطها . (٢) طلب الكلأ فى موضعه .

أين الطُّرّاء[1] المهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » والله مُظهر دينه ، ومُعِز ناصره ، ومُولِى أهلِهِ مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون ... » ؟

فلما اجتمع له البعث أمَّرَ عليهم أولهم انتداباً[2] وهو أبو عبيد وقال له :

« اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلاَّ الرجل المَكِيث[3] الذى يعرف الفرصة والكَفَّ » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٦٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢١١)

٩٠ — وصية عمر لأبى عبيد بن مسعود

وتقدم عمر إلى أبى عبيد بن مسعود فقال :

« إنك تقدم على أرض المكر والخديعة ، والخيانة والجَبْرِية ، تقدم على قوم قد جرُءوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزُن لسانك ، ولا تفشِيَنّ سرك ، فإن صاحب السر — ماضبطه — متحصن لايؤتَى من وجه يكرهه ، وإذا ضيّعه كان بمَضْيَعَة » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٦٦)

٩١ — خطبة له وقد شيع جيش سعد بن أبى وقاص

وشيع جيش سعد بن أبى وقاص ، حين وجهه لحرب العراق ، فقام فى الناس خطيباً فقال :

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصَرَّف لكم الأقوال ، لِيُحْيِي بها

---

(١) جمع طارئ ، من طرأ عليهم كمنع أتاهم من مكان أو خرج عليهم منه فجأة .

(٢) ندب القوم إلى الأمر : دعاهم وحثهم ، وانتدبوا إليه أسرعوا . (٣) الرزين .

القلوب ، فإنَّ القلوب ميتة فى صدورها حتى يُحيها الله ، من علم شيئا فلينتفع به ، وإنَّ للعدل أماراتٍ وتباشيرَ ، فأما الأمارات: فالحياء ، والسخاء ، والهين، واللين. وأما التباشير: فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر بابًا ، وَيَسَّرَ لكل باب مفتاحًا . فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تُصَانع فى ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيه من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف ، لم يُغْنه شىء ، إنى بينكم و بين الله، وليس بينى و بينه أحد ، و إن الله قد ألزمنى دفع الدعاء عنه ، فأَنْهُوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع ، فإلى من يُبَلِّغُنَاهَا ، نأخذ له الحق غير مُتَعْتَع » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٥)

٩٢ — وصيته لسعد بن أبى وقاص

وصى سعد بن أبى وقاص حين أمَّرَه على حرب العراق فقال :

« يَا سَعْدُ سَعْدَ بنى وُهَيب ، لاَ يَغُرَّنَّكَ من الله أَنْ قيل خالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَصَاحِبُ رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السَّيِّئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه و بين أحد نسب إلا طاعتهُ، فالناس شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليهِ وَسلم منذ بُعِثَ إلى أن فارقنا فَالْزَمْهُ ، فإنه الأمر ، هذه عظتى إياك إن تركتها ورغبت عنها حَبِطَ عملك ، وكنت من الخاسرين » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٤ ؛ والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٠)

٩٣ — وصيته لسعد بن أبى وقاص أيضا

ولما أراد أن يسرِّحه دعاه فقال :

« إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه ،

لا يخلّصُ منهُ إلا الحقُّ ، فعوّدْ نفسك ومن معك الخيرَ وَاسْتَفتِحْ به ، واعلم أن لكل عادة عتادًا[1] ، فعتاد الخير الصبرُ ، فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك أو نابك ، يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين : فى طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببُغْضِ الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بِحُبِّ الدنيا وَبُغْضِ الآخِرَةِ ، وللقلوب حقائقُ يُنْشِئُها الله إنشاء ، منها السر ، ومنها العلانية . فأما العلانية فأن يكون حامدُه وَذَامُّه فى الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا تزهد فى التحبب ، فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدًا حَبَّبَهُ ، وإذا أبغض عبدًا بغَّضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٨٥)

٩٤ — وصية أخرى كتبها إلى سعد بن أبى وقاص

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما ومن معه من الأجناد .

« أما بعد : فإنى آمُرُكَ ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كلِّ حال ، فإن تقوى الله أفضَلُ العُدَّة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم ، وإنما يُنْصَرُ المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عُدَّتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلاّ نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نَغْلِبْهُم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ،

---

(١) العتاد : العدة .

ولا تقولوا إنَّ عَدُوَّنا شرٌّ منا ، فلن يُسَلَّطَ علينا ، فَرُبَّ قَوْمٍ سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهم كما سُلِّطَ عَلَى بنى إسرائيل (لما عملوا بمَسَاخِطِ الله) كُفَّارُ المجوس ، فجاسوا خِلَالَ الديار وكان وعدًا مفعولا ، واسألوا الله العَوْنَ على أنفسكم ، كما تسألونه النصرَ عَلَى عدوكم . أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم . وتَرَفَّقْ بالمسلمين فى مسيرهم ، ولا تُجَشِّمهم مَسيرا يُتعبهم ، ولا تُقَصِّرْ بهم عن مَنْزِل يَرْفُقُ بهم ، حتى يبلغوا عدوهم (وَالسَّفَرُ لم يَنْقُصْ قُوَّتَهُمْ) فإنهم سائرون إلى عدوّ مُقيم ، حامِى الأنفسِ وَالْكُرَاعِ[1] ، وأقم بمن معك فى كلِّ جمعة يوما وليلة ، حتى تكون لهم رَاحَةٌ يُحْيُونَ فيها أنفسَهم ، ويَرُمُّون[2] أسلحتهم وأمتعتهم ، ونَحِّ منازلهم عن قُرَى أهل الصلح والذِّمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يَرْزَأُ[3] أحدا من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتُلوا بالصبر عليها ، فما صَبَرُوا لكم فتولوهم خيرًا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وَطِئْتَ أرض العدوِّ فَأَذْكِ[4] العيون بينك وبينهم ، ولا يَخْفَ عليك أمْرُهم ، وليكن عندك من العرب ، أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لاينفعك خبرُه ، وإن صَدَقَك فى بعضه ، والغاش عَيْن عليك ، وليس عيناً لك ، وليكن منك عند دنوِّك من أرض العدوِّ أن تُكثر الطلائعَ ، وتَبُثَّ السَّرَايا[5] بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادَهم وَمَرَافِقَهُمْ ، وَتَتَبَّع الطلائع عوراتِهم ، وتَنَقَّ[6] الطلائع أهْلَ الرَّأى والبأس من أصحابك ، وتخيَّر لهم سوابِقَ الخيل ، فإن لَقُوا عَدُوًّا كان أول ماتلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السَّرايا إلى أهل الجهاد ، والصَّبْرِ عَلَى الجِلَاد ، ولا تَخُصَّ بها أحدًا بهَوًى ، فتضيع من رأيك وأمرك ، أكثر مما حابيت به أهل

---

(١) الكراع من كل شيء: طرفه واسم يجمع الخيل .

(٢) رمه يرمه : أصلحه . (٣) رزأه ماله : أصاب منه شيئا . (٤) أذكى عليه العيون : إذا أرسل عليه الطلائع . (٥) جمع سرية ، وهى من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة .

(٦) تنقاه وانتقاه : اختاره .

خاصتك ، ولا تبعثن طليعة ، ولا سَرِيَّة ، فى وَجهٍ تتخوّف فيه غَلَبَةً أو ضَيْعَةً وَنِكَايَة ، فإذا عاينت العدوّ ، فاضمم إليك أقاصِيَك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوّتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزةَ ، مالم يَسْتَكرِهْك قتال ، حتى تُبْصِرَ عَوْرَةَ عدوّك ومَقَاتِله ، وتعرف الأرض كلّها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوّك ، كصنعه بك ، ثم أَذْكِ أحراسك على عسكرك ، وَتَيَقَّظ من البَيات جُهْدَكَ ، وَلا تُؤْتَى بأسير ليس له عَقْدٌ[1] إلاّ ضربت عنقه ، لِتُرْهِبَ به عدوّ الله وعدوّك ، والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوّكم ، والله المستعان » . (العقد الفريد ١ : ٤٠)

٩٥ — وصيته للمجاهدين

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عند عقد الألوية :

« بسم الله و بالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولزوم الحقّ والصبر ، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المُعْتَدِينَ ، ولا تَجْبُنُوا عند اللِّقَاء ، وَلاَ تُمَثِّلُوا عند القدرة ، وَلاَ تُسْرِفوا عند الظُّهُور[2] ولا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأة ولا وليدًا ، وتوقَّوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شَنِّ[3] الغارات » . (العقد الفريد ١ : ٤٠)

---

(١) عهد .

(٢) الغلبة .

(٣) شن الغارة عليهم : صبها من كل وجه .

٩٦ — وصية عمر ليعلى بن أمية
فى إجلاء أهل نجران

روى الطبرى قال :

كان أول بعث بعثه عمر بعث أبى عبيد ، ثم بعث يَعْلَى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه بذلك ، ولوصية أبى بكر رحمه الله بذلك فى مرضه ، وقال :

« ائتهم ولا تَفْتِنْهم عن دينهم ، ثم أجلهم مَن أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم ، وامسح أرض كل مَن تجْلِى منهم ، ثم خيِّرهم البُلدان ، وأعلمهم أنا نُجْليهم بأمر الله ورسوله ألّا يُترك بجزيرة العرب دِينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضا كأرضهم إقرارا لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بذمّتهم ، فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم و بين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٦٢)

٩٧ — خطبة لعمر

ولما انتهى إلى عمر قتل أبى عبيد بن مسعود نادى فى المهاجرين والأنصار وخرج حتى أتى صِرارا فعسكر به ، واستشار الناس فكلهم أشار عليه بالسير إلى فارس واستشار ذوى الرأى فأشاروا عليه أن يقيم و يبعث رجلا فقام فى الناس فقال :

« إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألَّفَ بين القلوب، وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لايخلو منه شىء من شىء أصاب غيره . وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا (وأمرهم شورى بينهم) بين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام

بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ، ومن قام بهـذا الأمر تبع لأولى رأيهم ماراأوا لهـم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيـه تبعا لهم .

يأيها الناس إنى إنما كنت كرجل منـكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمتُ ومن خلّفتُ » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٣)

٩٨ – خطبة جرير بن عبد الله البجلى

وقال المثنى بن حارثة وهو على قتال فارس : من يتبع الناس إلى السِّيب ؟ فقام جرير بن عبد الله البَجَلى فى قومه فقال :

« يا معشر بَجيلة : إنـكم وجميع من شهد هذا اليوم فى السابقة والفضيلة والبلاء سواء ، وليس لأحد منهم فى هذا الخمس غدا من النَّفَل مثل الذى لـكم منه ، ولـكم ربع خمسه نفلا من أمير المؤمنين ، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ، ولا أشد عليه منكم للذى لـكم منه ، ونيةً إلى ماترجون ، فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين : الشهادة والجنة أو الغنيمة والجنة » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٧٦)

٩٩ – خطبة سعد بن أبى وقاص يوم أرماث

وخطب سـعد بن أبى وقاص يوم أرماث[1] (سنة ١٤ هـ) فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن الله هو الحق لا شريك له فى الملك وليس لقوله خُلف » قال الله جل ثناؤه :

---

(١) هو اليوم الأول من أيام القادسية .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)، إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبُونهم وتسبُونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة وعز مَن وراءكم ، فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرِّب ذلك أحدا إلى أجله ، وإن تَفْشَلوا وتَهِنوا وتضعُفوا تذهب رِيحكم وتُوبِقوا آخرتكم ». (تاريخ الطبرى ٤ : ١١٤)

١٠٠ — خطبة عاصم بن عمرو

وقام عاصم بن عمرو فقال :

« إن هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها، وأنتم تنالون منها منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلَوْن والله معكم ، إن صبرتم وصدَقتموهم الضربَ والطعنَ فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم ، وإن خُرتم وفشِلتم — والله لكم من ذلك جارٌ وحافظ — لم يُبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بعائدةِ هلاكٍ ، اللهَ اللهَ ، اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها، أوَلا ترون أن الأرض وراءكم بسابس[1] قفار ليس فيها خَمَر[2] ولا وَزَر يُعقَل إليه ويمتنع به ؟ اجعلوا همكم الآخرة » . (تاريخ الطبرى ٤ : ١١٤)

١٠١ — خطبة طليحة بن خويلد الأسدى

وحمل أصحاب الفيلة من جيش الفرس على المسلمين ، وكادت بَجيلة أن تؤكل ، فرت عنها خيلها نِفارا ، فأرسل سعد إلى بنى أسد : ذبِّبُوا[3] عن بجيلة ، وقام طليحة بن خويلد الأسدى فى قومه حين استصرخهم سعد فقال :

---

(١) البسبس : القفر . (٢) الخمر : ما واراك من شجر وغيره . (٣) دافعوا عنها .

« يا عشيرتاه : إن المنوَّه باسمه الموثوقُ به ، وإنّ هذا لو علم أن أحدا أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدئوهم الشّدّةَ ، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحَرِبة[1] فإنما سُميتم أسدا لتفعلوا فعله ، شدُّوا ولا تصدوا وكُروا ولا تفِروا ، لله درُّ ربيعة ! أىَّ فرْى يَفرون ، وأى قِرن يُغنون ! هل يوصل إلى مواقفهم ؟ فأغنُوا عن مواقفكم أعانكم الله ، شدُّوا عليهم باسم الله » . (تاريخ الطبرى ٤ : ١١٨)

١٠٢ — الخنساء تحرض أولادها على القتال

حضرت الخنساء حربَ القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فقالت لهم :

« يا بَنِيّ ، أنتم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فَضَحت خالكم ، ولا هَجّنت[2] حَسَبكم ، ولا غَبّرت[3] نسبكم ، وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عزَّ وجلَّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فإذا أصبحتم غداً ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنصرين » .

فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ، فتقدَّموا واحداً بعد واحد ، يُنْشِدُون الأراجيز ، فقاتلوا حتى استُشْهِدُوا جميعاً ، فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ رحمته » . فكان عمر رضى الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائة درهم ، حتى قُبض وماتت الخنساء . (خزانة الأدب : ١ ، ٣٩٥)

---

(١) حرب : كليب واشتد غضبه فهو حرب . (٢) التهجين : التقبيح .

(٣) غبره : لطخه بالغبار ، أى دنست .

١٠٣ — خطبة عتبة بن غزوان

وفى سنة ١٤ هـ وجه عمر بن الخطاب عُتْبة بن غَزْوان إلى البصرة وأمره بنزولها بمن معه وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم ، فرفعوا له منبرا وقام يخطب فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الدنيا قد تولت حَذَّاء[1] مُدْبِرَةً ، وقد آذنت أهلها بِصَرْم[2] ، وإنما بقى منها صُبابةٌ[3] كصُبَابَة الإناء يَصْطَبُّهَا صَاحِبُهَا ، ألا وإنكم مفارقوها لامَحَالَةَ ، ففارقوها بأحسَنِ ما يحضركم ، ألا وإن من العجب أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحجر الضخم يُلْقَى فى النار من شفيرها[4] ، فيَهْوِى فيها سبعين خريفاً[5] ، ولجهنم سبعة أبواب ما بين البابين منها مَسِيرةُ خمسمائةِ سَنَةٍ ، ولتأتينَّ عليها ساعةٌ وهى كَظِيظ[6] بالزحام ، ولقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابعَ سابعة ، مالنا طَعَامٌ إلا وَرقُ البَشَام[7] ، حتى قَرِحَتْ أشداقنا ، فوجدت أنا وسعد بن مالك تمرة ، فشققتها بينى وبينهُ نصفين ، والتقطت بُرْدَةً فشققتها بينى وبينهُ ، فأتَزَرْت بنصفها ، وأتَزَرَ بنصفها ، وما منا أحد اليوم إلا وهو أمير على مصر من الأمصار ، وإنه لم يكن نبوّة قط إلا تناسختها[8] جَبْرِيةٌ ، وأنا أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيماً ، وفى أعين الناس صغيرًا ، وستجربون الأمراء من بعدى ، فتعرفون وتنكرون » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٤٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٨٨)

---

(١) السريعة الماضية التى لايتعلق بها شىء . (٢) آذنت : أعلمت ، والصرم : القطع .

(٣) الصبابة : بقية الماء فى الإناء . (٤) الشفير : حرف كل شىء .

(٥) سنة : والمراد أنها بعيدة الأقطار شاسعة الأرجاء . (٦) من كظه الطعام : ملأه حتى لايطيق النفس ، ورجل كظ وكظيظ ومكظوظ تبهظه الأمور حتى يعجز عنها . (٧) البشام : شجر عطر الرائحة يستاك به .

(٨) فى الحديث « لم تكن نبوة إلا تناسخت » أى تحولت من حال إلى حال ، يعنى أمر الأمة وتغاير أحوالها ، والجبرية الجبروت .

١٠٤ — خطبة لسعد بن أبى وقاص

ولما نزل سعد بَهُرَسِير — وهى المدينة الدنيا — طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدينة القصوى (على نهر دِجلة) فلم يقدر على شىء ووجدهم قد ضموا السفن ، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلُصُون إليه معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا ، فيناوشونكم فى سفنهم، وليس وراءكم شىء تخافون أن تُؤْتَوْا منه ، فقد كفاكموه أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنَوا ذادتهم . وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » .

فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

واقتحم دجلة وفتح المدينة القصوى (سنة ١٦ هـ) . (تاريخ الطبرى ٤ : ١٧٠)

١٠٥ — خطبة عمر

ولما تجمعت جموع الفرس بنَهاوند كتب سعد إلى عمر يخبره بذلك فاجتمع الناس وقام عمر على المنبر خطيبا فأخبرهم الخبر واستشارهم وقال :

« هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإنى قد هممت بأمر وإنى عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبرونى وأوجزوا ، ولا تنازَعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشَغَ[1] بكم الأمور ، ويلتوى عليكم الرأى ، أفمن الرأى أن أسير فيمن قِبلى ومن قدَرت عليه ، حتى أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين فأستنفرهم ثم أكون

---

(١) فشغه كنعه : علاه حتى غطاه .

لهم رِدءا حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحبّ ، فإن فتح الله عليهم أن أضرّيهم عليهم فى بلادهم ليتنازعوا ملكهم » .

فقام عثمان بن عفان ورجال من أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليهِ وسلم فتكلموا كلاما فقالوا :

« لا نرى ذلك ، ولكن لا يغيبن عنهم رأيك وأثرك ، وقالوا : بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ومن قد فضّ جموعهم ، وقتل ملوكهم ، و باشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، و إنما استأذنوك ولم يستصرخوك فأْذَن لهم واندُب إليهم وادعُ لهم » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٧)

١٠٦ — خطبة لعلى

وقام على بن أبى طالب فقال :

« أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأى ، وفهموا ما كُتب به إليك ، و إن هذا الأمر لم يكن نصرُه ولا خذلانه لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى أظهره ، وجنده الذى أعزه وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده ، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه و يمسكه ، فإن انحَلَّ تفرق ما فيه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا ، والعرب اليوم و إن كانوا قليلا فهى كثير عزيز بالإسلام ، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة ، فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، ومن لم يحفِل بمن هو أجمع وأحدُّ وأجدُّ من هؤلاء ، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث ، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم » .

فسر عمر بحسن رأيهم وأعجبه ذلك منهم . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٧)

١٠٧ – خطبة طلحة بن عبيد الله

وقام طلحة بن عبيد الله وكان من خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشهد ثم قال :

« أما بعد يا أمير المؤمنين فقدأحكمتك الأمور، وعَجَمتك[1] البلايا، واحتنـكتك[2] التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا تنبو فى يديك ولا نَكِلّ عليك ، إليك هذا الأمرُ فمُرنا نُطع ، وادعُنا نجب ، واحملنا نركب ، ووفِّدنا نفِد ، وقُدنا نَنقَد ، فإنك ولىّ هذا الأمر ، وقد بلوتَ وجربتَ واختبرت ، فلم ينكشف شىء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خِيار » ثم جلس . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٨)

١٠٨ – خطبة عثمان بن عفان

فعاد عمر فقال : إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا ، فقام عثمان بن عفان فتشهد وقال :

« أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شأمهم ، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرَمين إلى المصرين : البصرة والكوفة ، فتلقى جميع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك . قلّ فى نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعزّ عزا وأكثر يا أمير المؤمنين ، إنك لا تستبقى من نفسك بعد العرب باقيةً ، ولا تمتّع من الدنيا بعزيز ، ولا تلوذ منها بحريز، ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه » ثم جلس . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٨)

---

(١) عجم العود : عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٢) أحكمتك .

١٠٩ — خطبة على بن أبى طالب

فعاد عمر فقال : إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا ، فقام علىّ بن أبى طالب فقال :

« أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم ، سارت الروم إلى ذراريّهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريّهم ، وإنك إن شخَصت من هذه الأرض ، انتقضت عليك الأرضُ من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العورات والعِيالات ، أقرِرْ هؤلاء فى أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق : فلتُقِم فرقة لهم فى حُرَمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة فى أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددا لهم .

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لكَلَبهم وألبَّهم[1] على نفسك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله أكرهُ لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر » .

فقال عمر : أجَلْ والله لئن شخَصتُ من هذه البلدة لتنتقضَنّ علىّ الأرض من أطرافها وأكنافها ، ولئن نظرت إلىّ الأعاجم لا يفارقُنّ العَرْصة[2] ، وليُمِدَّنّهم من لم يمدهم ، وليقولُن : هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب :

فأشيروا علىّ برجل أوَلِّه ذلك الثغر غدا ، قالوا أنت أفضل رأيا ، وأحسن مقدُرة ، قال : أشيروا علىّ به واجعلوه عراقيا ، قالوا يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق ،

---

(١) ألب إليه القوم : أتوه من كل جانب . (٢) الساحة .

وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم ، فقال : أما والله لأولينّ أمرهم رجلا ليكونن لأول الأسنّة إذا لقيها غدا ، فقيل من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : النعمان بن مُقَرِّن المزنى ، فقالوا : هو لها ، والنعمان يومئذ بالبصرة ، فولاه . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٨)

١١٠ — خطبة النعمان بن مقرّن

ونشِب القتال بين المسلمين والفرس ، وكان النعمان يسير فى الناس على بِرذَون أحوى[1] قريب من الأرض فيقف على كل راية ويحمد الله ويثنى عليه ويقول :

« قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هَوادِىَ[2] ماوعدكم وصدورَه ، وإنما بقيت أعجازُه وأكارعُه ، والله منجز وعده ، ومتبعٌ آخر ذلك أوله ، واذكروا مامضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة ، فأنتم اليوم عباد الله حقا وأولياؤه ؛ وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة ، والذى لهم فى ظفركم وعزكم ، والذى عليهم فى هزيمتكم وذلكم ، وقد ترون من أنتم بإزائه من عدوكم ، وما أخطرتم وما أخطروا لكم ، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرِّثّة[3] وما ترون من هذا السواد ، وأما ما أخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولاسواء ما أخطرتم وما أخطروا ، فلا يكوننّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم ، واتقى الله عبدٌ صدق اللهَ وأبلى نفسه فأحسن البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظرين : إحدى الحسنيين ، من بين شهيد حى مرزوق أو فتح قريب وظفر يسير ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يكل قِرنه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قرنُه وقرنُ نفسه ، وذلك من الملأمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه ، فإذا قضيت أمرى فاستعدوا ، فإنى مكبِّر ثلاثا ، فإذا كبرت التكبيرة

---

(١) وصف من الحوة وهى : حمرة إلى السواد . (٢) أوائل جمع هاد .

(٣) الرثة : ضعفاء الناس .

الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه وليتهيأ للنهوض ، فإذا كبرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله فاحملوا معا ، اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيدٍ اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك » .

وزلق فرسه فى دماء القوم فصرع فاستشهد . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٤٢)

خطب رجال من الفاتحين

بين يدى يزدجرد ملك الفرس وقواده

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على فتح العراق يأمره أن يبعث إلى يَزْدَجِرْدَ ملك الفرس رجالا من أهل المنظرة[1] والرأى والجلد يدعونه ، فاختارهم وأنفذهم إليه بالمدائن ، فلما دخلوا عليه أمر التَّرْجمانَ بينه وبينهم فقال : سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والوَلوع ببلادنا ، أمن أجل أنا أجممناكم[2] وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فقال لهم النعمان بن مُقَرِّن : إن شئتم أجبت عنكم ، ومن شاء آثرته ، فقالوا : بل تكلم ، فتكلم النعمان فقال :

١١١ — خطبة النعمان بن مقرن

« إن الله رَحِمَنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرِّفنا الشر ، وينهانا عنهُ ، ووعدنا على إجابتهِ خيرَ الدنيا والآخرة ، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلةً إلا صاروا فرقتين : فرقة تُقَارِبه ، وفرقة تُبَاعِدُهُ ، ولا يدخل معهُ فى دينه إلا الخواصُّ ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أُمر أن يَنبِذ إلى من خالفهُ من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معهُ جميعاً على وجهين : مُكرَه عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه ، من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يَلِينا من الأمم ، فَنَدْعُوَهُمْ إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حَسَّنَ

---

(١) المنظر . (٢) من أجم الماء إذا تركه يجتمع ، أى أرحناكم وانصرفنا عنكم .

الحَسَنَ ، وَقَبَّحَ القَبِيحَ كُلَّهُ ، فإن أبيتم فأمرٌ من الشر ، هو أهون من آخر شرٍّ منه ، الجِزاء[1] ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خَلَّفْنَا فيكم كتاب الله ، وأقمنا كم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجِزاء قبِلنا ومنعنا كم ، وإلاّ قاتلنا كم » .

* * *

فقال يزدجرد : إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذاتَ بَيْن منكم ، قد نوكِّل بكم قُرى الضواحى فيكفوننا كم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان غرور لحقكم ، فلا يغرَّنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم ، فرضنا لكم قوتاً إلى خِصْبِكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسونا كم ، وملكنا عليكم ملكا يرفُق بكم ، فقام المغيرة بن زرارة فقال :

١١٢ - خطبة المغيرة بن زرارة

أيها الملك : إن هؤلاء رءوسُ العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشرافَ الأشرافُ . ويعظّم حقوق الأشراف الأشرافُ ، ويفخم الأشراف الأشراف ، وليس كل ما أُرْسِلُوا به جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمتَ به أجابوك عليهِ ، وقد أحسنوا ولا يَحْسُنُ بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبنى لأكون الذى أبلّغك ، ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس ، والجِعلان[2] والعقاربَ والحيَّاتِ فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا

(١) الجزاء : جمع جزية . (٢) جمع جعل بضم ففتح : وهو الحرباء.

بعضاً ، وَيُغِيرَ بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليَدْفن ابنتهُ وهى حيةٌ كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفاً نَعْرِف نسبه ، ونعرف وجههُ ومولده ، فأرضُهُ خير أرضنا ، وحَسَبُهُ خير أحسابنا ، وبيتهُ أعظم بيوتنا ، وقبيلتهُ خير قبيلتنا ، وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها ، أصدقَنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر ، فلم يجب أحدٌ أوّلَ من تِرْبٍ كان له ، وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدّق وكذبنا ، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله فى قلوبنا التصديقَ له واتباعَهُ ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إنى أنا الله وحدى لا شريك لى ، كنتُ إذ لم يكن شىء ، وكل شىء هالك إلا وجهى ، وأنا خلقت كل شىء ، وإلىّ يصير كل شىء ، وإن رحمتى أدركتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل ، لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى ، ولأُحِلّكم دارى دارَ السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا ، فله ما لكم وعليهِ ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليهِ الجِزْيَةَ ثم امنعوه مما تمنعون منهُ أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحَكَم بينكم ، فمن قُتِلَ منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبتهُ النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية عن يَدٍ وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك » .

فقال يزدجرد : أتستقبلنى بمثل هذا ؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شىء لكم عندى ، ثم قال : ائتونى بوِقْر[1] من تراب ، فقال احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من بابْ المدائن .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٩٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٣)

---

(١) الوقر : الحمل الثقيل أو أعم .

١١٣ — مقال ربعى بن عامر عند رستم قائد جيش الفرس

وأرسل رستم قائد جيش الفرس ، إلى سعد بن أبى وقاص ، أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا ، فبعث إليه ربعىّ بن عامر ، فلما انتهى إليه قال له التَّرْجُمان (واسمه عبود من أهل الحيرة) ما جاء بكم ؟ قال :

« الله ابتعثنا ، والله جاء بنا ، لنُخرج من شاَءَ من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، ومِنْ ضِيقِ الدنيا إلى سَعَتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضَه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبدا ، حتى نُفْضِى إلى موعود الله ، قال وماموعود الله ؟ قال:الجنةُ لمن مات على قتال من أبَى ، والظفر لمن بقى » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٠٦ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٧)

١١٤ — خطبة المغيرة بن شعبة فى حضرة رستم

وبعث إليه أيضاً المغيرة بن شعبة ، فتكلم بحضرته ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إنَّ الله خالق كل شىء ورازقه ، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذى له ، وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء ، والتمكن فى البلاد ، وَعِظَم السلطان فى الدنيا ، فنحن نعرفه ، ولسنا ننكره ، فالله صنعه بكم ، ووضعه فيكم وهو له دونكم ، وأما الذى ذكرت فينا من سوءِ الحال ، وضيق المعيشة ، واختلاف القلوب ، فنحن نعرفه ، ولسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك ، وصيرنا إليهِ ، والدنيا دُوَل ، ولم يزل أهل شدائِدها يتوقعون الرخاء ، حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائِد ، حتى تنزل بهم ، ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شكر ، كان

شكركم يقصُرُ عما أوتيتم ، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر ، كان عظيم ما تتابع علينا ، مستجلِباً من الله رحمة يُرَفِّه بها عنَّا ، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه ، أو كنتم تعرفوننا به ، إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولاً ، ثم ذكر مثل الكلام الأول » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ١٠٩ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٨)

١١٥ — خطبة المغيرة بن شعبة

لما اجتمعت جيوش المسلمين بِنَهَاوَند (سنة ٢١ هـ) وأميرهم النعمان بن مقرِّن المزنى أرسل بُنْدارُ العِلج إليهم أن أرسلوا إلينا رجلا نكلمه ، فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة ، فأدخل إليه وترجم له قوله :

« إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير ، وأطول الناس جوعا ، وأشقى الناس شقاء ، وأقذر الناس قذرا ، وأبعده دارا ، وما منعنى أن آمر هؤلاء الأساورة[1] حولى أن ينتظموكم بالنُّشَّابِ إلا تنجُّسا لجيفكم ، فإنكم أرجاس ، فإن تذهبوا نُخلِّ عنكم ، وإن تأبوا نُرِكم مصارعكم » .

قال : فحمدت الله وأثنيت عليه فقلت : « والله ما أخطأت من صفتنا شيئا ولا من نعتنا . إن كنا لأبعد الناس داراً ، وأشد الناس جوعا ، وأشقى الناس شقاء ، وأبعد الناس من كل خير ، حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فوعدنا النصرَ فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، فو الله ما زلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله بالفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبدا حتى نغلبكم على ما فى أيديكم ، أو نقتل بأرضكم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٣٤)

---

(١) الأساورة : جمع أسوار ، والأسوار : بالضم والكسر قائد الفرس .

١١٦ – خطبة عمر

وغزا الأحنف بن قيس خراسان وحارب يزدجرد سنة ٢٢ هـ ثم أقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاقدوه ودفعوا إليه خزائن يزدجرد وتراجعوا إلى بلدانهم ، و بعث الأحنف بالخبر والغنائم إلى عمر بن الخطاب فجمع الناس وخطبهم فقال فى خطبته :

« إن الله تبارك وتعالى ذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وما بعثه به من الهدى ، ووعد على اتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة فقال : (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) فالحمد لله الذى أنجزَ وعده ، ونصر جنده ، ألا إن الله قد أهلك مُلك المجوسية وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون .

ألا وإنّ المصرَيْنِ من مسالحها[1] اليوم كأنتم والمِصْرَيْنِ فيما مضى من البعد ، وقد وَغلوا فى البلاد ، والله بالغ أمره ومنجز وعده ، ومُتبِع آخر ذلك أوله ، فقوموا فى أمره على رجل يوفِّ لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تُبَدِّلوا ولا تُغَيِّروا فيستبدل الله بكم غيرَكم، فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتَى إلا من قبلكم » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦٧)

١١٧ – خطبة عثمان بن أبى العاص

ولما فتح عثمان بن أبى العاص إِصْطَخْرَ (سنة ٢٣ هـ) وجمع إليه ما أفاء الله على المسلمين خمّسه ، و بعثَ بالخمس إلى عُمرَ ، وقسّمَ أربعة أخماس المغْنمِ فى الناس ،

---

(١) المسالح : جمع مسلحة ، وهى الثغر .

وعفّت الجند عن النِّهاب ، وأدّوا الأمانة ، واستدقوا[1] الدنيا ، فجمعهم عثمان ثم قام فيهم وقال :

« إن هذا الأمر لايزال مقبلا ، ولا يزال أهله معافَيْنَ مما يكرهون مالم يَغلُوا ، فإذا غَلَوْا رأوا ما يُنكرون : ولم يسدّ الكثير مسدّ القليل اليوم » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٣)

(١) رأوها دقيقة حقيرة .

فى فتح الشام

١١٨ - بين الروم ومعاذ بن جبل

وبعث الرّوم إلى أبى عبيدة أن « أرسِل إلينا رجلا من صلحائكم نسأله عما تريدون، وما تسألون، وما تدْعونَ إليه، ونخبره بذات أنفسنا، وندعوكم إلى حظكم إن قبلتم»، فأرسل إليهم أبو عُبيدة معاذ بن جبل، فأتاهم، فقالوا للترجمان قل له:

« أخبرونا ما تطلبون؟ وإلامَ تدعون إليه؟ وما أدخلكمُ بلادنا؟ وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد، وتركتم أرْض فارس وقد هلك مَلِكُ فارس وهلك ابنه، وإنما تملكهم اليوم النساء ونحن مَلِكنا حىّ، وجنودنا عظيمة كثيرة، وإن افتتحتم من مدائننا مدينة، أو من قرانا قرية، أو من حُصوننا حِصنا، أو هزمتم لنا عسكرا، أظننتم أنكم قد ظفرتم بجماعتنا؟ وأنكم قد قطعتم حرْبنا عنكم؟ أو فرغتم ممن وراءنا منا، ونحنُ عدد نجوم السماء وحصى الأرض! وأخبرونا لِمَ تستحلون قتالنا، وأنتم تؤمنونَ بنبيِّنا وكتابنا؟ ».

فلما قالوا هذا القول وفسَّره الترجمان لمعاذ سكتوا، فقال معاذ للترجمان: قد فرغوا؟ قال له: نعم، قال: فأفهمهم عنِّى أن أول ما أنا ذاكر حمد اللهِ الذى لا إله إلا هو، والصلاة على محمد نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وأنَّ أوَّل ما أدعوكم إلى الله أنْ تؤمنوا باللهِ وحده، وبمحمَّد صلى الله عليه وسلم، وأن تصلُّوا صلاتنا وتستقبلوا قبلتنا، وأن تستنُّوا بسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وتكسِّروا الصَّليب، وتجتنبوا شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، ثم أنتم منا ونحن منكم، وأنتم إخواننا فى ديننا، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن

أبيتم فأدُّوا الجزية إلينا فى كل عام وأنتم صاغرون ، ونـكفّ عنـكم ، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين فليس شىء مما خلق اللهُ عزَّ وجلّ نحن قابلوه منـكم ، فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، فهذا ما نأمركم به وما ندعوكم إليه .

وأما قولـكم : « ما أدخلـكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أهل فارس ، وقد هلك ملـكهم » فإنى أخبركم عن ذلك : ما بدأنا قتالـكم لأنـكم أقرب إلينا منهم ، وإنـكم عندنا جميعاً بالسواء ، وما جاءنا كتابنا بالـكف عنهم ، ولـكنّ الله عزَّ وجل أنزل فى كتابه على نبينا صلى اللهُ عليه وسلم فقال : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَـكُمْ مِنَ الْـكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) وكنتم أقرب إلينا منهم ، فبدأنا بكم لذلك ، وقد أتاهم طائفة منا وهم يقاتلونهم ، وأرجو أنْ يظفرهم الله ويفتح عليهم فينصر .

وأما قولـكم : « إنَّ ملـكنا حىّ ، وإنَّ جنودنا عظيمة ، وإنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض » وتُوئسونا من الظهور عليكم فإنّ الأمر فى ذلك ليس إليكم ، وإنما الأمور كلها إلى الله ، وكل شىء فى قبضته وقدرته ، وإذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وإن يـكن ملـكـكم هرقل فإنَّ ملـكنا اللهُ عزَّ وجلَّ الذى خلقنا ، وأميرنا رجل منا ، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنّة نبينا صلى الله عليه وسلم أقررناه علينا ، وإنْ عمل بغير ذلك عزلناه عنَّا ، وإنْ هو سرق قطعنا يده ، وإن زنى جلدناه ، وإن شتم رجلا منَّا شتمه كما شتمه ، وإنْ جرحهُ أقاده[1] منْ نفسه ، ولا يحتجب منا . ولا يتـكبر علينا ، ولا يستأثر علينا فى فيئنا الذى أفاءه الله علينا وهو كرجل منا .

وأما قولـكم : « جنودنا كثيرة » فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تـكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض ، فإنا لا نثق بها ولا نتـكل عليها ، ولا نرجو النصر على

---

(١) أقصه .

عدونا بها ، ولـكنا نتبرأ من الحَول والقوّة ، ونتوكل على الله عزّ وجلّ ، ونثق بربنا ، فـكم مِن فئة قليلة قد أعزّها الله ونصرها وأغناها ، وغلبت فِئة كثيرة بإذن الله ، وكم من فئةٍ كثيرة قد أذلّها الله وأهانها ، قال تبارك وتعالى : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وأما قولـكم « كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتَابنا » فأنا أخبركم عن ذلك : نحن نؤمن بنبيّـكم ونشهد أنه عبدٌ من عبيد الله ، وأنه رسول مِن رسل الله ، وأنّ مَثَلَهُ عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثم قال له كُن فيـكون ، ولا نقول إنه الله ، ولا نقولُ إنه ثانى اثنين ، ولا ثالثُ ثلاثة ، ولا إنَّ لله والِدًا ولا إنَّ له صاحِبة ولا وَلَدًا ، ولا إنَّ معه آلهة أخرى ، لا إله إلاّ هو ، تعالى عمّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا ، وأنتم تقـولون فى عيسى قولاً عظيما ، فلو أنـكم قلتم فى عيسى كما نقول ، وآمنتمْ بنُبوّة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم كما تجِدُونه فى كتَابكمُ ، وكما نؤمن نحنُ بنبيِّـكم ، وأقررتم بما جاء به من عند الله ، ووحّدتم الله ، ما قاتلناكم ، بل كنا نسالمـكم ونوالِيـكم ونقاتل معكم عدوّكم » .

فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له : ما نرى بيننا وبينك إلاّ متباعدا ، وقد بقيَتْ خَصلة نحن نعرِضها عليكم ، فإن قبلتُمُوها منّا فهو خير لـكم ، وإن أبيتم فهو شرّ لـكم . نعطيكم البَلقاء وما والى أرضكم من سواد الاردُنّ ، وتنحوا عن بقيَّة أرضنا وعن مدائننا ، ونـكتب عليكم كتابا نسمى فيه خياركم وصلحاءكم ، ونأخذ عهودكم ومواثيقـكم على ألاّ تطلبوا من أرْضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ، ونحنُ معكم نعينكم عليهم حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم .

فقال معاذ : هذا الذى عرضتم علينا وتعطوناه كلُّه فى أيدينا ولو أعطيتمونا جميع مافى أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصــلة منَ الخصال الثلاثة التى وصفت لـكم ما فعلنا » .

فغضبُوا عند ذلك وقالوا : نتقرّب إليك وتتباعد عنّا ؟ اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم فى الجبال غداً ، فقال معاذ : أما الجبال فلا ، ولـكن والله لتقتلنا عن آخرنا ، أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون » وانصرف معاذ .

١١٩ - بين أبى عبيدة ورسول الروم

وانصرف معاذ إلى أبى عبيدة فأخبرَه بما قالوا ، ثم أرسل الروم رسولا من قِبلهم إلى أبى عبيدة فقال له : أنا أعرض عليكم أمراً لـكم فيه حظ إن قَبِلتُموه : نحن نعطيكم دينارين دينارين وثوبا ثوبا ، ونعطيك أنت ألف دينار ، ونعطى الأمير الذى فوقك ـ يعنون عمر ـ ألفى دينار ، وتنصرفون عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا ، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتابا يَستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلظة ليقومَنّ به وليفيَنّ بما عاهد الله عليه .

فحمد الله أبو عبيدة وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« إنّ الله بعثَ فينا رَسولا نبيا ، وأنزل عليه كتابا حكيما ، وأمرَه أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم رحمة منه للعالمين ، وقال لهم : إن الله إلهٌ واحدٌ ، عزيزٌ حكيمٌ ، علِيٌّ مجيدٌ ، وهو خالق كلّ شىء وليس كمثلهِ شىء ، وأمرهم أن يُوَحِّدُوا الله الذى لا إله إلا هوَ ، ولا يتخذوا له صاحبة ولا ولدًا ، ولا يتخذوا معه آلهة أُخرى ، وأنّ كلّ شىء يَعبدُه الناس دونه فهوَ خلقهُ ، وأمرَنا صلى الله عليه وسلم فقال : إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وبالإقرار بما جاء من عند الله عزّ وجلّ ، فمَن آمن وصدّق فهو أخوكم فى دينـكم ، له ما لـكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدُّوها عن يَدٍ وهم صاغرُون ، فإن أبَوْا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية

فاقتلوهم وقاتلوهم فإن قتيلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله ، وهو فى جنات النعيم ، وقتيل عدوكم فى النار » .

فإن قبلتم ماسمعتم منى فهو خير لكم، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

فقال الرومىّ : قد أبيتم إلا هذا ؟ فقال له أبو عبيدة : نعم ، فقال له الرومى : أما والله على ذلك ، إنى لأراكم تتمنون أنكم قبلتم منا دون ما عرضنا عليكم .

(فتوح الشام ص ١٠٠)

١٢٠ — بين باهان وخالد بن الوليد

و بعث باهان أمير الروم إلى خالد بن الوليد أنِ القَنَى ، فأقبل إليه خالد ، فقال باهان : إن شئت فتكلم ، وإن شئتَ بدأتُك فتكلمتُ ، فقال له خالد : فتكلم ، فقال باهان :

« الحمد لله الذى جعل نبينا أفضل الأنبياء ، ومَلِكنا أفضل الملوك ، وأمتنا خير الأمم ، فلما بلغ هذا المكان ، قال خالد للتَّرجمان : وقطع على صاحب الروم منطقه ثم قال : « الحمد لله الذى جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم و بجميع الأنبياء ، وجعل الأمير الذى ولَّيناه أمورَنا رجلا كبعضنا ، فلو زعم أنه مَلِك علينا لعزلناه عنا ، ولسنا نرى أن له على رجل من المسلمين فضلا ، إلا أن يكون أتقَى منه عند الله وأبرّ ، والحمد لله الذى جعل أمتنا تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتُقِرُّ بالذنب وتستغفر الله منه ، وتعبد الله وحده لاتشركُ به شيئا » قل الآن مابدا لك .

فاصفرّ وجه باهان ومكث قليلا ، ثم قال : « الحمد لله الذى أبلانا فأحسن البلاء عندنا ، وأغنانا من الفقر ، ونصرنا على الأمم ، وأعزّنا فلا نَذلّ ، ومنعنا من الضّيْم ، فلا يُباح حَريمنا ، ولسنا فيما أعزّنا الله به وأعطانا من ديننا بطِرين ولا مَرِحين ولا

باغين على الناس ، وقد كانت لنا منكم يا معشر العرب جيران كنّا نحسِن جِوارهم ، ونُعظم قدرهم ، ونُفضِل عليهم ، ونَفِي لهم بالعهد ، ونخيّرناهم بلادنا ، ينزلون منها حيث شاءوا ، فينزلون آمنين ، ويرحلون آمنين ، وكنا نرى أن جميع العرب ممن لايجاورنا سيشكر لنا ذلك الذى أتينا إلى إخوانهم ، وما اصطَنَعْنا عندهم ، فلم يَرُعْنا منكم إلا وقد فاجأتمونا بالخيل والرجال ، تقاتلوننا على حصوننا ، وتريدون أن تغلبونا على بلادنا ، وقد طلب هذا منا قبلكم من كان أكثرَ منكم عدداً ، وأعظمَ مَكيدة ، وأوفى جُندًا ، ثم رددناهم عنها ، فلم يرجعوا عنّا إلا وهم بين قتيلٍ وأسير ، وأراد ذلك منا فارس ، فقد بلغكم كيف صنَع الله عزَّ جلَّ بهم ، وأراد ذلك منا الترك فلقِيناهم بأشد مما لقِينا به فارس ، وأرادنا غيركم من أهل المشرق والمغرب من ذوى المَنَعة والعزّ والجنود العظيمة ، فكلهم أظفَرَنا الله بهم ، وصنع لنا عليهم ، ولم تكن أمة من الأمم بأرقّ عندنا منكم شأنا ، ولا أصغر أخطارا[1] إنما جلُّكم رِعاء الشاء والإبل ، وأهل الصخر والحجر والبؤس والشقاء ، فأنتم تطمعون أن نجلى لكم عن بلادنا ؟ بئس ماطمعتم فيه منا ، وقد ظننا أنه لم يأت بكم إلى بلادنا ـ ونحن يتقى كل من حولنا من الأمم العظيمة الشأن الكثيرة العدد ، مع كثرتنا وشدة شوكتنا ـ إلا جَهدٌ نزل بكم من جدوبة الأرض وقحط المطر ، وعِثتم فى بلادنا وأفسدتم كل الفساد ، وقد ركبتم مراكبنا ، وليست كمراكبكم ، ولبستم ثيابنا وليست كثيابكم ، وثياب الروم البيض كأنها صفائح الفضة ، وطعمتم من طعامنا وليس كطعامكم ، وأصبتم منا وملأتم أيديكم من الذهب الأحمر والفضة البيضاء والمتاع الفاخر ، وقد لقيناكم الآن وذلك كله لنا ، فهو فى أيديكم ، فنحن نسلمه لكم فاخرجوا به وانصرفوا عن بلادنا ، فإن أبت أنفسكم إلا أن تحرصوا وتشرَهوا ، وأردتم أن نزيدكم من بيوت أموالنا ما يقوى به الضعيف منكم ، ويرى الغائب أن قد

(١) أقدارا .

رجع إلى أهله بخير ، فعلنا ، ونأمر للأمير منكم بعشرة آلاف دينار ، ونأمر لك بمثلها ، ونأمر لرؤسائكم بألف دينار ألف دينار ، ونأمر لجميع أصحابك بمائة دينار مائة دينار ، على أن توثقوا لنا بالأيمان المغلّظة ألا تعودوا إلى بلادنا » ثم سكت .

١٢١ — جواب خالد

فقال خالد رحمه الله : الحمد لله الذى لا إله إلا هو ، فلما فسر له الترجمان قوله : الحمد لله الذى لا إله إلا هو رفع يده إلى السماء ، ثم قال لخالد نعم ما قلت ، ثم قال خالد : وأشهد أن محمدا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فسر له الترجمان قال باهان : الله أعلم ، ما أدرى ، لعله كما تقول ، فأخبر خالد الترجمان . ثم قال خالد رحمه الله :

« أما بعد : فإن كل ما ذكرت به قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظهور على الأعداء ، والتمكن فى البلاد ، فنحن به عارفون ، وكل ما ذكرتَ من إنعامكم على جيرانكم منا ، فقد عرفناه ، وذلك لأمر كنتم تصلحون به دنياكم ، وإصلاحكم كان إليهم وإحسانكم إليهم ، كان ذلك زيادة فى ملككم وعزا لكم ، ألا ترون أن ثلثيهم أو شطرهم دخلوا معكم فى دينكم فهم يقاتلوننا معكم ؟ .

وأما ما ذكرتنا به من رعى الإبل والغنم ، فما أقل من رأيت واحداً منا يكرهه ، ومالم يكن يكرهه منا فضَّل على منْ يفعله ، وأما قولكم : إنا أهل الصخر والحجر والبُؤس والشقاء ، فحالنا والله كما وصفته ، ما ننتفى من ذلك ولا نتبرأ منه ، وكنّا على أسْوأ وأشد مما ذكرْتَ ، وسأقصّ عليك قصّتنا ، وأعرض عليك أمرنا ، وأدْعوك إلى حظك إن قبلتَ ، ألاَ إنا كنّا معشر العرب أمة منْ هذه الأمم ، أنزلنا الله — ولهُ الحمد — منزلا من الأرض . ليست به أنهار جارية ، ولا يكون به من الزرع إلا القليل ، وكل أرضنا المهامه[1] والقفار ، فكنّا أهل حجر ومَدَر[2] وشاء وبعير ، وعيش شديد ، وبلاء

---

(١) جمع مهمه : القفر . (٢) المدر : قطع الطين اليابس.

دائم لازم ، نقطع أرحامنا ونقتل خشية الإملاق أولادنا ، ويأكل قوينا ضعيفنا ، وكثيرنا قليلنا ، ولا تأمن قبيلة منا قبيلة إلا أربعة أشهر من السنة[1] ، نعبد من دون الله أربابا وأصناما ، ننحتها بأيدينا من الحجارة التى نختارها على أعيننا ، وهى لا تضر ولا تنفع ، ونحن عليها مكبون ، فبينما نحن كذلك على شفا[2] حفرة من النار ، من مات منا مات مشركا ، وصار إلى النار ، ومن بقى منا بقى كافراً مشركا بربه ، قاطعاً لرحمه ، إذ بعث الله فينا رسولا من صميمنا وشرفائنا وخيارنا وكرمائنا وأفضلنا ، دعانا إلى الله وحده أن نعبده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع الأنداد التى يعبدها المشركون دونه ، وقال لنا لا تتخذوا من دون الله ربكم إلها ولا وليًّا ولا نصيرا ، ولا تجعلوا معه صاحبة ولا ولداً ولا تعبدوا من دونه ناراً ولا حجراً ، ولا شمساً ولا قمراً ، واكتفوا به ربًّا وإلها من كل شىء دونه ، وكونوا أولياءه ، وإليه فادعوا ، وإليه فارغبوا ، وقال لنا : قاتلوا من اتخذ مع الله آلهة أخرى ، وكلَّ من زعم أنَّ لله ولدًا وأنه ثانى اثنين أو ثالثُ ثلاثة حتى يقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويدخلوا فى الإسلام ، فإن فعلوا حرُمتْ عليكم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحقها ، وهم إخوانكم فى الدِّين ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، فإن هم أبوْا أن يدخلوا فى دينكم وأقاموا على دينهم فاعرضوا عليهم الجزية أن يؤدُّوها عن يدٍ وهم صاغرون ، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، وإنْ أبوْا فقاتلوهم فإنه من قتل منكم كان شهيدا حيًّا عند الله مرزوقاً ، وأدخله الله الجنة ، ومن قتلَ من عدوِّكم قتل كافراً ، وصارَ إلى النَّار مخلدًا فيها أبدا ، ثم قال خالد :

وهذا والله الذى لا إلهَ إلا هو أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم فعلَّمنا وأمرنا به أن ندعو النَّاس إليه ونحنُ ندعوكم إلى ما دعانا إليه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما أمرنا به أن ندعو إليهِ الناس ، فندعُوكم إلى الإسلام ، وإلى أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسوله ، وإلى أن تقيموا الصَّلاة ، وتؤْتوا الزَّكاة ، وتقروا بما جاء من عندِ الله

---

(١) هى الأشهر الحرم : رجب وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم . (٢) حرف .

عزّ وجلّ ، فإن فعلتم فأنتم إخواننا فى الإسلام ، لكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فإنا نفرض عليكم أن تعطوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرُون ، فإن فعلتم قبلنا منكم وكففنا عنكم ، وإن أبيتم أن تفعلوا فقد واللهِ جاءكم قومٌ هُم أحرص على الموْت منكم على الحياة ، فاخرجوا بنا على اسم الله حتّى نحاكمكم إلى الله ، فإنما الأرض للهِ يُورِثها من يشاء من عباده ، والعاقبةُ للمتقين » ثم سكت خالد .

فقال باهان : أمّا أن ندخل فى دينكم فما أبعد من ترى مِن الناس مِن أن يترك دينهُ ويدخل فى دينكم ، وأمّا أن نؤدِّى الجِزْية — فتنفّسَ الصُّعَداء[1] وثقلت عليه وعظُمت عنده — فقال : سيموت من ترى جميعاً قبل أن يُؤدُّوا الجزية إلى أحَد من النَّاس ، وهم يأخذون الجزْية ولا يعطونها ، وأمّا قولك : فاخرجوا حتّى يحكُمَ الله بيننا ، فلعمرى ماجاءك هؤلاء القوم وهذه الجموع إلاّ ليحاكموك إلى الله ، وأمّا قولك : إنَّ الأرض للهِ يورِثها منْ يشاء مِن عباده فصدَقْتَ ، والله ما كانت هذه الأرض التى نقاتلكم عليها وتُقاتِلونَنا فيها ، إلاَّ لأُمةٍ من الأمم كانوا قبلنا فيها ، فقاتلْناهم عليها فأخرجْناهم منها ، وقد كانت قبل ذلك لقومٍ آخرين فأخرجهم منها هؤلاء الذين كنّا قاتلناهم عنها ، فابرزوا على اسم الله فإنَّا خارجون إليكم » . (فتوح الشام ص : ١٧٩)

١٢٢ — خطبة عمرو بن العاص

ولما نقض أهل الأرْدُن العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين ، قام عمرو بن العاص ، وجمع إليه من كان قِبله من المسلمين :

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد فقد بَرِئَتْ ذِمّة الله من رجل من أهل عهدنا من أهل الأردن قدِمَ

---

(١) التنفس الطويل .

على رجل من أهل إيليا ، أو كان عنده لم يأتِنا به ، ولم يرفعه إلَينا ، ألا ولا يَبْقَيَنْ رجل من أهل عهدنا إلا تَهَيَّأ واستعد ، حتى يسير معى إلى أهل إيليا ، فإنى أريد المسير إليهم ، والنزُولَ بساحَتهمْ ، ثم لا أزَايِلهُمْ حتى أقتل مقاتلتهم ، وأسْبِي ذَراريَّهم ، أو يؤدُّوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون » . (فتوح الشام ص ١٤٦)

١٢٣ — خطبة عمر

ولما حصر أبو عبيدة أهل إيليا ورأوا أنهم لاطاقة لهم بحربه سألوه الصلح على أن يكون عمر هو الذى يعطيهم العهد ، ويكتب لهم الأمان ، فأقبل عمر إلى الشام حتى انتهى إلى الجابية فقام فى الناس فقال :

« الحمد لله الحميد المستَحْمَد المجيد ، الدَّفاع الغفورُ الودود ، الذى من أرادَ أنْ يهديَهُ من عباده اهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

أما بعد — فإنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن خيار أُمتى الذين يلونكم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل على الشهادة ولم يُسْتَشهد عليها ، وحتى يحلف عَلَى اليمين ولم يُسألها، فمن أراد بَحْبُوحَةَ[1] الجنة فليلزم الجماعة ، ولا يبالى اللهُ شذوذَ من شذ ، ألا لايخلوَنَّ رجل منكم بامرأة إلا أن يكون لها مَحْرَمًا فإن ثالثهما الشيطان » . (فتوح الشام ص ٢٢٦)

١٢٤ — خطبة عمر

ولما كان عمر رضى الله عنه بالشام ، قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

---

(١) وسطها .

« يأهل الإسلام ، إن الله قد صدقكم الوعدَ ، ونصركم على الأعداء ، وورّثكم البلاد ، ومكّنَ لكم فى الأرض ، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر ، وإياكم والعملَ بالمعاصى ، فإن العملَ بالمعاصى كُفْرٌ للنِّعم ، وقلَّما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفزعُوا إلى التوبة ، إلا سُلِبوا عزَّهم ، وسُلِّط عليهم عدوهم » ثم نزل .

(فتوح الشام ص ٢٣١)

١٢٥ — خطبة لعمر

وقَفَل عمر من الشام إلى المدينةِ فى ذى الحجة سنة ١٧ هـ ، وخطبَ حين أراد القفول فحمد الله وأثنى عليهِ وقال :

« ألا إنى قد وُليت عليكم ، وقضيت الذى علىَّ فى الذى ولاّنى اللهُ مِن أمركم إن شاء الله ، قَسَطْنَا[1] بينكم فَيئكم ومنازلكم ومَغازيكم ، وأبلغْنا ما لديكم ، فجنَّدْنا لكم الجنود ، وهيَّأنا لكم الفروج[2] ، وبوّأنا كم ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئكم ، وما قاتلتم عليه من شأمكم ، وسمينا لكم أطماعكم ، وأمرنا لكم بإعطائكم أرزاقكم ومَعاوِنكم ، فمن عَلِمَ عِلْمَ شىء ينبغى العمل به فبلّغنا نعمل به إن شاء الله ، ولا قوّة إلا بالله » (تاريخ الطبرى ٤ — ٢٠٤)

١٢٦ — خطبة عمر

ولما رجع عمر رضى اللهُ عنه إلى المدينة ، استقبله النَّاس يهنئون بالنَّصر والفتح ، فجاء حتى دخلَ مسجد رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، فصلى ركعتين عند المنبر ، ثمَّ صعِد المنبر فاجتمع النَّاس إليه ، فقام :

---

(١) فرقنا . (٢) الثغور .

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبيّ صلى اللهُ عليه وسلم وقال : « أيُّهَا النَّاس ، إن الله قد اصطنع عند هذه الأمَّة أن يحمدوه ويشكروه ، وقد أعزَّ دعوتها ، وجمع كلمتها ، وأظهر فَلْجها[1] ، ونصرَها على الأعداء ، وشرَّفها ومكَّن لها فى الأرض ، وأورثها بلاد المشركين ودِيارهم وأموالهم ، فأحدِثوا لله شكراً يَزِدكم ، واحمدوه على نِعمه عليكم يُدِمها لكم ، جعلنا اللهُ وإياكم من الشاكرين » ثم نزل . (فتوح الشام ص ٢٣٩)

١٢٧ — وصية أبى عبيدة للمسلمين

وقد أصابه طاعون عمواس

وكان طاعون عَمْواس قد عمّ أهل الشام (سنة ١٨ هـ) ومات فيه بشرٌ كثير ، ومات فيه أبو عُبيدة رحمه الله .

ولما طعن أبو عبيدة وهو بالأردن ، دعا المسلمين ، فلمَّا دخلوا عليه قال :

« إنى أوصيكم بوصيَّة إن قبلتُموها لم تزالوا بخير ما بقيتم ، وبعد ما تهلكون ، أقيمُوا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة ، وصوموا وتصدَّقوا ، وحجُّوا واعتمِروا ، وتواصلُوا وتحابّوا واصدقوا أُمراءكمُ ولا تغشُّوهم ، ولا تُلهِكم الدُّنيا ، فإن امرأ لو عُمِّر ألف حول ما كان له بد من أن يصيرَ إلى مصْرعى هذا الذى ترون ، وإن الله قد كتب الموت على بنى آدم فهم ميِّتون ، وأكرمُهم منهم أطوعُهم لربِّه ، وأعلمهم ليوم مَعاده » ثم قال : يا معاذُ صَلِّ بالناس ، فصلى معاذ بالنَّاس ، ومات أبو عُبيدة رحمه الله . (فتوح الشام ص : ٢٤٠)

---

(١) الفلج : الفوز والظفر .

١٢٨ – خطبة معاذ بن جبل عند موت أبي عبيدة

فقام معاذ بن جبل فى الناس فقال :

« يأيها النّاس ، توبوا إلى اللهِ مِن ذنوبكُم توبة ، فإن عبداً أن يلقى اللهَ عزّ وَجلّ تائباً من ذنبه ، كَان حقًّا على اللهِ أن يغفِرَ له ذنوبه ، وَمَن كانَ عليه دَيْنٌ فَلْيقْضه ، فإِنّ العبد مرتَهَن بدينه ، وَمَن أصبح منكم مصارماً[1] مسلما فلْيلقه ولْيصالحه إذا لقيهُ وليصافحه ، فإنه لاينبغى لمسلمٍ أن يهجر أخاه المسلم أكثر من ثلاثة أيّام ، وَالذّنب فىذلك عند الله ، وَأنكم أيُّهَا المسلمون قد فجِعتم برجل وَاللهِ مَا أزعم أنى رأيْت منكم عبداً مِن عباد اللهِ قط أقل غَمَرا[2] ، ولا أبرّ صدرا ، ولا أبعد من الغائلة[3] ، ولا أنصح للعامة ، ولا أشدّ عليهم تحنُّنا وشفقة منه ، فترّحموا عليه ثم احضروا الصَّلاة عليه، غفر اللهُ له ماتقدم من ذنبه وما تأخّر ، واللهِ لا يلى عليكم بعده مثلُه أبداً » .

فاجتمع النّاس ، وأخرِجَ أبو عبيدة ، وتقدّم معاذ فصلَّى عليه ، حتى إذا أتى به قبره ، دخلَ قبره معاذ وعمرو بن العاص والضحاك بن قيس ، فلما وضعوه فى قبره وخرجوا منه فسَقَوا عليه التراب ، قال معاذ :

١٢٩ – رثاء معاذ بن جبل لأبى عبيدة

« رحِمَك اللهُ يا أبا عُبيدة ، فوالله لأُثنينّ عليك بما علمت ، والله لا أقولُ باطلا ، أخافُ أن يلحقنى مِن الله مقت ، كنت والله — ما علمتُ — مِن الذاكرين اللهَ كثيرا ، ومِن الذين يمشون عَلَى الأرض هوْنا ، وإذا خاطبهمُ الجاهِلون قالوا سلاما ، ومِن

---

(١) مقاطعا . (٢) الغمر : الحقد . (٣) الأمر النكر .

الذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياما ، ومن الذين إذا أنفقوا لمْ يُسرفوا ولم يَقتُروا ، وكان بين ذلك قَوَاما ، وكنتَ والله — ما علمتُ — من المخبتين المُتواضعين ، ومن الذين يرحمون اليتيم والمسكين ، ويُبغضون الجُفاة والمتكبِّرين » .

ولم يكن أحدٌ من الناس كان أشدّ جزعا على فقد أبي عبيدة وعلى موته ولا أطول حُزْناً عليه من معاذ بن جبل . (فتوح الشام ص : ٢٤٢)

١٣٠ — ابن العاص ومعاذ والطاعون

وصلى معاذ بالناس أياما ، واشتد الطاعون ، وكثر الموت في الناس ، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص قال : أيها الناس ، إن هذا الطاعون هو الرِّجز الذي عذّب الله به بني إسرائيل مع الطُّوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، وأمر الناس بالفرار منه ، فأُخبر معاذ بقول عمرو ، فقال : ما أراد إلى ما يقول مالا علم له به ، ثم جاء معاذ حتى صعد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الوباء فقال : ليس كما قال عمرو ولكنه رحمة بكم . ودعوَة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، اللهمّ أعطِ معاذا وآل معاذ منه النصيب الأوفر .

١٣١ — وصية لمعاذ بن جبل

ثم صلى ورجع إلى منزله ، فإذا هو بابنه عبد الرحمن قد طعِن ، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات يرحمه الله ، وصلى عليه معاذ ثم دفنَه ، فلما رجع معاذ إلى منزله طُعِنَ ، فاشتدّ به وجَعُه ، وجعل أصحابه يختلفون إليه ، فإذا أتاه أصحابه أقبل عليهم فقال لهم :

« اعملوا وأنتم فى مُهْلَةٍ وحياةٍ ، وفى بقيَّةٍ من آجالكم من قبل أن تمنَّوُا العمل فلا تجدوا إليه سبيلا . وأنفِقوا مما عندكم لما بعدكم قبل أن تهلِكوا وتَدَعُوا ذلك كلّه ميراثا لمَن بعدكم ، وَاعلموا أنه ليس لكم من أموالِكم إلا ما أكلتم وشربتم ولبستم وأنفقتم وأعطيتم فأمضيتم، وما سوى ذلك فللوارثين ». (فتوح الشام ص ٢٤٣)

١٣٢ - وصية لمعاذ بن جبل أيضا

وأتاه رجل فى مرضه فقال : يا معاذ علمنى شيئا ينفعُنى الله به قبل أن تُفارِقنى ، فلا أراك ولا ترانى ، ولا أجِدُ منك خَلَفًا ، ثم لَعَلّى أن أحتاجَ إلى سؤال الناس عما ينفعنى بعدك ، فلا أجدُ فيهم مثلك ، فقال معاذ : كلا إنَّ صُلَحاءَ المسلمين - والحمد لله - كثيرٌ ، ولَنْ يُضَيِّعَ الله أهلَ هذا الدين ، ثم قال له :

« خُذ عنّى ما آمرُك ، كن من الصائمين بالنهار ، ومن المصلِّينَ فى جوْفِ الليل ، ومن المستغفرين بالأسحار ، ومن الذاكرين الله على كلِّ حالٍ كثيرًا ، ولا تشربَنِ الخمرَ ، ولا تزنينَّ ، ولا تعُقَّ والديْكَ ، ولا تأكل مالَ اليتيم ، ولا تفِرَّ من الزَّحْف ، ولا تأكل الرِّبا، ولا تدَع الصلاة المكتوبة ، ولا تُضَيِّع الزكاةَ المفرُوضة ، وَصِلْ رَحِمَكَ وكنْ بالمؤمنين رحيما ، ولا تَظلِمْ مسلما ، وحُجَّ واعتمِرْ وجاهد ، ثم أنا لك زعيم بالجنة » .

(فتوح الشام ص ٢٤٤)

ومات رحمه الله ، وقد استُخلِف عمرو بن العاص فصلى عليه عمرو .

فلما دفنه قال :

« رحمك الله يا معاذ ، فقد كنت - ما علمناك - من نُصَحاء المسلمين ومن خيارهم وأعلامِهِمْ ، ثم كنت مُؤَدِّبًا للجاهل ، شديدًا على الفاجر ، رَحِيما بالمؤمنين ، وايْمُ الله لا يُستَخلَفُ من بعدك مثلك » . (فتوح الشام ص ٢٤٥)

ولما انتهى إلى عمر رضى الله عنه هلاك أبي عبيدة وهلاك معاذ فرق عماله على كور الشأم ، فبعث عبد الله ابن قرط على حمص ثم عزله وولى عبادة بن الصامت الأنصارى، واستعمل على دمشق أبا الدرداء الأنصارى وكتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يسير إلى قيسارية .

١٣٣ — خطبة عبادة بن الصامت

فلما قدم عُبادة على أهل حِمْص قام فى الناس خطيبا .

فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، ألا إن الدنيا عَرَض حاضر ، يأ كلُ منه البَرّ والفاجر ، ألا وإنّ الآخرة وَعْدٌ صادِقٌ يحكم فيه مَلِكٌ قادِرٌ ، ألا وإنكم معرُوضُون على أعمالكم ، فمَنْ يَعملْ مِثقالَ ذرَّة خيراً يرَه ، ومن يَعملْ مثقال ذرَّة شرًّا يرَه ، ألا وإنّ للدنيا بَنِين وللآخرة بَنِين ، فكونوا من أبناءِ الآخرَة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإنّ كلَّ أمّ يَتْبَعُها بَنُوها يوم القيامة » . (فتوح الشام ص ٢٤٨)

١٣٤ — خطبة شداد بن أوس

ثم قال لشدَّاد بن أوس قم يا شدَّاد فعِظ الناس وكان شداد مفوَّها ، قد أعطى لساناً وحِكمةً وفضلا وبياناً ، فقام شدّاد فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس رَاجِعُوا كتاب الله وإنْ تركه كثيرٌ من الناس ، فإنكم لم ترَوْا من الخير إلا أسْبابَه ، ولا من الشرّ إلا أسْبابه ، وإنّ الله جمع الخير كلّهُ بحذافيرِه فجعلهُ فى الجنة ، وجمع الشرّ بحذافيره فجعله فى النار ، ألا وإنّ الجنة وَعْرَة حَزْنة ، ألا وإنّ النار سَهلةٌ ليِّنَة ، ألا وإنّ الجنة حُفَّتْ بالكُرْه والصبر ، ألا وإنّ النار حُفَّتْ

بالهوَى والشهوَة ، ألا فمن كشفَ حجاب الكُرْه والصبر أشفى على الجنة ، ومن أشفى على الجنة كان من أهلها ، ألا ومن كشفَ حِجاب الهوَى والشهوة أشفى على النار ، وكان من أهلها، فاعملوا بالحق تنزِلوا منازل أهل الحق يوم لا يُقضى إلا بالحق » .

(فتوح الشام ص ٢٤٩)

١٣٥ — خطبة أبي الدرداء

وقام أبو الدرداء فى أهل دمشق خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، يأهل دمشق اسمعوا مَقالة أخٍ لكم ناصح ، فما بالكم تجمعون مالا تأكلون ، وتَبنون مالا تسكنون ، وتَأمُلُون مالا تُدْرِكون ؟ وقد كان مَن كان قبلكم جمَعُوا كثيرًا ، وبَنَوْا شديداً ، وأمَّلُوا بعيداً ، وماتوا قريباً ، فأصبحت أعمالهم بُورًا ، ومساكنهم قُبُوراً ، وأمَلُهُم غرُوراً ، ألا وإنّ عاداً وثمودًا كانوا قد مَلَئُوا ما بين بُصرى وعدن أموالا وأولاداً ونعَما ، فمن يشترى منى ما تركوا بدرهمين ؟ » .

(فتوح الشام ص ٢٥٠)

١٣٦ — خطبة يزيد بن أبى سفيان

وسار يزيد بن أبى سفيان إلى قيسارية فقام فى جنده فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد : فإنّ كتاب أمير المؤمنين عمر المبارك الفاروق أتانى يَحثُّنى على المسير إلى قيسارية ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، وأنْ يدخلُوا فيما دخلَ فيه أهل الكُوَر من

أهل الشام ، فيؤدُّوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرُون ، فإن أبَوْا نزلت عليهم فلم أزايلهم حتى أقتل مقاتلتهم وأسبى ذَرَاريّهم ، فسيروا ، رحمكم الله ، إليهم فإنى أرجو أن يجمع الله لكم الغنيمة فى الدنيا والآخرة » . (فتوح الشام ص ٢٥١)

١٣٧ – وصية العباس بن عبد المطلب (المتوفى سنة ٣٢ هـ)

لابنه عبد الله

قال عبد الله بن عباس : قال لى أبى :

يا بُنىَّ ، إنى أرى أمير المؤمنين – يعنى عمر بن الخطاب – قد اختصَّك دون من ترى من المهاجرين والأنصار ، وإنى موصيك بخلال أربع : لاَ يُجَرِّبَنَّ عليك كذبًا ، وَلا تَغتابَنَّ عنده مُسْلمًا ، ولا تُفْشِيَنَّ له سِرًّا ، ولا تطو عنه نصيحة ، قال: فقلت يا أبه . كلّ واحدة منها خير من ألف ، فقال : كلّ واحدة منها خير من عشرة آلاف .

(تهذيب الكامل ١ : ١٥ والعقد الفريد ١ : ١١)

١٣٨ – وصية عمر للخليفة من بعده

وأوصى عمر الخليفة من بعده ، فقال :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرِف لهم سابقتَهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم رِدْء العدوّ ، وجُباة الفَيْء ، لا تحمل فيئهم ، إلاَّ عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ، أن تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم ، فتردّ على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيرًا ، أن

تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدّوا ما عليهم للمؤمنين طوعًا ، أو عن يَدٍ وهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله وشدّة الحذر منه ، وَمخافةِ مقته ، أنْ يَطَّلِع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ، ولا تخشى الناس فى الله ، وأوصيك بالعدل فى الرّعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم ، فإن ذلك بإذن الله سلامة لقلبك ، وَحَطٌّ لِوِزْرِكَ ، وخير فى عاقبة أمرك ، حتى تُفضِيَ من ذلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وآمرك أن تشتد فى أمر الله ، وفى حدوده ومعاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لاَ تأخُذْكَ فى أحد رَأْفَةٌ حتى تنتهك منه ، مثل ما انتهك من حرمة الله، واجعل الناس عندك سواء، لا تبالى على من وجب الحق، ثم لاَ تَأْخُذْكَ فى الله لومةُ لائم، وَإياك والأثَرَةَ والمحاباةَ فيما ولاَّك الله،مما أفاء الله على المؤمنين، فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة،وأنت إلى الآخرة جدّ قريب فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط الله لك، اقترفت به إيمانًا ورضوانًا، وإن غلبك الهوى، اقترفت به سخط الله ، وأوصيك ألاَّ تُرَخِّصَ لنفسك ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة ، وقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك ، فابْتَغِ بذلك وَجْهَ الله والدار الآخرة ، واخترت من دلالتك ما كُنْتُ دالاًّ عليه نفسى وولدى ، فإن عملت بالذى وعظتك، وانتهيت إلى الذى أمرتك ، أخذت به نصيبًا وافرًا، وحظًّا وَافيًا ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم يَهُمَّك ، ولم تُنْزِل معاظم الأُمور عند الذى يرضى الله به عنك ، يكن ذلك بك انتقاصًا ، ورأيك فيه مدخولاً ، لأن الأهواء مُشْتَرَكة، ورأس كل خطيئة إبليس ، وهو داع إلى كل هَلَكَة ، وقد أضلّ القرون السالفة قبلك ، فأوردهم النار ، ولبئس الثمن أن يكون حَظُّ امرئٍ موالاَةَ عدوٍّ الله الداعى إلى معاصيه ، ثم اركب الحق وَخُض إليه الغمراتِ ، وكن واعظًا لنفسك ، أنشُدك الله لَما تَرَحَّمْتَ على جماعة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضربهم فَيَذِلُّوا ، ولا تستأثر

عليهم بالفىء فتبغضهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجمّرهم[1] فى البعوث ، فتقطعَ نسلهم ، ولا تجعل المال دُولة بين الأغنياء منهم ، وَلا تُغْلق بابك دونهم ، فيأ كلَ قويُّهُم ضعيفهم . هذه وَصيتى إياك ، وَأشهد الله عليك ، وَأقرأ عليك السلام . (شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ٢٢ وتاريخ الطبرى ٥ : ١٣)

وفى رواية الطبرى :

قال : « وأوصى الخليفة منْ بعدى بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان أن يُحسن إلى محسنِهم ، وأن يعفو عنْ مسيئهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بالعرب ، فإنها مادة الإسلام ، أن يؤخذ من صدقاتهم حقُّها فتوضع فى فقرائهم ، وَأوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، اللهم هل بلغت ؟

تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة» .

(١) جمر الجيش : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم .

خطب يوم الشورى

بعد دفن عمر اجتمع أهل الشورى ، وهم : عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعليّ بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ـ وكان طلحة غائبا ـ فبدأ عبد الرحمن بن عوف بالكلام ، فقال :

١٣٩ ـ خطبة عبد الرحمن بن عوف

« يا هؤلاء ، إن عندى رأياً ، وإن لكم نظراً ، فاسمعوا تعلموا ، وأجيبوا تفقهوا ، فإن حابياً(١) خير من زاهق(٢) ، وإن جُرْعة من شَروب(٣) بارد ، أنفع من عذب مُوبٍ(٤) ، أنتم أئمة يُهتدى بكم ، وعلماء يُصْدَر(٥) إليكم ، فلا تَفُلُّوا المُدى بالاختلاف بينكم ، ولا تُغمدوا السيوف عن أعدائكم ، فتُوتِرُوا(٦) ثأرَكم ، وتُؤْلِتوا(٧) أعمالكم ، لكلٍّ أجل كتاب ، ولكلٍّ بيت إمام ، بأمره يقومون ، وبنهيه يَرِعُون(٨) ، قلِّدُوا أمركم واحداً منكم ، تمشوا الهوَينىٰ ، وتَلْحَقوا الطلب ، لولا فتنة عمياء ، وضلالة حيراء ، يقول أهلها مايرَون ، وتُحِلُّهم الحبَوْكَرَى(٩) ، ما عَدَت نياتكم معرفتكم ، ولا أعمالكم

---

(١) الحابى من السهام : ما يزحف إلى الهدف . (٢) السهم الزاهق : ما جاوز الهدف .

(٣) الشراب والشريب والشروب : ما يشرب . (٤) أصله موبئ، مسهل عن موبئ.

(٥) يرجع . (٦) قال فى اللسان : « قال الأزهرى : هو من الوتر (الثأر) يقال : وترت فلانا إذا أصبته بوتر ؛ وأوترته أوجدته ذلك (أى أظفرته به ، أوجدت فلانا مطلوبه أى أظفرته به) قال : والثأر هاهنا العدو لأنه موضع الثأر ، والمعنى لاتوجدوا عدوكم الوتر فى أنفسكم » .

(٧) ألته حقه يألته وآلته : نقصه . (٨) ورع يرع : كورث يرث من الورع ، وهو التقوى.

(٩) رمل يضل فيه السالك ، والداهية .

نياتكم ، احذروا نصيحة الهوى ، ولسان الفرقة ، فإن الحيلة فى المنطق أبلغ من السيوف فى الكَلْم ، علقّوا أمركم رَحْب الذراع فيما حلّ ، مأمون الغيب فيما نزل ، رِضًا منكم وكلكم رضاً ، ومُقْتَرَعا[1] منكم وكلكم منتهًى ، لاتطيعوا مُفسدا يتنصَّح[2] ، ولا تخالفوا مرشدا ينتصر ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » :

ثم تكلم عثمان بن عفان ، فقال :

١٤٠ — خطبة عثمان بن عفان

« الحمد لله الذى اتخذ محمداً نبيًا ، وبعثه رسولا ، صَدَقه وعْدَه ، ووهب له نصرَه على كلّ من بعُدَ نَسَبًا ، أو قرُب رَحِمًا صلى الله عليه وسلم ، جعلنا الله له تابعين ، وبأمره مُهْتَدِينَ ، فهو لنا نور ، ونحن بأمره نقوم عند تفرُّق الأهواء ، ومجادلة الأعداء ، جعلنا الله بفضله أئمة ، وبطاعته أمراء ، لا يَخْرُج أمرُنا منا ، ولا يَدْخُلُ علينا غيرُنا ، إلا مَنْ سَفِهَ الحَقّ ، ونكَلَ عن القصد ، وأحْرِ بها يابن عوف أن تُتْرَك ، وأجدِر بها أن تكون ، إن خولف أمرُك ، وتُرِكَ دعاؤك ، فأنا أوَّل مجيب لك ، وداع إليك ، وكفيل بما أقول زعيم ، وأستغفر الله لى ولكم » .

ثم تكلم الزبير بن العوّام بعده فقال :

١٤١ — خطبة الزبير بن العوام

« أما بعد : فإن داعى الله لاَ يُجْهَلُ ، ومجيبه لاَ يُخْذَل ، عند تَفرُّق الاهواء ، ولَىِّ الأعناق ، ولن يقصر عما قلتَ إلا غوىّ ، ولن يترك ما دعوتَ إليهِ إلا شقى ، لولا حدود الله فرضت ، وفرائض الله حُدّت ، تُرَاح[3] على أهلها ، وتحيا لا تموت ، لكان

---

(١) مختارا . (٢) تنصح : تشبه بالنصحاء . (٣) أراح حقه عليه : رده عليه .

الموت من الإمارة نجاةً ، والفرارُ من الولاية عِصْمَةً ، ولكن لله علينا إجابة الدعوة ، وإظهار السنة ، لئلا نموت ميتة عِمِّيَّة[1] ، ولا نَعْمَى عَمَى الجاهلية ، فأنا مجيبك إلى ما دعوت ، ومعينك على ما أمرت ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، وأستغفر الله لى ولكم».

١٤٢ – خطبة سعد بن أبي وقاص

ثم تكلم سعد بن أبى وقّاص فقال :

« الحمد لله بَدِيئاً[2] كان ، وآخِراً يعود ، أحمده لِمَا نجّانى من الضلالة ، وبصّرنى من الغَواية ، فبِهُدَى الله فازَ من نجا ، وبرحمته أفلح من زكا ، وبمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أنارت الطرق ، واستقامت السبل ، وظهر كلُّ حق ، ومات كل باطل ، إياكم أيها النفرُ وقولَ الزور ، وأمنيَّة أهل الغرور ، فقد سلبت الأمانىُّ قوماً قبلكم ، وَرِثوا ما ورثتم ، ونالوا ما نلتم ، فاتخذهم الله عدوا ، ولعنهم لعناً كبيراً ، قال الله عزّ وجل : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) إنى نكبْتُ[3] قَرَنى ، فأخذت سهمى الفالج[4] ، وأخذت لطلحة ابن عبيد الله ما ارتضيت لنفسى ، فأنا به كفيل ، وبما أعطيتُ عنه زَعيم ، والأمر إليك يابن عوف بجهد النفس ، وقَصْد النصح ، وعلى الله قصد السبيل ، وإليه الرجوع ، وأستغفر الله لى ولكم ، وأعوذ بالله من مخالفتكم » .

---

(١) العمية : الكبر أو الضلال .

(٢) البدئ : الأول . (٣) النكب : الطرح. والقرن: الجعبة . (٤) الفائز الظافر .

١٤٣ — خطبة على بن أبى طالب

ثم تكلم علىّ بن أبى طالب فقال :

« الحمد لله الذى بعث محمداً منا نبيًّا ، و بعثه إلينا رسولا ، فنحن بيت النبوة ، ومعْدِن الحكمة ، وأمان أهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ، لنا حق إن نُعْطَه نأخذه ، وإن نُمْنَعه نركب أعجاز الإبل ، ولو طالَ السُّرَى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت ، لن يسرع أحد قبلى إلى دعوة حق ، وصلة رحم ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله ، اسمعوا كلامى ، وعُوا منطقى ، عسى أن تَرَوْا هذا الأمر من بعد هذا المجمع ، تُنْتَضَى[1] فيه السيوف ، وتُخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة ، وشيعة لأهل الجهالة ، ثم أنشأ يقول :

فإن تك جاسم[2] هلكت فإنى ... بما فعلت بنو عبد بن ضَخْم
مُطِيع فى الهواجر كلّ عَىٍّ ... بصيرٌ بالنَّوَى من كل نجم

(تاريخ الطبرى ٥ : ٣٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٣٦)

(١) تسل . (٢) بنو جاسم حى قديم .

خطب عثمان بن عفان

رضى الله عنه

١٤٤ – خطبته حين بايعه أهل الشورى

روى الطبرى قال : « لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى مِنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناسَ ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« إنكم فى دار قُلْعَة[1] ، وفى بقية أعمار ، فبادِرُوا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتِيتُمْ ، صُبِّحْتُمْ أو مُسِّيتم ، ألا وإن الدنيا طُوِيَت على الغرور ، فلا تَغُرَّنكم الحياة الدنيا ، ولا يَغُرَّنكم بالله الغَرُورُ ، اعتبروا بمن مضى ثم جِدُّوا ولا تغفُلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها ، ومُتِّعُوا بها طويلا ، ألم تَلفِظْهُمْ ؟ أُرْمُوا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، والذى هو خير ، فقال عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً) وأقبل الناس يبايعونه » . (تاريخ الطبرى ٥ : ٤٣)

---

(١) أى انقلاع ، ومنزلنا منزل قلعة « بتسكين اللام وضمها وفتحها » أى ليس بمستوطن ، أو لا نملكه ، أو لا ندرى متى نتحول عنه .

١٤٥ — خطبته بعد البيعة

وقال أيضاً : خطب عثمان الناس بعد ما بويع ، فقال :

« أما بعد ، فإني قد حُمِّلْتُ وقد قَبِلْتُ ، ألا وإني متَّبِع ، ولست بمبتدع ، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله عزَّ وجل ، وسنةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتِّبَاعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وَسَنَّ سُنَّةَ أَهْلِ الخَيْرِ فيما لم تَسُنُّوا عن مَلأٍ ، وَالْكَفَّ عنكم إلا فيما استوجبتم . ألا وَ إنَّ الدنيا خَضِرَةٌ قد شُهِّيَت إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تَرْكَنوا إلى الدنيا ، ولا تَثِقُوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٤٩)

١٤٦ — خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة : لما ولى عثمان صعد المنبر ، فجلس على ذروته ، فرماه الناس بأبصارهم ، فقال :

« إن أول مَرْكَب صعب ، وإن مع اليوم أيَّاما ، وما كنا خطباء ، وإن نَعِشْ لكم تأتِكم الخطبة على وجهها إن شاء الله تعالى » .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٣)

١٤٧ — خطبة لعثمان

وبعث عثمان بدء الفتنة إلى عمال الأمصار فقدموا عليه ، فقال : ويحكم ، ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إنى والله لخائف أن تكونوا مصدُوقا عليكم ، وما يُعصَب هذا إلا بى ، ثم قال : أشيروا علىّ ، فأشار عليه كلٌّ بما يراه .

وقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« كلّ ما أشرتم به علىّ قد سمعت ، ولكلّ أمر بابٌ يؤتى منه ! إن هذا الأمر الذى يخافُ على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الّذى يُغلق عليه فيكفكَف به اللينُ والمؤاتاة والمتابعة إلاّ فى حُدود الله تعالى ذكره ، التى لايستطيع أحدٌ أن يُبادى بعيب أحدها ، فإن سدّه شىء فرفق ، فذاك والله ليُفتَحن ، وليست لأحد علىّ حجة حق ، وقد علم اللهُ أنى لم آلُ الناس خيرا ولا نفسى ، ووالله إنّ رحى الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها ، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم ، واغتفرُوا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدهِنوا فيها » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٠٠)

١٤٨ — خطبة عثمان

ولمّا حدثت الأحداث بالمدينة خرجَ منها رجالٌ إلى الأمصار ، ثمّ رجعوا جميعا إلى المدينة إلا من كان بالشأم ، فأخبروا عثمان بخبرهم ، فقام عثمان فى الناس خطيبًا فقال :

« يأهْل المدينة ، أنتم أصل الإسلام ، وإنما يفسد الناس بفسادكمْ ، ويصلحون بصلاحكم ، والله والله لا يبلغنى عنْ أحدٍ منكم حَدث أحدَثه إلا سيَّرتُه ، ألا فلا أعرفَنّ أحدا عرض دون أولئك بكلام ولا طلب ، فإن من كان قبلكم كانت تُقطع أعضاؤهم دون أنْ يتكلّم أحد منهم بما عليهِ ولا له .

وأيْمُ اللهِ لآخُذنّ العفو من أخلاقكم ولأبْذلنَّه لكم من خُلُقِي ، وقد دنت أمور ، ولا أحب أن تحلّ بنا وبكم ، وأنا على وَجَل وحذر ، فاحذروا واعتبروا » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٥)

١٤١ — خطبته حين نقم عليه الناس

وخطب عثمان حين نقم عليه الناس ما نقموا فقال :

« أما بعد : فإنَّ لكلِّ شيء آفة ، وإن لكلِّ نعمة عاهة ، وإنَّ آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة ، عَيَّابون طَعَّانون ، يُظهِرون لكم ما تُحبون ، ويُسِرُّون ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون ، طَغَام[1] مثل النعام ، يَتْبعون أول ناعِق ، أحبُّ مواردهم إليهم النازح[2] ، لا يشربون إلاَّ نَغَصاً[3] ، ولا يردُون إلا عسكرا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور ، وتعذَّرت عليهم المكاسب .

لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مِمَّا نَقِمتم عليَّ ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، ووَقَمكم وقمعكم[4] وزجركم زجر النعام المُخزَّمة[5] ، فدِنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولِنْتُ لكم وأوطأت لكم كنفي ، وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم عليَّ .

أما والله إني لأقرب ناصرًا ، وأعزّ نفرا ، وأكثر عددًا ، وأقمَنُ — إنْ قلت هلمَّ — أن تجاب دعوتي من عمر .

ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلت عليكمُ فضولا ، وكشرت لكم عن نابي ، وأخرجتم مني خُلُقًا لم أكن أُحسِنه ، ومنطقا لم أنطق به .

---

(١) أوغاد الناس ، الواحد والجمع فيه سواء ، أو واحده كسحابة . (٢) المورد النازح : الذي نزح ماؤه ، أي غاض وقل أو بعد . (٣) نغص البعير كفرح : لم يتم شربه . (٤) وقم الدابة جذب عنانها ، ووقمه قهره وأذله أو رده أقبح الرد وحزنه أشد الحزن وقمعه : ضربه بالمقمعة وقهره وأذله .

(٥) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة ، والطير كلها مخزومة ومخزمة لأن وترات أنوفها مخزومة ؛ وكذا النعام .

فكفوا عليكم ألسنتكمُ وطعنكم ، وعيبكم على ولاتكم ، فإنى قد كففتُ عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا .

ألاَ فما تفقدون من حقكم ؟ فوالله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ، ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، فضَلَ فَضْلٌ من مالى ، فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ إذن فلم كنت إماما ؟ » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٩٧ وإعجاز القرآن ص ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٤ والبيان والتبيين ١ : ٢٠٠) .

١٥٠ — خطبته التى نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله ، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه ، ولكنى مَنَّتْنى نفسى وَكَذَبَتْنى ، وَضَلَّ عنى رشدى ، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ زَلَّ فَلْيَتُبْ ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَلْيَتُبْ ، وَلا يَتَمَادَى فى الْهَلَكَةِ ، إِنَّ مَنْ تَمَادَى فى الجَوْرِ ، كَانَ أَبْعَدَ مِنَ الطَّرِيقِ » فأنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت ، وأتوب إليه ، فمثلى نَزَعَ وتاب ، فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم ، فَلْيَرُونى رأيهم ، فوالله لئن رَدَّنى الحق عبداً لَأَسْتَنَّنَّ بسنة العبد ، وَلَأَذِلَّنَّ ذُلَّ العبد ، ولأكونَنَّ كالمرقوق ، إن مُلِكَ صبَرَ ، وإن عُتِقَ شكر ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فلا يَعْجِزَنَّ عنكم خيارُكم أن يدنوا إلَىَّ ، لئن أبت يمينى لتتابعنِّى شمالى » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١١١ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٨٠)

١٥١ – خطبته فى الرد على الثوار

وقال يرد على الثوار :

« الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليهِ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ؛ أما بعد : فإنكم لم تعدلوا فى المنطق ، ولم تُنْصِفُوا فى القضاء ، أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزِع قيصاً قَمَّصَنيه الله عزَّ وجلَّ ، وأكرمنى به ، وخصنى به على غيرى ، ولكنى أتوب وأنزِع ، ولا أعود لشىء عابه المسلمون ، فإنى واللهِ الفقير إلى الله ، الخائف منه » .

قالوا : إن هذا لو كان أول حَدَث أحدثته ثم تبت منه ، ولم تُقِمْ عليه ، لكان علينا أن نقبل منك ، وأن ننصرف عنك . . . إلى آخر ما قالوا .

فقال عثمان : « أما أن أتبرأ من الإمارة ، فأن تصلبونى أَحَبُّ إلَيَّ من أن أتبرأ من أمر الله عزَّ وجلَّ وخلافتهِ ، وأما قولكم تقاتلون مَن دونى ، فإنى لا آمُرُ أحداً بقتالكم ، فمن قاتل دونى فإنما قاتل بغير أمرى ، ولعمرى لو كنت أريد قتالكم ، لقد كنت كتبت إلى الأجناد ، فقادوا الجنود ، وبعثوا الرجال ، أو لحقت ببعض أطرافى بمصر أو عراق ، فاللهَ اللهَ فى أنفسكم ، فأبقوا عليها ، إن لم تبقوا علىَّ ، فإنكم مجتلبون بهذا الأمر إن قتلتمونى دمًا » فانصرفوا عنه ، وآذنوه بالحرب .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٢١ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٨٤)

١٥٢ - خطبته وقد اشتد عليه الحصار

ولما أشتد الحصار عليه أرسل إلى عليّ وطلحة والزبير فحضروا ، فأشرف عليهم ، فقال :

« يأيها الناس : اجلسوا ، فجلسوا : المحاربُ والمسالمُ ، فقال لهم يأهل المدينة ، أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ، ثم قال : أنشُدُكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ، ويجمعكم على خيركم ؟ أتقولون إن الله لم يستجب لكم ، وهُنتم عليهِ ، وأنتم أهل حقهِ ؟ أم تقولون هان على الله دينه ، فلم يبال مَنْ وَلى ، والدين لم يتفرّق أهله يومئذ ؟ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة ، إنما كان مكابرة ، فوكل الله الأمة إذ عَصَتْهُ ، ولم يشاوروا فى الإمامة ، أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمرى ؟ أنشُدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير ، وَقَدَمِ خير ، قدّمهُ الله لى يَحِقُّ على كلٍّ من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها ؟ فمهلا لا تقتلونى ، فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصانه ، أو كفر بعد إيمانه ، أو قتل نفساً بغير حق ، فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ، ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً » .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٣ : ٨٤)

١٥٣ - آخر خطبة خطبها عثمان

« إن الله عزّ وجلّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يُعْطِكموها لِتَرْكَنُوا إليها ، إنّ الدنيا تَفْنَى والآخرة تبقى ، فلا تُبْطِرَنّكم الفانية ، ولا تَشْغلنكم عن الباقية ، فآثِرُوا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله جلّ وعزّ ،

فإن تقواه جُنَّة من بأسهِ ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الْغِيَرَ ، والزموا جماعتكم ، لا تصيروا أحزاباً ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » . (تاريخ الطبرى ٥ : ١٢٦ ، ١٤٩)

١٥٤ — خطبة الوليد بن عقبة

قال الطبرى :

لما أصاب الوليد بن عُقبة حاجته من أرمينية (سنة ٢٤ هـ) — وكان أهلها قد منعوا ما صالحوا عليه أهل الإسلام أيام عمر — ودخل الموصل فنزل الحديثة ، أتاه كتاب من عثمان رضى الله عنه :

« أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلىّ يخبرنى أن الروم قد أجلبَتْ على المسلمين بجموع عظيمة ، وقد رأيت أن يُمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابى هذا فابعث رجلا ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، فى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف ، من المكان الذى يأتيك فيه رسولى والسلام » .

فقام الوليد فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاء حسنا فرد عليهم بلادهم التى كفرت ، وفتح بلادا لم تكن فُتِحت ، وردهم سالمين غانمين مأجورين ، فالحمد لله رب العالمين .

وقد كتب إلىّ أمير المؤمنين يأمرنى أن أندُب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف تمدون إخوانكم من أهل الشام ، فإنهم قد جاشت عليهم الروم ، وفى ذلك الأجر العظيم ، والفضل المبين ، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلى » .

فانتدب الناس (تاريخ الطبرى ٥ : ٤٦)

١٥٥ — خطبة سعيد بن العاص حين قدم الكوفة واليا عليها

عزل عثمان رضى الله عنهُ الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط من إمارة الكوفة ، وكان قد اتهم بشرب الخمر وولى مكانه سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ ، فلما قدم الكوفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« والله لقد بُعِثت إليكم وإنى لكاره ، ولكنى لم أجد بداً إذ أُمِرْت أنِ أأْتَمِرْ ، ألا إن الفتنة قد أطلعت خُطُمُها[١] وعينيها ، ووالله لَأَضْرِبَنَّ وجهها حتى أقمعها أو تُعْيِيَنِى[٢] ، وإنى لرائد[٣] نفسى اليوم » ثم نزل (تاريخ الطبرى ٥ : ٦٢)

١٥٦ — خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح إفريقية[٤]

قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقصّ عليه كيف كانت الوقعة ، فأعجب عثمان ما سمع منه ، فقال له : أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال: يا أمير المؤمنين ، إنى أهْيَب لك منى لهم ، فقام عثمان فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ، وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام خطيبًا ــ وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ــ فقال :

« الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البِغْضَة ، الذى لا تُجْحَد نَعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حَمِدَ نفسه ، وكما هو أهله ، انتخب محمداً صلى الله

---

(١) الخطم : جمع خطام ، وهو ماوضع فى أنف البعير ليقتاد به ، والمراد ظهورها ونشوبها .

(٢) أى تعجزنى . (٣) الرود : الطلب .

(٤) فتحها عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٦ هـ ، وأمده عثمان بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير .

عليه وسلم ، فاختاره بعلمه ، وَأْتَمَنَهُ على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا به وَعَزَّرُوه[١] وَوَقَّرُوه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فاستشهد[٢] اللهُ منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابح ، وبقى منهم من بقى ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم .

أيها الناس : رحمكم الله إنا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنّا مع والٍ حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، كان يسير بنا الأَبْرَدَين[٣] ، وَيَخْفِضُ[٤] بنا فى الظهائرِ ، ويتخذ الليل جَمَلاً ، يُعَجِّل الرحلة من المنزل الجَدْب ، ويطيل اللُّبْث فى المنزل الخِصْب ، فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا ، حتى انتهينا إلى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ، وَرُغاء الإبل ، وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياماً ، نُجِمُّ كُراعنا[٥] ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صَغارٍ أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نَتَأَنَّاهم ، وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه إذا صَبَرَ واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدونا ، وقاتلناهم أشد القتال ، يومَنا ذلك ، وصَبَرَ فيه الفريقان فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دَوِىٌّ بالقرآن كدوىِّ النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافّنا التى كنّا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئاً واسعاً ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف ، فَصَفَقَ[٦] عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد

(١) التعزير : التفخيم والتعظيم والإعانة ، وهو أيضا ضرب دون الحد أو هو أشد الضرب ضد .

(٢) استشهد (مبنيا للمجهول) قتل فى سبيل الله .

(٣) الأبردان : الغداة والعشى . (٤) خفض بالمكان : أقام ، والظهائر : جمع ظهيرة .

(٥) الكراع : جماعة الخيل ، وأجم الفرس : ترك ركوبه . (٦) صفق الباب يصفقه وأصفقه أغلقه : أى أغلق عليها باب الخزائن .

قرّت أعينهم ، وأغنام النّفل ، وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين ، أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذلّ من الشرك ، فاحمَدوا اللهَ عبادَ الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه ، من بأسه الذى لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين » .

ثم سكت فنهض إليه أبوه الزبير ، فقبّل بين عينيه وقال : (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) يا بُنَىَّ ما زلت تنطق بلسان أبى بكر حتى صمتَّ .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٩)

١٥٧ — خطبة عبد الله بن مسعود

(المتوفى سنة ٣٢ هـ)

أصدقُ الحديث كتاب الله ، وأوثق العُرا كلمة التقوى . أكرمُ الملل ملة إبراهيم ، وخير السننِ سنة محمد صلى الله عليه وسلم . خير الأمور أوساطُها ، وشر الأمور مُحْدَثاتها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . خير الغنى غنى النفس ، وخير ما أُلقِىَ فى القلب اليقين . الخمر جِماعُ الآثام . النِّساء حِبالة الشيطان . الشباب شُعْبة من الجنون . حب الكفاية مفتاح المعجزة . شر النَّاس من لا يأتى الجماعة إلا دُبُرًا ، ولا يذكر الله إلا هَجرا[1] . أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، سِباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . من يتألَّ[2] على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له . مكتوب فى ديوان المحسنين : من عفا عفا الله عنه . الشقىّ من شقى فى بطن أمهِ ، والسعيد من وعظ بغيرِه . الأُمور بعواقبها . مِلاك العمل خواتيمه . أشرف الموت الشهادة . من يعرف البلاء يَصْبِر عليه . ومن لا يعرف البلاء ينكره . (إعجاز القرآن ١٢٢ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، البيان والتبين ٢ : ٢٧)

---

(١) الهجر كـكتف : الذى يمشى مثقلا ضعيفا : أى لا يعرف الله إلا وقت الشدة .

(٢) تألى : أقسم .

١٥٨ - أبو زبيد الطائى يصف الأسد

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه يومًا لأبى زُبَيْد : حَرْمَلَة بن المنذر الطائى - وكان نصرانيًا - يا أخا تَبَعِ المسيح ، أَسمِعْنا بعض قولك ، فقد أُنبِئْتُ أنك تجيد ، فأنشده قصيدة له فى وصف الأسد ، فقال عثمان : تالله تَفْتَأ تذكر الأسد ما حَيِيت ! والله إنى لأحسبك جَبَانًا هَرَّابًا ، قال : كَلَّا ، يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت منه مَنْظَرًا ، وَشَهِدْتُ منه مَشْهَدًا ، لا يَبْرَحُ ذِكْرُهُ يتجدد ويتردَّدُ فى قلبى ، ومعذور أنا يا أمير المؤمنين غيرُ ملوم ، فقال له عثمان : وَأَنى كَانَ ذلك ؟ قال :

« خرجت فى صُيَّابَة[١] أشرافٍ من أبناء قبائل العرب ، ذوى هيئة وشارةٍ[٢] حسنة ، ترمى بنا المَهَارَى[٣] بأكسائها[٤] ، ونحن نريد الحارث بن أبى شِمْر الغَسَّانى ملك الشأم ، فاخْرَوَّط[٥] بنا السير فى حَمَارَّةِ القَيْظِ ، حتى إذا عَصِبَتِ الأفواه ، وَذَبَلَت الشِّفَاهُ ، وشالت[٦] المياه ، وأذْكَتِ الجَوْزَاء المِعْزَاء[٧] ، وذاب الصَّيْهَبُ[٨] ، وصَرَّ الجُنْدَبُ[٩] وأضاف العُصْفُورُ الضَّبَّ فى وَكْرِه ، وجاوره فى جُحْرِه ، قال قائل : أيها الركب ، غُورُوا[١٠] بنا فى دَوْحِ هذا الوادى ، وإذا وادٍ قد بدا لنا كثير الدَّغَل[١١] ، دائم الغَلَل[١٢]

(١) الصيابة بالتشديد وتخفف : الخالص والصميم والخيار من الشىء . (٢) الشارة : الهيئة واللباس والزينة ، والجمال . (٣) مهرة بن حيدان (بفتح الميم والهاء) : حى تنسب إليه الإبل المهرية ، وجمعها مهارى (بفتح الميم والراء) ومهار (منقوصا) ومهارىّ . (٤) الأكساء : جمع كسء (كقفل وعنق) وكسء كل شىء : مؤخره . (٥) اخروط بهم الطريق : طال وامتد .

(٦) قلت . (٧) أذكت : أشعلت ، والمعزاء من المعز بالتحريك : وهو الصلابة ، مكان أمعز وأرض معزاء ، كناية عن اشتداد الحر . (٨) الصيهب : الصخرة الصلبة والموضع الشديد وكل موضع تحمى عليه الشمس حتى ينشوى اللحم عليه . (٩) نوع من الجراد ، وصر : صوت .

(١٠) الغور والغئور : الدخول فى الشىء . والدوح : جمع دوحة ، وهى الشجرة العظيمة .

(١١) الدغل : الشجر الكثير الملتف ، واشتباك النبت وكثرته . (١٢) الغلل : الماء الذى يجرى بين الشجر .

أشجاره مُغِنَّة[١] ، وأطياره مُرِنَّة[٢] ، فحططْنا رحالنا بأصول دَوْحاتٍ كَنَهْبَلاتٍ[٣] ، فأصَبْنا من فضلات المَزَاوِد ، وأتبعناها الماء البارد ، فإنّا لنصِف حرَّ يومنا ومُماطلته ، إذ صَرَّ أقصى الخيل أذنيه[٤] ، وفحَصَ الأرْضَ بيديه ، فوالله ما لبث أن جال ، ثم حَمْحَمَ[٥] فبال ، ثم فعل فعله الفرسُ الذى يليه واحدا فواحدا ، فتضعضعت الخيل ، وتكَعْكَعَتِ[٦] الإبل ، وتقهقرت البغال ، فمِن نافرٍ بِشِكاله[٧] ، وناهضٍ بعِقاله ، فعلمنا أنا قد أُتينا ، وأنه السبع لاشك فيه ، ففزع كل واحد منا إلى سيفه ، فاستلّه من جُرُبّانِه[٨] ، ثم وقفنا رَزْدَقاً أرْسَالا[٩] ، وأقبل أبو الحارث من أَجَمَته ، يتظالع[١٠] فى مِشْيَتِهِ ، كأنه مَجْنُوب أو فى هِجارٍ[١١] ، لِصَدْرِه نَحِيطٌ[١٢] ، ولبَلاعِمه غَطِيطٌ[١٣] ، ولِطَرْفه وَميض ، ولأرْسَاغِهِ نَقِيضٌ[١٤] كأنما يَخْبِطُ هَشِيما ، أو يَطأُ صَرِيمًا[١٥] ، وإذا هامَةٌ كالمِجَنِّ[١٦] وخَدٌّ كالمِسَنِّ ، وعينان سَجْراوَان[١٧] كأنهما سراجان يتّقِدان ،

---

(١) أغن الذباب : صوت ، ويقال : واد مغن ، وهو الذى صار فيه صوت الذباب ، ولا يكون الذباب إلا فى واد مخصب معشب ، والغنة (بالضم) صوت فى الخيشوم ؛ والأغن : الذى يتكلم من قبل خياشيمه غن يغن بالفتح فهو أغن ، ومنه قالوا واد أغن : أى كثير العشب لأنه إذا كان كذلك ألفه الذباب وفى أصواتها غنة ، وروضة غناء كذلك ، أو تمر فيها الرياح غير صافية الصوت لكثافة عشبها .

(٢) رنت وأرنت : صاحت . (٣) الكنهبل : شجر عظام ، والمزاود : جمع مزود كمنبر ، وهو وعاء الزاد . (٤) صر الحمار بأذنه وصرها وأصر بها : سواها ونصبها للاستماع .

(٥) الحمحمة والتحمحم : صياح الفرس حين يقصر فى الصهيل ويستعين بنفسه ، وصوته إذا طلب العلف . (٦) خافت وفزعت ، كمكعته فتكعكع : جبنته وخوفته . (٧) الشكال : الحبل الذى تشد به قوائم الدابة . (٨) الجربان : غمد السيف . (٩) الرزدق : الصف من الناس والأرسال جمع رسل كسبب ، وهو القطيع من كل شىء .

(١٠) من ظلع كمنع : إذا غمز فى مشيه . (١١) جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو جنيب ومجنوب ومجنب والهجار : حبل يشد فى رسغ رجل البعير ثم يشد إلى حقوه ، وإن كان مرحولا شد إلى الحقب .

(١٢) النحيط : الزفير ، والناحط : من يسعل شديدا . (١٣) غط البعير غطيطا : هدر ، والنائم صوت وكذا المذبوح والمخنوق . (١٤) نقيض الأصابع والأضلاع والمفاصل : أصواتها .

(١٥) تمر صريم : أى مقطوع . (١٦) المجن : الترس . (١٧) عين سجراء : خالطت بياضها حمرة .

وقَصَرَةٌ رَبِلَةٌ(١) ، ولِهزِمَةٌ رَهِلَةٌ(٢) ، وَكَتَدٌ مُغْبَطٌ(٣) وَزَوْرٌ مُفْرَطٌ(٤) وساعدٌ مجدول ، وعَضُدٌ مفتول ، وكَفٌّ شَثْنَةُ البَرَاثِن(٥) إلى مخالبَ كالمَحَاجِنِ(٦) ، فضرب بيديه فأرْهَجَ(٧) ، وَكَشَرَ(٨) فأفرج عن أنيابٍ كالمعاوِلِ ، مصقولة، غير مَفْلولة ، وَفَمٍ أشدق(٩) كالغار الأخوق(١٠) ، ثم تَمَطَّى فأسرع بيديه ، وَحَفَزَ(١١) وَرِكَيه برجليه ، حتى صار ظِلُّهُ مِثْلَيه ، ثم أقعى(١٢) فاقشعرّ ، ثم مَثَلَ فا كفهرّ(١٣) ، ثم تجهَّمَ فازْبأرّ(١٤) فلا وَذو(١٥) بيتُه في السماء ، ما اتقيناه إلا بأخٍ لنا من فَزَارَة ، كان ضخمَ الجُزَارَة(١٦) ، فوَقَصَه(١٧) ثم نَقَضَهُ نَقْضَةً ، فقضقض(١٨) مَتْنَيْهِ ، فجعل يَلَغُ في دمه ، فَذَمَرْتُ(١٩) أصحابي ، فَبَعْدَ لأْيٍ(٢٠) ما استقدموا ، فهَجْهَجْنا(٢١) بهِ ، فكَرَّ مقشعِر الزُّبْرَةِ(٢٢) ،

---

(١) القصرة : أصل العنق؛ والربالة بالفتح: كثرة اللحم ، وهى ربلة ومتربلة .

(٢) اللهزمتان ناتئتان تحت الأذنين ، والجمع لهازم ، ورهل لحمه : كفرح انتفخ وورم من غير داء.

(٣) الكتد : مجتمع الكتفين ، أو الكاهل ، أو مابين الكاهل إلى الظهر ، وأغبط النبات : غطى الأرض ، وكثف وتدانى ، وأرض مغبطة بفتح الباء ، أى وكاهل مغطى بالشعر .

(٤) من أفرطه: إذا ملأه حتى أسال الماء فهو مفرط . (٥) ششنة : أى غليظة خشنة ، ششنت كفه : كفرح وكرم ، والبراثن : جمع برثن كبرقع ، وهو مخلب الأسد . (٦) المحاجن : جمع محجن كمنبر ومكنسة : العصا المعوجة وكل معطوف معوج . (٧) أرهج : أثار الغبار ، والرهج (كشمس وسبب) الغبار . (٨) كشر عن أسنانه : أبدى . (٩) من الشدق (كسبب) وهو سعة الشدق .

(١٠) من الخوق (كسبب أيضا) وهو السعة ومنه مفازة خوقاء . (١١) حفزه : دفعه .

(١٢) أقعى : جلس على استه مفترشا رجله ناصبا يديه . (١٣) مثل : قام منتصبا ، والمكفهر من الوجوه : الضارب لونه إلى الغبرة مع غلظ ، والمتعبس . (١٤) تجهمه وجهمه (كمنع وسمع) استقبله بوجه كريه ، وازبأر : تنفش . (١٥) ذو : بمعنى الذى فى لغة طيىء :

* فحسبى من ذو عندهم ما كفانيا *

(١٦) الجزارة : بالضم اليدان والرجلان والعنق . (١٧) وقص عنقه : كسرها . (١٨) من نقض البناء: أى هدمه، وقضقض: مزق . (١٩) الذمر : الملامة، والحض والتهدد . (٢٠) اللأى : الإبطاء والاحتباس . (٢١) هجهج بالأسد : صاح . (٢٢) الزبرة (كفرصة) هى الشعر المجتمع بين كتفى الأسد .

كأن به شَيْهَمًا[1] حَوْلِيًّا ، فاختاج[2] رجلا أعجَرَ ذا حَوايا ، فنقضه نقضة تَزايلت منها مَفاصله ، ثم هَمْهَمَ فقَرْقر[3] ، ثم زفر فبَرْبر[4] ، ثم زأر فَجَرْجَرَ[5] ، ثم لحظ ، فوالله لَخِلْتُ البرق يتطاير من تحت جفونه ، عنْ شِمَاله ويمينه ، فأُرْعِشَتِ الأَيْدِى ، واصْطَكَّت الأرجل ، وأطَّت[6] الأضلاع ، وارتجّت الأسماع ، وشَخَصَتِ[7] العيون ، وتحققت الظنون ، وانخزلت[8] المُتُون ، ولحِقت الظهور بالبطون ، ثم ساءت الظنون ، فقال له عثمان : اسكت قطع الله لسانك ! فقد أرعبت قلوب المسلمين » .

(الأغانى ١١ : ٢٣ والمحاسن والأضداد ص ١١٢)

---

(١) الشيهم : ماعظم شوكه من ذكران القنافذ ، والحولى : ماأتى عليه حول .

(٢) اختلج : جذب وانتزع ، والأعجر : السمين ، عجر : كفرح غلظ وسمن وضخم بطنه ، والحوايا جمع حاوية ؛ وهى ماتحوى من الأمعاء أى استدار ، والمعنى أنه عظيم البطن . (٣) الهمهمة : تردد الزئير فى الصدر ، وكل صوت معه بحح ، والقرقرة : هدير البعير . (٤) البربرة : الجلبة والصياح .

(٥) الجرجرة : صوت يردده البعير فى حنجرته . (٦) الأطيط : صوت الرحل والإبل إذا أنت تعبا أو حنينا ، وصوت الظهر ، والجوف من الجوع . (٧) شخص بصره كنع : فتح عينيه وجعل لايطرف . (٨) الانخزال والتخزل : مشية فى تثاقل . ومتنا الظهر : مكتنفا الصلب عن يمينه وشماله .

خلافة الإمام على

كرم الله وجهه

١٥٩ — وصية علىّ لقيس بن سعد

ولما قتل عثمان رضى الله عنه وولى علىّ بن أبى طالب الأمر ، دعا قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى وولاه مصر سنة ٣٦ هـ .

وقال له :

« سر إلى مصر فقد ولّيتكها ، واخرج إلى رحلك ، واجمع إليك ثقاتك ، ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فإن ذلك أرعب لعدوك ، وأعز لوليك ، فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن ، واشتد على المريب ، وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يُمْن » . (تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٧)

١٦٠ — خطبة لقيس بن سعد

ولما دخل قيس مصر قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال :

« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين .

أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » .

فقام الناس فبايعوا . (تاريخ الطبرى ٥ : ٢٢٨)

فتنة أصحاب الجمل

ولما قدمت السيدة عائشة رضى الله عنها البصرة ، للطلب بدم عثمان ، خرج إليها من أهلها من أراد أن يكون معها ، واجتمع القوم بالمِرْبد ، وجعلوا يثوبون ، حتى غَصّ بالناس ، فتكلم طلحة ، فأنصتوا له :

١٦١ — خطبة طلحة

حمد الله وأثنى عليه ، وذكر عثمان رضى الله عنه وفضله ، والبلد وما اُسْتُحِلّ منه ، وعظم ما أتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدمه وقال :

« إن فى ذلك إعزازَ دين الله عزّ وجل وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم ، فإنه حَدٌّ من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أمركم إليكم ، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام » .

وتكلم الزُّبير بمثل ذلك ، ثم تكلمت السيدة عائشة وكانت جَهْوَرِية الصوت .

١٦٢ — خطبة السيدة عائشة بالمربد

حمدت الله عزّ وجل ، وأثنت عليه وقالت :

« كان الناس يتجنَّوْن[1] على عثمان رضى الله عنه ، وَيُزْرُون[2] على عماله ، ويأتوننا بالمدينة ، فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ، فننظر فى ذلك فنجده بريًّا ، تقيًّا وفيًّا ،

---

(١) تجنى عليه : ادعى ذنبا لم يفعله . (٢) زرى عليه : عابه كأزرى لكنه قليل .

وبجدهم فَجَرَة غدَرة كَذَبة ، يحاولون غير ما يُظْهرون ، فلما قَوُوا على المكاثرة كاثروه ، واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدّم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا تِرَة[1] ولا عذر ، ألاَ إن مما ينبغى ، لاينبغى لكم غيره ، أَخْذَ قَتَلَةِ عثمان رضى الله عنه ، وإقامة كتاب الله عزَّ وجل : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) الآية » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٧٥ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٥)

١٦٣ — خطبة لعلى

وخطب علىّ لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة فقال :

« أيها الناس : إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير ، وكلٌّ منهما يرى الأمر له دون صاحبه ، أما طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فَخَتَنُهَا ، والله لو ظفِروا بما أرادوا — ولن ينالوا ذلك أبدا — ليضربنَّ أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد ، والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة ، إلا فى معصية الله وسخطه ، حتى تُورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، إى والله ليُقْتَلَنَّ ثلثهم ، وليَهْرُبَنَّ ثلثهم ، وليتوبن ثلثهم ، وإنها التى تنبحها كلاب الحوأب ، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان ، ورُبَّ عالم قتله جهله ، ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا اللهُ ونعم الوكيل ، فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلتُهم كافرين ، ولأقتلنّهم مفتونين ، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلاّ أنّا أدخلناها فى حيِّزنا ، والله لَأَبْقَرَنَّ الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، فَقل لقريش فلتضجَّ ضجيجَها » ثم نزل .

(ابن أبى الحديد م ١ : ص ٧٨)

---

(١) علر .

١٦٤ — خطبة لعلى

ولما رجعت رسل علىّ من عند طلحة والزبير وعائشة يُؤْذنونه بالحرب قام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« أيها الناس : إنى قد راقبت هؤلاء القوم كى يرعووا أو يرجعوا ، ووبختهم بنكثهم ، وعرفتهم بغيهم فلم يستحيوا ، وقد بعثوا إلىّ أن ابرُز للطعان ، واصبر للجلاد ، وإنما تمنيك نفسك أمانىّ الباطل ، وتَعِدُك الغرور ، ألا هَبِلَتهم[1] الهَبول ؛ لقد كنت وما أهدَّد بالحرب ، ولا أرهَب بالضرب ، ولقد أنصف القارةَ[2] من راماها ، فليرعدوا وليبرقوا ، فقد رأونى قديما ، وعرفوا نكايتى ، فكيف رأونى ؟ أنا أبو الحسن الذى فللتُ حدَّ المشركين ، وفرّقت جماعتهم ، وبذلك القلب ألقى عدوِّى اليوم ، وإنى لعلى ما وعدنى ربى من النصر والتأييد ، وعلى يقين من أمرى ، وفى غير شبهة من دينى .

أيها الناس : إن الموت لايفوته المقيمُ ، ولا يُعجزه الهارب ، ليس عن الموت مَحِيد ولا مَحِيص ، من لم يُقتل مات ، إن أفضل الموت القتل ، والذى نفس علىٍّ بيده لألفُ ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش .

اللهم إنَّ طلحة نكث بيعتى ، وألب على عثمان حتى قتله ، ثم عِضَهَنِى[3] به ورمانى ، اللهم فلا تُمْهِله .

اللهم إن الزبير قطع رحمى ، ونكث بيعتى ، وظاهر علىَّ عدوى ، فاكفنيه اليوم بما شئت » ثم نزل . (ابن أبى الحديد م ١ : ١٠١)

---

(١) هبلته أمه : ثكلته .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . (٣) عضهه : بهته وقال فيه مالم يكن .

١٦٥ — خطبة لعلى

حمد الله وصلى على رسوله ثم قال :

« أما بعد فإنه لما قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، قلنا نحن أهله وورثته وعِتْرَته وأولياؤه دون الناس ، لا ينازعنا سلطانَه أحد ، ولا يطمع فى حقنا طامع ، إذ انبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبينا ، فصارت الإمرة لغيرنا ، وصرنا سُوقة يطمع فينا الضعيف ، ويتعزز علينا الذليل ، فبكت الأعين منا لذلك ، وخشُنت الصدور ، وجزعت النفوس .

وأيْمُ اللهِ لولا مخافة الفُرقة بين المسلمين ، وأن يعود الكفر ويبور الدين ، لكنا على غير ما كنا لهم عليه ، فولِىَ الأمر ولاةٌ لم يَألوا الناسَ خيرا ، ثم استخرجتمونى أيها الناس من بيتى ، فبايعتمونى على شَيْنٍ منى لأمركم ، وفِرَاسة تصدُقنى ما فى قلوبِ كثيرٍ منكم ، وبايعنى هذان الرّجلان فى أول من بايع — تعلمون ذلك — وقد نكثا وغدرا ونهضا إلى البصرة بعائشة ، ليفرقا جماعتكم ، ويُلقيا بأسكم بينكم ، اللهمّ فخذهما بما عملا أخذةً واحدة رابية ، ولا تَنعَشْ لهما صرعة ، ولا تُقِل لهما عثرة ، ولا تُمهلهما فُواقا[1] ، فإنهما يطلبان حقا تركاه ، ودما سفكاه ، اللهم إنى أقتضيك وعدَك ، فإنك قلت وقولك الحق « ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ » اللهم فأنجز لى موعودك ، ولا تكلْنى إلى نفسى إنّك على كل شىء قدير » .

(ابن أبى الحديد م ١ : ١٠١)

١٦٦ — خطبة عدى بن حاتم

يستنفر قومه لنصرة الإمام علىّ

ولما شَخَصَ الإمام علىّ كرّم الله وجهَهُ من المدينة إلى البصرة وقد علم بمسير طلحة والزبير وعائشة إليها ، قام عدى بن حاتم إليهِ فقال : يا أمير المؤمنين لو تقدمتُ إلى قومى

(١) الفواق بالضم ويفتح : ما بين الحلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع .

أخبرهم بمسيرك ، وأستنفِرهم ، فإن لك من طيئ مثلَ الذى معك ، فقال علىّ : نعم فافعل ، فتقدم عدى إلى قومهِ ، فاجتمعت إليهِ رؤساء طيئ ، فقال لهم :

« يا معشر طيئ : إنكم أمسكتم عن حرب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فى الشِّرك ، ونصرتم الله ورسوله فى الإسلام على الرِّدَّة ، وعلىٌّ قادمٌ عليكم ، وقد ضَمِنْتُ له مثلَ عِدَّةِ مَنْ معهُ منكم ، فَخِفُّوا [1] معهُ ، وقد كنتم تقاتلون فى الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا فى الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغانمُ كثيرةٌ ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضَمِنْت عنكم الوفاء ، وباهيت بكم الناسَ ، فأجيبوا قولى ، فإنكم أعز العرب داراً ، لكم فَضْلُ معاشكم وخيلكم ، فاجعلوا فضل المعاش لِلْعِيَالِ [2] ، وفضول الخيل للجهاد ، وقد أظلكم علىّ والناس معهُ من المهاجرين والبدريين [3] وَالأنصار ، فكونوا أكثرهم عددا ، فإن هذا سَبِيلٌ للحى فيهِ الغنى والسرور ، وللقتيل فيهِ الحياة والرزق » .

فصاحت طيئ : نعم نعم ! حتى كاد أن يُصَمَّ من صياحهم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٥)

١٦٧ — خطبة زفر بن زيد
يستنفر قومه لنصرة علىّ أيضاً

وقام إلى علىّ زفر بن زيد الأسدى — وكان من سادة بنى أسد — فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طيئاً إخوانَنا وجيرانَنا قد أجابوا عَدِيًّا ، ولى فى قومى طاعة ، فأْذَنْ لى فآتيَهم ، قال : نعم ، فأتاهم فجمعهم ، وقال :

---

(١) أى ارتحلوا مسرعين . (٢) جمع عيل (كجيد) وهو من يجب الإنفاق عليه .

(٣) أى الذين حضروا وقعة بدر .

« يا بنى أسد : إن عَدِىّ بن حاتم ضَمِن لعَلِىّ قومَهُ ، فأجابوه ، وقضَوا عنه ذِمَامَهُ[(١)] ، فلم يَقتَلْ الغَنِىّ بالغِنَى ، ولا الفقيرُ بالفقر ، وواسى بعضهم بعضاً حتى كأنهم المهاجرون فى الهجرة ، والأنصار فى الأَثَرَة[(٢)] ، وهم جيرانكم فى الديار ، وخُلَطاؤكم[(٣)] فى الأموال ، فأنشُدكم الله لايقولُ الناس غداً : نصرت طيئ ، وَخَذَلَتْ بنو أسد ، وإن الجار يُقاس بالجار ، كالنعل بالنعل ، فإن خِفتم فتوسَّموا فى بلادهم ، وانضموا إلى جبلهم ، وهذه دعوة لها ثَوَابٌ من الله فى الدنيا والآخرة » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٦)

١٦٨ — خطبة على بالربذة

روى الطبرى قال :

لما أتى عليا الخبر — وهو بالمدينة — بأمر عائشة وطلحة والزبير أنهم قد توجهوا نحو العراق ، خرج يبادر وهو يرجو أن يدركهم ويردهم ، فلما انتهى إلى الرَّبَذة[(٤)] أتاه عنهم أنهم قد أمعنوا ، فأقام بالربذة أياما ، وبقى بها يتهيأ ، وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح ، وقام فى الناس فخطبهم وقال :

« إن الله عز وجل أعزنا بالإسلام ، ورفَعَنا به ، وجعلنا به إخوانا بعد ذِلة وقِلة ، وتباغُض وتباعُد ، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله ، الإسلامُ دينُهم ، والحقُّ فيهم ، والكتابُ إمامهم ، حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان ، لِيَنْزَغ بين هذه الأمة ، ألا إن هذه الأمة لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شر ماهو كائن .

---

(١) العهد والحرمة . (٢) أى يؤثر كل منهم أخاه على نفسه ، ويفضله كما فعل الأنصار بالمهاجرين « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » (٣) الخلطاء : جمع خليط ، وهو الشريك.
(٤) قرب المدينة .

ثم عاد ثانية فقال : إنه لابد مما هو كائن أن يكون . ألَا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي ، فقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينكم واهدَوا بهَدْى نبيكم صلى الله عليه وسلم واتبعوا سنته ، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فما عرّفه القرآن فالزموه ، وما أنكره فردوه ، وارضَوا بالله عز وجل ربًّا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن حكما وإماما » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٥)

١٦٩ خطبة سعيد بن عبيد الطائى

ولما كان الإمام علىّ كرّم الله وجههُ بالرَّبَذَة ، أتتهُ جماعة من طيئ ، فقيل لعلىّ : « هذه جماعة من طيئ قد أتتك ، منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك » قال : « جزى الله كُلاً خيراً ، وَفَضَّلَ اللهُ الُمجاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أجْرًا عَظِيماً » ثم دخلوا عليهِ ، فقال علىّ : ما شهِدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكلّ ما تحبُّ ، قال : « جزاكم الله خيراً ، فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بِصَدَقاتكم المسلمين » فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن من الناس مَنْ يُعَبِّر لسانه عما فى قلبهِ ، وإنى واللهِ ما كُلُّ ما أَجِدُ فى قلبي يُعَبِّر عنه لسانى ، وسأَجْهَدُ (وبالله التوفيق) أما أنا فسأنصح لك فى السِّرِّ والعَلَانية ، وأقاتل عدوَّكَ فى كلّ موطن ، وأرى لك من الحق ما لا أراه لأَحد من أهل زمانك ، لفضلك وقرابتك » .

قال : رحمك الله ! قد أدّى لسانك عما يُجِنُّ[1] ضميرك ، فقتل معه بصفين رحمه الله !

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٤)

---

(١) يجن : أى يستر ويخفى .

١٧٠ — خطبة الحسن بن على

ولما دخل الحسن وعمار الكوفة اجتمع إليهما الناس فقام الحسن فاستنفر الناس .
فحمد الله وصلى على رسوله ثم قال :

« أيها الناس إنّا جئنا ندعوكم إلى الله و إلى كتابه وسنة رسوله ،و إلى أفقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهّله السنة ، ولم تقعد به السابقة ، إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مأثَرة ، إلى من كفى الله ورسوله والناس متخاذلون ، فقرُب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، و بارز معه وهم محجمون ، وصدّقه وهم يكذبون ، إلى من لم تردّ له ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ، ويدعوكم إلى الحق ، ويأمركم بالمسير إليه لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعماله ، وانتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا إليه رحمكم الله ،فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ٢٩٢)

١٧١ — خطبة أخرى للحسن

« الحمد لله العزيز الجبار ، الواحد القهار ، الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار ، أحمده على حسن البلاء ، وتظاهُر النعماء ، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، امتن علينا بنبوته ، واختصه برسالته ، وأنزل عليه وحيه ، واصطفاه على جميع خلقه ، وأرسله إلى الإنس والجن ، حين عُبدت الأوثان ، وأطيع الشيطان ،وجحد الرحمن،وصلى الله عليه وعلى آله ، وجزاه أفضل ماجزى المسلمين .

أما بعد ، فإنى لا أقول لكم إلا ما تعرفون ، إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، أرشد الله أمره ، وأعز نصره ، بعثنى إليكم يدعوكم إلى الصواب ، و إلى العمل بالكتاب ، والجهاد فى سبيل الله ، و إن كان فى عاجل ذلك ما تكرهون ، فإن فى آجله ما تحبون إن شاء الله .

ولقد علمتم أن عليا صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وحده . و إنه يوم صدَّق به لفى عاشرة من سِنه ، ثم شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله جميع مشاهده ، وكان من اجتهاده فى مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة فى الإسلام ما قد بلغكم ، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله راضياً عنه ، حتى غمضه بيده ، وغسّله وحده ، والملائكة أعوانه ، والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء ، ثم أدخله حفرته ، وأوصاه بقضاء دينه وعِداته وغير ذلك من أموره ، كل ذلك مِن مَنّ الله عليه .

ثم والله ما دعا إلى نفسه ، ولقد تداكّ الناس عليه تداكّ الإبل الهِيم عند ورودها ، فبايعوه طائعين ، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدث أحدثه ، ولا خلاف أتاه ، حسدا له و بغيا عليه .

فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة بالله والخفوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين ، عصمنا الله و إياكم بما عصم به أولياءه وأهل طاعته ، وألهمنا و إياكم تقواه ، وأعاننا و إياكم على جهاد أعدائه ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ٢٩٢)

١٧٢ — خطبة عمار بن ياسر

وقام بعده عمار ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

أيها الناس أخو نبيكم وابن عمه يستنفركم لنصر دين الله وقد بلاكم الله بحق دينكم ، وحرمة أمكم ، فحق دينكم أوجب ، وحرمته أعظم .

« أيها الناس عليكم بإمام لا يؤدَّب ، وفقيه لا يعلَّم ، وصاحب بأس لا ينكُل ، وذى سابقة فى الإسلام ليست لأحد ، وإنكم لو قد حضرتموه بَيَّن لكم أمركم إن شاء الله » .

١٧٣ — خطبة أبى موسى الأشعرى

فلما سمع أبو موسى الأشعرى خطبة الحسن وعمار قام فصعد المنبر وقال :

الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد فجمعنا بعد الفرقة ، وجعلنا إخواناً متحابين بعد العداوة وحرّم علينا دماءنا وأموالنا، قال الله سبحانه : (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) وقال تعالى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) فاتقوا الله عباد الله . وضعوا أسلحتكم ، وكفوا عن قتال إخوانكم .

أما بعد ، يأهل الكوفة إن تطيعوا الله باديا ، وتطيعونى ثانيا تكونوا جُرثومة[1] من جراثيم العرب ، يأوى إليكم المضطر ، ويأمن فيكم الخائف ، إن علياً إنما يستنفركم لجهاد أمكم عائشة وطلحة والزبير حوارىّ رسول الله ومن معهم من المسلمين، وأنا أعلم بهذه الفتن. إنها إذا أقبلت شبَّهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إنى خائف عليكم أن يلتقى غارّان منكم فيقتتلا ، ثم يُتركا كالأحلاس الملقاة بِنَجوة من الأرض لا يُدرى من أين تؤتَى ، تترك الحليم حيران ، كأنى أسمع رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس يذكر الفتن فيقول : أنت فيها نائماً خير منك قاعداً ، وأنت فيها جالساً خير منك قائماً ، وأنت فيها قائماً خير منك ساعياً ، فثلِّموا سيوفكم ، وقصِّفوا رماحكم ، وأنصِلوا[2] سهامكم ، وقطعوا أوتاركم ، وخلوا قريشاً ترتُق فتقها ، وترأب صَدْعها ، فإن فعلتْ فلأنفسها مافعلت، وإن أبت فعلى أنفسها ما جنتْ ، سمنها فى أديمها ، استنصحونى ولا تستغشونى ، وأطيعونى ولا تعصونى ، يتبين لكم رشدكم ، وتصلى هذه الفتنة من جناها . (شرح ابن الحديد م ٢٩٣)

---

(١) جرثومة الشىء: أصله . (٢ أنصل السهم ونصله بالتشديد: جعل فيه نصلا وأزاله عنه ـ ضد ـ .

صورة أخرى

١٧٤ — خطبة أبي موسى الأشعري

وكاتب الإمام عليّ من الرَّبَذَة أبا موسى الأشعري — وكان عامله على الكوفة — ليستنفر الناس لقتال عائشة ومن معها ، فثبّطهم وخطبهم ، فقال :

« أيها الناس : إن أصحاب النبي صلى الله عليهِ وسلم الذين صحبوه في المواطن ، أعلم بالله جلّ وعزّ وبرسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبهُ ، وإن لكم علينا حقا ، فأنا مؤدِّيه إليكم ، كان الرأى ألاَّ تَستَخِفُّوا بسلطان الله عزّ وجلّ ، ولا تجترئوا على الله عزّ وجلّ ، وكان الرأى الثاني أن تأخذوا مَنْ قَدِم عليكم من المدينة فتردوهم إليها ، حتى يجتمعوا ، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ، وَلاَ تَتكَلَّفُوا الدخُولَ في هذا ، فأما إذ كان ما كان ، فإنها فتنة صمّاء ، النائمُ فيها خير من اليقظانِ ، واليقظانُ فيها خير من القاعد . والقَاعِد خير من القَائِمِ ، وَالْقَائِمُ خير من الراكب ، فكونوا جُرْثومة من جرائيم العرب ، فأَغْمِدُوا[1] السيوف ، وَأَنصِلُوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وَآوُوا المظلوم وَالمُضْطَهَد ، حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجلى هذه الفتنة » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٧ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١١٣)

---

(١) غمد السيف يغمده كنصر وضرب وأغمده : جعله في الغمد .

١٧٥ — صورة أخرى

وخطب أيضًا فى هذا الصَّدَد، فقال :

« أيها الناس : أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب، يأوى إليكم المظلومُ، ويأمن فيكم الخائف ، إنا أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم أعلمُ بما سمعنا ، إن الفتنة إذا أقبلت شُبِّهت، وإذا أدبرت بيِّنت ، وإن هذه الفتنة باقرة[1] كداء البطن ، تجرى بها الشَّمال وَالجَنُوب، وَالصبا[2] والدَّبور، فتسكن أحيانًا، فلا يُدْرَى من أين تؤتى ، تَذَر الحليم كابْنِ أمس ، شِيموا[3] سيوفكم ، وَقَصِّدوا[4] رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم، والزموا بيوتكم ، خَلُّوا قريشًا إذَا أَبَوْا إلاَّ الخروجَ من دار الهجرة ، وفراق أهل العلم بالإمرة ، ترتُق[5] فتقها ، وَتَشْعَب[6] صدْعها ، فإن فعلت فلأنفسها سَعَت، وإن أبت فعلى أنفسها جنت ، سمَنَها تُهَريق فى أديمها ، استنصحونى ولا تستغِشُّونى، وأطيعونى يَسْلَم لكم دينكم ودنياكم، ويشقى بِحَرِّ هذه الفتنة من جناها » .

١٧٦ — خطبة زيد بن صوحان

فقام زيد بن صوحان ، فشال[7] يده المقطوعة، فقال :

« يا عبد الله[8] بْنَ قيس ، رُدَّ الفُرات عن أدراجه[9] ، أُردُده من حيث يجىء ،

---

(١) فتنة باقرة : صادعة للألفة شاقة للعصا . وفى الكامل لابن الأثير : فاقرة بالفاء ، وهى الداهية تكسر فقار الظهر . (٢) الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . والدبور : ريح تقابلها . (٣) شام سيفه يشيمه : غمده واستله ، ضد . (٤) التقصيد والقصد : الكسر بأى وجه كان أو بالنصف ، ورمح قصد ككتف وقصيد وأقصاد متكسر . (٥) رتق الفتق : سده . (٦) الشعب : الإصلاح والإفساد، والجمع والتفريق ، ضد . (٧) شال : رفع ، قطعت يده يوم جلولاء، وقيل بالقادسية فى قتال الفرس ، وقتل يوم الجمل (أسد الغابة ٢ : ٢٣٤) . (٨) هو اسم أبى موسى . (٩) جمع درج بفتحتين ، وهو الطريق .

حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك ، فستقدر على ما تريد ، فدع عنك ما لست مُدْرِكَه ، ثم قرأ : (الم ، أحَسِبَ النَّاسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وَانْفِرُوا[1] إليه أجمعين ، تصيبوا الحق » .

١٧٧ — خطبة القعقاع بن عمرو

فقام القعقاع بن عمرو فقال :

« إنى لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن تَرْشُدُوا[2] ، وَلأَقُولَنَّ لكم قولاً هوَ الحق ، أما ما قال الأمير فهو الأمر ، لو أن إليه سبيلاً ، وأما ما قال زيد فزيد عدوّ هذا الأمر ، فلا تستنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها ، وجرى إليها ، والقول الذى هو الحق أنه لا بدّ من إمارة تنظِم الناس ، وَتَزَع[3] الظالم ، وتُعِز المظلوم ، وهذا علىّ يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفِروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع » .

١٧٨ — خطبة سيحان بن صوحان

وقال سَيحان :

« أيها الناس : إنه لا بدّ لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال ، يدفع الظالم وَيُعِز المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه[4] ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين ، فمن نَهَض إليه ، فإنا سائرون معه » .

---

(١) اذهبوا . وكانت السيدة عائشة قد كتبت إليه كتابا تأمره فيه بملازمة بيته أو نصرتها ، فقال : أمرت أن تقر فى بيتها ، وأمرنا أن نقاتل حتى لاتكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ماأمرنا به .

(٢) رشد : كنصر وفرح . (٣) تردع وتكف . (٤) طلحة والزبير .

١٧٩ — خطبة الحسن بن على

وقام الحسن بن على رضى الله عنه ، فقال :

« أيها الناس : أجيبوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من يَنْفِر إليه ، والله لَأَن يَلِيَه أُولو النهى أمثلُ فى العاجلة ، وخيرٌ فى العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا ، وَأَعِينُونا على ما ابتلينا به وابتليتم ، وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجى هذا ظالمًا أو مظلومًا ، وإنى أذكّر الله رجلاً رَعَى حق الله إلاَّ نَفَرَ ، فإن كنت مظلوما أعاننى ، وإن كنت ظالمًا أخذ منى ، والله إن طلحة والزبير لأَول من بايعنى ، وأول من غدر ، فهل استأثرت بمال ، أو بَدَّلت حكما ؟ فانفِرُوا ، فروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١١٤)

١٨٠ — وفادة القعقاع بن عمرو إلى أصحاب الجمل

ولما نزل الإمام علىّ كرم الله وجهه بذى قارٍ ، دَعا القَعْقَاع بن عمرو ، فأرسله إلى أهل البصرة ، وقال له : اِلْقَ هذين الرجلين — طلحة والزبير — يابن الحنظلية ، « وكان القعقاع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » فادْعُهما إلى الأُلفة والجماعة ، وعظِّم عليهما الفُرْقة ، وقال له : كيف أنت صانع فيما جاءك منهما ، مما ليس عندك فيه وَصاةٌ [(١)] منى ؟ فقال : نلقاهم بالذى أمرت به ، فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا الرأى ، وَكلَّمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى ، قال : أنت لها .

---

(١) وصية .

فخرج القعقاع حتى قَدِم البصرة فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فسلم عليها ، وقال : أىْ أُمَّهْ : ما أَشْخَصَك وما أَقْدَمَك هذه البلدة ؟ قالت : أىْ بُنَىَّ : إصلاح بين الناس ، قال : فابعثى إلى طلحة والزبير ، حتى تسمعى كلامى وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال: إنى سألت أم المؤمنين ما أَشْخَصَهَا وأَقْدَمَهَا هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أَمُتابعان أم مُخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال : فأخبرانى ، ما وجه هذا الإصلاح ؟ فو الله لئن عرَفناه لَنُصْلِحَنَّ ، ولئن أنكرناه لاَ نُصْلِح ، قالا : قَتَلة عثمان رضى الله عنه ، فإن هذا إنْ تُرِكَ كان تَرْكاً للقرآن ، وإن عُمِل به كان إحياء للقرآن ، فقال : قد قتلتما قَتَلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبلَ قتلهم أقربُ إلى الاستقامة منكمْ اليوم ، قتلتم ستمائةٍ إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظْهُرِكم ، وطلبتم ذلك الذى أَفْلَتَ — يَعْنِى حُرْقوص بن زُهَيْر — فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأُدِيلُوا[1] عليكم ، فالذى حَذِرتم وقَرِبتم[2] به هذا الأمر أعظم مما أَراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مُضَرَ وربيعة من هذه البلاد ، فاجْتَمِعوا على حربكم وَخِذلانكم نُصْرَةً لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحَدَث العظيم ، والذنب الكبير » .

فقالت أم المؤمنين: فتقول أنت ماذا ؟ قال : أقول هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا[3] ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خيرٍ ، وتباشيرُ رحمةٍ ، وَدَرَكٍ بثأرِ هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأُمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرةَ هذا الأمر واعتسافَه ، كانت علامة شرّ وذهاب هذا الثأر، وبعثة الله فى هذه الأمة هَزَاهِزَها[4]، فآثِرُوا العافية تُرْزَقوها ، وكونوا مفاتيح الخير ، كما كنتم تكونون، ولا تعرِّضونا للبلاء ، ولا تَعرَّضوا

---

(١) أى غلبوكم وانتصروا عليكم . (٢) قربه (كسمع) قرب منه (ككرم) .

(٣) اضطربوا وتفككوا . (٤) الهزهزة والهزاهز : تحريك البلايا والحروب الناس .

له ، فَيَصْرَعَنا وإيا كم ، وَأَيْمُ اللهِ إنى لأقول هذا وأدعوكم إليهِ ، وَإنى لخائفٌ ألاّ يَتِمّ حتى يأخذ الله عزَّ وجلَّ حاجته من هذه الأمة ، التى قلَّ متاعُها ، ونزل بِهَا ما نزل ، فإن هذا الأمر الذى حدث ليس يُقَدَّر ، وليس كالأمور ، ولا كقتلِ الرَّجُلِ الرجلَ ، ولا النفر الرجلَ ، ولا القبيلةِ الرجلَ » .

فقالوا : نعم ، إذن قد أحسنتَ وأصبت المقالة فارجع ، فإن قَدِمَ علىّ ، وهو على مثل رأيك، صلح هذا الأمر ، فرجع إلى علىّ فأخبره ، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح[1] .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٩١)

١٨١ - خطبة على بن أبى طالب

فلما رجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير ، جمع الإمام علىٌّ الناس ، ثم قام على الغرائر ، فحمِدَ الله عزَّ وجلَّ ، وأثنى عليهِ ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم، وذكر الجاهلية وَشَقَاهَا ، والإسلاَم والسَّعادة ، وإنعامَ الله على الأمة بالجماعة بالخليفة ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذى يليهِ ، ثم الذى يليهِ ، ثم حَدَثَ هذا الحدَثُ ، الذى جرَّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حَسَدوا من أفاءها الله عليهِ على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها، والله بالغٌ أمرَه ، ومُصِيبٌ ما أراد ، ألا إنى راحلٌ غداً فارتحلوا، ألا ولا يَرْتحلن غداً أحدٌ أعان على عثمان رضى الله عنه بشىء ، فى شىء من أمور الناس ، وَلْيُغنِ السفهاء عنى أنفسَهم » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٩٤)

---

(١) ولكن السبئيين أحبطوا مساعى الصلح ، إذ خرجوا فى الغلس دون أن يشعر بهم أحد ؛ فقصد مضرهم مضر البصرة ، وربيعتهم ربيعة البصرة ، ويمنهم يمن البصرة ، ووضعوا فيهم السلاح . فثار كل قوم فى وجوه أصحابهم ، ودارت رحى القتال بينهم ، وكلا الفريقين لا يعلم بكنه تلك المكيدة ، وكان بينهما ما كان .

١٨٢ — خطبة لعلى

ولما أراد علىّ المسير إلى البصرة قام فخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وصلى على رسوله :

إن الله لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله . استأثرت علينا قريش بالأمر ، ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة ، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين ، وسفك دمائهم ، والناسُ حديثو عهد بالإسلام ، والدين يُمخض مخض الوَطْب[1] يفسده أدنى وهن ، وينكسُه[2] أقل خلق ، فولِيَ الأمرَ قوم لم يألوا فى أمرهم اجتهادا ، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء ، والله ولىّ تمحيص سيئاتهم ، والعفو عن هفواتهم ، فما بال طلحة والزبير — وليسا من هذا الأمر بسبيل — لم يصبرا علىّ حَولا ولا أشهرا حتى وَثَبا ومَرَقا ، ونازعانى أمرا لم يجعل الله لهما إليه سبيلا ، بعد أن بايعانى طائعين غير مكرهين ، يرتضعان أمًّا قد فَطِمت ، ويحييان بدعة قد أميتت ، أَدَمَ عثمان زَعَمَا ؟ والله ما التبِعة إلا عندهم وفيهم ، وإن أعظم حجتهم لعلى أنفسهم ، وأنا راض بحجة الله عليهم وعلمِه فيهم ، فإن فَاءَا وأنابا فحظهما أحرزا ، وأنفسهما غنِما ، وأعظِمْ بهما غنيمةً ، وإن أبيا أعطيتهما حَدَّ السيف ، وكفى به ناصرا لِحَقٍّ ، وشافيا لباطل » ثم نزل .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ١٠٢)

---

(١) الوطب : سقاء اللبن . (٢) فى الأصل « ويعكسه » وأراه محرفا ، نكسه : قلبه على رأسه .

١٨٣ - خطبة لعلى

وخطب فقال :

« الحمد لله على كلّ أمر وحال ، فى الغدوّ والآصال ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ابتعثه رحمة للعباد ، وحياة للبلاد ، حينَ امتلأت الأرض فتنة ، واضطربَ حبلها ، وعُبِد الشيطان فى أكنافها ، واشتمل عدوّ الله إبليس على عقائد أهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذى أطفأ الله به نيرانها ، وأخمد به شرارَها ، ونزع به أوتادها ، وأقام به ميلها ، إمام الهدى ، والنبى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد صدع بما أُمر به ، وبلَّغ رسالات ربه ، فأصلح الله به ذات البين ، وآمن به السبل ، وحقن به الدماء ، وألّف به بين ذوى الضغائن الواغرة فى الصدور ، حتى أتاه اليقين ، ثم قبضه الله إليه حميدا .

ثم استخلف الناس أبا بكر فلم يأل جهده ، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يأل جهده ، ثم استخلف الناس عُثمان ، فنال منكم ونلتم منه ، حتى إذا كان منْ أمره ما كان ، أتيتمونى لتبايعونى فقلتُ لا حاجة لى فى ذلك ودخلتُ منزلى فاستخرجتمونى ، فقبضت يدى فبسطتموها ، وتداككتم علىّ حتى ظننت أنكم قاتلىّ ، وأن بعضكم قاتلُ بعض ، فبايعْتمونى وأنا غير مسرور بذلك ولا جَذِل ، وقد علم الله سبحانه أنى كنت كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وآله ، ولقد سمعته صلى اللهُ عليه وآله يقول : « مَا مِنْ وَالٍ يَلِى شيئًا مِنْ أمْرِ أمَّتى إلاّ أُتِىَ بهِ يوْم القِيامةِ مغْلولةً يَداهُ إلى عُنقِهِ عَلَى رُءوسِ الخَلاَئق، ثمّ يُنشر كِتابهُ، فإنْ كَانَ عَادِلًا نجَا ، وإنْ كانَ جَائِرًا هَوَى » حتى اجتمع علىّ ملؤكم ، وبايعنى طلحة والزبير، وأنا أعرف الغدر فى أوجههما ، والنَّكْثَ فى أعْيُنهما ، ثم استأذنانى فى العمرة فأعلمتهما أنْ ليس العمرةَ يريدان، فسارَا إلى مكَّة واستخفا عائشة وخدَعاها، وشخص معهما أبْناء الطُّلَقاء ، فقدِموا البصرة فقتلوا بها المسلمين وفعلُوا المنكر ، ويا عجبا

لاستقامتهما لأبى بكرٍ وعمر وبغيهما علىّ وهما يعلمَان أنى لست دون أحدهما ، ولوْ شِئت أن أقول لقلتُ ، ولقد كانَ معاوية كتب إليهماَ من الشَّام كتابًا يخدعهما فيه ، فكتماهُ عنِّى ، وخرجا يوهمَان الطَّغام أنهما يطلبان بدم عثمان ، واللهِ ما أنكرا علىّ منكرا ، ولا جعلا بيْنى وبينهم نصَفا ، وإن دم عُثمان لمعصوب بهما ومطلوبٌ منهما ، ياَ خيْبةَ الدَّاعى إلامَ دعا ؟ وبماذا أجيبَ ؟ واللهِ إنهما لعلَى ضلالة صَمَّاء ، وجهَالةٍ عمْياء ، وإنَّ الشيطان قد ذمر لها حزبَه ، واستجلب منْهما خيله ورَجِله ، ليعيد الجور إلى أوْطانه ، ويردّ الباطل إلى نصابه .

ثم رفع يديه فقال : اللَّهم إنَّ طلحة والزبير قطعانى وظلمانى وألَّبا علىّ ، فاحلُل ما عقدا ، وانكُث ما أبرما ، ولا تغفر لهما أبداً ، وأرِهما المساءة فيما عملا وأمَّلا » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ١٠٢)

١٨٤ — خطبة الأشتر

فقام إليه الأشتر فقال :

« الحمد لله الذى منّ علينا فأفضل ، وأحسن إلينا فأجمل ، قد سمِعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، ولقد أصبتَ ووُفقتَ وأنت ابن عم نبيِّنا ، وصهره ووصيه ، وأوّل مصدّق به ومصلّ معه ، شهِدت مشاهدَه كلها ، فكان لك الفضل فيها على جميع الأمَّة ، فمن اتبعك أصاب حظه، واستبشر بفَلْجه[1] ، ومن عصاك ورغبَ عنك فإلى أمه الهاوية، لعمرى يا أمير المُؤمنين ما أمر طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخِيل[2]، ولقد دخلَ الرّجلان فيما دخلا فيه، وفارقَا على غير حَدَث أحدثْتَ ولا جَور صنعتَ، فإن زعما أنهما يطلبان بدم عُثمان فليُقيدا من أنفسهما ، فإنهما أوّل من ألب عليه وأغرى النَّاس بدمه ، وأشهد الله لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لنلحقنهُما بعثمان ، فإنَّ سيوفنا فى عواتقنا ،وقلوبنا فى صُدُورنا ، ونحن اليوم كما كنَّا أمس » ثم قعد .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ١٠٢)

---

(١) الفلج : الفوز. (٢) من أخالت الناقة إذا كان فى ضرعها لبن ، والأرض بالنبات ازدانت.

١٨٥ — خطبة السيدة عائشة (توفيت سنة ٥٧ هـ)

وخطبت السيدة عائشة وقد أخذ الناس مصافَّهم للحرب فقالت :

« أما بعد : فإنا كنا نقمنا على عثمان ضرب السوط ، وإمرة الفتيان ، وموقع السحابة المحمية ، ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبكم ، فلما مُصْتموه(١) كما يماص الثوب الرَّحيض(٢) عدوتم عليه ، فارتكبتم منه دما حراما ، وايم الله إن كان لأحصنكم فرجا ، وأتقاكم لله » . (شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨١)

١٨٦ — خطبة لعلى

وخطب على لما تواقف الجمعان فقال :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وكَفُّكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى حال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئا ، ولا تَهِيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول ، لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة ، فيعيَّر بها وعقبُه من بعده » (شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨١)

(١) الموص : الدلك باليد . (٢) رحض الثوب كمنعه : غسله فهو رحيض ومرحوض .

١٨٧ — خطبة السيدة عائشة يوم الجمل

وخطبت السيدة عائشة رضى الله عنها أهل البصرة يوم الجمل فقالت :

« أيها الناس : صه صه ، إن لى عليكم حقَّ الأُمومة ، وَحُرْمةَ المَوْعِظة ، لاَ يَتَّهِمُنى إلاَّ من عَصَى رَبه ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرِى[1] وَنَحْرِى ، فأنا إحدى نسائه فى الجنة ، له ادَّخَرَنى رَبى ، وخلّصنى من كل بضاعة ، وبى مَيَّزَ منافقَكم من مؤمنِكم ، وبى أرخص الله لكم فى صَعِيدِ الأَبْوَاء[2] ، ثم أَبِى ثانِى اثنين الله ثالِثُهُمَا وأوّلُ من سُمِّى صِدِّيقاً ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضيًا عنه ، وطوّقه أعباء الإمامة ، ثم اضطرب حبل الدين بعده ، فسك أبى بطرفيه ، ورتق لكم فَتْقَ النفاق ، وأغاض نَبْعَ الرِّدَّة . وأطفأ ما حَشَّ[3] يهود ، وأنتم يومئذ جُحْظُ العيون ، تنظرون الغَدْرة ، وتسمعون الصيحة ، فَرَأَبَ الثأى[4] وَأَوَّدَ[5] من الغَلْظَةِ ، وانتاش من الْمُوَّة ،

---

(١) السحر : الرئة . (٢) الصعيد : التراب أو وجه الأرض ، والأبواء : قرية بها قبر آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم ، تشير إلى ماحدث ببركتها من ترخيص المولى (جل وعلا) المسلمين فى التيمم إذا لم يجدوا ماء يتوضئون به . وفى الحديث : « عن عائشة رضى الله عنها : قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى ، فأقام رسول الله على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء ، فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا ألا ترى ماصنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله قد نام ، فقال حبست رسول الله والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فقالت عائشة فعاتبنى أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعننى بيده فى خاصرتى ، فقام رسول الله حين أصبح على غير ماء ، فأنزل الله آية التيمم ، فتيمموا ، فقال أسيد بن الحضير (بصيغة التصغير) ماهى بأول بركتكم ياآل أبى بكر ، قالت فبعثنا البعير الذى كنت عليه فأصبنا العقد تحته » (راجع الحديث كاملا فى باب التيمم من صحيح البخارى ١ : ٧٠ ، وصحيح مسلم ١ : ١٤٦) . (٣) حش النار : أوقدها .
(٤) الثأى والثأى بسكون الهمزة وفتحها : الإفساد . (٥) أوّده فتأوّد : عطفه فانعطف .

وَاُجْتَحَى[1] دَفِينَ الداء ، حتى أعْطَنَ[2] الْوَارِدُ ، وَأَوْرَدَ الصَّادِرُ ، وَعَلَّ[3] الناهل ، فقبضه الله إليه ، واطئًا على هامات[4] النفاق، مُذْكِيًا[5] نار الحرب للمشركين، فانتظمت طاعتكم بحبله ، فَوَلَّى أمركم رجلاً مُرْعيًا إذا رُكن إليه ، بعيد ما بين اللَّابَتَين[6] ، عرَكة للأذاة بجَنْبِه[7] ، صَفُوحًا عن أذاة الجاهلين ، يقظان الليل فى نصرة الإسلام ، فسلك مسلك السابقة ، ففرّق شمل الفتنة ، وجمع أعضاد ما جمع القرآن ، وأنا نُصْبُ المسألة عن مسيرى هذا ، لم ألتمس إثمًا، ولم أونِسْ فتنة أوطِئكموها ، أقول قولى هذا صدقًا وعدلاً ، وإعذاراً وإنذاراً، وأسأل الله أن يصلى على محمد، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين».

(العقد الفريد ٢ : ١٥٦ — ٢٢٦)

١٨٨ — خطبة زفر بن قيس

وكتب الإمام على كرّم الله وجهه ، مع زُفَر بن قيس إلى جرير بن عبد الله الْبَجَلِيّ — وكان على ثغر هَمَذان استعمله عليه عثمان — كتاباً يخبره فيه بما كان بينه وبين أصحاب الجمل ، وما أوتى من الانتصار عليهم ، واستعمال ابن عباس على البصرة ، فلما قدم زفر على جرير بكتاب علىّ وقرأه جرير ، قام زفر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن عليًّا كتب إليكم بكتاب ، لا تقول بعده إلاّ رَجِيعًا[8] من القول ، إن الناس بايعوا عَلِيًّا بالمدينة غيرَ محاباةٍ ببيعتهم ، لعلمه بكتاب الله وَبُرَى الحق

---

(١) اجتحاه : استأصله . (٢) أعطن الإبل : حبسها عند الماء . (٣) العل والعلل : (بفتحتين) الشرب بعد الشرب تباعا على يعل بكسر العين وضمها ، والنهل : أول الشرب نهل ينهل كفرح .
(٤) جمع هامة : وهى الرأس . (٥) مشعلا . (٦) اللابة : الحرة بفتح الحاء (أرض ذات حجارة نخرة سود) ولابتا المدينة : حرتان تكتنفانها . أرادت أنه واسع الصدر واسع العطن فاستعارت له اللابة ، كما يقال : رحب الفناء واسع الجناب . (٧) أى يعرك الأذى بجنبه : أى يحتمله. وفى هذه الخطبة تحريف شديد فى الأصل وقد أصلحته كما يتبين بالمراجعة . (٨) الرجيع : كل مردد .

فيه ، وإن طلحة والزبير نَقَضَا بَيْعَةَ عَلِيّ على غير حَدَث ، ثم لم يرضيا حتى نصَبَا له الحرب ، وألَّبَا[1] عليه الناس ، وأخرجا أم المؤمنين عائشة من حِجَابٍ ضربه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليها ، فلقيهما فأَعْذَرَ فى الدعاء ، وَخَشِىَ البغى ، وَحَمَلَ الناس على ما يعرفون ، فهذا عيَانُ[2] ما غاب عنكم ، وإن سألتم الزِّيادة زِدنا كم » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٨٩ — خطبة جرير بن عبد الله البجلى

وقام جرير بن عبد الله الْبَجَلِىُّ خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا ، وكان من أمره وأمر عدوه ما قد سمعتم ، والحمد لله على أَقْضِيَتِهِ ، وقد بايعه السابقون الأوَّلون ، من المهاجرين والأنصار ، والتابعون بإحسان ، ولو جعل الله هذا الأمر شُورَى بين المسلمين لكان عَلِيٌّ أَحَقَّ بها ، ألا وإن البقاء فى الجماعة ، والفناء فى الفُرْقَة ، وَعَلِيٌّ حامِلُكم ما استقمتم له ، فإن مِلْتم أقام مَيْلَكم » .

قال الناس: سمعًا وطاعة ، وَرِضانا رِضاً مَنْ بَعْدَنَا .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٩٠ — خطبة زياد بن كعب

وكتب الإمام على كرَّم الله وجهه ، إلى الأشعث بن قيس — وكان عاملاً بأَذْرَبيجان ، استعمله عليها عثمان — بمثل ما كتب به إلى جرير بن عبد الله ، ووجه بالكتاب مع زياد بن كعب ، فلما قرأ الأشعث كتاب علىّ ، قام زياد بن كعب خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) حرضا . (٢) مصدر عاين الشىء : إذا رآه بعينه .

« أيها الناس : إنه مَنْ لم يكفِه القليل ، لم يَكفِه الكثير ، وإنّ أمْرَ عثمان لم ينفع فيه العِيَانُ ، ولم يَشْفِ منه الخبرُ ، غيرَ أنّ مَنْ سَمِعَه ليس كمن عاينه ، وإن المهاجرين والأنصار بايعوا عليًّا راضين به ، وإن طلحة والزبير نقضا بيعة عَلِيٍّ على غير حَدَث ، وأخرجا أم المؤمنين على غير رضًا ، فسار إليهم ولم ينلهم ، فتركهم وما فى نفسه منهم حاجَةٌ فأورثه الله الأرضَ ، وجعل له عاقبة المتقين » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

١٩١ - خطبة الأشعث بن قيس

فقام الأشعث بن قيس فقال :

« أيها الناس : إن عثمان رحمه الله وَلّانى أذْرَبيجان ، وهلك وهى فى يدى ، وقد بايع الناس عَلِيًّا ، وطاعَتُنَا له لازمةٌ ، وقد كان من أمره وأمرِ عدوِّه ما قد بلغكم ، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

١٩٢ - خطبة جرير بن عبد الله البجلى

وبعث علىّ إلى معاوية مع جرير بن عبد الله البجلى بكتاب يدعوه إلى بيعته ، فلما قرأ الكتاب قام جرير فخطب فقال :

« الحمد لله المحمود بالعوائد ، المأمول فيه الزوائد ، المرتجَى منه الثوابّ ، المستعان على النوائب ، أحمده وأستعينه فى الأمور التى تَحَيّرُ دونها الألباب ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بعد فترة من الرسل الماضية ، والقرون الخالية ، فبلّغ الرسالة ، ونصح للامة ، وأدّى الحق الذى استودعه الله وأمره بأدائه إلى أمته ، صلى الله عليه وآله ، من رسول ومبتعَث ومنتخَب وعلى آله .

أيها الناس إن أمر عثمان قد أعيا من شَهِده ، فكيف بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا عليا غيرَ واتر ولا موتور ، وكان طلحة والزبير ممن بايعاه ، ثم نكثا بيعته على غير حدَث ، ألا وإنّ هذا الدين لايحتمل الفتن ، وقد كانت بالبصرة أمس روعة مُلِمّة ، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ، وقد بايعت الأمة عليًّا ، ولو ملكنا والله الأمورَ لم نختر لها غيره ، فادخلْ معاويةُ فيما دخل فيه الناس ، فإن قلت استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى فإن هذا قول لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرئٍ مافى يديه ، ولكن الله جعل للآخر من الولاة حقَّ الأول ، وجعل الأمور موطأة ينسخ بعضها بعضا » ثم قعد .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ٢٤٨)

١٩٣ — خطبة معاوية

فقال معاوية : أنظر وتنظر وأستطلع رأي أهل الشام ، فمضت أيام ، وأمر معاوية مناديا ينادى : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر ثم قال :

« الحمد لله الذى جعل الدعائم للإسلام أركانا ، والشرائع للإيمان برهانا، يتوقد قَبَسه فى الأرض المقدسة ، جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده ، فأحلهم أرض الشام ، ورضيهم لها ، لما سبق فى مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقُوّام بأمره ، والذابِّين عن دينه وحرماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفى سبيل الخيرات أعلاما ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام ، وتباعد بعد القرب .

اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة دمائنا ، وإخافة سبلنا، وقد علم الله أنا لانريد لهم عقابا ، ولا نهتك لهم حجابا ، ولا نوطئهم زَلَقا ، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوبا لن ننزعه طوعا ، ما جاوب الصدى ، وسقط الندى ، وعُرِف الهدى ، حملهم على ذلك البغى والحسد ، فنستعين بالله عليهم .

« أيها الناس قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأمير المؤمنين عثمان ابن عفان عليكم ، وأنى لم أقم رجلا منكم على خزاية قط ، وأنى وَلِىّ عثمان وقد قتل مظلوما ، والله تعالى يقول « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » وأنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان » .

فقام أهل الشام بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان و بايعوه على ذلك ، وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم حتى يدركوا بثأره أو تلحق أرواحهم بالله » .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ٢٤٨)

فتنة معاوية

استطلاع الإمام علىّ كرم الله وجهه آراء أصحابه

وقد أراد المسير إلى الشأم

لما أراد الإمام علىّ كرم الله وجهه المسير إلى الشأم ، دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار فجمعهم .

١٩٤ — خطبة الإمام علىّ

ثم حمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فإنكم مَيَامِينُ الرأى ، مَرَاجيح الحلم ، مُباركو الأمر ، مَقَاوِيلُ بالحق ، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم ، فأشيروا علينا برأيكم » .

١٩٥ — خطبة هاشم بن عتبة

فقام هاشم بن عُتْبة بن أبى وقّاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد — يا أمير المؤمنين — فأنا بالقوم جِدُّ خَبير ، هم لك ولأشياعك أعداء ، وهم لمن يطلب حَرْث(١) الدنيا أولياء ، وهم مقاتلوك ومجادلوك ، لا يُبْقُون جُهْدًا ، مُشَاحَّةً(٢) على الدنيا ، وضِنًّا(٣) بما فى أيديهم منها ، ليس لهم إِرْبَةٌ(٤) غيرها ،

(١) أى متاعها . (٢) بخلا عليها وحرصا . (٣) ضن ضنا : بالكسر وضنانة بالفتح : بخل .
(٤) الإربة : الأرب .

إلّا ما يَخْدَعُون به الْجُهّال ، مِن طلب دم ابن عفان ، كذبوا ! ليسوا لدمه يَنْفِرُون[1] ولـكن الدنيا يطلبون، انهض بنا إليهم، فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، وإن أَبَوْا إلاّ الشقاق ، فذاك ظنى بهم ، واللهِ ما أراهم يبايعون ، وقد بقى فيهم أحد ممن يُطَاع إذا نَهى ، ولا يسمع إذا أمر » .

١٩٦ — خطبة عمار بن ياسر

وقام عَمَّار بن ياسر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين ، إن استطعت أن لا تُقيم يومًا واحداً فافعل ، اشْخَصْ بنا قبل استعارِ[2] نَار الْفَجَرَة ، واجتماع رَأْيهم على الصدود والفُرْقة ، وادعهم إلى حَظّهم وَرُشْدِهم، فإن قَبِلُوا سَعِدُوا ، وإن أَبَوْا إلا حَرْبَنَا ، فو الله إنَّ سفك دمائهم ، وَالْجِدَّ فى جهادهم ، لَقُرْبَةٌ عند الله ، وكرامة منه » .

١٩٧ — خطبة قيس بن سعد بن عبادة

ثم قام قَيْسُ بْنُ سَعد بن عُبَادَة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين : انـكمِش[3] بنا إلى عدونا ولا تُعَرِّجْ ، فو الله لَجِهَادُهم أَحَبُّ إلَيَّ من جهاد الترك والروم ، لإدهانهم[4] فى دين الله ، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبوا على رَجل حبسوه وضربوه وَحَرَموه وَسَيَّرُوه[5] ، وَفَيْئُنَا لهم فى أنفسهم حلالٌ ، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين[6] » :

---

(١) نفر للأمر : ذهب له . (٢) أى اشتعال . (٣) انكمش وتكمش : أسرع .

(٤) الإدهان : المداهنة والغش . (٥) المراد أبعدوه . (٦) القطين : الرقيق والخدم .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خُزَيْمَة بن ثابت وأبو أيوب وغيرهما : لِمَ تَقَدَّمْتَ أشياخ قومك ، وبدأتهم بالكلام يا قيس ، فقال : أما إنى عارف بفضلكم ، مُعظم لشأنكم ، ولكنى وجدت فى نفسى الضغن الذى فى صدوركم ، جاش حين ذكرت الأحزاب ، فقال بعضهم لبعض : ليقم رجل منكم ، فَلْيُجِبْ أمير المؤمنين عليه السلام عن جماعتكم .

١٩٨ — خطبة سهل بن حنيف

فقام سهل بن حُنَيف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين : نحن سِلْمٌ لمن سالمتَ ، وَحَرْبٌ لمن حاربت ، وَرَأْيُنَا رَأْيك ، ونحن يمينك ، وقد رأينا أن تقوم فى أهل الكوفة ، فتأمُرَهم بالشخوص ، وَتُخبرهم بمَا صُنِع لهم فى ذلك من الفضل ، فإنهم أهل البلد ، وهم الناس ، فإن استقاموا لك ، استقام لك الذى تريد وتطلب ، فأما نحن فليس عليك خِلَافٌ منا ، متى دعوتنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك » .

١٩٩ — خطبة الامام على

وقام الإمام على خطيباً على منبره ، يحرض الناس ويأمرهم بالمسير إلى صِفين ، لقتال أهل الشأم ، فقال :

«سيروا إلى أعداء الله، سيروا إلى أعداء القرآن وَالسُّنَن، سيروا إلى بقية الأحزاب[1] وَقَتَلَةِ المهاجرين والأنصار » .

---

(١) يشير إلى الأحزاب التى تألبت وتظاهرت على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ، وغطفان ، وبنى مرة ، وبنى أشجع ، وبنى سليم ، وبنى أسد فى غزوة الأحزاب — غزوة الخندق — التى كانت سنة خمس للهجرة ، وكانت عدة الجميع عشرة آلاف مقاتل وقائدهم العام أبو سفيان .

فقام رجل من بنى فَزارة فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشأم فنقتلهم كُلاًّ ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلتهم كُلاًّ ؟ ها اللهِ[1] إذن لا نفعل ذلك ، فقام الأشتر فقال : من هذا المارق ؟ فهَرَبَ الفَزَارِيّ ، واشتد الناس على أثره ، فَلُحِق فى مَكان من السوق ، تباع فيه البراذين[2] ، فوطِئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونصال سيوفهم ، حتى قُتِلَ ، فأُتى علىّ عليه السلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين قُتِلَ الرجل ، قال : ومن قتله ؟ قالوا : قتلته همْدان ومعهم شَوْبٌ[3] من الناس ، فقال : قتيل عِمِّيَّة[4] لا يُدْرَى مَنْ قَتَلَه ، دِيَتُه من بيت مال المسلمين ، فقام الأشتر فقال :

٢٠٠ — خطبة الأشتر النخعى

« يا أمير المؤمنين لا يَهُدَّنَّكَ ما رَأيت ، ولا يُوَلِّيَنَّكَ مِنْ نَصرِنا ما سمعتَ من مقالة هذا الشقى الخائن ، إن جميع مَنْ ترى من الناس شيعَتُك ، لا يَرْغَبُون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبُّون البقاء بعدك ، فإن شئت فَسِرْ بنا إلى عدوك ، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه ، ولا يُعْطَى البقاء من أحبَّه ، وإنَّا لَعَلَى بَيِّنَةٍ من رَبِّنَا ، وإن أنفسنا لن تموت حتى يأتِيَ أجلُهَا ، وكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وَثَبَت عِصَابَةٌ منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خَلاَقَهم[5] بِعَرَضٍ من الدنيا يسير » .

فقال علىّ : الطريق مُشْتَرَك ، والناس فى الحق سواء ، ومن اجتهد رأيه فى نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه » ثم نزل فدخل منزله .

---

(١) هى ها التنبيه ، وهى تدخل على اسم الله فى القسم عند حذف الحرف ، تقول : ها الله بقطع الهمزة ووصلها ، وكلاهما مع إثبات ألف « ها » وحذفها . (٢) البراذين : الدواب ، جمع برذون .

(٣) خليط . (٤) قتل عميا بكسر العين والميم مشددة مع تشديد الياء : لم يدر من قتله . (٥) الخلاق : النصيب الوافر من الخير .

٢٠١ – مقال من ثبطوه عن المسير

ولما أمر الإمام بالمسير إلى الشأم ، دخل عليه عبد الله بن المُعْتَمِّ الْعَبْسى وَحَنْظَلَة ابن الرَّبيع التميمى ، فى رجال كثير من غَطَفَان و بنى تميم ، فقال له حنظلة :

« يا أمير المؤمنين : إنا قد مشينا إليك فى نصيحة فاقْبَلْها ، وَرَأَيْنَا لك رَأْياً فلا تردَّنه علينا ، فإنا نظَرْنا لك ولمن معك ، أَقِمْ وَكَاتِبْ هذا الرَّجُلَ ، ولا تَعْجَل إلى قتال أهل الشأم ، فإنا والله ما نَدْرِى ولا تدرى لِمَنْ تكون الْغَلَبَةُ إذا التقيتم ، ولا على من تكون الدَّبْرَة[1] » .

وقال ابن المعتم مثل قوله ، وتكلم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامهما .

٢٠٢ – رد الإمام عليهم

فحمد علىٌّ عليه السلام الله وأثنى ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله وارثُ الْعِبَادِ والبلادِ ، وَرَبُّ السموات السبع والأَرَضين السبع ، وإليه تُرْجَعون ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزِع الملك ممن يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ مَن يَشَاء ، أما الدَّبْرَة ، فإنها على الضالين العاصين ، ظَفِرُوا أَوْ ظُفِرَ بهم ، وايْمُ اللهِ إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً ، ولا يُنْكِرُون مُنْكراً » .

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرِّياحىّ فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هؤلاء والله ما آثروك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش ، فاحْذَرهم ، فإنهم أدنى العدوّ » .

---

(١) الدبرة بسكون الباء وفتحها : الهزيمة فى القتال .

وقال له مالك بن حبيب : « إنه بلغنى يا أمير المؤمنين أن حنظلة هذا يكاتب معاوية ، فادفعه إلينا نحبِسه ، حتى تَنْقَضِيَ غزَاتك وتتصرف » .

وقام من بنى عبس قائدُ بنُ بكير ، وعَيَّاش بن ربيعة ، فقالا :

« يا أمير المؤمنين ، إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية ، فاحبسه أو مَكِّنَّا مِنْ حَبْسِه ، حتى تَنْقَضِيَ غزاتك ثم تتصرف » .

فقالا : « هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرَّأى فيما بينكم وبين عدوكم ؟ »

فقال لهما علىٌّ عليه السلام : « الله بينى وبينكم وإليه أَكِلُكم ، وبه أَسْتَظْهر عليكم ، اذهبوا حيث شئتم[1] » .

٢٠٣ - خطبة عدى بن حاتم الطائى

وقام عَدِىُّ بن حاتم الطائى ، بين يدى علىّ عليه السلام ، فحَمِدَ الله ، وأثنى عليه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما قلتَ إلاَّ بعلم ، ولا دَعَوْتَ إلاَّ إلى حق ، ولا أمرت إلاَّ برُشْد ، ولكن إذا رأيت أن تستأنِىَ[2] هؤلاء القوم وتستديمهم ، حتى تأتيهم كتبُك ، وتَقْدَم عليهم رُسُلك ، فعَلْتَ ، فإن يقبلوا يُصِيبوا رُشدهم ، والعافيةُ أوسَعُ لنا ولهم ، وإن يتمادَوا فى الشِّقاق ، ولا يَنْزِعُوا عن الغَىِّ ، نَسِر إليهم ، وقد قدَّمنا إليهم العذر ، ودعوناهم إلى ما فى أيدينا من الحق ، فوالله لَهُمْ من الحق أبعَدُ ، وعلى الله أهون

(١) هذا ، وقد خرجا إلى معاوية فى رجال من قومهما ، ولكنهما لم يقاتلا معه واعتزلا الفريقين جميعا .

(٢) تنتظر .

من قوم قاتلناهم أمْسِ بناحية البصرة ، لمَّـا دعوناهم إلى الحق فتركوه ، ناوخناهم بَرَاكَاءَ القتال[1] ، حتى بلغنا منهم ما نحب ، وبلغ الله منهم رضاه » .

٢٠٤ — خطبة زيد بن حصين الطائى

فقام زيد بن حُصَيْن الطائى ـ وكان من أصحاب البرانس المجتهدين ـ فقال :

« الحمد لله حتى يَرضَى ، ولا إله إلا الله رَبُّنا ، أما بعد : فوالله إن كنا فى شك فى قتال من خالفنا ، ولا تَصْلُحُ لنا النِّيَّةُ فى قتالهم حتى نستديمَهُم ونستأنيَهُم ، فما الأعمال إلا تَبَاب[2] ، ولا السعىُ إلا فى ضلال ، والله تعالى يقول : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) إننا والله ما ارتبنا طَرْفة عين فيمن يتبعونه ، فـكيف بأتْباعه القاسيةِ قلوبُهم ، القليلِ من الإسلام حَظُّهم ، أعوانِ الظلمة ، وأصحابِ الجَوْرِ والعدوان ؟ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان » .

فقام رجل من طيئ فقال : « يا زَيْدُ بْنَ حصين ، أكلامُ سيدنا عدىّ بن حاتم يُهَجَّن[3] ؟ » فقال زيد : « ما أنتم بأعْرَفَ بحق عَدِىٍّ منى ، ولـكنى لا أدع القول بالحق وإن سَخط الناس » .

٢٠٥ — خطبة أبى زينب بن عوف

ودخل أبو زينب بن عوف على الإمام علىّ فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لَئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلا ، وأعظمُنا فى الخير نصيباً ، ولئن كنا على ضلال إنك لأَثْقَلُنَا ظَهراً[4] ، وأعظمنا وِزْرًا ، قد أمرتنا بالمسير

---

(١) براكاء القتال وبروكاه : موضع اصطدام القوم ، وناوخناهم مفاعلة ، من أناخ الإبل : إذا أبركها ، والمعنى التقينا وإياهم فى ساحة القتال . (٢) خسران . (٣) يقبح . (٤) لأنه حينئذ يكون أكثرهم ذنوبا .

إلى هذا العدو ، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الوِلاية ، وأظهرنا لهم العداوة ، نريد بذلك ما يعلم الله تعالى من طاعتك ، أليس الذى نحن عليهِ هو الحق المبين ، والذى عليهِ عدونا هو الحُوب[1] الكبير ؟ » .

فقال عليهِ السلام : « بَلَى ، شهِدْت أنك إن مَضَيت معنا ناصراً لدعوتنا ، صحيح النية فى نصرنا ، قد قطعت منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة ، كما زعمت ، فإنك ولى الله تَسْبَح فى رضوانه ، وترْكُضُ فى طاعته ، فأبشرْ أبا زينب » وقال له عمار بن ياسر : « اُثْبُتْ أبا زينب ، ولا تشكَّ فى الأحزاب أعداء الله ورسوله » فقال أبو زينب : « ما أُحِبُّ أن لى شاهدين من هذه الأمة ، شهِدَا لى عما سألت من هذا الأمر الذى أهمَّنِي مكانَكما » .

٢٠٦ — خطبة يزيد بن قيس الأرحبىّ

ودخل يزيد بن قيس الأَرْحَبِىّ[2] على علىّ عليه السلام فقال :

« يا أمير المؤمنين : نحن أُولو جِهَاز[3] وَعُدّة ، وأَكثرُ الناس أهلَ قوة ، ومَن ليس به ضعف ولا عِلّة ، فمُرْ مُنَادِيك فليُنادِ الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنُّخيلة ، فإن أخا الحرب ليس بالسَّئُوم ولا النَّئُوم ، ولا مَنْ إذا أمكنته الفُرَصُ أجّلَها ، واستشار فيها ، ولا مَنْ يؤخر عمل الحرب اليومَ لغَدٍ ، و بعد غد » .

٢٠٧ — خطبة زياد بن النضر

فقال زياد بن النَّضْر :

« لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين ، وقال : ما يَعْرِف ، فتوكَّلْ

---

(١) الحوب بالفتح والضم : الإثم . (٢) نسبة إلى أرحب : وهى قبيلة من همدان .
(٣) جهاز المسافر والعروس والميت (بالكسر والفتح) ما يحتاجون إليه .

على الله وثِقْ به ، واشخَصْ بنا إلى هذا العدوِّ راشداً مُعانًا ، فإن يُرِدِ اللهُ بهم خيرًا لا يتركوك ، رغبةً عنك إلى من ليس له مثلُ سابقتك وقَدمك ، وإلاَّ يُنيبوا وَيَقبَلُوا ، وأبَوا إلا حرْبَنَا نجد حَرْبَهم علينا هَيِّنًا ، ونرجو أن يَصْرَعهم اللهُ مصارع إخوانهم ثَمَّ[1] بالأمس » .

٢٠٨ — خطبة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي

ثم قام عبد الله بن بُدَيل بن وَرْقاء الخُزَاعيّ فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إن القوم لو كانوا ، اللهَ يريدون ، ولله يعملون ، ما خالفونا ، ولـكن القوم إنما يقاتلوننا فرارًا من الأُسوة[2] ، وحُبًّا للأَثَرَة[3] . وَضِنًّا بسلطانهم ، وكرهًا لفراق دنياهم التى فى أيديهم ، وعلى إحَنٍ[4] فى نفوسهم ، وعداوةٍ يجدونها فى صدورهم ، لوقائعَ أوقعتَها يا أمير المؤمنين بهم قديمةٍ ، قَتَلت فيها آباءهم وأعوانهم » ثم التفت إلى الناس فقال : « كيف يبايع معاوية عليا ، وقد قتل أخاه حَنْظلة ، وخاله الوليدَ ، وَجدَّه عُتْبة ، فى موقف واحد[5] والله ما أظنهم يفعلون ، ولن يستقيموا لـكم دون أن تُقْصَف فيهم قَنَا المُرَّانِ[6] ، وتُقطَّعَ على هامهم[7] السُّيوفُ ، وتنثر حواجبهم بِعُمُد الحديد ، وتـكون أمور جَمَّة بين الفريقين » .

---

(١) هناك ، يريد البصرة . (٢) الأسوة بالضم والكسر : القدوة : أى فرارا من أن يكونوا تابعين لك مسودين وأن تكون لهم إماما وسيدا . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة ، والاسم الأثرة . (٤) جمع إحنة ، وهى الحقد والعداوة . أى ويقاتلوننا على إحن : أى من أجلها . (٥) هو جده لأمه عتبة بن أبى ربيعة ، وقد قتلهم على يوم بدر . وفى كتاب بعث به الإمام إلى معاوية يقول : « فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخا يوم بدر وذلك السيف معى » . (٦) القنا : الرماح جمع قناة ، والمران : الرماح الصلبة اللدنة الواحدة مرانة ، وشجر ، والإضافة على المعنى الأول على حد قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) — إن فسر العرم بالمطر الشديد — (وفسر أيضا بالأحباس والسدود تبنى فى الأودية ، وبالجرذ ، وبواد جاء السيل من قبله) وعلى المعنى الثانى : أى القنا المتخذة من الشجر . (٧) الهام جمع هامة : وهى الرأس .

٢٠٩ — أدب الامام على، وكرم خلقه

وخرج حُجْر بن عَدِيّ، وعمرو بن الحَمِق، يُظْهِرَان البراءة من أهل الشأم، فأرسل علىٌّ عليه السلام إليهما أنْ كُفَّا عما يبلغنى عنكما، فأتياه فقالا: «يا أمير المؤمنين: ألسنا مُحِقِّينَ؟» قال: بلى، قالا: «أو ليسوا مُبْطِلِين؟» قال: بلى، قالا: «فلِمَ مَنَعْتَنا من شتمهم؟» قال:

«كَرِهْتُ لكم أن تكونوا لعَّانين شتَّامين، تَشْتِمُون وتبرءون، ولكن لو وصفتم مساوئَ أعمالهم فقلتم: من سيرتهم كذا وكذا، ومن أعمالهم كذا وكذا، كان أصْوَبَ فى القول، وأبْلغ فى العُذْرِ، وقلتم مكان لعنكم إياهم، وبراءتكم منهم: اللهم احقِن دماءهم ودماءنا، وأصلح ذات بينهم وبيننا، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحقَّ منهم مَنْ جَهِلَه، ويرعوىَ عن الغى والعدوان منهم من لَهِجَ به، لكان أحَبَّ إلىّ، وخيراً لكم».

فقالا: يا أمير المؤمنين، نقبل عظتك، ونتأدب بأدبك.

٢١٠ — مقال عمرو بن الحمق

وقال له عمرو بن الحَمِق يومئذ:

«والله يا أمير المؤمنين، إنى ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بينى وبينك، ولا إرادة مال تؤْتِينِيه، ولا التماس سلطان ترفع ذِكْرِى به، ولكننى أحببتك بخصال خمسٍ، إنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله، ووصيه، وأبو الذرية التى بقيت فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأسبق الناس إلى الإسلام، وأعظم المهاجرين سَهْمًا

فى الجهاد ، ولو أنى كُلِّفْتُ نَقْلَ الجبال الرَّواسى ، ونزْحَ البحور الطَّوَامى[1] حتى يأتِىَ عَلَىَّ يومى فى أمرٍ أقوِّى به وَلِيَّك وأهين عدوَّك ، مارَأيت أنى قد أديت فيه كُلَّ الذى يَحُقّ عَلَىَّ من حقك » .

فقال علىٌّ عليه السلام : « اللهم نوِّر قلبه بالتقى ، واهده إلى صراطك المستقيم » ليت أن فى جندى مائةً مثلك » فقال حجر : إذن والله يا أمير المؤمنين صح جندك ، وقلّ فيهم من يغُشك .

٢١١ — مقال حجر بن عدى

وقام حجر بن عدى فقال :

« يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب ، وأهلها الذين نُلْقِحُها[2] وَنُنْتِجُها ، قد ضارَسَتْنَا[3] وضارسناها ، ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذاتُ عددٍ ، ورأى مجرَّب ، و بأس محمود ، وأزِمَّتُنَا ، منقادة لك بالسمع والطاعة ، فإن شرَّقت شرَّقنا ، وإن غرَّبت غرَّبنا ، وما أمرتنا به من أمر فعلنا » .

فقال علىّ عليه السلام : أكُلُّ قومك يرَى مثلَ رَأيك ؟ قال : ما رأيتُ منهم إلا حسناً ، وهذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسنِ الإجابة ، فقال له علىّ عليه السلام خيراً .

٢١٢ — مقال هاشم بن عتبة

وقال زياد بن النضر الحارثى لعبد الله بن بُدَيْل الخزاعى :

« إن يومنا ليوم عَصَبْصَبٌ[4] ، ما يصبر عليه إلا كلُّ مُشْبَع القلب ، صادق النية

---

(١) جمع طام ، من طمى البحر : إذا امتلأ . (٢) أصله من ألقح الفحل الناقة . (٣) ضرسته الحرب تضريسا : جربته وأحكمته ، وضارس الأمور : جربها وعرفها . (٤) أى شديد .

رابط الجأش ، وايم الله ما أظن ذلك اليوم يُبقِى منهم ولا منا إلا الرُّذَال[1] » فقال عبد الله بن بديل : أنا والله أظن ذلك ، فبلغ كلامهما عليًّا عليه السلام ، فقال لهما : « ليكن هذا الكلام مخزونًا فى صدوركما ، لاتُظْهِراه ، ولا يسمعهُ منكما سامع ، إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين ، وكلٌّ آتيه مَنِيَّتُهُ كما كتب الله له ، فطوبَى للمجاهدين فى سبيله ، والمقتولين فى طاعتِهِ » فلما سمع هاشم بن عُتْبة ما قالاه أتى عليًّا عليه السلام فقال :

« سر بنا يا أمير المؤمنين ، إلى هؤلاء القوم القاسيةِ قلوُبهم ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعمِلوا فى عباد الله ، بغير رضا الله ، فأحلُّوا حرامه ، وَحَرَّمُوا حلاله ، واستهوى[2] بهم الشيطان ، ووعدهم الأباطيلَ ، ومنَّاهم الأمانى ، حتى أزاغهم عن الهدى ، وقَصَدَ بهم قَصْدَ الرَّدى ، وحَبَّبَ إليهم الدنيا ، فهم يقاتلون على دنياهم رغبةً فيها ، كرغبتنا فى الآخرة ، وانتجازِ موعد ربنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله رَحِمًا ، وأفضل الناس سابقة وقدما ، وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ، ولكن كُتب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين . فأيدِينا مبسوطة لك بالسمع والطَّاعة ، وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة ، وأنفسنا تنصرك على من خالفك ، وتولَّى الأمر دونك ، جَذِلَةً ، والله ما أحب أن لى ما على الأرض مما أقَلَّت[3] ، ولا ما تحت السماء مما أظَلَّت ، وأنِّى واليت عدوًّا لك ، وعاديت وليًّا لك » .

فقال علىٌّ عليه السلام : « اللهم ارزقه الشهادة فى سبيلك والموافقة لنبيك » .

---

(١) الدون : الخسيس، أو الردىء من كل شىء . (٢) استهواه : استماله والفعل متعد ومفعوله هنا محذوف : أى استهوى الشيطان أتباعهم بهم — فالباء السببية . (٣) أى حملت .

٢١٣ – خطبة الامام علىّ

ثم إن عليًّا عليه السلام صَعِدَ المنبر، فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم قال :

« إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصِبوا أنفسكم فى أداء حقه، وتنجّزوا موعوده، واعلموا أن الله جعل أمراس[1] الإسلام متينةً، وعُراه وثيقةً، ثم جعل الطاعة حَظَّ الأنفس ورضا الرب، وغنيمةَ الأكياس[2] عند تفريط العَجَزَة، وقد حملت أمر أسْوَدِها وأحْمَرِها، ولا قوّة إلا بالله، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ[3] نَفْسَهُ وتناول ما ليس له، وما لا يدركه، معاوية وجنده، الفئة الطاغية الباغية، يقودهم إبليس، وَيَبْرُق لهم ببارق تسويفه، ويدلّيهم[4] بغُروره، وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حَذَّرَكم الله من الشيطان، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سُلِبَ دينَه وأمانته، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس[5] عنى، وقال فى غيرى كفاية، فإن الذَّود إلى الذَّوْدِ إبل[6] : * وَمَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ يَتَهَدَّمِ *

ثم إنى آمركم بالشدة فى الأمر، والجهاد فى سبيل الله، وأن لا تغتابوا مسلماً، وانتظروا النصر العاجل من الله، إن شاء الله » .

---

(١) جمع مرس بفتحتين، ومرس جمع مرسة بفتحتين أيضا : وهو الحبل . (٢) جمع كيس : وهو ضد الأحمق . (٣) أصله سفهت نفسه، فلما حول الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه لأنه صار فى معنى سفه نفسه بالتشديد، ومثله : رشد أمره وبطر عيشه . (٤) أى يحطهم عن منزلتهم . قال تعالى : (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) (٥) تأخر وتقاعد . (٦) الذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين وهو مثل : أى إذا جمعت القليل مع القليل صار كثيرا : فإلى بمعنى مع .

٢١٤ — خطبة الحسن بن علىّ

ثم قام بعده ابنهُ الحسن رضى الله عنهُ فقال :

« الحمد لله لا إله غيره ، ولا شريك له ، ثم قال : إن مما عظم الله عليكم من حقهِ وأسبغ عليكم من نعمهِ ، مالا يحصَى ذِكْرُهُ ، ولا يُؤَدَّى شكرُه ، ولا يبلغهُ قول ولا صفة ، ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، إنه لم يجتمع قَوْمٌ قَطُّ على أمرٍ واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عُقدتهم ، فاحتشدوا فى قتل عدوكم معاوية وجنودِه ، ولا تخاذلوا ، فإن الخذلان يقطع نِيَاط القلوب[1] ، وإن الإقدام على الأسنة نَخْوَة وعِصْمة ، لم يتمنَّع قوم قَطُّ إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم المِلةِ ، ثم أنشد :

والصلح تأخذ منــهُ ما رضيتَ به　　والحرب يكفيك من أنفاسها جُرَع

٢١٥ — خطبة الحسين بن علىّ

ثم قام الحسين رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يأهل الكوفة : أنتم الأحبة الكرماء ، وَالشِّعَار[2] دونَ الدِّثَار ، جِدُّوا فى إطفاء مَا وَتَرَ[3] بينكم ، وتسهيل ما توعَّر عليكم ، ألا إن الحرب شرها وَريع[4] ، وطعمها

(١) عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ، جمعه أنوطة . « والوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه جمعه أوتنة » . (٢) الشعار : ما يلبس على شعر الجسد ، والدثار : ما فوق الشعار من الثياب .

(٣) الوتر والترة : الثأر ، وتره يتره ، ووتره حقه : نقصه إياه ، ووتّره : أدركه بمكروه .

(٤) الوريع : الكاف . أى إن شرها عظيم يدعو الناس إلى أن يكفوا عن خوض غمارها .

فظيع ، فمن أخذ لها أُهبَتَهَا ، واستعد لها عُدَّتها ، ولم يألَم كُلُومَها[1] قبل حلولها ، فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها ، واستبصار سعيهِ فيها ، فذاكَ قَمِن[2] أن لاينفع قومهُ ، وأن يُهلِك نفسهُ ، نسأل الله بقوّته أن يُدَعِّمكم بالفَيئة[3] » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٧٨)

٢١٦ — خطبة عبد الله بن عباس

وكتب على إلى ابن عباس بالبصرة .

« أما بعد فاشخَص إلىّ بمن قِبلك من المسلمين والمؤمنين ، وذكِّرهم بلائى عندهم ، وعفوى عنهم فى الحرب ، وأعلمهم الذى لهم فى ذلك من الفضل والسلام » .

فلما وصل كتابه إلى ابن عباس قام فى الناس فقرأ عليهم الكتاب وحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أيها الناس : استعدوا للشخوص إلى إمامكم ، وانفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، فإنكم تقاتلون المُحِلين القاسطين، الذين لا يقرءون القرآن ولا يعرفون حكم الكتاب ، ولا يدينون دين الحق ، مع أمير المؤمنين وابن عم رسول الله ، الآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، والصادع بالحق ، والقيِّم بالهدى ، والحاكم بحكم الكتاب ، الذى لا يرتشى فى الحكم ، ولا يداهن الفجّار ولا تأخذه فى الله لومة لائم » .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٨٣)

---

(١) كلوم : جمع كلم ، وهو الجرح . (٢) جدير وحقيق . (٣) الفيئة : بفتح الفاء وكسرها ، والفىء : الغنيمة ، أى نسأل الله أن يقويكم بما تغنمون من عدوكم .

٢١٧ — خطبة لمعاوية

ولما نزل على النخيلة متوجها إلى الشأم ، وبلغ معاوية خبره ، وهو يومئذ بدمشق قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان مخضباً بالدم وحول المنبر سبعون ألف شيخ يبكون حوله لا تجفّ دموعهم على عثمان خطبهم وقال :

« يأهل الشأم قد كنتم تكذبوننى فى على ، وقد استبان لكم أمره ، والله ما قتل خليفتكم غيره ، وهو أمَر بقتله ، وألّب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم .

يأهل الشأم ، الله الله فى دم عثمان فأنا وليه وأحق من طلب بدمه ، وقد جعل الله لولى المقتول ظلما سلطاناً ، فانصروا خليفتكم المظلوم ، فقد صنع القوم ما تعلمون ، قتلوه ظلما وبغيا ، وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله » ، ثم نزل .

فأعطوه الطاعة وانقادوا له وجمع إليه أطرافه واستعد للقاء علىّ .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ٢٨٦)

وفد عليّ على معاوية

بعد أن نزل الإمام عليّ كرّم الله وجهه بصفين ، دعا بشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصارى ، وسَعيد بن قيس الهَمْدانيّ ، وشَبَث بن رِبْعِيّ التميمى ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه إلى الله ، و إلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث بن ربعى : يا أمير المؤمنين : ألا تُطمِعه فى سلطان توليه إياه ، ومنزلة يكون له بها أثَرَة عندك إن هو بايعك ؟ فقال عليّ : ائتوه فالقوه واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه ؟ — وهذا فى أوّل ذى الحجة سنة ٣٦ هـ — فأتوه ، ودخلوا عليه .

٢١٨ — خطبة بشير بن عمرو

فحمد الله أبو عَمْرة بشير بن عمرو ، وأثنى عليه وقال :

« يا معاوية : إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عزّ وجلّ محاسبك بعملك ، وَجَازيك بما قدّمت يداك ، وإنى أنشُدك الله عزّ وجلّ أن تفرّق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفِكَ دماءها بينها » .

فقطع عليهِ الكلام ، وقال : هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟ فقال أبو عمرة :

« إن صاحبى ليس مثلك ، إن صاحبى أحقُّ البرية كلها بهذا الأمر ، فى الفضل ، والدين ، والسابقة فى الإسلام ، والقرابة من الرّسول صلى الله عليه وسلم ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يأمرك بتقوى الله عزّ وجلّ ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليهِ من الحق ، فإنه أسلم لك فى دنياك ، وخير لك فى عاقبة أمرك » .

قال معاوية : وَنُطِلّ دم عثمان رضى الله عنهُ ! لا والله لا أفعل ذلك أبداً ، فذهب سعيد بن قيس يتكلم ، فبادره شبث بن ربعى ، فتكلم :

٢١٩ — خطبة شبث بن ربعى

فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :

« يا معاوية ، إنى قد فهمت ما رددت على ابن مِحْصَن ، إنه والله لا يخفى علينا ماتغزو وما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم ، إلاَّ قولكَ : « قُتِلَ إمامكم مظلوما ، فنحن نطلب بدمه » فاستجاب لك سفهاء طَغام ، وقد علمنا أنْ قد أبطأتَ عنه بالنصر ، وأحببْتَ له القتل ، لهذه المنزلة التى أصبحتَ تطلب . ورُبَّ متمنى أمرٍ وطالبِه ، اللهُ عزَّ وجل يحول دونه بقدرته ، وربما أُوتى المتمنى أُمنيته ، وفوق أُمنيته ، ووالله مالك فى واحدة منهما خير ، لئن أخطأت ما ترجو ، إنك لشرالعرب حالا فى ذلك ، ولئن أصبت ما تَمَنَّى لاتصيبه حتى تستحق من ربك صُلِيّ[1] النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله » .

٢٢٠ — خطبة معاوية

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن أول ما عَرَفْتُ فيه سَفهك ، وَخِفَّةَ حِلْمِك ، قَطْعُك على هذا الحسيب الشريف سَيِّدِ قومه منطقَه ، ثم عُنِيتَ بَعْدُ فيما لا علم لك به ، فقد كذبت وَلَؤُمْت[2] ،

---

(١) صلى النار : كرضى ، وصلى بها صليا بكسر الصاد وضمها ، قاسى حرها .

(٢) لامه لوما : عذله ، وألامه ولومه للمبالغة .

أيها الأعرابى الجِلْف[1] الجافى ، فى كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندى ، فإنه ليس بينى وبينكم إلا السيف » .

وغضب وخرج القوم وشبث يقول : أفعلينا تهوِّل بالسيف ؟ أقسم بالله لَيُعْجَلَنَّ بها إليك ، فأتوا عليًّا ، وأخبروه بالذى كان من قوله ، وأخذ على يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة ، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة ، فيقتتلان فى خيلهما ورجالهما ، ثم ينصرفان ، وكانوا يكرهون أن يلقَوا بجمع أهل العراق أهل الشأم ، لما يتخوّفون أن يكون فى ذلك الاستئصال والهلاك .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٤٢)

(١) الجلف : الرجل الجافى .

وفد عليّ إلى معاوية أيضا

ولما دخلت سنة ٣٧ هـ توادعا على ترك الحرب فى المحرّم إلى انقضائه ، طمعاً فى الصلح واختلفت فيما بينهما الرسل فى ذلك دون جَدْوى ، فبعث عليّ عَدِيَّ بن حاتم ، ويزيد ابن قيس ، وشَبَثَ بن رِبْعِيّ ، وزياد بن خَصَفة إلى معاوية .

٢٢١ — خطبة عديّ بن حاتم

فلما دخلوا حمد اللهَ عَدِيُّ بن حاتم ، ثم قال :

« أما بعد : فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عزّ وجلّ به كلمتنا وأمّتنا ، ويَحقِن به الدماء ، ويُؤمن به السُّبُل ، ويُصْلح به ذات الْبَيْن، إن ابن عمك سَيِّدُ المسلمين، أفضلُهَا سابقةً ، وأحسنُها فى الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عزَّ وجلَّ بالذى رأوا ، فلم يبق أحدٌ غيرُك وغيرُ من معك ، فانْتَهِ يا معاوية ، لايصِبْك اللهُ وأصحابَك بيومٍ مثل يوم الجمل » .

٢٢٢ — جواب معاوية

فقال معاوية : « كأنك إنما جئتَ مُتَهَدِّداً ، لم تأْت مُصْلِحًا ! هَيْهَات يا عديُّ ، كَلاَّ واللهِ ، إنى لاَبْنُ حَرْبٍ[1] ما يُقَعْقَعُ[2] لى بالشِّنَانِ ، أما والله إنك لمن الْمُجْلِبِينَ على

(١) هو جده . (٢) القعقعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، والشنان : جمع شن بالفتح ، وهو القربة البالية ، وإذا قعقع بالشنان للإبل نفرت ، وهو مثل يضرب لمن لا يروعه ما لاحقيقة له .

ابن عفان رضى الله عنهُ ، وإنك لِمَن قَتَلَه ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يَقْتُل[1] الله عزّ وجلّ به ، هَيْهَات يا عَدِىُّ بْنَ حاتم ، قد حَلَبْتُ بالساعد الأشدّ[2] » .

فقال له شَبَث بن ربعى وزياد بن خَصَفة – وتنازعا جواباً واحداً –

« أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ، دع مالا يُنْتفع به من القول والفعل ، وأجبنا فيما يَعمُّنا وإياك نَفعُهُ » .

٢٢٣ – خطبة يزيد بن قيس

وتكلم يزيد بن قيس فقال :

« إنا لم نأتك إلا لنبلِّغك ما بُعِثْنَا به إليك ، ولِنُؤَدِّى عنك ما سمعنا منك ، ونحن – على ذلك – لن نَدَعَ أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننَّا أن لنا عليك به حُجَّة ، وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة ، إنّ صاحِبَنا من قد عرَفت وعرَف المسلمون فضلَهُ ، ولا أظنه يخفى عليك ، إن أهل الدين والفضل لن يَعْدِلوا بعلىّ ، ولن يُمَيِّلوا[3] بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف عليًّا ، فإنا والله ما رأينا رجلاً قَطُّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهَدَ فى الدنيا ، ولا أجمعَ لِخِصال الخير كلها منهُ » .

٢٢٤ – خطبة معاوية

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التى دعوتم إليها فمعنا هى ،

---

(١) أى يقتله . (٢) يعنى بذلك قوة استعداده للقتال وتأهبه له . (٣) التمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما .

وَأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ، إن صاحبكم قَتَلَ خليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وَآوَى ثَأْرَنَا(١) وَقَتَلَتَنَا ، وَصاحِبُكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا ، ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم ؟ فَلْيَدْفعهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » .

فقال له شبث : أيسرك يا معاوية أنك أُمْكِنْت من عَمَّار(٢) تقتله ؟ فقال معاوية :

---

(١) الثأر : قاتل حميمك . (٢) هو عمار بن ياسر رضى الله عنه ، أحد السابقين الأولين ، وقد عذبه المشركون فى بدء الدعوة الإسلامية فاحتمل العذاب ، وكان يعذب هو وأخوه وأبوه وأمه بالنار ، فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « صبرا آل ياسر فوعدكم الجنة . اللهم اغفر لآل ياسر » ومراد شبث بهذا القول إحراج معاوية . لقوله عليه الصلاة والسلام لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » : أى إنك يامعاوية إن قتلت عمارا — وكان من أصحاب علي — كنت من الفئة الباغية . وتفصيل الخبر فى ذلك ما روته أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، قالت : « لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده بالمدينة أمر باللبن يضرب وما يحتاج إليه ، ثم قام فوضع رداءه فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم وأكسيتهم يرتجزون ويقولون ويعملون .

لئن قعدنا والنبى يعمل ذاك إذن لعمل مضلل

قالت : وكان عثمان بن عفان رجلا نظيفا متنظفا ، فكان يحمل اللبنة ويجافى بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفض كفيه ، ونظر إلى ثوبه ، فإذا أصابه شىء من التراب نفضه فنظر إليه على رضى الله عنه فأنشد :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها راكعا وساجدا

وقائما طورا وطورا قاعدا ومن يرى عن التراب حائدا

فسمعها عمار بن ياسر فجعل يرتجزها وهو لا يدرى من يعنى ، فسمعه عثمان فقال : يابن سمية (وسمية أمه) ما أعرفنى بمن تعرض ، ومعه جريدة ، فقال لتكفن أو لأعترضن بها وجهك ، فسمعه النبى وهو جالس فى ظل حائط فقال : « عمار جلدة مابين عينى وأنفى » فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ منى . وأشار بيده فوضعها بين عينيه فكف الناس عن ذلك ، وقالوا لعمار : إن رسول الله قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن ، فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فأقبل عليه فقال : يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك ولهم ؟ قال يريدون قتلى ، يحملون لبنة ويحملون على لبنتين ، فأخذ به وطاف به فى المسجد وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول« يابن سمية لا يقتلك أصحابى ، ولكن تقتلك الفئة الباغية » فلما قتل بصفين ، وروى هذا الحديث عبد الله ابن عمرو بن العاص ، قال معاوية : هم قتلوه ، لأنهم أخرجوه إلى القتل ، فلما بلغ ذلك عليا قال : ونحن قتلنا أيضا حمزة لأنا أخرجناه (العقد الفريد ٢ : ٢٣٧) .

وما يمنعنى من ذلك ؟ والله لو أمكنت من ابن سُمَيَّة ما قتلته بعثمان رضى الله عنه ولكن كنتُ قاتِلَه بناتِل مولى عثمان ، فقال شبث :

« وَإله الأرض وإله السماء ، ما عدلت معتدلا[1] ، لا والذى لا إله إلا هو ، لاتَصِلُ إلى عمَّار ، حتى تَنْدُرَ[2] الهَامُ عن كواهِل الأقوام ، وَتَضِيقَ الأرضُ الفَضَاء عليك برُحبها[3] » فقال له معاوية : « إنه لو قد كانَ ذلك كانت الأرضُ عليك أضيقَ » وتفرّق القوم عن معاوية ، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خَصفة التَّيمى فخلا به .

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد يا أخا ربيعةَ ، فإن عليًّا قَطَعَ أرحامنا ، وآوَى قَتَلَةَ صاحبنا ، وإنى أسألك النصر بِأُسرتك وعشيرتك ، ثم لك عَهْدُ الله جلَّ وعزَّ وميثاقُه أنْ أوليك إذا ظَهَرْتُ[4] أىَّ المصرين أحببت ، قال زياد: فلما قضى معاوية كلامه حمِدْت الله عزَّ وجلَّ وأثنيت عليه ثم قلت : « أما بعد فإنى على بَيِّنَة من ربى ، وبما أنْعَمَ عَلَىَّ ، فلن أكون ظهيرًا[5] للمجرمين » ثم قمت .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢)

---

(١) أى إنك إذا عدلت عمارا بناتل مولى عثمان : أى سويت بينهما لم تكن معتدلا فى حكمك .

(٢) ندر الشىء كنصر ندورا : سقط من جوف شىء أو من بين أشياء فظهر . والهام الرءوس : جمع هامة .

(٣) الرحب بالضم : الاتساع . (٤) أى غلبت وانتصرت . (٥) معينا وناصرا .

وفد معاوية إلى عليّ

و بعث معاوية إلى عليّ حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهْرى ، وشُرَحْبيل بن السِّمْط ، ومَعْن ابن يزيد بن الأخْنَس ، فدخلوا عليه .

٢٢٥ — خطبة حبيب بن مسلمة

فحمد الله حبيب وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مَهْدِيًّا ، يعمل بكتاب الله عزّ وجلّ ، ويُنيب إلى أمر الله تعالى ، فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعَدَوتم عليه ، فقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قتلة عثمان — إن زعمت أنك لم تقتله — نقتُلْهم به ، ثم اعتزِل أمر الناس ، فيكونَ أمرُهم شورى بينهم ، يُوَلِّى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم » .

فقال له عليّ بن أبى طالب : « وما أنت لا أم لك والعَزْلَ ، وهذا الأمر ؟ اسكت ، فإنك لستَ هُنَاك ، ولا بأهل له » فقام وقال له : « والله لترَيَنِّى بحيث تكره » ، فقال عليّ : « وما أنت ولو أجْلَبْتَ بخَيْلِكَ ورَجِلك ؟ لا أبقى الله عليك إن أبقيت عَلَيَّ ، أحُقْرِيَّةً(١) وسوءاً ، اذهب فصوِّبْ وصَعِّدْ ما بدا لك . وقال شرحبيل بن السمط :

---

(١) فى كتب اللغة : حقره حقرا بفتح الحاء وحقرية بضمها وتشديد الياء ولم أجد كلمة « حقرة » وأرى أنها مثل هزأة وضحكة ، يقال رجل هزأة بضم الهاء وسكون الزاى أى يهزأ به وضحكة كذلك أى يضحك منه ، فالمعنى أتكون حقرة أى حقيرا وتسوءنى سوءا .

إنى إن كلمتك فلعمرى ما كلامى إلا مثل كلام صاحبى قبلُ ، فهل عندك جوابٌ غير الذى أجبتَه به ؟ فقال علىّ : نعم لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبته به .

٢٣٦ — خطبة علىّ بن أبى طالب

فحمِدَ الله وأثنى عليهِ ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله جَلّ ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، فأنقذ به من الضلالة ، وانتاش[١] به من الْهَلَـكَةِ ، وجمع به من الفُرْقَة ، ثم قبضه الله إليه ، وقد أدَّى ما عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ثم استخلف الناس أبا بكر رضى الله عنه ، واستخلف أبو بكر عمرَ رضى الله عنه ، فأحْسَنا السيرة ، وَعَدَلا فى الأمة ، وقد وَجَدا[٢] عليهما أنْ تولَّيا علينا ، ونحن آلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغفرنا ذلك لهما ، وولى عثمان رضى الله عنه فعمِلَ بأشياء عابها الناس عليه ، فساروا إليه فقتلوه ، ثم أتانى الناس وأنا معتزلٌ أمورهم ، فقالوا لى : بايع ، فأبيت عليهم ، فقالوا لى : بايع ، فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يَرُعْنِى إلاّ شقَاقُ رجلين قد بايعانى[٣] ، وخلافُ معاوية الذى لم يجعل الله عزّ وجلّ له سابقةً فى الدين ، ولا سَلَفَ صِدْقٍ فى الإسلام ، طَلِيق[٤] بن طليقٍ ، حِزْبٍ[٥] من هذه الأحزاب ، لم يَزَل لله عزّ وجلّ ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وللمسلمين عدوًّا ، هو وأبوه ، حتى دخلا فى الإسلام كارهَيْن ،

---

(١) انتشل وأخرج . (٢) وجد عليه : غضب . (٣) يعنى طلحة والزبير وما كان منهما من الخلاف عليه ، وانضمامهما إلى السيدة عائشة . (٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبى عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . (٥) حزب بدل من طليق الثانى : أى ابن حزب من هذه الأحزاب التى تألبت وتظاهرت على حربه صلى الله عليه وسلم من قريش ، وغطفان ، وبنى مرة ، وبنى أشجع ، وبنى سليم ، وبنى أسد (فى غزوة الأحزاب ، وهى غزوة الخندق سنة ٥ هـ) وكانت عدة الجميع عشرة آلاف مقاتل ، وقائدهم العام أبو سفيان .

فلا غَرْوَ(١) إلا خِلاَفُكم معه ، وانقيادكم له ، وَتَدَعُونَ آلَ نبيكم صلى الله عليه وسلم ، الذين لا ينبغى لكم شِقَاقُهُمْ ولا خِلافهم ، ولا أنْ تَعْدِلوا بهم من الناس أحداً ، ألاَ إنى أدعوكم إلى كِتابِ الله عزّ وجلّ ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإماتةِ الباطل ، وإحياءِ مَعَالِم الدين ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة » .

فقالا : « اشْهَدْ أن عثمان رضى الله عنه قُتل مظلوماً » فقال لهما : « لا أقول إنه قُتِل مظلوماً ، ولا إنه قتل ظالما » . قالا : « فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً، فنحن منه بُرَآء » ثم قاما فانصرفا ، فقال علىّ : « إنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى ، وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أنْتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ ، إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٤)

(١) فلا غرو : أى لا عجب ، وقوله إلا خلافكم معه : أى خلافكم علىّ معه ، أو هو « حلافكم معه » بالحاء، أى محالفتكم له ، ومناصرتكم إياه .

التحريض على القتال من قبل معاوية

٢٢٧ — خطبة عمرو بن العاص (المتوفى سنة ٤٣ هـ)

لما بلغ معاوية أن الإمام عليًّا (كرّم الله وجهه) يجهِّز الجيوش لقتاله، دعا عمرو ابن العاص، فاستشاره، فقال: «أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك، ولا تَغِبْ عنه برأيك ومكيدتك». قال: «أما إذاً يا أبا عبد الله فجهز الناس». فجاء عمرو فحضَّض الناس، وضعَّف عليًّا وأصحابه، وقال:

«إن أهل العراق قد فرَّقوا جمعهم، وأوهنوا شوكتهم، وفَلُّوا حدهم، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعليّ، قد وَتَرهم وَقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار فى شِرْذِمَة قَلِيلَةٍ، منهم من قد قَتَل خليفتكم، فاللهَ اللهَ فى حقكم أن تُضَيِّعُوه، وفى دمكم أن تُطِلُّوه». (تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٦)

٢٢٨ — خطبة أخرى لعمرو بن العاص

وخطب عمرو بن العاص قبل الوقعة العظمى بصفين، يحرض أهل الشأم «وقد كان منحنيًا على قوس» فقال:

«الحمد لله العظيم فى شانه، القوىّ فى سلطانه، العَلِىّ فى مكانه، الواضح فى برهانه، أَحْمَده على حُسْن البَلاَء، وتظاهُر النَّعماء، فى كل رَزِيَّة من بَلاَء[1]، أو شدة أو رخاء،

(١) البلاء: يكون محنة، ويكون منحة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ثم إنا نحتسِب عند الله رَبِّ العالمين ما أصبح فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، من اشتعال نيرانها ، واضطراب حبْلها ، ووقوع بَأسِها بينها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رَبِّ العالمين .

أوَ لاتعلمون أن صلاتنا وصلاتَهم ، وصيامنا وصيامهم ، وحجَّنا وحجهم ، وقبلتنا وقبلتَهم ، وديننا ودينهم واحد ؟ ولكن الأهواء مختلفة ، اللهم أصلح هذه الامة بما أصلحت به أولها ، واحفظ فيما بيننا ، مع أن القوم قد وَطِئوا بلادكم ، وبَغَوْا عليكم ، فجِدُّوا فى قتال عدوكم ، واستعينوا بالله ربكم ، وحافِظُوا على حُرُماتكم[1] » ثم جلس .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥٠٤)

٢٢٩ — خطبة معاوية بن أبى سفيان يحرض أهل الشأم

وقام معاوية فى أهل الشأم خطيباً ، فقال :

« أيها الناس : أعِيرُونا جَماجِمَكم وأنفسكم[2] ، لَا تَقْتَتِلُوا[3] ، ولا تَتَخاذَلُوا[4] ، فإنَّ اليومَ يومُ أخطار ، ويومُ حقيقة وحِفَاظٍ[5] ، إنكم لعلى حَقّ ، وبأيديكم حُجَّة ، إنما تقاتلون من نَكَثَ البيْعة ، وسَفَكَ الدم الحرام ، فليس له من السماء عَاذِرٌ ، قَدِّمُوا أصحاب السلاح المُسْتَلْئِمَة[6] ، وأخِّرُوا الحَاسِر[7] ، واحمِلُوا بأجمعِكم ، فقد بلغ الحق مَقْطَعَه ، وإنما هو ظالم ومظلوم » . (شرح ابن أبى الحديد ١ : ٤٨١)

---

(١) جمع حرمة ، وهى ما لايحل انتهاكه . (٢) أى جودوا برءوسكم ، ولا تبخلوا بنفوسكم على القتال .

(٣) فى الأصل « لا تقتتلوا » على أن الفعل مجزوم بلا الناهية ، وأراه محرفا ، وإنما هو « لا تقتلوا » مجزوم فى جواب الأمر ، أى إن تسخوا ببذل رءوسكم ونفوسكم وتقاتلوا مستبسلين تنجوا من القتل .

(٤) فى الأصل « ولا تتجادلوا » وأراه مصحفا عن « ولا تتخاذلوا » أى لتتعاونوا ، ولا يخذل بعضكم بعضا .

(٥) أى يوم محافظة على الأرواح والأعراض والأموال ودفاع عنها . (٦) استلأم : لبس اللأمة ، وهى الدرع . (٧) الحاسر : من لا مغفر له ، ولا درع ، أو لا جنة له .

٣٢٠ — خطبة ذى الكلاع الحميرى(١)

وطلب معاوية إلى ذى الكَلَاع الحميرى أن يخطب الناس ، ويحرضهم على قتال علىّ رضى الله عنه ومن معه من أهل العراق ، فعقد فرسه « وكان من أعظم أصحاب معاوية خطَرًا(٢) » وخطب الناس فقال :

« الحمد لله حمداً كثيراً ، نامياً واضحًا مُنيرًا ، بُكْرَةً وأصيلاً ، أحْمَده وأستعينه ، وأومن به، وأتوكل عليه، وكفى بالله وكيلاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالفرقان إمامًا ، وبالهُدَى ودين الحق ، حين ظهرت المعاصى ، ودَرَسَتِ(٣) الطاعة ، وامتلأت الأرض جَوْرًا وضلالة ، واضطرمت الدنيا نيراناً وفتنة ، وَوَرَكَ(٤) عدوُّ اللهِ إبليسُ على أن يكون قد عُبِدَ فى أكنافها ، واستولى على جميع أهلها ، فكان محمد صلى الله عليه وآله هو الذى أطفأ الله به نيرانَهَا ، وَنَزَعَ به أوتادها ، وأوهن به قوى إبليس ، وَآيَسَه مما كان قد طَمِعَ فيه من ظَفَره بهم ، وأظهره على الدين كلِّه ، ولو كره المشركون .

ثم كان من قضاء الله أن ضَمَّ بيننا و بين أهل ديننا بِصِفِّين ، وإنا لنعلم أنَّ فيهم قوماً، قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله سابِقَةٌ ذاتُ شأن وَخَطَر عظيم ، ولكنى ضربت الأمر ظهراً و بطناً ، فلم أرَ يسعنى أن يُهْدَرَ دَمُ عثمان ، صِهْر نبينا صلى الله عليه وآله ، الذى جَهَّز جيش العُسْرة(٥) ، وألحق فى مُصَلَّى رَسول الله صلى الله عليه وآله بيتاً ،

(١) هو ذو الكلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر يزيد بن النعمان وهما من أذواء اليمن . (٢) أى شأنا وقدرا . (٣) امّحت . (٤) ورك على الأمر وروكا: قدر .

(٥) وذلك أنه فى غزوة تبوك — وكانت سنة تسع للهجرة — أنفق فى تجهيز المقاتلة من المسلمين عشرة آلاف دينار ، وأعطى ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها (والأحلاس جمع حلس بالكسر: وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة . والأقتاب جمع قتب بالتحريك : وهو ما يوضع على سنام البعير) وخمسين فرسا، فقال =

وبنى سِقَايَة[1] ، وَبَايع له نبيُّ الله بيده اليمنى على اليسرى[2] ، واختصه بكريمتيه أمِّ كلثوم وَرُقَيَّة[3] ، فإن كان قد أذنب ذنباً ، فقد أذنب من هو خير منه ، قد قال الله سبحانه لنبيه : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وقتل موسى نفساً[4] ، ثم استغفر الله

= عليه الصلاة والسلام : « اللهم ارض عن عثمان ، فإنى راض عنه » وكان ذلك فى زمن عسرة الناس وجدب البلاد ، وشدة الحر ، قال تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ » أى وقتها ، وهى حالهم فى تلك الغزوة ، ذكروا أن الرجلين كانا يقتسمان تمرة ، وأن العشرة كانوا يعتقبون البعير الواحد . (١) وذلك أنه اشترى بئر رومة (بضم الراء : بئر بالمدينة) ثم تصدق بها على المسلمين ، فكان رشاؤه فيها كرشاء أحدهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من حفر بئر رومة فله الجنة » وأشرف عثمان رضى الله عنه على الثوار حين حصروه ومنعوا الماء عنه ، فقال : أنشدكم الله ، هل علمتم أنى اشتريت رومة من مالى يستعذب بها ، فجعلت رشائى منها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قيل : نعم ، قال : فما يمنعنى أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر ؟ ثم قال : أنشدكم الله هل علمتم أنى اشتريت كذا وكذا من الأرض ، فزدته فى المسجد ؟ قيل : نعم ، قال : فهل علمتم أحدا من الناس منع أن يصلى فيه قبلى ؟ ثم قال : أنشدكم الله ، هل سمعتم نبى الله صلى الله عليه وسلم يذكر كذا وكذا — أشياء فى شأنه ، فجعل الناس يقولون : مهلا عن أمير المؤمنين .

(٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قصد إلى مكة فى غزوة الحديبية (سنة ست للهجرة) بعث عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه إنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة وبلغ الرسالة ، واحتبسته قريش عندها ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا المسلمين إلى البيعة على الموت فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايع عليه الصلاة والسلام لعثمان ، فضرب بيده اليمنى على يده اليسرى وقال : هذه يد عثمان .

(٣) تزوج عثمان السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما ماتت جزع عثمان عليها وقال يارسول الله انقطع صهرى منك ، قال : إن صهرك منى لا ينقطع ، وقد أمرنى جبريل أن أزوجك أختها بأمر الله : السيدة أم كلثوم .

(٤) وذلك أنه فى إبان نشأته بمصر دخل مدينة منف ذات مرة ، فوجد فيها رجلين يقتتلان قبطيا يسخر إسرائيليا ليحمل حطبا إلى مطبخ فرعون ، فاستغاثه الإسرائيلى ، فقال موسى للقبطى : خل سبيله ، فقال له لقد هممت أن أحمله عليك ، فوكزه موسى (أى ضربه بجمع كفه) وكان شديد القوة والبطش فقتله ، ولم يكن يقصد قتله (وذكروا أنه كان إذ ذاك ابن اثنتى عشرة سنة) وقد اغتم لذلك خوفا من عقاب الله . =

فغفر له ، وقد أذنب نوح(١) ، ثم استغفر الله فغفر له ، وقد أذنب أبوكم آدم(٢) ، ثم استغفر الله فغفر له ، ولم يعرُ أحدكم من الذنوب ، وإنا لنطمع . قد كانت لابن أبي طالب سابقةٌ حسَنةٌ مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإن لم يكن مالأ(٣) على قتل عثمان فقد

= ومن القصاص فرعون واستغفر الله فغفر له ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (سورة القصص) وقال تعالى : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ » (سورة طه)

(١) يشير إلى ما كان من نوح عليه السلام بشأن ابنه كنعان حين حدث الطوفان ، قال تعالى : « وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ، يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ، وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » إلى أن قال : « وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي (أي وقد وعدتني بنجاتهم) وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (سورة هود) .

(٢) وذلك أنه إذ أسكنه الله هو وزوجه حواء الجنة وأباح لهما أن يأكلا من حيث شاءا ، نهاه أن يقرب شجرة عينها له ، فوسوس له إبليس أن يأكل منها فأطاعه : وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » . «سورة الأعراف» .

(٣) ناصر وشايع .

خذله ، وإنه لأخوه فى دينه ، وابنُ عمِّه[1] ، وَسِلْفه[2] ، وابنُ عمته[3] ، ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامكم وبلادكم وبَيْضَتكم[4] ، وإنما عامّتهم بين قاتل وخاذل، فاستعينوا بالله واصبروا ، فلقد ابتُليتم أيتها الأمّةُ ، ولقد رأيت فى منامى فى ليلتى هذه ، لكأنّا وأهلَ العِراقِ اعْتَوَرْنا[5] مُصْحَفًا نضرب بسيوفنا ، ونحن فى ذلك جميعا ننادى : وَيْحَكُمُ اللهُ ! ومع أنا والله لانفارق العَرْصة[6] حتى نموت ، فعليكم بتقوى الله ، وليكن الثَّباتُ لله ، فإنى سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إنَّما يُبْعَثُ المقتتلون على النيات » أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعزَّ لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم فى كل أمر ، وأستغفر الله لى ولكم » .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ٤٨٤)

٢٣١ — خطبة يزيد بن أسد البجلى

وقام يزيد بن أسد البَجَلِىّ فى أهل الشام يخطب الناس بصفين ، وعليه قَباء من خَزّ وعمامة سوداء ، آخذاً بقائم سيفه ، واضعًا نَصْلَ السَّيْفِ فى الأَرْضِ متوكئًا عليه ، فقال :

« الحمد لله الواحد الفردِ ، ذى الطوْل[7] والجلال ، العزيز الجبّار ، الحكيم الغفّار ، الكبير المُتَعَال ، ذى العَطَاء والفَعال[8] ، والسَّخَاءِ والنَّوَال ، والبهاء والجمال ، والمَنّ

---

(١) عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وعلى بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف . (٢) السلف (بفتح فكسر وبكسر فسكون) من الرجل : زوج أخت امرأته وقد علمت أن عثمان تزوج السيدة رقية أخت السيدة فاطمة زوج الإمام على . (٣) أم عثمان هى أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبى صلى الله عليه وسلم . (٤) البيضة : ساحة القوم . (٥) اعتوروا الشىء : تداولوه .

(٦) العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء . (٧) الطول : الفضل والقدرة والغنى .

(٨) الفعال : اسم الفعل الحسن ، والكرم .

والإفضال ، مالكِ اليوم الذى لا بَيْعَ فيه[1] ولا خِلَال[2] ، أحْمَده على حسن البلاء ، وتظاهُرِ النَّعْمَاء ، وفى كل حال من شدّة أو رخاء ، أحْمَده على نِعَمه التَّوام ، وآلائه العِظَام ، حمداً يستنير بالليل والنهار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة النَّجاة فى الحياة الدنيا وعند الوفاة ، وفيها الخلاص يوم القِصَاص ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبى المصطفى ، وإمام الرّحمة والهدى ، صلى الله عليه وآله .

ثم كان من قضاء الله أن جَمَعنا وأهلَ ديننا فى هذه الرُّقْعة من الأرض ، والله يعلم أنى كنت كارها لذلك، ولكنهم لم يُبْلعونا رِيقَنَا، ولم يتركونا نرتادُ لأنفسنا ، وننظر لمَعادِنَا، حتى نزلوا بين أظْهُرنا ، وفى حريمنا وَبَيْضَتنا[3] ، وقد علمنا أنّ فى القوم أحلامًا وطَغامًا[4] ، ولسنا نأمن طَغَامَهم عَلَى ذَرَارِيِّنا ونسائنا،ولقد كنا نحب أن لا نقاتل أهل ديننا ، فأخرجونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم عِدا حَمِيَّةً[5] ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين .

أما والذى بعث محمداً بالرِّسالة لَوَددْتُ أنى مُت منذ سنة ، ولكن الله إذا أراد أمرا لم يستطع العبادُ رَدَّه ، فنستعين بالله العظيم ، وأستغفر الله لى ولكم » .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ٤٨٥ والأغانى ١٩ : ٥٥)

---

(١) لابيع فيه فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره، أو يفدى به نفسه. (٢) الخلال والمخالة مصدر خال : المصادقة ، أى ولا مخالة فيه فيشفع لك خليلك . (٣) البيضة : ساحة القوم . (٤) الحلم بالكسر : الأناة والعقل ، وهو حليم والجمع حلماء وأحلام ، والطغام : أوغاد الناس . (٥) الحمية : الأنفة (وفى الأصل غدا ، وأرى صوابه عدا أى أعداء) .

التحريض على القتال

من قبل الإمام عليّ أيضاً

٢٣٢ – خطبة الإمام على

وخطب الإمام عليّ كرّم الله وجهه أصحابَه ، متوكئا على قوسه ، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنده فهم يَلُونَهُ – كأنه أَحَبَّ أن يعلم الناس أن الصحابة متوافرون معه – فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فإنَّ الخُيَلاءَ[1] من التجبُّر ، وإن النَّخْوَةَ[2] من التكبُّر ، وإنَّ الشيطان عدوٌّ حاضرٌ ، يَعِدُكم الباطلَ . ألاَ إنَّ المسلم أخو المسلم ، فلا تنَابَذوا ، ولا تَخَاذلوا ، ألاَ إنّ شرائع الدين واحدة ، وسُبُلَه قاصدة[3] ، من أخذ بها لَحِقَ[4] ، ومن فارقها مُحِقَ[5] ، ومن تركها مَرَقَ[6] ، ليس المسلم بالخائن إذا اؤتُمِن ، ولا بالمُخلِف إذا وَعَدَ ، ولا بالكذَّابِ إذا نَطَق ، نحن أهل بيت الرَّحمة ، وقولُنا الصِّدْقُ ، وفعلُنَا الفَضْلُ ، ومنا خاتَم النبيين ، وفينا قادةُ الإسلام ، وفينا حَمَلَة الكتاب ، ألاَ إنا ندعوكم إلى الله ، وإلى رسوله ، وإلى جهاد عدوه ، والشدة فى أمره ، وابتغاء مَرْضَاته ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وحجِّ البيت ، وصيام شهر رمضان ، وتوفير الْفَيْءِ على أهله . ألا وَإنَّ من أعجب

---

(١) الخيلاء : الكبر . (٢) النخوة : الافتخار والتعظم . (٣) القصد : استقامة الطريق.

(٤) أى أدرك رضا الله وثوابه . (٥) محقه : محاه ، ومحق الله الشيء ذهب ببركته . (٦) أى خرج عن الدين ، وأصله من مرق السهم من الرمية مروقا : إذا خرج من الجانب الآخر .

العجائب أنّ مُعاوية بن أبي سفيان الأمويّ ، وعمرَو بن العاص السَّهْميّ ، أصبحا يُحرِّضان الناس على طلب الدين بزعمهما ، ولقد علمتم أني لم أُخالف رسول الله صلى الله عليه وآله قطُّ ، ولم أعْصِه في أمر ، أقيهِ بنفسي في المواطن التي يَنْكُص[1] فيها الأبطال وترْعَد فيها الفرائصُ[2] ، بنجدة أكرمني الله سبحانه بها وله الحمدُ ، ولقد قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وآلهِ ، وإنَّ رأْسَه لفي حِجْرِي ، ولقد وَلِيت غُسْلَه بيدي وَحْدِي تقَلِّبُهُ الملائكة المقرَّبون معي ، وايم الله ما اختلفت أُمة قط بعد نبيها ، إلاّ ظهر أهْلُ باطلها على أهل حقها إلاّ ما شاء الله » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨١)

٢٣٣ — خطبة أخرى له

وروى أن الإمام عليًّا قال في هذه الليلة : حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ؟ فقام في الناس فقال :

« الحمد لله الذي لا يُبْرَمُ ما نقَضَ ، ولا يُنقَضُ ما أبرم ، لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ، ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر في شيء من أمره ، ولا جَحدَ المفضولُ ذا الفضل فَضْلَهُ ، وقد ساقتنا وهؤلاء القومَ الأقْدَارُ ، حتى لَفَّتْ بيننا في هذا الموضع ، ونحن من ربنا بمَرْأًى وَمَسْمَع ، ولو شاء لَعَجَّلَ النِّقْمة ، ولكان منهُ النصر ، حتى يكَذِّبَ الله الظالم ، ويعلم المُحِقُّ أين مصيرُهُ ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أسَاءوا بمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أحْسَنُوا بالْحُسْنَى » ألا إنكم لاَقُو الْعَدُوِّ غداً إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيَامَ ، وأكثروا تلاوَةَ القرآن ، واسألوا الله الصبر والنصر ، والْقوْهُمْ بالجِدِّ وَالحزم ، وكونوا صادقين » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٨١ وتاريخ الطبري ٦ : ٧)

---

(١) نكص عن الأمر : أحجم عنه .

(٢) جمع فريصة ، وهي لحمة بين الجنب والكتف لاتزال ترعد .

٢٣٤ – ومن كلام له كرم الله وجهه
كان يقوله لأصحابه فى بعض أيام صفين

« مَعاشِرَ المسلمين : استَشْعِرُوا[١] الخَشْيَةَ ، وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ ، وَعَضُّوا على النَّوَاجِذِ[٢] ، فإنه أنبَىٰ للسيوف عن الهَامِ[٣] ، وأَكْمِلوا اللَّأْمَةَ[٤] ، وَقَلقِلوا السيوف فى أغمادها ، قبل سَلِّها[٥] ، والحظُوا الخَزْرَ[٦] ، وَاطْعَنُوا الشَّزْرَ[٧] ، ونافحُوا بالظُّبَا[٨] ، وصِلُوا السيوف بالخُطا ، واعلموا أنكم بعَين[٩] الله ، ومع ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فعاودُوا الكَرَّ ، وَاسْتَحْيُوا من الفَرِّ ، فإنه عارٌ فى الأعقاب ، ونارٌ يوم الحساب ، وَطِيبُوا عن أنفسكم نَفْسا ، وامشوا إلى الموت مَشْيًا سُجُحًا[١٠] ، وعليكم بهذا السَّواد[١١] الأعظم ، والرِّواق المُطنَّب[١٢] ، فاضربوا ثَبَجَه[١٣] ، فإن الشيطان كامِنٌ فى كِسْرِه[١٤] ، قد قَدَّمَ لِلوَثْبَةِ يدا ، وأخَّرَ للنكوص رِجْلا ، فَصَمْدًا صَمْدًا[١٥] ، حتى يَنْجَلِيَ لكم عمودُ الحق ، وأنتم الأعْلَوْنَ ، واللهُ معكم ، ولن يَتِرَكُم[١٦] أعمالكم » .

(نهج البلاغة ١ : ٥٧)

---

(١) استشعر : لبس الشعار وهو مايلى البدن من الثياب . وتجلبب : لبس الجلباب ، والمراد : لازموا الخشية والسكينة . (٢) النواجذ جمع ناجذ : أقصى الأضراس ، ويعض المرء نواجذه حين يشتد غيظه ، والمراد : استجمعوا كل قوتكم . (٣) فإنه : الضمير فيه يعود على المصدر المفهوم من الفعل السابق : أى فإن العض على النواجذ أنبى للسيوف ، أى أدعى إلى نبوها عن رءوسكم ، نبا السيف عن الضريبة : كل ، والهام : الرءوس جمع هامة . (٤) اللأمة : الدرع ، ويجوز أن يعبر باللأمة عن جميع أدوات الحرب ، يريد أكملوا السلاح . (٥) مخافة أن تستعصى عن الخروج وقت سلها .

(٦) الخزر : النظر فى أحد الشقين ، وتلك أمارة الغضب . (٧) الطعن فى الجوانب يمينا وشمالا .

(٨) نافحوا : كافحوا وضاربوا ، والظبا : جمع ظبة ، وهى حد السيف . (٩) أى ملحوظون بها .

(١٠) اللين : السهل . (١١) العدد الكثير . يعنى جمهور أهل الشأم . (١٢) الرواق : بكسر الراء وضمها الفسطاط ، يريد به مضرب معاوية المطنب ، أى المشدود بالأطناب (جمع طنب بضمتين ، وهو الحبل) وكان معاوية فى مضرب عليه قبة عالية وحوله صناديد أهل الشأم . (١٣) أى وسطه .

(١٤) جانبه . (١٥) الصمد : القصد ، صمده من باب نصر قصده . (١٦) لن ينقصكم منها شيئا .

٢٣٥ — خطبة أخرى للإمام

وخطب الإمام على ذلك اليوم أيضاً ، فقال :

« أيها الناس : إن الله تعالى ذِكْرُه ، قد دلكم على تجارة تُنْجيكم من العذاب ، وتُشفِى[1] بكم على الخير ، إيمانٍ بالله ورسوله ، وجهادٍ فى سبيله ، وجعل ثوابَهُ مغفرة الذنوب ، ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً فى جنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ من الله أكبر ، وأخبرَكم بالذى يحب فقال : (إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِهِ صَفًّا ، كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) فسوُّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدِّموا الدارع ، وأخِّروا الحاسر ، وعَضُّوا على الأضراس ، فإنه أنبَى للسيوف عن الهام ، وأرْبَط للجأش ، وأسكَن للقلوب ، وأميتوا الأصوات ، فإنه أطرد للفشل ، وأولى بالوقار ، والتَوُوا فى أطراف الرِّماح ، فإنه أمْوَر[2] للأسنَّة ، ورايتكم فلا تُميلوها ، ولا تُزيلوها ، ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم ، المانعِى الذِّمار[3] ، والصُّبُرِ عند نزول الحقائق ، أهل الحِفَاظِ الذين يَخفِرُون[4] برايتكم ويكتنفونها يضربون خلفها وأمامها ، ولا يُضَيِّعُونها ، أجْزَأَ كلُّ امرِئٍ مسلم قِرْنَه[5] ، وواسى أخاه بنفسه ، ولم يَكِل قِرْنَه إلى أخيه ، فيجمع عليه قِرْنَه وَقِرن أخيه ، فيكسبَ بذلك اللائمة ، ويأتى به دناءة ، أنَّى هذا ، وكيف يكون هذا ؟ هذا يقاتل اثنين ، وهذا مُمسِكٌ يدَهُ ، قد خَلَّى قرنه إلى أخيه هارباً منه ، أو قائماً ينظر إليه ؟ من يَفْعَلْ هذا مقته الله ، فلا تَعَرَّضوا لمقت الله ، فإنما مردُّكم إلى الله ، قال الله تعالى لقوم عابهم : (لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ ، وَإِذَنْ لاَ تُمَتَّعُونَ إلاَّ

---

(١) أشفى عليه : أشرف . (٢) اسم تفضيل من مار ، سهم مائر : أى خفيف نافذ داخل فى الأجسام .

(٣) مايلزمك حفظه وحمايته . (٤) خفره وبه وعليه يخفر بكسر الفاء وضمها : أجاره ومنعه وآمنه .

(٥) القرن : كفؤك فى الشجاعة (أو عام) وأجزأه : أغناه وكفاه .

قليلاً) وايم الله إن فررتم من سيف الله العاجلةَ ، لا تسلمون من سيف الآخرة ، استعينوا بالصدق والصبر ، فإنه بعد الصبر يُنزِل النصر » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٣ وتاريخ الطبرى ٦ : ٩)

٢٣٦ - خطبة للإمام على

ومرّ الإمام على كرّم الله وجهه على جماعة من أهل الشأم ، فيها الوليد بن عُقْبة وهم يشتمونه ، فَخُبِّر بذلك ، فوقف فيمن يليهم من أصحابه ، فقال :

« انْهَدُوا(١) إليهم ، عليكم السكينةُ والوقار ، وقارُ الإسلام وسيمى الصالحين ، فوالله لأقْرَبُ قومٍ من الجهل قائدهم ومُؤْذِنهم(٢) معاوية وابن النابغة(٣) وأبو الأعور السُّلَمِىّ ، وابن أبى مُعَيط ، شارب الخمر ، المجلود حدّا فى الإسلام ، وهم أولى من يقومون فيَنْتَقِصُوننى ويَجْدِبوننى(٤) ، وقبل اليوم ماقاتلونى ، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام ، وهم يدعوننى إلى عبادة الأصنام ، الحمد لله ، قديماً عادانى الفاسقون ، فعبّدهم(٥) الله ، ألم يُفْتَخُوا(٦) ؟ إن هذا لهو الخطب الجليل ، إن فُسّاقا كانوا غيرَ مَرْضِيِّين ، وعلى الإسلام وأهله مُتخوَّفين ، خدعوا شَطْرَ هذه الأُمة ، وأشْرَبُوا قلوبَهم حُبَّ الفتنة ، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبُهتان ، قد نصبوا لنا الحرب فى إطفاء نور الله عز وجل ، اللهم فافْضُض خَدَمَتَهم(٧) ،

---

(١) نهد الرجل : نهض ، ونهد لعدوه : صمد له . (٢) الأذين والمؤذن : الزعيم .

(٣) هو عمرو بن العاص ، والنابغة : لقب أمه سلمى بنت حرملة . (٤) الجدب بالتسكين : العيب .

(٥) ذللهم ، المعبد : المذلل من الطريق وغيره . (٦) الفتخ بالسكون : القهر ، والغلبة والتذليل كالتفنيخ (وفى الأصل : « ألم يفتحوا » وهو تصحيف) . (٧) يقال فض الله خدمتهم أى فرق جماعتهم ، الخدمة بالتحريك سير غليظ مضفور مثل الحلقة يشد فى رسغ البعير ، ثم يشد إليه سرائح النعل (أى سيورها : جمع سريحة) فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النعل ، فضرب ذلك مثلا لذهاب ما كانوا عليه وتفرقه ، وشبه اجتماع أمرهم واتساقه بالحلقة المستديرة .

وشتِّت كلمتهم ، وأبسِلْهم[1] بخطاياهم ، فإنه لا يَذِلُّ من واليْتَ ، ولا يعِزُّ من عاديت » ،

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٤)

٢٣٧ — خطبة أخرى له

ومرَّ بأهل راية ، فرآهم لا يزولون عن موقفهم ، فحرَّض عليهم الناس — وَذُكِرَ أنهم غسَّان — فقال :

« إن هؤلاء لن يَزُولوا عن موقفهم دون طعن دَرَّاكٍ ، يُخرِجُ منهم النَّسَم[2] ، وضرب يُفلَق منه الهَامُ[3] . ويطيح[4] العظام ، وتسقط منه المَعَاصِمُ[5] والأكف . وحتى يُصْدَع جِبَاهُهُمْ بِعُمُدِ الحديد ، وتنتشر حواجبهم على الصدور والأذقان ، أين أهْلُ الصبر ، وطُلَّابُ الأجر ؟ » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٥)

٢٣٨ — خطبة عبد الله بن عباس

وخطب عبد الله بن عباس أهل العراق بصفين ، فقال :

« الحمد لله رَبِّ العالمين ، الذى دَحَا[6] تحتنا سبعا ، وسَمَكَ[7] فوقنا سبعاً ، وخلق فيما بينهن خَلْقًا ، وأنزل لنا منهن رزقا ، ثم جعل لكل شىء قدراً ، يَبْلَى وَيَفْنَى ، غيرَ وجهه الحى القيُّوم ، الذى يحيا ويبقى .

---

(١) أبسله : أسلمه للهلكة ، أى أهلكهم . (٢) جمع نسمة ، وهى نفس الروح (بفتح الفاء) ثم سميت بها النفس (بالسكون) . (٣) جمع هامة ، وهى الرأس . (٤) يصح أن يكون مضارع طيح بالتشديد : طيح بثوبه : رمى به فى مضيعة ، وطيح الشىء : ضيعه ، وأن يكون مضارع أطاح : أطاح شعره أسقطه ، والشىء أفناه وأذهبه ، وأن يكون مضارع طاح : طاح يطيح ويطوح هلك ، أو أشرف على الهلاك وذهب وسقط وتاه فى الأرض . (٥) جمع معصم بكسر الميم ، وهو موضع السوار أو اليد . (٦) دحا الله الأرض يدحوها ويدحاها : بسطها . (٧) أى رفع .

إن الله تعالى بعث أنبياء وَرُسُلا ، فجعلهم حُجَجًا على عباده عُذْرًا وَنُذْرًا[١] ، لا يُطَاعُ إلا بعلمه وإذنه ، يَمُنُّ بالطاعة على من يشاء من عباده ، ثم يُثيب عليها ، وَيُعْصَى بعلمٍ منه ، فيعفو ويغفر بحلمه ، لا يُقْدَر قدره ، ولا يَبْلُغ شيء مكانَه ، أحصى كل شيء عدداً ، وأحاط بكل شيء علمًا ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إمام الهدى والنبي المصطفى .

وقد ساقنا قَدَرُ اللهِ إلى ما تَرَوْنَ ، حتّى كان مما اضطرب من حبل هـذه الأمة ، وانتشر من أمرها ، أنَّ معاوية بن أبي سفيان وجد من طَغَام الناس أعواناً على ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وَصِهْرِه ، وأوّلِ ذَكَرٍ صَلّى معـه ، بَدْرِيّ[٢] قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله كلَّ مَشَاهِدِهِ التي فيها الفضل ، ومعاوية مُشْرِكٌ كان يعبد الأصنام ، والذى ملك الملك وحده ، وبان به وكان أهلَه ، لقد قاتل على بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : صدق الله ورسوله ، ومعاوية يقول : كذب الله ورسوله : فعليكم بتقوى الله ، وَالجِدِّ والحزم والصبر ، واللهِ إنا لنعلم إنكم لَعَلَى حق ، وإن القوم لعلى باطل ، فلا يكونُنَّ أولى بالجِدِّ على باطلهم منكم فى حقكم ، وإنا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدى غيركم ، اللهم أعِنّا ولا تخذُلْنا ، وانصرنا على عدونا ، ولا تَحُلْ عنا ، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤)

---

(١) هما مصدران : عذره يعذره عذرا بضم فسكون وبضمتين وأنذره إنذارا ونذرا بضم فسكون وبضمتين : أو جمعان : العذر بضمتين جمع عذير وهو العاذر ، والنذر بضمتين جمع نذير وهو المنذر .

(٢) أى حضر غزوة بدر الكبرى التى نشبت بين رسول الله عليه الصلاة والسلام وبين مشركى قريش فى السنة الثانية للهجرة .

٢٣٩ — خطبة عبد الله بن بديل الخزاعى

وقام عبد الله بن بُدَيْل الخُزَاعى فى أصحابه فخطبهم ، فقال :

« إن معاوية ادّعى ما ليس له ، ونازعَ الأمرَ أهلَه ، ومن ليس مثلَه ، وجادل بالباطل ، لِيُدْحِضَ[1] به الحق ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، وَزَيَّنَ لهم الضلالةَ ، وزرع فى قلوبهم حبَّ الفتنة ، ولَبَّسَ[2] عليهم الأُمور ، وزادهم رِجْسًا[3] إلى رِجسهم ، وأنتم والله على نور وبرهان ، قاتلوا الطَّغَام الجُفاة ، قاتلوهم ولا تخشوهم ، وكيف تخشونهم ؟ وفى أيديكم كتابٌ من ربكم ظاهر مُبين ، قوله سبحانه : (أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) لقد قاتلتُهم مع النبى صلى الله عليه وآله ، والله ما هم فى هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبَرّ ، انهضوا إلى عدو الله وعدوكم ، بارك الله عليكم » .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٤٨٣ وتاريخ الطبرى ٦ : ٩)

٢٤٠ — خطبة أبى الهيثم بن التيهان

وكان أبو الهيثم بن التيهان يسوِّى صفوف أهل العراق ، ويقول :

« يامعشر أهل العراق ، إنه ليس بينكم وبين الفتح فى العاجل ، والجنةِ فى الآجل . إلا ساعةٌ من النهار ، فأرْسُوا أقدامكم ، وسوُّوا صفوفكم ، أعيرُوا ربكم جماجمَكم ، واستعينوا بالله إلهِكم ، وجاهدوا عدو الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم . واصْبِرُوا فإنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ من عباده والعاقبة للمتقين » .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٤٨٤)

---

(١) دحضت الحجة : بطلت ، وأدحضتها : أبطلتها . (٢) التلبيس : التخليط .

(٣) الرجس : القذر والمأثم ، وكل ما استقذر من العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

٢٤١ — خطبة للإمام على

وخطب علىّ عليه السلام بصفين أيضاً فقال :

« الحمد لله على نعمه الفَاضِلةِ على جميع من خَلَقَ من الْبَرِّ والفاجر ، وعلى حُجَجه البَالغة على خَلْقِهِ مَنْ أطاعه منهم ومن عصاه ، إن يَرْحَم فبفضله ومَنِّه ، وإنْ عَذَّبَ فبما كَسَبَتْ أيديهم ، وإن الله ليس بِظَلَّامٍ للعبيد . أَحْمَدُهُ على حسن البلاء ، وتظاهر النَّعْمَاء ، وأستعينهُ على مانابنا من أمر الدنيا والآخرة ، وَأتوكَّل عليه ، وكفى بالله وكيلا . ثم إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ارتضاه لذلك وكان أَهْلَهُ ، واصطفاه لتبليغ رسالتهِ وجعله رحمة منهُ على خلقهِ . فكان عَلَمَه فيه رءوفا رحيماً ، أكرم خلق الله حَسَبًا ، وأجملهم منظراً ، وأسخاهم نفسًا ، وأبرهم لوالد ، وأوصلهم لِرَحِم ، وأفضلهم علما ، وأثقلهم حِلْمًا ، وأوفاهم لعهد ، وَآمَنَهُمْ عَلَى عَقْد ، لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بمَظْلِمَةٍ قَطُّ ، بل كانَ يُظْلَمَ فيَغْفِر وَيَقدِرُ فيَصْفح ، حتى مضى صلى الله عليه وآله مطيعًا لله ، صابرًا على ما أصابه ، مجاهداً فى الله حقَّ جهَادِهِ ، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وآله ، فكان ذهابه أعظم المصيبة على أهل الأرض البَرِّ وَالفَاجر ، ثم ترك فيكم كتاب الله يأمركم بطاعة الله ، وينهاكم عن معصيته .

وقد عهد إلىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ، فلست أحيد عنهُ ، وقد حضرتم عدوكم ، وعلمتم أن رئيسهم منافق يدعوهم إلى النار ، وابن عمٍّ نبيكم معكم و بين أظهُركم يدعوكم إلى الجنة ، وإلى طاعة ربكم ، والعمل بسنة نبيكم ، ولا سواء[1] مَنْ صَلى قبل كلِّ ذكر ، لايسبقنى بصلاة مع رسول الله أحد . وأنا من أهل بدر ، ومعاوية طليق ،

(١) أى ولا مثل من صلى .

والله إنّا على الحق ، وإنهم على الباطل ، فلا يَجْتَمِعُنَّ على باطلهم ، وتتفرّقوا عن حقكم ، حتى يغلب باطلهم حقكم ، قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ، فإن لم تفعلوا يعذبهم بأيدى غيركم » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٥٠٣)

٢٤٢ — خطبة سعيد بن قيس

وقام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بِقُنَاصِرِين(١) ، فقال :

« الحمد لله الذى هدانا لدينه ، وأورثنا كِتابَه ، وامتنّ علينا بنبيه ، فجعله رحمة للعالمين ، وسيد المرسلين ، وقائدَ المؤمنين ، وختامًا للنبيِّين ، وحجةَ الله العظيم ، على الماضين والغابرين ، ثم كان مما قضى الله وقدّره ـ وله الحمد على ما أحببنا وكرِهنا ـ أن ضمّنا وعدُوّنا بِقُنَاصِرين ، فلا يَجْمُلُ بنا اليومَ الحِيَاصُ(٢) ، وليس هذا بأوان انصراف ، ولات حينَ مَناص(٣) ، وقد خصّنا الله بمَنّه برحمةٍ لا نستطيع أداء شكرها ، ولا نَقْدُرُ(٤) قَدْرَها ، إن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارَ معنا وفى حَيِّزنا ، فوالله

---

(١) قال صاحب اللسان والقاموس : قناصرين موضع بالشأم ، ولم يذكره ياقوت فى معجمه .

(٢) حاص عنه يحيص حيصا ومحيصا ومحاصا عدل وحاد ، والحياص والمحايصة : مفاعلة من الحيص أى العدول والهرب . قال صاحب اللسان : وفى حديث مطرف (بتشديد الراء المكسورة) أنه خرج من الطاعون فقيل له فى ذلك ، فقال : « هو الموت نحايصه ولابد منه » « قال أبو عبيد معناه : نروغ عنه » وليس بين العبد والموت مفاعلة ، وإنما المعنى أن الرجل فى فرط حرصه على الفرار من الموت كأنه يباريه ويغالبه ، فأخرجه على المفاعلة لكونها موضوعة لإفادة المباراة والمغالبة بالفعل ، كقوله تعالى : « يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » فيئول معنى نحايصه إلى قولك نحرص على الفرار منه اهـ » .

(٣) النوص والمناص : التأخر والفرار ، ناص عن قرنه ينوص : فر وراغ . أى وليس الوقت وقت تأخر وفرار .   (٤) قدر الشيء قدره من التقدير وبابه ضرب ونصر « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى ماعظموه حق تعظيمه .

الذى هو بالعباد بصير ، أنْ لو كان قائدنا رجلا مخدوعا ، إلاأنّ معنا من البدريين سبعين رجلاً ، لكان ينبغى لنا أن تَحْسُنَ بصائرنا ، وتطيبَ أنْفُسُنا ، فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا ، بَدْرِيٌّ صِدْق ، صَلّى صغيراً ، وجاهد مع نبيكم صلى الله عليه وسلم كثيرًا ، ومعاوية طليقٌ من وَثاق[1] الأَسارى ، إلاّ أنه أخو جُفاةٍ ، فأوردهم النارَ ، وأورثهم العارَ ، والله مُحِلٌّ بهم الذل والصَّغار[2] ، ألا إنكم ستلقَون عدوكم غداً ، فعليكم بتقوى الله من الجِدِّ وَالحَزْمِ والصدق والصبر ، فإنّ الله مع الصابرين ، ألا إنكم تفوزون بقتلهم ، ويشقَوْن بقتلكم ، واللهِ لايقتل رجلٌ منكم رجلاً منهم إلاّ أدخل الله القاتل جنات عَدْنٍ وأدخل المقتول نارًا تَلَظّى ، لا يُفَتَّرُ عنهُمْ وهم فيها مُبْلِسُونَ[3] ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه ، وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم والمؤمنين » .

(شرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٤٨٣)

٢٤٣ — خطبة يزيد بن قيس الأرحبى

وحرض يزيد بن قيس الأَرْحَبِى أهل العراق بصفين ، فقال :

« إن المسلم من سَلِم دينهُ ورأيه ، وإن هؤلاء القوم والله ما إن يقاتلوننا على إقامةِ دينٍ رَأَوْنا ضَيَّعْناه ، ولا على إحياء حَقٍّ رَأَوْنا أمَتْناه ، وَلا يقاتلوننا إلاّ على هذه الدنيا ، ليكونوا فيها جَبابرةً وَملوكًا ، ولو ظَهَرُوا عليكم — لا أراهم الله ظهورًا ولا سرورًا — إذن

---

(١) الوثاق بالفتح ويكسر : ما يشد به ، وأوثقه فى الوثاق شده «فَشُدُّوا الْوَثَاقَ»

(٢) الذل والضيم . (٣) من أبلس : إذا يئس وتحير .

لوَليكم مثل سَعِيدٍ[1] والوليدِ[2] وَعبدِ الله بن عامرٍ[3] السفيه ، يحدِّث أحدهم فى مجلسه بذيْتَ وَذَيْتَ[4] ، ويأخذ مال الله ، ويقول لاإثمَ عَلَيَّ فيه ، كأنما أُعطِى تُرَاثه من أبيه . كيف ؟ إنما هو مال الله ، أفاءه علينا بأسيافنا ورماحنا ، قاتلوا : عبادَ الله : القومَ الظالمين . الحاكمين بغير ماأنزل الله ، ولا تأخُذْكم فيهم لومةُ لائم . إنَّهُمْ إنْ يَظْهَرُوا عليكم ، يُفسِدُوا عليكم دينكم ودنياكم . وهم مَنْ قد عرفتم وَجرَّبتم . واللهِ ماأرادوا باجتماعهم عليكم إلاّ شرًّا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠ ؛ شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٨٥)

٢٤٤ — خطبة هاشم بن عتبة المرقال

وشَدَّ هاشمُ بن عُتْبَةَ المِرْقَالُ[5] فى عصابة من أصحابه على أهل الشأم مرارًا ،

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ؛ قتل أبوه العاص يوم بدر كافرا ؛ قتله على بن أبى طالب ؛ وقد استعمل عثمان بن عفان سعيدا على الكوفة بعد الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، وولاه معاوية فى خلافته المدينة ، فكان يوليه إذا عزل مروان بن الحكم عن المدينة ويولى مروان إذا عزله . (٢) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط أبان بن أبى عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه (أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس) ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، ثم عزله حين اتهم بشرب الخمر ، واستعمل بعده سعيد بن العاص . (٣) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، استعمله عثمان على البصرة بعد أبى موسى الأشعرى ، وولاه أيضا بلاد فارس بعد عثمان بن أبى العاص ، ولم يزل واليا على البصرة إلى أن قتل عثمان ، وقد ولاه معاوية البصرة ثلاث سنين . (٤) ذيت وذيت مثلثة الآخر : أى كيت وكيت . (٥) هو هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو ابن أخى سعد بن أبى وقاص ، ولقب بالمرقال لأن عليا رضى الله عنه أعطاه الراية بصفين ، فكان يرقل بها أى يسرع ، وهو الذى افتتح جلولاء من بلاد الفرس ، وكانت جلولاء تسمى فتح الفتوح ، وفقئت عينه يوم اليرموك بالشام ، وقتل فى وقعة صفين ، قطعت رجله يومئذ ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك .

فليس من وجْهٍ يَحْمِلُ عليه ، إلاّ صَبَر له ، وقاتل فيه قتالاً شديدًا . فقال لأصحابه :

« لايَهُولَنَّكم ماترَوْنَ من صَبْرهم . فوالله ماترَوْن فيهم إلاّ حَمِيَّة العرب ، وصبرها تحت رَاياتِها ، وعند مراكزها ، وإنهم لَعَلَى الضلال ، وإنكم لعلى الحق ، ياقوم اصْبِرُوا وصابِروا واجتمعوا ، وامشوا بنا إلى عدونا ، عَلَى تُؤَدَةٍ رُوَيْداً ، ثم اثْبُتُوا وتناصروا ، واذكروا الله ، ولا يسألْ رجلٌ أخاه ، ولا تُكْثِرُوا الالتفات ، واصْمُدُوا[1] صَمْدَهم ، وجاهدوا محتسبين ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٢)

٢٤٥ — خطبة عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر يوم صفين ، فقال :

« انهضوا معى : عبادَ الله : إلى قوم يزعمون أنهم يطلبون بِدَمِ ظالمٍ ، إنما قتله الصالحون المنكِرُون لِلْعُدْوان ، الآمرون بالإحسان ، فقال هؤلاء الذين لايبالون إذا سَلِمت لهم دنياهم ، ولو دَرَس[2] هذا الدينُ ، لِمَ قتلتموه ؟ فقلنا : لِأَحْداثه ، فقالوا : إنه لم يُحْدِث شيئاً ، وذلك لأنه مَكَّنهم من الدنيا ، فهم يأكلونها ويَرْعَوْنها ، ولا يبالون لو انهدمت الجبال ، واللهِ ما أظنهم يطلبون بدم ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا ، فاستحلَوْها واستَمْرَءوها[3] ، واعلموا أن صاحب الحق لو وَلِيَهُمْ لحال بينهم وبين ما يأكلون ويَرْعَوْن منها ، إن القوم لم يكن لهم سابِقَةٌ فى الإسلام ، يستحقون بها الطّاعةَ والولاية ، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا : قُتِلَ إمامنا مظلوما : ليكونوا بذلك جبابرة وملوكا ، تلك

---

(١) أى اقصدوا جهتهم . (٢) امحى . (٣) استمرأ الطعام : وجده مريئا أى هنيئا حميد المغبة .

مكيدة قد بلغوا بها ما تَرَوْن ، ولولاها ما تابعهم من الناس رجُلٌ ، اللهم إن تَنْصُرْنا ، فطالما نَصَرْتَ ، وأن تجعل لهم الأمر فادَّخِرْ لهم بما أحدثوا لعبادك العذابَ الأليم » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥٠٤ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٢١ والكامل لابن الأثير ٣ : ١٢٣)

٢٤٦ — خطبة الأشعث بن قيس

وخطب الأشعث بن قيس أصحابه من كِندة ليلة الهرير بصفين فقال :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأستنصره وأستغفره ، وأستجيره ، وأستهديه وأستشيره ، وأستشهد به ، فإنه من هداه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله ثم قال :

قد رأيتم يا معْشر المسلمين ما قد كان فى يوْمكم هذا الماضى ، وما قد فَنِيَ فيه من العرب ، فوالله لقد بلغتُ من السنِّ ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيْت مثل هذا اليوم قط ، ألا فليُبلغ الشاهد الغائب أنا نحن إن تواقفنا غداً إنه لَفنيت العرب ، وضيِّعت الحُرُمات ، أما واللهِ ما أقولُ هذه المقالة جزعا من الحرْب ، ولكنى رجل مسنَّ أخافُ على النساء والذرارى غداً إذا فنينا .

اللهمَّ إنك تعلم أنى قد نظرْت لقوْمى ولأهل دينى فلم آلُ ، وما توفيقى إلاَّ بالله ، عليه توكلْتُ وإليه أُنيب ، والرَّأى يخطئ ويُصيب ، وإذا قضى اللهُ أمرًا أمضاه على ما أحب العبادُ أو كرِهوا .

أقولُ قوْلى هذا وأستغفرُ الله العظيم لى ولكم » .

فانطلقت عيون مُعاوية إليه بخطبة الأشعث فاغتنمها وبنى عليها تدبيره .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ١٨٥)

٢٤٧ — خطبة الأشتر النخعي

وقام الأشتر يخطب الناس بِقِنَاصِرِين ، وهو يومئذ على فرس أدهمَ مثل حَالِكِ[(١)] الغراب ، فقال :

« الحمدُ لله الذي خلقَ السَّمٰواتِ العُلى ، الرَّحمٰن على العَرْشِ اسْتَوَى ، له ما فى السمٰوات وما فى الأرضِ وما بينهما وما تحت الثَّرَى ، أحمده على حسْنِ البَلَاء ، وتظاهر النَّعْماء ، حمداً كثيراً ، بُكْرَةً وأصيلاً ، من هداهُ الله فقد اهتدى ، ومن يُضْلِلْ فقد غوَى ، أرسل محمداً بالصواب والهُدَى ، فأظهره علىَ الدِّين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وآله .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقَدَّرَ ، أن ساقتنا المقاديرُ إلى أهل هذه البلدة من الأرض ، فَلَفَّتْ بيننا و بين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه وَمَنِّه وفَضْلِهِ ، قريرةٌ أعيُنَنَا ، طيبةٌ أنفسنا ، نرجو بقتالهم حُسْنَ الثواب ، والأَمْنَ من العقاب ، معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله، على بن أبي طالب ، صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يَسْبِقْه إلى الصلاة ذَكَر ، حتى كان شيخاً لم يكن له صَبْوَةٌ[(٢)] ، ولا نَبْوَةٌ[(٣)] ، ولاَ هَفْوَةٌ ، ولا سَقْطَة ، فَقِيهٌ فى دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رَأْيٍ أصيل ، وَصَبْرٍ جميل ، وَعَفَافٍ قديم ، فاتقوا الله وعليكم بالحزم والجد ، واعلموا أنكم على الحق ، وأنَّ القوم على الباطل ، إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريبٌ من مائة بدريّ ، سوى مَنْ حَوْلَكم من أصحاب محمد ، أكثرُ ما معكم راياتٌ قد كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الحالك : شدة السواد ، وفى الأصل : « حثل » وهو تحريف . (٢) الصبوة : جهلة الفتوة

(٣) نبا السهم عن الهدف : قصر ولم يصبه ، والمراد أنه لا يعرف عنه تقصير فى الدين ولا وهن .

فمن يَشكُّ فى قتال هؤلاء ؟ إلاّ مَيِّت القلب ، أنتم على إحدى الحُسْنَيَيْنِ ، إما الفتح ، وإما الشهادة ، عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه ، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه ، وأستغفر الله لى ولكم » . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٨٤).

٢٤٨ — خطبة الأشتر فى المنهزمين من الميمنة

ولما انهزمت ميمنة العراق ، قال له علىّ : يا مالك ، قال : لَبَّيْك ، قال : ائت هؤلاء القوم فقل لهم : « أين فِرَارُكُمْ من الموت الذى لن تُعْجِزُوه ، إلى الحياة التى لن تبقى لكم » فمضى فاستقبل الناس منهزمين ، فقال لهم هذه الكلمات ، وقال : إلَىَّ أيها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، أنا مالك بن الحارث ، ثم ظَنَّ أنه بالأشتر أعْرَفُ فى الناس ، فقال : أنا الأشتر ، إلَىَّ أيها الناس ، فأقبلت إليه طائفة ، وذهبت عنه طائفة ، فنادى : أيها الناس ، عَضِضتم بِهَنِ[1] آبائكم ، ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم ! أيها الناس : أَخْلِصُوا إلَىَّ مَذْحِجا[2] ، فأقبلت إليه مذحج فقال :

« عضضتم بِصُمِّ[3] الجندل ، ما أرضيتم رَبَّكم ، ولا نصحتم له فى عدوكم ، وكيف بذلك وأنتم أبناء الحروب ، وأصحابُ الغَارات ، وفتيان الصَّبَاح[4] ، وفُرْسان الطِّراد ، وحُتُوفُ الأقْران ، ومذحج الطِّعَان ، الذين لم يكونوا يُسْبَقون بثأرهم ، ولا تُطَلُّ دماؤهم ، ولا يُعْرَفُونَ فى مَوْطِنٍ بِخَسْف[5] ، وأنتم حَدُّ أهل مصركم ، وأعَزُّ حَىّ فى قومكم ، وما تفعلوا فى هذا اليوم ، فإنه مأثور بعد اليوم ، فاتقوا مأثور الأحاديث فى غد ، وَاصْدُقُوا عدوَّكم اللقاء ، فإن الله مع الصادقين ، والذى نفس مالكٍ بيده ما من هؤلاء (وأشار بيده

---

(١) الهن : اسم يكنى به عن الفرج . (٢) كان الأشتر من النخع (بالتحريك) ، وهى قبيلة كبيرة من مذحج باليمن . (٣) الصم : جمع صمة (كفرصة) ، وهى الصخرة الصلبة كالصتيمة .
(٤) الغارة . (٥) الخسف : الذل .

إلى أهل الشأم) رَجلٌ على مثال جَنَاح بَعُوضةٍ من محمد صلى الله عليه وسلم ، أنتم ما أحسنتم الْقِرَاع[1] ، اجلُوا سَواد وجهى ، يرجع فى وجهى دمى ، عليكم بهذا السَّوَاد الأعظم، فإن الله عزّ وجلّ لوقد فضّه، تَبِعَهُ من بجَانبيهِ كما يتبع مُؤَخّر السبيل مُقدَّمه » .

قالوا خذ بنا حيث أحببت .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٨٧)

٢٤٩ – خطبة أخرى له فيهم

وروى أنه لما اجتمع إليه عُظْم مَنْ كَان انهزم عن الميمنة حرّضهم ثم قال :

« عَضُّوا على النَّواجِذِ من الأضراس ، واستقبلوا القوم بِهَامِكُمْ ، وَشُدُّوا عليهم شدَّة قوم موتورين[2] ، ثَأْرًا بآبائهم و إخوانهم، حِنَاقاً على عدوِّهم، قد وَطّنوا على الموتِ أنفسهم، كيلا يُسْبَقوا بِوَتْر ، ولا يُلْحَقُوا فى الدنيا عاراً ، وَايمُ اللهِ مَا وُتِرَ قَوْمٌ قطُّ بشىء أشد عليهم من أن يُوتَرُوا دِينَهُمْ ، و إن هؤلاء القوم لايقاتلونكم إلا عن دينكم، لِيُمِيتُوا السُّنة وَيُحْيُوا الْبِدْعَة ، ويعيدوكم فى ضلالة قد أخرجكم الله عزّ وجلّ منها بحسن البصيرة ، فَطِيبُوا عبَاد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم وَإن الْفِرار من الزحف فيه السَّلْبُ للعز ، والغلبةُ عَلَى الْفَىْء ، وذل المَحْيَا والممات ، وعارُ الدنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٨٧)

---

(١) المقارعة والمناضلة . (٢) وتره : إذا أصابه بوتر ، وهو الثار .

٢٥٠ — خطبة علىّ فيهم وقد عادوا إلى مواقفهم

ولما رأى الإمام كرّم الله وجهه ميمنته قد عادت إلى مواقفها ومَصَافِّها ، وكشفت مَنْ بإزائها من عدوها ، حتى ضاربوهم فى مواقفهم ومراكزهم ، أقبل حتى انتهى إليهم فقال :

« إنى قد رأيت جَوْلتكم وانحيازكم عن صفوفكم ، يَحُوزُكم الطُّغَاةُ الْجُفَاةُ ، وأعرابُ أهل الشأم ، وأنتم لَهَامِيم[1] العرب ، والسَّنَامُ الأعظم ، وعُمَّار الليل بتلاوة القرآن ، وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إدباركم. وكَرُّكُمْ بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المُوَلِّى يومَ الزحفِ دُبُرَهُ ، وكنتم من الهالكين ، ولكن هَوَّنَ وَجْدِى ، وَشَفَى بعضَ أُحاحِ[2] نفسى ، أنى رأيتكم بِأَخَرَةٍ[3] حُزْتُموهم كما حازوكم ، وأزلتموهم عن مصافِّكم كما أزالوكم ، تَحُسُّونَهُمْ[4] بالسيوف تركب أولاهم أُخراهم كالإبل المطرودة الهِيم[5] ، فالآن فاصبروا نزلت عليكم السكينة ، وثبَّتكم الله عزَّ وجلَّ باليقين ، وليعلم المنهزم أنه مُسْخِطٌ رَبَّهُ ، وَمُوبِقٌ[6] نفسه ، إن فى الفرار مَوْجِدَةَ[7] الله عزَّ وجلَّ عليه ، وَالذُّل اللازم له ، والعارَ الباقى ، واعتصارَ الفىء من يده ، وفساد العيش عليه ، وإن الفارَّ لا يزيد الفرار فى عمره ، ولا يُرْضِى ربه ، فموت المرء مُحقًّا قبل إتيان هذه الخصال ، خير من الرضا بِالتَّلَبُّسِ بها وَالْإِصْرَار عليه » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٨٨)

---

(١) اللهمم ، واللهميم (بكسر اللام والميم فيهما) : السابق الجواد من الخيل والناس .
(٢) الأحاح : الغيظ وحرارة الغم .   (٣) يقال جاء أخرة وبأخرة محركتين وقد يضم أولهما أى آخرا .   (٤) من الحس بالفتح : وهو القتل والاستئصال .   (٥) العطاش : جمع أهيم وهيماء (والهيام بالضم : أشد العطش) .   (٦) مهلك .   (٧) أى غضبه .

٢٥١ — خطبة خالد بن معمر

ولما ولّى الإمام خالد بن مَعْمَر راية ربيعة ، وحمل عليها أهل الشأم حملة شديدة ، وانهزم ناس من قومه ، صاح بمن انهزم ، وقال يومئذ :

« يا معشر ربيعة : إن الله عز وجل قد أتى بكل رجل منكم من مَنْبِتِهِ ، وَمَسْقَطِ رأسه ، فجمعكم فى هذا المكان جمعا لم يجمعكم مثله مُنْذُ نَشَرَكُمْ فى الأرض ، فإن تمسكوا أيديكم وَتَنْكُلُوا[1] عن عدوكم ، وتَزُولُوا عن مَصَافِّكم ، لا يرض الله فعلكم ولا تَعْدَمُوا من الناس معيِّرا يقول : فضحت ربيعةُ الذِّمارَ[2] ، وَحَاصَتْ[3] عن القتال ، وأُتيت مِنْ قِبَلِهَا العربُ ، فإيا كم أن تتشاءم بكم العرب والمسلمون اليوم ، وإنكم إن تمضوا مُقْبِلِينَ مُقْدِمِينَ ، وتصبروا محتسبين ، فإن الإقدام لكم عادة ، والصبر منكم سجيَّة ، واصبروا ونيَّتُكم أن تُؤْجَرُوا ، فإن ثواب مَن نوى ما عند الله شرفُ الدنيا وكرامة الآخرة ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٩٦)

٢٥٢ — خطبة عقبة بن حديد النمرى

وقال عُقْبَةُ بن حديد النَّمَرِى يوم صفين لأهله وأصحابه :

« ألا إن مَرْعَى الدنيا قد أصبح هَشِيما[4] ، وأصبح شجرها خضِيدا[5] ، وجديدُها سَمَلا[6] ، وحُلْوُها مُرُّ المذاق ، ألا وإنى أُنبئكم نبأ امرئٍ صادق : إنى قد سئمت الدنيا

---

(١) أى تنكصوا وتجبنوا . (٢) ماتجب حمايته وحفظه . (٣) هربت وفرت .

(٤) الهشيم من النبات : اليابس المنكسر . (٥) مقطوعا ، خضده : كضربه ، فهو خضيد ومخضود .

(٦) السمل : الخلق من الثياب .

وعَزَفت[1] نفسي عنها ، وقد كنت أتمنى الشهادةَ ، وأتعرض لها فى كل جيش وغارة ، فأبى الله عز وجل إلا أن يُبلغنى هذا اليوم ، ألا وإنى متعرِّض لها من ساعتى هذه ، قد طَمِعْتُ ألا احْرَمَها ، فما تنتظرون ، عبادَ الله ، بجهاد مَن عادى الله ، أخوفا من الموت القادم عليكم ، الذاهب بأنفسكم لا محالة ؟ أو مِنْ ضربة كفٍّ بالسيف ؟ أتستبدلون الدنيا بالنظر فى وجه الله عزّ وجلّ ، ومرافقةِ النبيين والصِّديقين ، والشهداء والصالحين فى دار القرار ؟ ما هذا بالرأى السديد ! » .

ثم مضى فقال : « يا إخوتى إنى قد بعت هذه الدار بالتى أمامها ، وهذا وجهى إليها. لا تُبْرَح وجوهُكُمْ ، ولا يقطع الله عز وجل رجاءكم » فتبعه إخوته وقالوا : « لا نطلب رزق الدنيا بعدك ، فَقَبَّحَ الله العيش بعدك : اللهم إنا نحتسب أنفسنا عندك » فاستقدموا فقاتلوا حتى قتلوا . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٥ ، شرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤٩٠)

٢٥٣ — خطبة خنثر بن عبيدة بن خالد

وكان من « مُحَارب » رجل يقال له خَنْثَر بن عبيدة بن خالد ، وكان من أشجع الناس ، فلما اقتتل الناس يوم صفين ، جعل يرى أصحابه منهزمين ، فأخذ ينادى :

« يا معشر قيس ، أطَاعةُ الشيطان آثَرُ[2] عندكم من طاعة الرحمن ؟ ألَا إنّ الفرار فيه معصية الله سبحانه وسُخْطُه ، وإن الصبر فيه طاعةُ الله عزّ وجلّ ورضوانه ، أفتختارون سخط الله تعالى على رضوانه ، ومعصيَتَهُ على طاعتِه ؟ ألا إنما الراحة بعد الموت لمن مات محاسباً نفسهُ ، ثم قال :

---

(١) انصرفت . (٢) أفضل .

لاَ وَأَلَتْ نَفْسُ امرئٍ وَلّى ٱلدُّبُرْ[1] أنا الذى لا ينثنى ولا يَفِرْ
وَلا يُرَى مع المَعَازِبلِ الْغُدُرْ[2]

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨ ، شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٩٥)

٢٥٤ — تحريض معاوية أيضا

وخطب معاوية الناس بصفين فقال :

« الحمد لله الذى دنا فى عُلُوِّه ، وعَلاَ فى دنوّه ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق كل ذى منظَر ، هو الأول والآخِر ، والظاهر والباطن ، يقضى فيفصِل ، ويقدِر فيغفِر ، ويفعل ما يشاء ، إذا أراد أمرا أمضاه ، وإذا عزم على شىء قضاه ، لا يُؤَامِر[3] أحداً فيما يملك ، ولا يُسْأَل عَمَّا يفعل وهم يسألون ، والحمد لله ربِّ العالمين على ما أحببنا وكرهنا » .

وقد كان فيما قضاه الله أن سَاقتنَا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ، وَلَفَّت بيننَا وبين أهل العراق ، فنحن من الله بمنظر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : « وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » انظروا يأهل الشأم ، إنكم غداً تَلْقَوْن أهل العراق ، فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بَغَوْا عليكم ، فأقْبَلُوا من بلادهم حتى نزلوا فى بَيْضتِكُمْ[4] ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قوما تَذُبُّونَ عن نسائكم وأبنائكم ، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم النصر ، وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١١ ص ٤٩٧)

---

(١) وأل : طلب النجاة ، وخلص . (٢) المعازيل : جمع معزال بكسر الميم ، وهو الضعيف الأحمق (ومن لا سلاح معه ، ومن يعتزل أهل الميسر لؤما) ، والغدر : جمع غدور مبالغة من غادر . (٣) أى لا يشاور . (٤) ساحتكم .

٢٥٥ - ماخاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد في وقعة صفين

وقف النعمان بن بشير الأنصارى بين الصَّفَّين بِصِفِّين فقال :

« يَا قيْسُ بْنَ سَعْدٍ ، أما أنصفكم من دعاكم إلى ما رضى لنفسه ؟ إنكم يا معشر الأنصار ، أخطأتم فى خذل عثمان يوم الدار ، وقتلكم أنصارَه يوم الجمل ، وإقحامكم[1] على أهل الشأم بصفين ، فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم عليًّا ، كان هذا بهذا ، ولكنكم خذلتم حقًّا ، ونصرتم باطلاً ، ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس ، شَعلتم[2] الحرب ، ودعوتم إلى البِراز ، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشأم سراعًا إلى برازكم ، غيرَ أنكاسٍ[3] عن حربكم ؛ ثم لم ينزل بعلى أمرٌ قطُّ إلا هوَّنتم عليه المصيبة ، ووعدتموه الظفر ، وقد والله أخلفتموه ، وهان علينا بأسكم ، وما كنتم لِتَخُلُوا به أنفسكم من شدتكم فى الحرب ، وقدرتكم على عدوِّكم ، وقد أصبحتم أذِلّاء على أهل الشأم ، لا يَرَوْن حربكم شيئاً ، وأنتم أكثر منهم عدداً وَمَدَدا ، وقد والله كاثروكم بالقِلّة ، فكيف لو كانوا مثلكم فى الكثرة ، والله لا تزالون أذلاء فى الحرب بعدها أبداً ، إلا أن يكون معكم أهل الشأم ، وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم ، ونحن أحسن بقيةً ، وأقربُ إلى الظفر ، فاتقوا الله فى البقية » فضحك قيس وقال :

---

(١) قحم فى الأمر : رمى بنفسه فيه من غير روية ، وأقحمت الفرس النهر : أدخلته فيه فانقحم واقتحم . (٢) شعل النار ، وأشعلها : ألهبها . (٣) أنكاس : جمع نكس (بالكسر) ، وهو الضعيف المقصر .

٢٥٦ – جواب قيس بن سعد

« والله ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذا المقام ، أما المُنْصف المحقُّ فلا ينصح أخاه مَنْ غَشَّ نفسه ، وأنت والله الغاش لنفسه ، المبطل فيما نَصَحَ غيره ، أما ذكر عثمان فإن كان الإيجاز يكفيك فخذه ، قَتَلَ عثمانَ من لستَ خيراً منهُ ، وخذله من هو خير منك. وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النَّكث . وأما معاوية ، فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلتهم الأنصار . وأما قولك إنا لسنا كالناس ، فنحن فى هذه الحرب كما كنا مع رسول الله ، نلقى السيوف بوجوهنا ، والرماح بنحورنا ، حتى جاء الحقُّ ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً ، أو يمانياً مُسْتَدْرَجاً[1] ، وانظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ثم انظر هل تَرَى مع معاوية غيرَك وَصُوَيْحِبَكَ[2] ، ولستما والله بدريَّيْن ولا عَقَبِيَّيْنِ[3] ، ولا لكما سابقة فى الإسلام ، ولا آية فى القرآن » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٨٣)

---

(١) استدرجه : خدعه وأدناه . (٢) أراه يعنى به عمرو بن العاص ، وقد كان أكبر أعوان معاوية ونصرائه ، عاقده على نصرته ، على أن يجعل له مصر طعمة . (٣) أى لا ممن حضروا وقعة بدر مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ممن بايعوه فى العقبة .

خطب الشيعيات فى وقعة صفين

٢٥٧ — خطبة عكرشة بنت الأطرش

دخلت عِكْرشة بنت الأطرش على معاوية متوكئة على عُكّاز ، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست ، فقال لها معاوية : الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت نعم ، إذ لا علىٌّ حىّ ، قال : ألستِ المتقلدة حمائل السيوف بصفّين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

« أيها الناس : عليكم أنفسكم لا يَضُرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم ، إن الجنة لا يَرْحَلُ من أُوطِنها ، ولا يَهْرَم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين(١) بالصبر على طلب حقهم ، إن معاوية دَلَفَ(٢) إليكم بعجم العرب ، غُلْفِ(٣) القلوب ، لا يَفْقَهُونَ الإيمان ، ولا يدرون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه ، فالله الله عبادَ الله فى دين الله ، إياكم والتواكلَ فإن ذلك يَنْقُضُ عُرَا الإسلام ، ويُطفِئُ نور الحق ، هذه بَدْر الصغرى ، وَالْعَقَبَةُ(٤) الأخرى ، يا معشر المهاجرين والأنصار ،

---

(١) مستعينين . (٢) دلف : مشى مشى المقيد ، وفى التعبير به إيماء إلى ضعف معاوية ووهن قوته .
(٣) جمع أغلف وقلب أغلف كأنما غشى بغلاف فهو لا يعى . (٤) تشير إلى بيعة العقبة (الأولى والثانية) حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار النبى صلى الله عليه وسلم بالعقبة على نصرته : أى إن هذه الموقعة دفاع عن الإسلام ونصرة له كتلك .

امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدا ، وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُر الناهقة ، تصقع[1] صقعَ البعير » .

فكأنى أراكِ على عصاك هذه ، وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش بن رَواحة ، فإن كدتِ لَتَقْتُلِين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملكِ على ذلكِ ؟ قالت : يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره : «يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ» الآية . وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يُحب إعادته ، قال صدقت ، فاذكرى حاجتك ، قالت : إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا ، فتردّ على فقرائنا ، وإنا قد فقدنا ذلك ، فما يُجْبَر لنا كسير ولا يُنْعَش لنا فقير ، فإن كان ذلك عن رأيك ، فمثلك تنبه من الغفلة ، وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك، فما مثلك من استعان بالخَوَنة، ولا استعمل الظلمة ، قال معاوية : يا هذه إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور تنبثق[2] ، وبحور تنفهق[3] ، قالت : ياسبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقًّا ، فجعل فيه ضرراً عَلَى غيرنا ، وهو علام الغيوب. قال معاوية : يأهل العراق ، نبهكم علىّ بن أبى طالب ، فلم تُطاقوا ، ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم ، وإنصافهم . (العقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٣)

٢٥٨ — خطبة أم الخير بنت الحريش

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحُرَيش بن سُرَاقة البارقى برحْلها ، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيراً ، وبالشر شرًّا بقولها فيه ، فلما ورد عليه

---

(١) الصقع : رفع الصوت ، صقع بصوته : رفعه . وفى صبح الأعشى تقصع قصع البعير . من قصع الجمل بجرته ردها إلى جوفه . (٢) انبثق : انفجر ، وانبثق السيل عليهم : أقبل ولم يحتسبوه .
(٣) تتسع .

كتابه ، ركب إليها ، فأقرأها كتابه ، فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحبّ لقاء أمير المؤمنين ، لأمور تختلج فى صدرى . فلما شيعها ، وأراد مفارقتها ، قال لها : يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أنه مجازينى بقولك فىّ بالخير خيرًا ، و بالشرّ شرًا ، فالى عندك ؟ قالت: يا هذا ، لا يُطْمعك برك بى ، أن أسرك بباطل ، ولا يؤيسك معرفتى بك ، أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مَسير ، حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحَرَم ، ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه ، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته ! فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ؟ بحقٍّ ما دعوتنى بهذا الاسم ؟ قالت : مه يا أمير المؤمنين ، فإن بديهة[1] السلطان مَدْحَضَةٌ[2] لما يجب علمه ، ولكل أجل كتاب، قال: صدقت ، فكيف حالك يا خالة وكيف كنت فى مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين فى خير وعافية ، حتى صرت إليك، فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق . قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم . قالت يا أمير المؤمنين : يعيذك الله من دَحْض[3] المقال ، وما تُرْدِى عاقبته ، قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قُتل عَمَّار بن ياسر؟ قالت: لم أكن والله زوَّرته[4] قبل ، ولا رَوَّيته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة ، فإن أحببت أن أحدث لك مقلا غير ذلك فعلت ، فالتفت معاوية إلى جلسائه ، فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين . قال: هات؟ قال : كأنى بها بين بردين زِئْبِرِيَّين[5] كثيفى النسيج ، وهى على جمل أرْمَك[6] ، و بيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يَهْدِر[7] فى شِقْشِقته تقول :

---

(١) البديهة: أول كل شىء وما يفجأ منه . (٢) المدحضة : المزلة . (٣) دحضت الحجة دحضا من باب نفع: بطلت ورجله زلقت،ومكان دحض زلق . (٤) زور الشىء : حسنه وقومه وهذبه . (٥) الزئبر : ما يعلو الثوب الجديد كالذى تراه فى القطيفة . وفى رواية أخرى : عليها برد زبيدى نسبة إلى زبيد (بفتح الزاى) بلد باليمن . (٦) من الرمكة: بالضم ، وهى لون الرماد . (٧) يصوت . والشقشقة : شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج .

« يأيها الناس : اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل ، وبيّن السبيل ، ورفع العلم ، ولم يدعكم فى عمياء مُدْلهِمّة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله جلّ ثناؤه يقول : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عِيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يارب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، إنها إحَن[1] بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أُحُدية[2] وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس ، ثم قالت : (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) صبرًا يامعشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غدا ، وقد لقيتم أهل الشأم كحُمُرٍ مستنفرة فرّت من قَسْوَرَةٍ[3] ، لا تدرى أين يُسْلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحُنّ نادمين ، حين تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص ، إنه من ضلّ والله عن الحق وقع فى الباطل . ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسَعَوْا لها ؛ فالله الله أيها الناس ، قبل أن تَبْطُلَ الحقوق ، وتعطَّل الحدود ، وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمٍّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصِهْرِهِ ، وأبى سِبْطيه ، خُلق من طينته ، وتفرع من نَبْعَتِهِ[4] ،

(١) جمع إحنة : وهى الضغينة والحقد، تومئ إلى ما كان من قتل على يوم بدر أخا معاوية (حنظلة ابن أبى سفيان) وجده لأمه (عتبة بن ربيعة) وخاله (الوليد بن عتبة) . (٢) تشير إلى ماحدث من هند زوج أبى سفيان (أم معاوية) فى غزوة أحد، إذ بقرت بطن حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم بعد قتله وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها . (٣) الأسد والرماة من الصيادين ، والواحد قسور .

(٤) النبعة فى الأصل واحدة النبع : شجر القسى والسهام .

وجعله باب دينه ، وأبان ببغضه المنافقين . وهاهو ذا مُفَلِّق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أُحُدٍ ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خَيبر ، وفرق به جمع هوازن ؛ فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً ، وَرِدَّة وشقَاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ؛ قد اجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله » .

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتك ماحَرِجْت[1] فى ذلك . قالت: والله مايسوءنى يابن هند أن يجرى قتلى على يَدَىْ من يُسْعدُنى الله بشقائه . قال: هيهاتَ يا كثيرة الفُضُول ! ما تقولين فى عثمان بن عفان رحمه الله ؟ قالت : وما عَسَيت أن أقول فى عثمان ؟ استخلفهُ الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . قال معاوية : يا أم الخير هذا ثناؤك الذى تُثنين ؟ قالت لكن الله يشهد ، وكفى بالله شهيداً ، ما أردت بعثمان نقصاً . ولقد كان سبَّاقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة غداً . قال: فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول فى طلحة ؟ اغتِيل من مأمنهِ ، وأُتى من حيث لم يحذر . وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال : فما تقولين فى الزبير ؟ قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وَحَوَارِيِّه[2] . وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة . وأنا أسألك بحق الله يامعاوية (فإن قريشاً تحدثت أنك أحلمها) أن تُعفينى من هذه المسائل ، وتسألنى عما شئت من غيرها . قال : نعم وَنَعْمَةَ[3] عَيْنٍ ، قد أعفيتك منها ، ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة .

(العقد الفريد ١ : ١٣٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤١ . وصبح الأعشى ١ : ٢٤٨)

---

(١) أثمت . (٢) الحوارى: الناصر، أو ناصر الأنبياء . (٣) أى أنعم ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

٢٥٩ — خطبة الزرقاء بنت عدى الهمدانية

وذُكرت الزرقاء بنت عدى بن قيس الهَمْدانية عند معاوية يوماً ، فقال لجلسائه : أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال : فأشيروا علىّ فى أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال: بئس الرأى، أيحسن بمثلى أن يقتل امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها ، وَعِدّة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء[1] لينا ، ويسترها بِستر خَصِيف[2] ، ويوسع لها فى النفقة ، فأرسل إليها ، فأقرأها الكتاب ، فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلىّ فإنى لا آتيه ، وإن كان حتّم فالطاعة أولى لحملها وأحسن جِهَازَها، على ماأمر به. فلما دخلت على معاوية . قال: مرحباً بك وأهلا! قَدِمت خير مَقْدَم قَدِمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة . قال : كيف كنت فى مسيرك ؟ قالت : ربيبةَ بيت ، أو طفلا مُمَهَّدًا . قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيم بعثت إليكِ ؟ قالت: وأنَّى لى بعلم مالم أعلم ؟ قال : ألست الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين بصِفِّين ، تحضين على القتال، وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس وَبُترَ الذنب ، ولن يعود ماذهب ، وَالدهر ذو غِيَر[3] ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر ، قال لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت: لا والله لا أحفظه ، ولقد أُنسيته . قال : لكنى أحفظهُ ، لله أبوك حين تقولين :

« أيها الناس : ارعَوُوا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غَشَّتكم جلاَبِيبَ الظلم ، وجارت بكم عن قصد المَحَجَّة[4] . فيالها فتنة عمياء صماء بكماء لاتسمع لناعقها ، ولا تنساق

---

(١) الفراش . (٢) أصله من خصف النعل يخصفها كضرب: ظاهر بعضها على بعض وخرزها وهى نعل خصيف ، وكل ما طورق بعضه على بعض فقد خصف . (٣) أحداث، جمع غيرة بالكسر أو مفرده وجمعه أغيار . (٤) جادة الطريق .

لقائدها ، إن المصباح لا يضيء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد . ألاَ من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه . أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالَّته فأصابها ، فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص ، فكأن قد اندمل شَعْب الشَّتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظَّلَمَةَ ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنَّى ؟ ليقضى الله أمراً كان مفعولا . ألا و إن خِضاب النساء الحناء ، وخضاب الرِّجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده . والصبر خير فى الأمور عواقبا :

إيهاً[1] فى الحرب قُدُما، غير ناكصين، ولا متشاكسين » .

ثم قال لها : والله يازرقاء لقد شَرِكْت علياً فى كلِّ دم سفكه . قالت : أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك ! فمثلك بَشَّر بخير وسرَّ جليسَه . قال: أو يسرك ذلك؟ قالت نعم . والله لقد سُرِرت بالخَبَر ! فأنى لى بتصديق الفعل ! فضحك معاوية ، وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته ، اذكرى حاجتك . قالت : ياأمير المؤمنين آليت على نفسى ألا أسأل أميرًا أعنت عليه أبداً ، ومثلك أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طِلْبَةٍ . قَال : صَدَقْتِ ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

(العقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٢)

---

(١) إيها: كلمة زجر بمعنى حسبك (وإيه بالكسر منونة وغير منونة كلمة استزادة واستنطاق) والقدم: المضى أمام ، وهو يمشى القدم: إذا مضى فى الحرب ، ورجل قدم: أى شجاع . وفى الحديث « طوبى لعبد مغبر قدم فى سبيل الله » القدم: الإقدام ، أقدم على قرنه إقداما وقدما: تقدم عليه بجراءة صدر .

اختلاف أهل العراق فى الموادعة

وذكروا أنه لما اشتد الأمر ، واستَعَرَ القتال . قال رأسٌ من أهل العراق لعلى : إن هذه الحرب قدأ كلتنا، وأذهبت الرجال ، والرأىُ الموادعةُ . وقال بعضهم : لا ، بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم عليه أمس ، وكانت الجماعة قد رضيت الموادعة ، وجنَحَت إلى الصلح والمسالمة ، فقام علىّ خطيباً ، فقال :

٢٦٠ - خطبة الامام علىّ كرم الله وجهه

« أيها الناس : إنه لم أزَل من أمرى على ما أحب ، حتى فَدَحَتكم الحرب ، وقد والله أخذتْ منكم وتركت ، وهى لعدوكم أنْهَكُ ، وقد كنتُ بالأمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهيًا ، فأصبحت اليوم مَنْهِيًّا ، فليس لى أن أحملكم على ما تكرهون » .

٢٦١ - خطبة كردوس بن هانئ

وقام كَرْدُوس بن هانئ ، فقال .

« إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من علىّ منذ توليناه ، وإن قتيلنا لشهيد ، وإن حَيَّنا لفائز ، وإن عَلِيًّا على بيِّنَةَ من ربه ، وما أجاب القومَ إلاّ إنصافًا ، وكل مُحِق مُنْصِف ، فمن سَلَّمَ له نجا ، ومن خالفه هَوَى » .

٢٦٢ - خطبة سفيان بن ثور

وقام سفيان بن ثور ، فقال :

« أيها الناس : إنا دعونا أهل الشأم إلى كتاب الله ، فردوه علينا فقاتلناهم ، وإنهم دعونا إلى كتاب الله ، فإن رددناه عليهم ، حَلَّ لهم منا ما حَلَّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يَحيف الله علينا ورسوله ، وإن عَلِيًّا ليس بالراجع الناكص ، وهو اليوم على ما كان عليه أمس ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلاّ فى المُوَادَعة » .

٢٦٣ - خطبة حريث بن جابر

ثم قام حُرَيْث بن جابر فقال :

« إنّ عليًّا لو كان خِلْوا من هذا الأمر لكان المرجع إليه، فكيف وهو قائده وسائقه ، وإنه والله ما قبِل من القوم اليوم إلاّ الأمرَ الذى دعاهم إليه أمس ، ولو ردَّه عليهم كنتم له أعيب ، وَلاَ يُلحِدُ فِى هذا الأمر إلا راجع على عَقِبَيْهِ ، أو مُسْتَدْرَج مغرور ، وما بيننا وبين من طعن علينا إلا السيف » .

٢٦٤ - خطبة خالد بن معمر

ثم قام خالد بن مَعْمَر فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا والله ما أخْرَجنَا هذا المقامَ أن يكون أحد أولى به منا ، ولكن قلنا أحب الأمور إلينا ما كُفِينَا مَئُونته ، فأما إذ استغنينا ، فإنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك القوم إليه اليوم ، إن رأيت ذلك ، وإن لم تره فرأيك أفضل » .

٢٦٥ - خطبة الحصين بن المنذر

ثم قام الحُصَيْن بن المنذر وكان أحدث القوم سنًّا ، فقال :

« إنما بُنِىَ هذا الدين على التسليم ، فلا تدفعوه بالقياس ، ولا تهدموه بالشُّبْهة ، وإنا والله لو أنا لا نقبل من الأمور إلاّ ما نعرف ، لأصبح الحق فى الدنيا قليلاً ، ولو تُرِكْنَا وما نهوَى ، لأصبح الباطل فى أيدينا كثيراً ، وإن لنا راعياً قد حَمِدنا وِرْده وصَدَرَه ، وهو المأمون على ما قال وفعل ، فإن قال لا . قلنا لا ، وإن قال نعم ، قلنا نعم » .

٢٦٦ — خطبة عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حُنَيْف ، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عاملاً لعلى على البصرة وله فضل ، فقال :

« أيها الناس : اتَّهِموا رأيكم ، فقد والله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحُدَيْبية يوم أبى جَنْدل[1] ، وإنا لنريد القتال إنكاراً للصلح حتى رَدَّنا عنهُ رسول الله

---

(١) هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو . وقصته : أنه لما كانت غزوة الحديبية (سنة ست للهجرة) بعثت قريش من قبلها سهيل بن عمرو ليكلم الرسول صلى الله عليه وسلم فى المصالحة ، وقد جرى بينهما الصلح وكتبت صحيفته ، وكان من شروطه ، وضع الحرب عن الناس عشر سنين يكف بعضهم عن بعض على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان المسلمون حين خرجوا لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل عليهم من ذلك أمر عظيم ، ولما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه « بفتح التاء : ما فى موضع اللبب (أى النحر) من الثياب » ثم قال : يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال صدقت، —

صلى الله عليه وسلم، وإن أهل الشأم دعونا إلى كتاب الله اضطراراً ، فأجبناهم إليه إعذاراً ، فلسنا والقوم سواء ، إنا والله ما عدلنا الحى بالحى ، ولا القتيل بالقتيل ، ولا الشامى بالعراقى، ولا معاوية بعلىّ ، وإنه لأمر مَنْعُه غير نافع ، وإعطاؤه غير ضائر ، وقد كلّت البصائر التى كنا نقاتل بها ، وقد حل الشكُّ اليقينَ الذى كنا نئول إليه ، وذهب الحياء الذى كنا نمارى به ، فاستظلوا فى هذا الفَىْء(١) ، واسكنوا فى هذه العافية ، فإن قلتم نقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس ، فهيهات هيهات ذهب والله قياس أمس وجاء غد » .

= فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم ، ووثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون . وإنما دم أحدهم دم كلب . ويدنى قائم السيف منه . قال عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية .

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد وكان ممن حبس بمكة ، فبعثت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير إنا قد أعطينا القوم ماقد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . فانطلق إلى قومك . قال : يارسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ قال : يا أبا بصير انطلق ، فانطلق معهما حتى إذا كان فى بعض الطريق عدا على أحدهما فقتله وهرب الآخر ، ورجع أبو بصير إلى المدينة ، فقال : يارسول الله وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتنى ورددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم ، وخرج أبو بصير إلى ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون عليها إلى الشام ، وخرج المسلمون الذين كانوا حبسوا بمكة إليه ، وانفلت إليه أبو جندل بن سهيل ، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلا منهم وضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها ، حتى كتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله بأرحامها إلا آواهم ، فلا حاجة لهم بهم ، فآواهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدموا عليه المدينة .

(١) الفىء : ما كان شمسا فينسخه الظل .

٢٦٧ - خطبة عدىّ بن حاتم

ثم قام عدى بن حاتم فقال :

« أيها الناس : إنه والله لو غيرُ علىٍّ دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه ، ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان ، وفى يديه من الله سبب ، وإنه وَقَفَ عن عثمان بشبهة ، وقاتل أهل الجمل على النَّكْث ، وأهلَ الشأم على البغى ، فانظروا فى أموركم وأمره ، فإن كان له عليكم فضل فليس لكم مثله . فسلِّموا له وإلا فنازِعوا عليه ، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة إنه لأعلم الناس بهما ، ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخو نبىٍّ الله والرأسُ فى الإسْلاَم ، ولئن كان إلى الزهد والعبادة إنه لأظهر الناس زهداً ، وأنهكهم عبادة ، ولئن كان إلى العقول والنحائز[1] إنه لأشد الناس عقلا ، وأكرمهم نحيزة ، ولئن كان إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ، ولئن كان إلى الرضا لقد رضى عنه المهاجرون والأنصار فى شورى عمر رضى الله عنهم ، وبايعوه بعد عثمان ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشأم ، فما الفضل الذى قرّبكم إلى الهدى ، وما النقص الذى قرّبه إلى الضلال ؟ والله لو اجتمعتم جميعاً على أمر واحد ، لأتاح الله له من يقاتل لأمر ماض ، كتاب سابق » .

فاعترف أهل صفين لعدى بن حاتم بعد هذا المقام ، ورجع كلّ من تشعب على علىّ رضى الله عنه .

---

(١) النحيزة : الطبيعة .

٢٦٨ — خطبة عبد الله بن حجل

ثم قام عبد الله بن حَجَل ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إنك أمرتنا يوم الجمل بأمور مختلفة ، كانت عندنا أمراً واحداً ، فقبلناها بالتسليم ، وهذه مثل تلك الأمور ، ونحن أولئك أصحابك ، وقد أكثر الناس فى هذه القضية ، وايم الله ما المُكْثِر المُنكِر بأعلم بها من المُقِلّ المعترف ، وقد أخذت الحرب بأنفاسنا ، فلم يبق إلا رجاء ضعيف ، فإن تجب القوم إلى ما دَعَوْك إليه ، فأنت أوّلنا إيماناً ، وآخرنا بنبيٍّ الله عهداً ، وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وقلوبنا بين جوانحنا ، وقد أعطيناك بقيّتنا ، وَشُرِحَتْ بالطاعة صدورنا ، ونفَذت فى جهاد عدوِّك بصيرتنا ، فأنت الوالى المطاع ، ونحن الرّعية الأتباع . أنت أعلمنا بربنا ، وأقربنا بنبينا ، وخيرنا فى ديننا ، وأعظمنا حقًّا فينا ، فَسَدِّدْ رأيك نتبعك ، واستَخِرِ الله تعالى فى أمرك ، واعزم عليه برأيك ، فأنت الوالى المطاع » .

فسرّ علىّ كرّم الله وجهه بقوله ، وأثنى خيراً .

٢٦٩ — خطبة صعصعة بن صوحان

ثم قام صعصعة بن صُوحان فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا سبقنا الناس إليك ، يومَ قدومِ طلحةَ والزبير عليك ، فدعانا حُكَيْم (١) إلى نُصرة عاملك عثمان بن حُنيف (٢) فأجبناه ، فقاتل عدوك ، حتى أُصيب فى قوم من بنى عبد قيس عبدوا الله حتى كانت أكُفُّهم مثل أكفّ الإبل ، وجباههم مثل

(١) هو حكيم بن جبلة . (٢) كان عامل علىّ على البصرة ، وقد نشب القتال بينه وبين أصحاب عائشة حين قدموا البصرة .

رُكب المَعز ، فأُسر الحى ، وسُلب القتيل ، فكنا أول قتيل وأسير ، ثم رأيت بلاءنا بصفين ، وقد كلت البصائر ، وذهب الصبر ، وبقى الحق موفوراً ، وأنت بالغ بهذا حاجتك والأمر إليك ما أراك الله فمُرْنا به » .

٢٧٠ — خطبة المنذر بن الجارود

ثم قام المنذر بن الجارود فقال :

« يا أمير المؤمنين إنى أرى أمراً لا يدين له الشأم إلا بهلاك العراق ، ولا يَدِين له العراق إلا بهلاك الشأم ، ولقد كنا نرى أن ما زادنا نقصهم ، وما نقصنا أضرهم ، فإذا فى ذلك أمران ، فإن رأيت غيره[1] ففينا والله ما يُفَلُّ به الحدُّ[2] ويُرَدُّ به الكلب[3] ، وليس لنا معك إيراد ولا صدَرَ » .

٢٧١ — خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن الناس بين ماض وواقف ، وقائل وساكت ، وكلٌّ فى موضعه حسن ، وإنه لو نكل الآخِر عن الأول لم يقل شيئاً ، إلاّ أن يقول اليوم ما قد قيل أمس ، ولكنه حق يُقْضى ، ولم نقاتل القوم لنا ولا لك ، إنما قاتلناهم لله ، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله ، فإنك أولى بالحق ، وأحقنا بالتوفيق ، ولا أرى إلاّ القتال »

---

(١) أى فإن رأيت غير رأيى ، وهو الذى عبر عنه بقوله : إنى أرى أمرا . . . الخ » وفى الأصل « غيرك » وأراه محرفا . (٢) أى ففينا من البأس مايفل به حد الأعداء وقوتهم . (٣) الكلب : داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعقر الناس ويعترى الناس أيضا من عضها ، وقد استعاره هنا لطمع الأعداء فيهم وغارتهم عليهم .

٢٧٢ — خطبة عمير بن عطارد

ثم قام عُمَيْرُ بن عُطَارِد ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية ، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشأم ، وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم ، فو الله ما منعنا ذلك من قتل المحارب ، وَعَيْب الواقف ، فقاتِل القوم ، إنَّا معك » .

٢٧٣ — خطبة على بن أبى طالب

ثم قام على خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد بلغ بكم و بعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلاَّ آخر نفس ، و إن الأُمور إذا أقبلت اعتُبر آخرها بأولها ، وقد صَبَر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غادٍ عليهم بنفسى بالْغَدَاة ، فأحاكمهم بسيفى هذا إلى الله » .

وأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يدعو عليًّا إلى تحكيم كتاب الله ، فأصبح أصحاب معاوية ، وقد رفعوا المصاحف على الرِّماح ، وقلدوها أعناق الخيل يقولون : « هذا كتاب الله عز وجل بيننا و بينكم » .

٢٧٤ — مقال عدى بن حاتم

فقام عدىّ بن حاتم ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن أهل الباطل ، لاَ تُعَوِّق أهل الحق ، وقد جزِع القوم حين تأهبت للقتال بنفسك ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب ، ناجز القوم » .

٢٧٥ — مقال الأشتر النخعى

ثم قام الأشتر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدنيا. إن معاوية لا خَلَف له من رجاله ، ولكن بحمد الله الخلفُ لك ، ولو كان له مِثلُ رجالك، لم يكن له مِثلُ صبرك، ولا نصرتك، فافرِج[1] الحديدَ بالحديد ، واستعِن بالله » .

٢٧٦ — مقال عمرو بن الحمق

ثم قام عمرو بن الحمِق فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدنياَ ، ولا نصرنَاك على باطل ، ما أجبنَاك إلا لله تعالى وما نصرنَاك إلا للحق ، ولو دعاناَ غيرك إلى ما دعوتناَ إليه ، لكثر فيه اللَّجاج ، وطالت له النَّجْوَى[2] ، وقد بلغ الحق مقطعَهُ ، وليس لنا معك رأى » .

٢٧٧ — مقال الأشعث بن قيس

ثم قام الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولست أدرى كيف يكون غداً ، وما القوم الذين كلموك بأحمد لأهل العراق منى ، ولا بأوتَر[3] لأهل الشأم منى ، فأجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ، وقد أحب الله البَقْيا » .

---

(١) أى شق سلاحهم ومزقه بسلاحك . (٢) المسارة . (٣) أى ولا أشد وترا ـ من وتره إذا أدركه بمكروه .

٢٧٨ — مقال عبد الرحمن بن الحارث

ثم قام عبد الرحمن بن حارث فقال :

« يا أمير المؤمنين ، امض لأمر الله ولا يَسْتَخِفَنَّكَ الذين لا يوقنون، أحُكْمٌ بعد حكم وَأمْرٌ بعد أمر ؟ مضت دماؤنا ودماؤهم ، ومضى حكم الله علينا وعليهم » .

٢٧٩ — مقال عمار بن ياسر

فلما أظهر علىٌّ أنه قد قبل التحكيم قام عمار بن ياسر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء ، من أقرَّ بها هلك ، ومن أنكرها ملك ، مالك يا أبا الحسن ، شككتنا فى ديننا ، ورددتنا على أعقابنا ، بعد مائة ألف قُتلوا منا ومنهم ، أفلا كان هذا قبل السيف ، وَقبل طلحة والزبير وعائشة قد دعَوكَ إلى ذلك فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن ما خالفنا منهم ضَالٌّ حلال الدم وقد حكم الله تعالى فى هذا الحال ما قد سمعت ، فإن كان القوم كفاراً مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا[1] إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، والله ما أسلموا ، ولا أدَّوا الجزية ، ولا فاءوا إلى أمر الله ولا طَفِئَتْ[2] الفتنة » فقال علىّ : والله إنى لهذا الأمر كارِه .

ثم كثر اللجاج والجدال فى الأمر ، وجعل علىّ يبين لهم أنها خُدْعة ومكيدة يرام بها

---

(١) يرجعوا . (٢) أى انطفأت .

توهين قوتهم ، وتشتيت جمعهم ، وهم لا يستمعون لقوله ، ولا يذعنون لنصحه ، وأقبل الأشعث بن قيس فى ناس كثير من أهل اليمن، فقالوا لعلىّ : « لا تردّ ما دعاك القوم إليه ، قد أنصفك القوم، والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وفاء معك، ولا نرى معك بسهم ولا حجر، ولا نقف معك موقفاً » .

وغلا أنصار التحكيم فى تطرفهم فقالوا « يا علىّ أجب إلى كتاب الله إذ دعيت إليه ، وإلاّ نَدْفَعْكَ بِرُمَّتك إلى القوم ، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان » فلم ير بدًّا من الإذعان وقبول التحكيم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٨٩)

التحكيم بين علىّ ومعاوية

٢٨٠ — كلام عبد الله بن عباس لأبى موسى الأشعرى

ولما أجمع أهل العراق على طلب أبى موسى الأشعرى وأحضروه للتحكيم على كُرْهٍ من علىّ عليه السلام ، أتاه عبد الله بن العباس ، وعنده وجوه الناس وأشرافهم ، فقال له :

« أبا موسى : إن الناس لم يرضَوا بك ، ولم يجتمعوا عليك ، لفضل لاَ تُشَارَكُ فيه ، وما أكْثَرَ أشباهَكَ من المهاجرين والأنصار المتقدمين قَبْلَك ، ولكن أهل العراق أبَوْا إلا أن يكون الحَكَمُ يَمَانِياً ، ورأوا أن معظم أهل الشام يمانٍ ، وايْمُ الله إنى لأظن ذلك شراً لك ولنا ، فإنه قد ضُمَّ إليك داهيةُ العرب ، وليس فى معاوية خَلَّةٌ[1] يستحق بها الخلافة ، فإن تَقْذِفْ بحقك على باطله ، تُدْرِكْ حاجتك منه ، وإن يطمعْ باطِلُهُ فى حقك يُدْرِكْ حاجته منك ، واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليقُ الإسلام ، وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه يَدَّعى الخلافة من غير مشورة ولا بَيْعَة ، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطبيب يَحْمِيهِ ما يشتهى ، وَيُوجِرُهُ[2] ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأى عمر ، وما أكْثَرَ من استعملا ممن لم يَدَّعِ الخلافة ، واعلم أن لعمرٍو مع كل شىء يَسُرُّكَ خَبْأً[3] يسوءك ، ومهما نسيت فلا تَنْسَ أن علياً

---

(١) خصلة . (٢) وجره الدواء (كوعده) وأوجره إياه : جعله فى فيه ، وأوجره الرمح : طعنه ، ووجره : أسمعه ما يكره . (٣) الخبء : ماخبىء .

بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بيعةُ هُدًى ، وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين » .

فقال أبو موسى : « رحمك الله والله مالى إمام غير علىّ ، وإنى لواقف عند ما رأى ، وإن حق الله أحَبُّ إلىّ من رضا معاوية وأهل الشأم ، وما أنت وأنا إلا بالله » .

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٩٥)

٢٨١ — وصية شريح بن هانئ لأبى موسى الأشعرى

ولما أراد أبو موسى المسير ، قام إليهِ شُرَيْح بن هانئ الحارثى ، فأخذ بيده وقال :

« يا أبا موسى : إنك قد نُصِبْتَ لأمر عظيم لا يُجْبَرُ صَدْعُهُ ، ولا تُسْتَقَالُ فلتته ، ومهما تَقُلْ من شىء لك أو عليك ، يَثْبُتْ حَقُّهُ ، وَيُرَى صِحَّتُهُ وإن كان باطلا ، وإنه لابقاء لأهل العراق إنْ ملكهم معاوية ، ولا بأسَ على أهل الشأم إن ملكهم علىّ ، وقد كانت منك تَثْبِيطَةٌ[1] أيامَ الكوفة والجمل ، فإن تَشْفَعْهَا بمثلها يكن الظن بك يقيناً ، والرجاء منك يأساً ، ثم قال :

أبا موسى : رُميتَ بِشَرِّ خَصْمٍ فلا تُضِعِ العراق (فدَتْك نفسى)
وَأَعْطِ الحقَّ شامَهم وخذه فإن اليوم فى مَهَل كأمْسِ
وَإن غدًا يجىء بما عليه كذاك الدهرُ من سعْدٍ وَنَحْسِ
ولا يَخْدَعْكَ عمرو ، إن عمراً عَدُوُّ الله مطلعَ كل شمس
له خُدَعٌ يحار العقل منها مُمَوَّهَةٌ مزخرفة بِلَبْسِ

(١) أى تعويق .

فلا تجعل معاوية بن حرب   كشيخٍ فى الحوادث غيرِ نِكْس[1]
هداه الله للإسلام فَردا   سوى عِرْس[2] النبى، وأىُّ عرس؟

فقال أبو موسى : « ما ينبغى لقوم اتهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا ، أو أجُرَّ إليهم حقاً » .
(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، والإمامة والسياسة ١ : ٩٩)

٢٨٢ — وصية الأحنف بن قيس لأبى موسى الأشعرى

ولما حُكِّمَ أبو موسى الأشعرى أتاه الأحنف بن قيس ، فقال لهُ :

« يا أبا موسى ، إن هذا مسير لهُ ما بعده ، من عِزِّ الدنيا أو ذلها آخرَ الدهر ، ادع القوم إلى طاعة علىّ ، فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشأم من قريش العراق من أحبوا ، ويختار أهل العراق من قريش الشأم من أحبوا ، وإياك إذا لقيت ابن العاص أن تصافحه بنيَّة ، وأن يُقْعدك على صدر المجلس فإنها خديعة ، وأن يضمك وإياه بيت ، فيُكمن لك فيهِ الرجال ، ودعهُ فليتكلم ، لتكون عليهِ بالخيار ، فالبادئْ مستغْلَق[3] ، والجيب ناطق » .

فما عمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف، وأشار به ، فكان من الأمر ما كان، فلقيهُ الأحنف بعد ذلك ، فقال لهُ : « أدخل واللهِ قدميك فى خُفٍّ واحدة » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، الإمامة والسياسة ١ : ٩٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٩٦)

---

(١) كشيخ : يريد به الإمام عليا ، والنكس : الضعيف والمقصر عن غاية الكرم . (٢) أى زوجه ، يريد السيدة خديجة رضى الله عنها ، وأى عرس : أى وأى عرس هى . استفهام المراد به التعظيم . (٣) أصله من قولهم : استغلقنى فى بيعه : لم يجعل لى خيارا فى رده : أى أن البادئ ليس له الخيار فى رد ما قال .

٢٨٣ — وصية معاوية لعمرو بن العاص

وقال معاوية لعمرو :

« إن أهل العراق أكرهوا عليًّا على أبي موسى ، وأنا وأهلُ الشأم رَاضُونَ عنك ، وأرجو في دفع هذه الحرب قوةً لأهل الشأم ، وفُرقة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن ، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأى ، وله على ذلك دين وفضل ، فدعه يقول فإذا هو قال فاصمُتْ ، واعلم أن حسن الرأى زيادةٌ في العقل ، إنْ خَوَّفك العراق فخوفه بالشام ، وإن خوَّفك مصر فخوفه باليمن ، وإن خوفك عليًّا ، فخوفه بمعاوية ، وإن أتاك بالجميل فأْتِهِ بالجميل » .

٢٨٤ — رد عمرو بن العاص عليه

فقال عمرو :

« يا أمير المؤمنين . أقلِل الاهتمام بما قِبَلِي ، وأرجُ الله تعالى فيما وجَّهتنى له ، إنك من أمرك على مثل حَدِّ السيف ، لم تنل في حربك ما رجوتَ ، ولم تأمَن ما خِفْتَ ، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيرا ، وقد ذكرتَ لأبي موسى دينًا ، وإن الدين منصور ، أرأيتَ إنْ ذكر عليًّا وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ما أقول ؟ » .

فقال معاوية : « قل ما تريد وترى » . (الإمامة والسياسة ١ : ٩٩)

٢٨٥ — مقال شرحبيل بن السمط لعمرو

ولما ودَّعهُ شُرَحْبيل بن السِّمْط قال له :

« يا عمرو إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا لعلمه أنك لا تُؤْتَى من عجز ولا مكيدة ، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لك ولصاحبك ، فكن عند ظننا بك » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٦ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٠)

٢٨٦ — خطبة أبي موسى الأشعرى

ولما التقى الحكمان أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص بِدُومة الجندل ، ودار بينهما من الحِوار ما دار ، أقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتقدم أبو موسى ، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نَرَ أصلحَ لأمرها، ولا ألَمَّ لِشَعَثِهَا من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيُوَلّوا منهم من أحبوا عليهم ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولُّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا[1] » . ثم تنحى .

---

(١) وفى رواية ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة : « وإنى رأيت وعمرا أن نخلع عليا ومعاوية ونجعلها لعبد الله بن عمر ، فإنه لم يبسط فى هـذه الحرب يدا ولا لسانا » وفى رواية المسعودى فى مروج الذهب : « وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتى هذه (وأهوى إلى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبى صلى الله عليه وسلم ، فبرز فى سابقته ، وهو عبد الله بن عمر وأطراه ورغب الناس فيه » .

٢٨٧ — خطبة عمرو بن العاص

وأقبل عمرو بن العاص فقام مَقامه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبِّت صاحبي معاوية ، فإنه وَلِيّ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقَامه » .

فقال أبو موسى : « مالَكَ ــ لا وفقك الله ــ غدرت وفجرت ! إنَّمَا مَثَلُكَ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ[1] » قال عمرو : « إنَّمَا مَثَلُكَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٠ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٩٨ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠١ ومروج الذهب ٢ : ٢٢)

٢٨٨ — خطبة الامام على بعد التحكيم

وخطب الإمام علىّ كرّم الله وجهه بعد فشل التحكيم فقال :

« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخَطْب الفادح[2] ، والحَدَث[3] الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله . أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالِم المجرِّب ، تُورِث الحسْرَة ، وتُعقِبُ الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزونَ رأيى ، لو كان

---

(١) لهث الكلب كقطع : أخرج لسانه من العطش أو التعب ، وكذا الرجل إذا أعيا . (٢) من فدحه الدين : أى أثقله . (٣) الحادث .

يُطَاعُ لِقَصِيرٍ[1] أمرٌ ، فأبيتم عَلَيَّ إباء المخالفين الجُفَاة ، والمنابذين العُصَاة ، حتى ارتاب الناصحُ بِنُصْحه ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فكنت وإيا كم كما قال أخو هَوَازِن[2] :

أمرتكمُ أمرى بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... فلم تستبينوا النصح إلا ضُحَى الغد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمَيْنِ قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، بغير هدى من الله ، فحكما بغير حُجَّة بَيِّنَة ، ولا سُنَّة ماضية ، واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشُد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . اسْتَعِدُّوا وتأهبوا للمسير إلى الشأم » .

(نهج البلاغة ١ : ٤٤ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٤٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٥)

٢٨٩ — خطبة الحسن بن على

وقال الإمام علىّ : قم ياحسن فتكلم فى أمر هذين الرجلين أبى موسى وعمرو ، فقام الحسن فتكلم فقال :

« أيُّهَا الناس ، قد أكثرتم فى أمر أبى موسى وعمرو ، وإنما بُعِثَا ليحكما بالقرآن دون الهوَى ، فَحَكَمَا بالهوى دون القرآن ، فمن كان هكذا لم يكن حَكَمًا ، ولكنه محكوم عليه ، وقد كان من خطأ أبى موسى أن جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ فى ثلاث خصال : خالف (يعنى أبا موسى) أباه عمرَ إذ لم يَرْضَه لها ، ولم يره أهلا لها ، وكان أبوه أعلم به من غيره ، ولا أدخله فى الشورى إلا على أنه لاشىء له فيها ، شَرْطًا مشروطًا من

---

(١) قصير : هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان قد أشار على سيده أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة ، وقد دعته إليها ليتزوجها ، فخالفه وقصد إليها ، فقال قصير « لا يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا .

(٢) هو دريد بن الصمة .

عمر على أهل الشورى ، فهذه واحدة . وثانية : لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يَعقِدُونَ الإمامة ، ويحكمون على الناس . وثالثة : لم يستأمر الرجل فى نفسه ، ولا عَلِمَ ماعنده من ردّ أو قبول » ثم جلس .

٢٩٠ — خطبة عبد الله بن عباس (توفى سنة ٦٨ هـ)

ثم قال علىّ لعبد الله بن عباس : قم فتكلم ، فقام عبد الله بن عباس وقال :

« أيها الناس : إن للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا ، والناس بين راض به ، وراغب عنه ؛ وإنما سار أبو موسى بهدى إلى ضلال ، وسار عمرو بضلال إلى هدى ، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه ، ومضى عمرو على ضلاله ، فوالله لو كانا حكمَا عليه بالقرآن لقد حكما عليه ، ولئن كانا حكما بهواهما على القرآن ، ولئن مسكا بما سارا به ، لقد سار أبو موسى وعلىٌّ إمامه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه » ثم جلس .

٢٩١ — خطبة عبد الله بن جعفر

فقال علىّ لعبد الله بن جعفر : قم فتكلم ، فقام وقال :

« أيها الناس : هذا أمر كان النظر فيه لعلى ، والرضا فيه إلى غيره ، جئتم بأبى موسى فقلتم قد رضينا هذا فارضَ به ، وايم الله ما أصلحا بما فعلا الشأمَ ، ولا أفسدا العراقَ ، ولا أماتا حقّ علىّ ، ولا أحييا باطل معاوية ، ولا يُذْهِب الحقَّ قلّةُ رأى ، ولا نفخةُ شيطان ، وإنا لِعَلِىّ اليوم كما كنا أمس عليه » ثم جلس . (الإمامة والسياسة ١ : ١٠٢)

٢٩٢ — خطبة على

ولما نزل علىّ النُّخَيلة وأيس من الخوارج ، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : فإنه من ترك الجهاد فى الله ، وادّهن فى أمره ، كان على شَفًا هلكة ، إلا أن يتداركه الله بنعمة ، فاتقوا الله ، وقاتلوا من حادّ الله ، وحاول أن يُطفِئ نور الله ، قاتِلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين الذين ليسوا بقُرّاء للقرآن ، ولا فقهاء فى الدين ، ولا علماء فى التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل فى سابقة الإسلام ، والله لو وَلُوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل ، تيسروا وتهيئوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدَموا عليكم ، فإذا قدِموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤)

٢٩٣ — خطبة عبد الله بن عباس

وكتب علىّ إلى عبد الله بن عباس : « أما بعد : فإنا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ، وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب ، فأشخص بالناس حين يأتيك رسولى ، وأقم حتى يأتيك أمرى والسلام » .

فلما قدم عليه الكتاب قرأه على الناس ، وأمرهم بالشخوص مع الأحنف بن قيس ، فشخص معه منهم ألف وخمسمائة رجل ، فاستقلهم عبد الله بن عباس ، فقام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد يأهل البصرة فإنه جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف بن قيس ، ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم ستون ألفا سوى أبنائكم وعِبْدانكم ومواليكم ألا انفروا مع جارية بن قُدامة السعدى ،

ولا يجعلنّ رجل على نفسه سبيلا ، فإني مُوقِع بكل من وجدته متخلفا عن مكتبه ، عاصياً لإمامه . وقد أمرت أبا الأسود الدؤلى بحشركم ، فلا يَلُم رجل جعل السبيل على نفسه إلاّ نفسه » (تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤) .

٢٩٤ — خطبة على

فخرج جارية فعسكر ، وخرج أبو الأسود فحشر الناس ، فاجتمع إلى جارية ألف وسبعمائة ، ثم أقبل حتى وافاه علىّ بالنخيلة ، فلم يزل بالنخيلة حتى وافاه هذان الجيشان من البصرة ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فجمع إليه رءوس أهل الكوفة ورءوس الأسباع ورءوس القبائل ووجوه الناس .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يأهل الكوفة ، أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحق ، وصحابتى على جهاد عدوى المُحِلِّين ، بكم أضربُ المُدْبِرَ ، وأرجو تمام طاعة المقبل ، وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتنى منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فأعينونى بمناصحة جليّة خليّة من الغش ، إنكم . . . [1] مخرجَنا إلى صفين ، بل استجمعوا بأجمعكم ، وإنى أسألكم أن يكتب لى رئيس كل قوم ما فى عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا » .

فقام سعيد بن قيس الهمْدَانى فقال : يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة وودا ونصيحة ، أنا أول الناس جاء بما سألتَ وبما طلبتَ ، وقام مَعقِل بن قيس الرِّياحى فقال له نحواً من ذلك ، وقام عدى بن حاتم وزياد بن خصفة وحجر بن عدى وأشراف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك ، ثم إن الرءوس كتبوا مَن فيهم ثم رفعوهم إليه . (تاريخ الطبرى ٤ : ٤٥)

---

(١) فراغ فى الأصل .

٢٩٥ — خطبة على

وكتب علىّ إلى سعد بن مسعود الثقفى ، وهو عامله على المدائن : « أما بعد فإنى قد بعثت إليك زياد بن خصفة فأشخِص معه مَن قِبلك من مقاتلة أهل الكوفة ، وعجل ذلك إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله »

و بلغ عليا أن الناس يقولون : لو سار بنا إلى هذه الحَرُورية فبدأنا بهم ، فإذا فرغنا منهم وَجّهنا مِن وَجْهنا ذلك إلى المحلين . فقام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإنه قد بلغنى قولكم : لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التى خرجت عليه ، فبدأنا بهم ، فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحلين .

وأن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم ، فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكا ، ويتخذوا عباد الله خَوَلا(١) » .

فتنادى الناس من كل جانب: سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ، وقام إليه صيفى ابن فسيل الشيبانى فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن حزبك وأنصارك ، نعادى من عاديت ، ونشايع من أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد، ولا ضعف نية أتباع .

وقام إليه محرز بن شهاب التميمى من بنى سعد فقال : يا أمير المؤمنين : شيعتك كقلب رجل واحد فى الإجماع على بصرك ، والجد فى جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أى الفريقين أحببت ، فإنا شيعتك الذين نرجو فى طاعتك ، وجهاد من خالفك صالحَ الثواب ، ونخاف فى خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال (تاريخ الطبرى ٦ : ٤٥)

---

(١) عبيدا .

٢٩٦ — خطبة لمعاوية

ولما فشل التحكيم بايع أهل الشأم معاوية بالخلافة ، واختلف الناس بالعراق على علىّ فما كان لمعاوية همّ إلا مصر، فدعا أصحابه ليستشيرهم فى أمرها، وكان فيهم عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله بكم فى حربكم عدوّكم ، جاءوكم وهم لا يرَوْن إلا أنهم سيقبضون بَيْضتكم[1] ، ويُخربون بلادكم، ما كانوا يرون إلا أنكم فى أيديهم ، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبوا ، وحاكمناهم إلى الله فحكم لنا عليهم ، ثم جمع لنا كلمتنا وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم دم بعض، والله إنى لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر ، وقد رأيت أن نحاول أهل مصر فكيف ترون ارتثاءنا لها ؟ » .

وكان عمرو بن العاص قد صالح معاوية حين بايعه على قتال على بن أبى طالب ، على أنّ له مصر طُعمةً ما بقىَ ، فقال لمعاوية : فإنى أشير عليك كيف تصنع : أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به ، فيأتى مصر حتى يدخلها . . . فسيَّره إليها .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٦)

٢٩٧ — وصية معاوية لعمرو بن العاص

وجهز معاوية عمرو بن العاص ، وبعثه فى ستة آلاف رجل ، وخرج وودّعه ، وقال له عند وداعه إياه :

---

(١) البيضة : حوزة كل شىء .

« أوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق ، فإنه يُمْنٌ ، وبالمَهل والتؤدة ، فإن العجلة من الشيطان ، وبأن تقبل ممن أقبل ، وأن تعفو عمن أدبر ، فإن قبِل فبها ونعمت ، وإن أبى فإن السطوة بعد المعذرة أبلغ فى الحجة ، وأحسن فى العاقبة ، وادع الناس إلى الصلح والجماعة ، فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثَرَ الناس عندك ، وكلَّ الناس فأوْل حُسْنا » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٧)

٢٩٨ — خطبة محمد بن أبى بكر

وقدم محمد بن أبى بكر مصر واليا عليها من قبل على بن أبى طالب (سنة ٣٦ هـ) فقام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصَّرنا وإياكم كثيرا مما عمى عنه الجاهلون ، ألا إن أمير المؤمنين ولاّنى أموركم ، وعهد إلىَّ ما قد سمعتم ، وأوصانى بكثير منه مشافهة ، ولن آلُوَكم خيرا ما استطعتُ ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعةً لله وتقوى ، فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى . وإن رأيتم عاملا لى عمِل غير الحق زائغا ، فارفعوه إلىّ وعاتبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم بذلك جديرون ، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته » .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٢)

٢٩٩ — خطبة لمحمد بن أبى بكر

وأقبل عمرو بن العاص حتى قصد مصر ، فقام محمد بن أبى بكر فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :

« أما بعد معاشر المسلمين والمؤمنين ، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ،

وينعَشُون الضلالة ، ويشُبُّون نار الفتنة ، ويتسلطون بالجَبْرِية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود .

عباد الله فمن أراد الجنة والمغفرة ، فليخرج إلى هؤلاء القوم ، فليجاهدهم فى الله .

انتدبوا إلى هؤلاء رحمكم الله مع كِنانة بن بشر » ثم انتهى الأمر بقتل محمد بن أبى بكر .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٩)

٣٠٠ — خطبة لعلى وقد استصرخه محمد بن أبى بكر

ولما سير معاوية عمرو بن العاص إلى مصر (سنة ٣٨ هـ) — وكان عليها محمد بن أبى بكر من قبل علىّ — بعث ابن أبى بكر إلى علىّ يستصرخه ، فقام على فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« أما بعد ، فإن هذا صريخ محمد بن أبى بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة ، عدو الله ، وولىّ من عادى الله ، فلا يكونن أهلُ الضلال إلى باطلهم والركونِ إلى سبيل الطاغوت ، أشدَّ اجتماعا منكم على حقكم هذا ، فإنهم قد بدءوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمؤاساة والنصر .

عبادَ الله : إن مصر أعظم من الشأم ، أكثر خيرا ، وخير أهلا ، فلا تُغْلَبُوا على مصر ، فإن بقاء مصر فى أيديكم عزٌّ لكم ، وكَبْتٌ لعدوكم ، اخرجوا إلى الجَرَعة بين الحِيرة والكوفة ، فوافونى بها هناك غدا إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦١ وشرح ابن أبى الحديد م ٢ : ٣٤)

٣٠١ — خطبة علىّ حين بلغه مقتل محمد بن أبى بكر

ولما بلغ عليا مقتلُ محمد بن أبى بكر ، حزن عليه حتى رُئى ذلك فى وجهه وتبيّن فيه وقام فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال :

« ألا إن مصر قد افتتحها الفَجَرة أولو الجور والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبَغَوا الإسلام عِوَجا ، ألا وإن محمد بن أبى بكر قد استشهد رحمه الله، فعند الله نحتسبه، أمَا والله إن كان — ما علمتُ — لَمِمَّن ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب هدى المؤمن .

إنى والله ما ألوم نفسى على التقصير، وإنى لِمقاساة الحرب نَجِدٌ[1] خبير، وإنى لأُقدِم على الأمر وأعرف وجهَ الحزم، وأقوم فيكم بالرأى المصيب ، فأستصرخكم مُعلِنا، وأناديكم نداء المستغيث مُعْرِبا ، فلا تسمعون لى قولا ، ولا تطيعون لى أمرا ، حتى تصير بى الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القومُ لايدرك بكم الثأرُ ، ولا ينقض بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فتجرجرتم جرجرة[2] الجمل الأشدق ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نية فى جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إلىّ منكم جُنَيْدٌ متذائب[3] كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، فأفّ لكم » ثم نزل :

(تاريخ الطبرى ٦ : ٦٢)

---

(١) النجد: الشجاع الماضى فيما يعجز غيره . (٢) الجرجرة: صوت يردده البعير فى حنجرته ، وأكثر مايكون ذلك عند الإعياء والتعب . (٣) جنيد : تصغير جند ، متذائب : مضطرب . من قولهم : تذاءبت الريح أى اضطرب هبوبها ، ومنه سمى الذئب ذئبا لاضطراب مشيته .

فتنة الخوارج

٣٠٢ – مناظرة عبد الله بن عباس لهم

لما رجع الإمام عليّ كرّم الله وجهه من صفّين إلى الكوفة – بعد كتابة صحيفة التحكيم بينه وبين معاوية – اعتزله جماعة من أصحابه ممن رأوا التحكيم ضلالا، ونزلوا حَرُورَاء[1] في اثني عشر ألفاً، وأمّروا على القتال شَبَثَ بن رِبْعِيّ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكوّاء، فبعث إليهم عليّ عبد الله بن عباس، فقال: لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك، فخرج إليهم حتى أتاهم، فأقبلوا يكلمونه، فلم يصبر حتى راجعهم فقال:

« ما نَقِمتم من الحكمين؟ وقد قال الله عزّ وجلّ: « إنْ يُرِيدَا إصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا[2] » فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقالت الخوارج: قلنا أمّا ما جَعَلَ حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له، فهو إليهم كما أمَرَ به، وما حَكَمَ فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حَكَمَ في الزاني مائةَ جلدة، وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا، قال ابن عباس: فإن الله عزّ وجل يقول: « يَحْكُمُ بِهِ

---

(١) بظاهر الكوفة.

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين (وَإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا، إنْ يُرِيدَا إصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا)

ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ[1] » فقالوا له : « أوَ تجعل الحكم فى الصيد ، وَالْحَدَث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين ؟ » وقالت الخوارج قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعَدْلٌ عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ، ويسفك دماءنا ؟ فإن كان عدلا فلسنا بعدول ، ونحن أهل حربه ، وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حُكمه فى معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا[2] ، وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجلّ فأبوْه ، ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً ، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة[3] وقد قطع الله عزّ وجلّ الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة ، إلا من أقرّ بالجزية » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٣٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ١٢٠)

٣٠٣ — مناظرة الامام على لهم

ثم خرج إليهم علىّ حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس، فقال: انته عن كلامهم ألم أنهك رحمك الله ؟

---

(١) الآية فى حكم قاتل الصيد وهو محرم (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) .

(٢) يشيرون إلى قوله تعالى (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فى الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(٣) استفاض المكان استفاضة : اتسع ، وهى هنا مرادفة للموادعة .

ثم تكلم فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه ثم قال :

« اللهم إن هذا مَقام من أفلج[1] فيه كان أولى بالفَلَج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث[2] فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال لهم : من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكوّاء ، قال علىّ : فما أخرجكم علينا؟ قالوا حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم إنى أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا ، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم ، فإنما رفع القومُ هذه المصاحف خديعة و إدهانا[3] ومكيدة ، فرددتم علىّ رأيى ، وقلتم لا بل نقبل منهم ، فقلت لكم اذكروا قولى لكم ومعصيتكم إياى ، فلما أبيتم إلا الكتاب ، اشترطتُ على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يُميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف حكما يُحكَم بما فى القرآن ، و إن أبيا فنحن من حكمهما بُرَآء . قالوا له : فخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ فقال : إنا لسنا حكّمنا الرجال ، إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفّتين لاينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : فخبرنا عن الأجل لم جعلتهُ فيما بينك و بينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، و يتثبت العالم ، ولعل الله عزّ وجلّ يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٣٧ ، الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨)

---

(١) الفلج والإفلاج : الظفر والفوز. (٢) أوعث : وقع فى الوعث (الوعث بالسكون: المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر) . (٣) الإدهان : الغش .

٣٠٤ — صورة أخرى

وروى صاحب العقد المناظرة بين علىّ و بين الخوارج بصورة اخرى وها كها :

« قالوا إن عليًّا لما اختلف عليه أهل النَّهروان والقرى وأصحاب البرانس ، ونزلوا قرية يقال لها حَرُوراء — وذلك بعد وقعة الجمل — رجع إليهم علىّ بن أبى طالب ، فقال لهم: يا هؤلاء مَنْ زعيمكم ! قالوا : ابن الكواء ، قال : فليبرُز إلىّ ، فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له علىّ: يابن الكواء ، ما أخرجكم علينا بعد رضاكم بالحكَمين ، ومُقامِكم بالكوفة؟ قال : قاتلت بنا عدوا لا نشكُّ فى جهاده ، فزعمْتَ أنّ قتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار ، فبينما نحن كذلك إذ أرسلتَ منافقا ، وحَكَّمْتَ كافراً ، وكان مِن شَكِّكَ فى أمر الله أنْ قُلْتَ للقوم حين دعوتَهم : كتاب الله بينى و بينكم ، فإن قضى عَلَىّ بايعتكم ، وإن قضى عليكم بايعتمونى ، فلولا شَكُّكَ لم تفعل هذا ، وَالحقُّ فى يدك . قال علىّ : يابن الكواء ، إنما الجواب بعد الفراغ، أفَرَغْتَ فأجيبَك ؟ قال: نعم، قال علىّ: أما قتالك معى عدوا لا نشكُّ فى جهاده فصدقتَ ، ولو شككتُ فيهم لَمْ أقاتلْهم ، وأما قتلانا وقتلاهم ، فقد قال الله فى ذلك ما يُستغنى به عن قولى ، وأما إرسالى المنافق وتحكيمى الكافر ، فأنت أرسلت أبا موسى مُبَرْنَساً ، ومعاوية حَكَّمَ عمْرًا ، أتيت بأبى موسى مبرنساً ، فقلت : لا نرضى إلا أبا موسى ، فهلا قام إلىّ رجل منكم فقال : يا على لا تُعْطِ هذه الدَّنيَّة فإنها ضلالة ؟ وأما قولى لمعاوية : إنْ جَرَّنى إليك كتابُ الله تَبِعتُك ، وإن جَرَّكَ إلىّ تبعتنى . زعمتَ أنى لم أعط ذلك إلا من شك ، فقد علمت أن أوثق مافى يديك هذا الأمر ، فحدِّثنى وَيحكَ عن اليهودى والنصرانى ومُشْركى العرب ، أهُمْ أقربُ إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشأم ؟ قال : بل معاوية وأهل الشأم أقرب ، قال علىّ : أفرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوْثقَ بما فى يديه من كتاب الله أو أنا ؟ قال : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أفرأيتَ الله تبارك وتعالى حين يقول : (قُلْ فَأتُوا

بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . أَمَا كَانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أنه لا يؤتى بكتاب هو أهدى مما فى يديه ؟ قال : بلى ، قال : فلِمَ أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم القومَ ما أعطاهم ؟ قال : إنصافاً وحجة ، قال : فإنى أعطيت القوم ما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن الكواء : فإنى أخطأت . هذه واحدة . زِدْنى ، قال علىّ : فما أعظمُ ما نقمتم عَلَىَّ ؟ قال : تحكيم الحكمين ، نظرنا فى أمرنا ، فوجدنا تحكيمهما شكا وتبذيراً ، قال علىّ : فمتى سُمِّىَ أبو موسى حَكَماً ، حين أُرْسِلَ ، أو حين حَكَمَ ؟ قال : حين أُرسل ، قال : أليس قد سار وهو مسلم ، وأنت ترجو أن يَحْكُمَ بما أنزل الله ؟ قال : نعم ، قال علىّ : فلا أرى الضلال فى إرساله ، فقال ابن الكواء ، سُمِّى حكما حين حَكَمَ ، قال : نعم إذن فإرساله كان عَدْلا ، أرأيت يابن الكواء لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مؤمناً إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله ، فارتدَّ على عَقِبِه كافرًا ، كان يَضُرُّ نبىَّ الله شيئاً ؟ قال : لا ، قال على : فما كان ذنبى إنْ كان أبو موسى ضَلَّ ، هل رضِيتُ حكومته حين حكمَ ، أو قوله إذ قال ؟ قال ابن الكواء : لا ، ولكنك جعلت مسلماً وكافرًا يَحْكُمَان فى كتاب الله ، قال علىّ : ويلك يابن الكواء ! هل بعث عمرا غيرُ معاوية ؟ وكيف أُحَكِّمُهُ وحكمه على ضرب عنقى ، إنَّمَا رَضِىَ به صاحبُهُ ، كما رضيتَ أنت بصاحبك ، وقد يجتمع المؤمن والكافر يحكمان فى أمر الله ، أرأيت لو أن رجلا مؤمنًا تزوج يهودية أو نصرانية ، فخافا شقاق بينهما ، ففزع الناس إلى كتاب الله ، وفى كتابه : (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا) فجاء رجل من اليهود ، أو رجل من النصارى ، ورجل من المسلمين ، الذين يجوز لهما أن يحكما فى كتاب الله فحكما . قال ابن الكواء : وهذه أيضًا ، أمهلنا حتى ننظر ، فانصرف عنهم علىّ .

فقال له صعصعة بن صُوحان : يا أمير المؤمنين ، ائذن لى فى كلام القوم ، قال : نعم ما لم تَبْسُطْ يدًا ، فنادى صعصعة ابن الكواء ، فخرج إليه فقال : أنشُدُكم الله يا معشر

الخارجين أن لا تكونوا عارًا على من يغزو لغيره[1] ، وأن لا تخرجوا بأرض تسمَّوْن بها بعد اليوم ، ولا تستعجلوا ضلال العام خشية ضلال عام قابل ، فقال له ابن الكواء : إن صاحبك لَقِينَا بأسٍ ، قولك فيه صغيرٌ فأمسك.

قالوا إن عليًّا خرج بعد ذلك إليهم ، فخرج إليهِ ابن الكواء ، فقال له عليّ : يابن الكواء : إنه من أذنب فى هذا الدين ذنبًا يكون فى الإسلام حَدَثًا ، اسْتَتَبْنَاهُ من ذلك الذنب بعينه ، وإنّ توبتك أن تعرف هُدى ما خرجت منهُ ، وضلال ما دخلت فيه . قال ابن الكواء : إننا لا ننكر أنا قد فُتِنَّا ، فقال له عبد الله بن عمرو بن جُرْموز : أدركنا والله هذه الآية (الم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) ـ وكان عبد الله من قراء أهل حَروراء ، فرجعوا فَصَلَّوا خلفَ عليّ الظهرَ ، وانصرفوا معه إلى الكوفة ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى رجعتهم ولام بعضهم بعضًا ، ثم خرجوا على عليّ ، فقتلهم بالنَّهروان . (العقد الفريد ٢ : ٢٤٠)

٣٠٥ ـ مناظرة ابن عباس لهم

فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليًّا رجع عن التحكيم ، وتاب منه ، ورآه ضلالا ، فأتى الأشعث بن قيس عليًّا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا ، والإقامةَ عليها كفراً وتبت ، فخطب عليٌّ الناس فقال :

« من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضلُّ منها ، فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت ، فقيل لعليّ إنهم خارجون، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون ، فوجه إليهم عبد الله بن العباس .

فلما سار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباها قَرِحت لطول السجود ،

(١) أى لغير منفعته الشخصية بل لَمّ شعث المسلمين وجمع كلمتهم يعنى عليا وأصحابه .

وأيديا كثفنات[1] الإبل ، وعليهم قمص مرحضة[2] وهم مشمرون . قالوا : ما جاء بك يابن عباس ؟ قال : جئتكم من عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، وأعلمنا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار ، فقالوا : إنا أتينا عظيما حين حكمنا الرجال فى دين الله ، فإن تاب كما تبنا ، ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا ، فقال ابن عباس: نشدتكم الله إلاّ ما صدقتم أنفسكم . أما علمتم أن الله أمركم بتحكيم الرجال فى أرنب تساوى ربع درهم تصاد فى الحرم، وفى شقاق امرأة ورجلها، فقالوا: اللهم نعم ، قال: فأنشدكم الله هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن القتال ، للهدنة بينه و بين الحديبية[3] ، قالوا : نعم ولكن عليا محا نفسه من خلافة المسلمين ، قال ابن عباس : أذلك يزيلها عنه ؟ وقد محا رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من النبوة ، قال سهيل[4] بن عمرو : لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك، فقال للكاتب[5]: اكتب محمد بن عبد الله وقد أخذ على الحكمين أن لا يجورا ، فعلىّ أولى من معاوية وغيره ، قالوا : إن معاوية يدّعى مثل دعوى علىّ . قال : فأيهما رأيتموه أولى فولّوه ، قالوا : صدقت ، قال ابن عباس : ومتى جار الحكمان فلا طاعة لهما ، ولا قبول لقولهما » .

فاتبعه منهم ألفان وبقى أربعة آلاف ، فلم يزالوا على ذلك حتى اجتمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبى .   (العقد الفريد ١ : ٢١٢)

---

(١) ثفنة البعير : ركبته .   (٢) قمص جمع قميص ، ورحض الثوب : غسله .

(٣) أى وبين أهل الحديبية . والحديبية بئر قرب مكة ، وكانت غزوة الحديبية سنة ست هجرية .

(٤) النائب عن قريش فى عقد الصلح مع المسلمين .   (٥) وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

٣٠٦ — خطبة يزيد بن عاصم المحاربى

وخرج الإمام علىّ كرم الله وجهه ذات يوم يخطب ، فإنه لفى خطبته ، إذ حكّمت[١] المحكّمة فى جوانب المسجد ، فقال علىّ : الله أكبر ، كلمة حق يراد بها باطل : إن سكتوا عَمّمْناهم ، وإن تكلموا حجَجْناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم ، فوثب يزيد ابن عاصم المُحَاربى فقال :

« الحمد لله غيرَ مُوَدَّع[٢] رَبُّنا ولا مستغنى عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيّة[٣] فى ديننا ، فإن إعطاء الدنية فى الدين إدْهان[٤] فى أمر الله عز وجل ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله ، يا علىُّ أبالقتل تُخَوِّفنا ؟ أما والله إنى لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مُصْفَحات[٥] ، ثم لتعلمُنّ أيّنا أولى بها صِلِيًّا[٦] » .

ثم خرج بهم هو وإخوة له ثلاثة هو رابعهم ، فأصيبوا مع الخوارج بالنهر ، وأصيب أحدهم بعد ذلك بالنُّخَيلة . (تاريخ الطبرى ٦ : ٤١)

٣٠٧ — خطبة عبد الله بن وهب الراسبى

ولما بعث الإمام علىّ أبا موسى الأشعرى لإنفاذ الحكومة ، لقيت الخوارج بعضها بعضاً ، فاجتمعوا فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) أى قالوا لا حكم إلا لله ، ويسمى الخوارج المحكّمة : أى الذين يمنعون التحكيم . (٢) أى غير متروك ولا مقطوع : أى حمدا دائما . (٣) يريد بها قبول التحكيم . (٤) الإدهان والمداهنة : إظهار غير ما يضمر . (٥) أى نضربكم بحدها لا بعرضها ، ضربه بالسيف مصفحا : أى بعرضه .
(٦) صلى النار وبها صليا : قاسى حرها .

« أما بعد : فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنيبون إلى حكم القرآن ، أنْ تـكون هذه الدنيا ـ التى الرِّضا بها والركونُ إليها ، والإيثار إياها عَنَاء وَتَبَارٌ[1] ـ آثَرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقول بالحق ، وإن مُنَّ[2] وضُرَّ ، فإنه من يُمَنَّ وَيُضَرَّ فى هذه الدنيا ، فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عزَّ وجلَّ ، والخلودُ فى جناته ، فاخرجوا بنا إخوانَنا من هذه القرية الظالِم أهلُها ، إلى بعض كُوَر[3] الجبال ، أو إلى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البِدَع المُضِلَّة » .

٣٠٨ — خطبة حرقوص بن زهير السعدى

فقام حُرْقُوص بن زُهَيْر السعدىّ فقال :

« إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وَشِيكٌ[4] ، فلا تدعونّـكم زِينَتُها ، وبهجتها إلى المُقَام بها ، ولا تَلْفِتَنَّـكُمْ عن طلب الحق ، وإنكار الظلم ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

٣٠٩ — خطبة حمزة بن سنان الأسدى

فقام حمزة بن سنان الأسدى فقال :

« يا قوم إن الرأى ما قد رأيتم ، والحق ما قد ذكرتم ، فولُّوا أمركم رجلا منكم فإنه لا بد لـكم من عِمَاد وسِناد ، وراية تَحُفُّونَ بها ، وترجعون إليها » .

فعرضوها على زيد بن حُصين الطائى فأبى ، وعلى حُرقوص بن زهير فأبى ، وعلى

---

(١) هلاك . (٢) أى قطع وهجر . (٣) جمع كورة بالضم ، وهى المدينة والصقع .
(٤) سريع .

حمزة بن سنان ، وشُرَيح بن أَوْفَى العَبْسِى فأبيا ، وعلى عبد الله بن وهب فقال : « هاتوها ، أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ، ولا أدعها فَرَقًا[1] من الموت » فبايعوه (لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ هـ) .

٣١٠ — خطبة شريح بن أوفى العبسى[2]

ثم اجتمعوا فى منزل شُرَيح بن أوفى العبسى ، فقام شريح فقال .

« إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والقولِ بالحق ، والجهاد فى تقويم السبيل ، وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وقال : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » فاشهدوا عَلَى أهل دَعْوَتنا أَنْ قد اتبعوا الهَوَى ، ونَبَذُوا حكم القرآن ، وجارُوا فى الحكم والعمل ، وأن جهادهم عَلَى المؤمنين فرض ، وأُقسم بالذى تَعْنو[3] له الوجوه ، وتخشع دونه الأبصار ، لو لم يكن أحد عَلَى تغيير المنكر ، وقتال القاسطين[4] مساعداً ، لقاتلتهم وحدى فَرْدًا حتى ألقى الله ربى ، فيرى أنى قد غَيَّرت (إرادة رضوانه) بلسانى ، يا إخواننا ، اضربوا جباههم ووجوههم بالسيف ، حتى يُطاع الرحمن عزَّ وجلَّ ، فإن

---

(١) جزعا وخوفا . (٢) قال ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة : « ثم اجتمعوا فى منزل زفر بن حصين الطائى ، فقالوا : إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا . . . . إلى آخر الخطبة ، ولم يذكر قائلها . وذكر الطبرى فى تاريخه : أنهم اجتمعوا فى منزل شريح بن أوفى العبسى ، وذكر الفقرات الأخيرة من هذه الخطبة وعزاها إلى شريح » . (٣) تذل وتخضع . (٤) الجائرين .

يُطَعِ الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له الآمرين بأمره ، وإن قُتِلْتم فأى شىء أعظم من المسير إلى رضوان الله وجنته ؟ واعلموا أن هؤلاء القوم خرجوا لإِقْصَاء حكم الضلالة ، فاخرجوا بنا إلى بلد نَتَّعِد فيه الاجتماع من مكاننا هذا ، فإنكم قد أصبحتم بنعمة ربكم وأنتم أهل الحق بين الخلق ، إذ قلتم بالحق ، وَصَمَدْتم لقول الصدق ، فاخرجوا بنا إلى « المدائن[1] » نسكنها فنأخذ بأبوابها ، ونُخْرِج منها سكانها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة ، فيقدَمون علينا » .

٣١١ — مقال زيد بن حصين الطائى

فقال زيد بن حُصَين الطائى :

« إنكم إن خرجتم مجتمعين أُتْبِعتم ، ولكن اخرجوا وُحدانًا مُسْتَخْفِينَ ، فأما المدائن ، فإن بها قومًا يمنعونكم منها ، ويمنعونها منكم ، ولكن اكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأعلِموهم بخروجكم ، وسيروا حتى تنزلوا جسر النَّهْروان[2] » .

قالوا : هذا هو الرأى ، فاجتمعوا عَلَى ذلك ، وكتبوا به إليهم .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٤٢ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٤)

---

(١) على نهر دجلة شرقا .   (٢) النهروان : بليدة بالقرب من بغداد ، نحو أربعة فراسخ .

٣١٢ — خطبة علىّ فى تخويف أهل النهروان

فلما نزلوا بالنَّهْرَوان ، وأتَوْا بها ما أتوا من الأَحداث[1] ، أتاهم الإمام علىّ كرّم الله وجهه ، فوقف عليهم فقال :

« أيتها العصابةُ التى أخرجها عداوةُ المراء واللَّجَاجَةُ ، وصَدَّها عن الحق الهَوَى ، وَطَمَحَ بها النَّزَق[2] وأصبحت فى اللَّبْس وَالخَطْب العظيم ، إنى نذير لكم أن تُصْبِحُوا تُلْفيكم الأمة غدًا صَرْعَى بأثناء[3] هذا النهر ، و بأهضام[4] هذا الغائط[5] ، عَلَى غير بينة من ربكم ، ولا سلطان مبين معكم ، وقد طوَّحت بكم الدار ، واحْتَبَلكم[6] المقدار .

ألم تعلموا أنى نَهَيْتكم عن الحُكُومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دَهْن[7] ومكيدة لكم ؟ ونبَّأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وَأنى أعرَفُ بهم منكم ؟

---

(١) من ذلك أنهم لقوا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه امرأته وهى حبلى مُتِمّ (أى دنا ولادها) فقالوا : ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى عليهما خيرا ، قالوا : ماتقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها ؟ قال : إنه كان محقا فى أولها وفى آخرها ، قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ قال : إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا : إنك تتبع الهوى ، وتوالى الرجال على أسمائها لا على أفعالها ، ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه ، وسال دمه فى الماء ، وبقروا بطن امرأته ، وقتلوا ثلاث نسوة من طيىء ، وقتلوا أم سنان الصيداوية ، وأصابوا مسلما ونصرانيا ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصرانى خيرا ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم ، وأرسل إليهم على رسولا ينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه ، فبعث إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشأم ، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير ما أنتم عليه من أمركم ، فبعثوا إليه ، فقالوا كلنا قتلهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . (٢) الطيش . (٣) جمع ثِنْى بالكسر : أى منعطفاته .

(٤) جمع هضم (بالفتح ويكسر) وهو المطمئن من الأرض . (٥) الغائط : المطمئن الواسع من الأرض.

(٦) أوقعكم فى الحبالة . (٧) دهن الرجل : إذا نافق .

(عرفتهم أطفالا ورجالا ، فهم أهل للمكر والغدر) وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ؟ فعصيتموني وأكرهتموني حتى حكّمت ، فلما أنْ فعلتُ شرطتُ واستوثقتُ ، فأخذت عَلَى الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وَعَمِلاَ بالهوى ، فَنَبَذْنا أمرهما ، ونحن عَلَى أمرنا الأول ، فما الذى بكم ، ومن أين أُتيتم ؟ » .

قالوا : إنا حكّمنا ، فلما حكمنا أثِمنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فإن تبتَ كما تُبنا ، فنحن منك ومعك ، وإن أبَيْتَ فَاعْتَزِلْنَا ، فإنا منابذوك عَلَى سَوَاء[1] إن الله لا يحب الخائنين » .

فقال علىّ : « أصابكم حَاصِبٌ[2] ، ولا بَقِيَ منكم وَابِرٌ[3] ، أبَعْدَ إيمانى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَهِجْرَتى معه ، وجهادى فى سبيل الله ، أشهد على نفسى بالكفر ؟ لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَنْ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ، فأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ[4] ، وارجِعُوا عَلَى أثَرِ الأَعْقَابِ[5] أمَا إنكم سَتَلْقَوْنَ بعدى ذُلاًّ شاملا ، وَسَيْفاً قاطعاً ، وَأَثَرَةً[6] يتخذها الظالمون فيكم سُنَّةً » .

---

(١) هو من قوله تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) ومعناه إذا هادنت قوما فعلمت منهم النقض للعهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقض حتى تعلمهم أنك نقضت العهد ، فتكونوا فى علم النقض مستوين لئلا يتهموك بالغدر ، ثم أوقع بهم . (٢) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء (الحصى) ، وحصبه : رماه بالحصباء . (٣) أى أحد . ويروى آبر ، وهو الذى يأبر النخل أى يصلحه . ويروى آثر ، وهو الذى يأثر الحديث أى يرويه ويحكيه . ويروى آبز ، وهو الواثب . (٤) أى ارجعوا شرّ مرجع . (٥) الأعقاب جمع عقِب (بكسر القاف) : وهو مؤخر القدم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : « وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ » يدعو عليهم بانعكاس حالهم وارتدادهم وعودهم من العز إلى الذل . (٦) أى استبدادا عليكم بالفىء والغنائم .

٣١٣ — صورة أخرى

وفى رواية أخرى أن عليًا قال لأهل النهر :

« يا هؤلاء : إن أنفسكم قد سوّلت لكم فراق هذه الحكومة ، التى أنتم ابتدأتموها وسألتموها[١] وأنا لها كاره ، وأنبأتكم أن القوم سألوكموها مكيدة ودَهْنًا ، فأبيتم علىّ إباء المخالفين المُنابذين ، وعدلتم عنى عدول النُّكَداء[٢] العاصين ، حتى صرفتُ رأيى إلى رأيكم ، وأنتم والله معاشرُ أخِفّاء الهامِ[٣] ، سُفَهاء الأحلام ، فلم آتِ (لا أبا لكم) بُجْرًا[٤] ، ولا أردت بكم ضُرًّا ، والله ما خَبَلتكم[٥] عن أموركم ، ولا أخفيت شيئًا من هذا الأمر عنكم ؛ ولا أوطأتكم عُشْوَةً[٦] ، ولا دنّيت[٧] لكم الضَّرّاء ، وإن كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهرا ، فأجمع رأىُ مَلَئِكم على أن اختاروا رجلين ، فأخذنا عليهما أن يحكما بما فى القرآن ولا يَعْدُواه ، فتاهَا[٨] وتركا الحق وهما يُبْصِرانه ، وكان الجَوْر هواهما (وقد سبَقَ استيثاقُنا عليهما فى الحكم بالعدل) والصَّدُّ للحق بسوء رأيهما وجَوْرِ حكمهما ، والثقةُ فى أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحق ، وأتيَا بما لا يُعْرَف ، فبيِّنوا لنا بماذا تستحلون قتالنا ، والخروجَ من جماعتنا ؟ أن اختار الناسُ رجلين[٩] أحَلّ لكم أن تضعوا أسيافكم على عواتقكم ، ثم تستعرضوا الناس تضربون رقابهم ، وتسفكون

---

(١) المراد : سألتمونى أن أجيب إليها .   (٢) رجل نكد (بكسر الكاف وفتحها وسكونها) وأنكد أى عسر ، وقوم أنكاد ومناكيد ، ولم أر فى كتب اللغة جمعه على نكداء .   (٣) أخفاء : جمع خفيف ، والهام : الرءوس ، وهو كناية عن قلة العقل .   (٤) البجر ، بالضم والفتح : الشر والأمر العظيم ، ويروى حراما .   (٥) منعتكم وحبستكم .   (٦) العشوة مثلثة : ركوب الأمر على غير بيان ، وبالفتح الظلمة ، ويقال : أوطأته عشوة ، أى غررته وحملته على أن يركب أمرا غير مستبين الرشد ، فربما كان فيه عطبه .   (٧) دناه وأدناه : قربه .   (٨) ضلا .   (٩) همزة الاستفهام مقدرة قبل أن : أى هل اختيار الناس رجلين أحل لكم ذلك ؟

دماءهم ؟ إن هذا لهو الخسران المبين ، والله لو قتلتم على هذا دجاجة لَعَظُمَ عند الله قتلُها ، فكيف بالنفس التي قَتْلُهَا عند الله حرام ؟ » .

فتنادَوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم ، وتَهَيَّئُوا للقاء الرب ، الرَّوَاحَ الرَّوَاحَ إلى الجنة ، فزحف عليهم عليّ فأفناهم ، وقتل ابن وهب في المعركة ، ولم يُفْلِت منهم إلا عشرة (وكان ذلك سنة ٣٧ ، وقيل سنة ٣٨ هـ) .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٧ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٩ ونهج البلاغة ١ : ٤٤ – ٥٤)

٣١٤ — خطبة المستورد بن عُلَّفَة

واجتمع بعد وقعة النهروان بالنُّخيلة جماعة من الخوارج ، ممن فارق عبد الله ابن وهب ، وممن لجأ إلى راية أبي أيوب[1] ، وممن كان أقام بالكوفة فقال : لا أُقاتل عليًّا ولا أقاتل معه ، فتواصَوا فيما بينهم وتعاضدوا وتأسَّفوا على خِذْلانهم أصحابَهم ، فقام منهم قائم يقال له المستورد بن عُلَّفَة من بنى سعد بن زيد مَناة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا بالعدل تخفِقُ راياته ، معْلِنًا مقالتَهُ ، مُبَلِّغًا عن ربه ، ناصحاً لأُمته ، حتى قبضه الله مُخَيَّرًا مختاراً ، ثم قام الصديق فَصَدَقَ عن نبيه ، وقاتل من ارتدّ عن دين ربه ، وذكر أن الله عز وجل قَرَنَ الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل إحداهما طَعْنٌ على الأُخرى ، لا بل على جميع منازل الدين ، ثم

---

(١) وذلك أن الإمام قبل أن يزحف عليهم فى وقعة النهروان نصب لهم راية أمان مع أبى أيوب الأنصارى ، فناداهم أبو أيوب : « من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن . ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، إنه لاحاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم » .

قبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام الفاروق فَفَرق بين الحق والباطل ، مُسَوِّيا بين الناس في إعطائه ، لا مُؤْثِرًا لِأَقاربه ، ولا مُحَكِّماً في دين ربه ، وهأنتم تعلمون ما حدث ، والله يقول : « وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً » فكلٌّ أجاب وبايع[1] .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٥٤)

---

(١) وقد وجه إليهم الإمام علي ، عبد الله بن عباس داعيا فأبوا ، فسار إليهم فطحنهم جميعا لم يفلت منهم إلا خمسة منهم المستورد .

خور أصحاب الإمام

وتقاعسهم عن نصرته

٣١٥ — خطبة عبد الله بن عباس فى أهل البصرة

ورأى الإمام علىّ كرّم الله وجهه بعد فشل التحكيم أن يمضى لمناجزة معاوية وأهل الشأم ، فكتب إلى عبد الله بن عباس — وكان على البصرة — أن يُشْخِص(١) إليه مَنْ قبله من الناس . فأمرهم ابن عباس بالشخوص مع الأحنف بن قيس ، فَشَخَصَ معهُ منهم ألف وخمسمائة رجل، فاستقلهم ابن عباس ، فقام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل البصرة: قد جاءنى كتاب أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس ، فلم يشْخَصْ إليه منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم فى الديوان(٢)

---

(١) شخص كمنع شخوصا : خرج من موضع إلى غيره، وأشخصته أنا .

(٢) الديوان : الكتاب الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء ، وهو فارسى معرب . قال القلقشندى فى صبح الأعشى ١ : ٩٠ « وقد حكى الماوردى فى الأحكام السلطانية فى سبب تسميته بذلك وجهين : أحدهما أن كسرى ذات يوم اطلع على كتاب ديوانه فى مكان لهم ، وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ، ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ، والثانى : أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور، ووقوفهم على الجلى منها والخفى » اهـ ؛ ومنه ترى أن الديوان كان يطلق فى الفارسية على موضع الكتاب الحاسبين وعلى جماعة الكتاب ، وقد أطلق فى العربية على جريدة الحساب، ثم أطلق على الحساب ، ثم على موضع الحساب، —

ستون ألفاً ، سوى أبنائكم وعُبدانكم[1] ومواليكم ، ألا فانفرُوا[2] ، ولا يجْعَلِ امرؤ على نفسهِ سبيلا ، فإني مُوقِعٌ بكلٍّ من وجدته تخلف عن دعوته ، عاصياً لإمامه ، حزْنًا يُعقِبُ ندما ، وقد أمرت أبا الأسود بحَشْدِكم ، فلاَ يَلُم امرؤ جعل السبيل على نفسهِ إلا نفسَهُ » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٦ ، تاريخ الطبرى ٦ : ٤٤)

٣١٦ — خطبة الإمام وقد أراد الانصراف من النهروان

ولما أراد الإمام الانصراف من النَّهروان ، قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله قد أحسن بَلاَءكم وأعزَّ نصركم ، فتوجهوا من فَوْركم هذا إلى معاوية وأشياعه القَاسِطين ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، « واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قليلا » فـ « بِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

٣١٧ — مقال الأشعث بن قيس

فقام الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين : نَفِدت نبالُنا ، وكَلّت سيوفنا ، ونَصَلت[3] أسِنة رماحنا وعادَ

= ثم على طائفة الكتاب ، وكان ذلك عهد فى عصر الدولة العباسية ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من دون الدواوين فى العرب سنة ٢٣ أى رتب الجرائد للعمال ورجال الجيش فيها أسماؤهم ومراتبهم فى النسب وأرزاقهم (انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣) . (١) جمع عبد . (٢) نفر إلى الشيء : أسرع إليه . (٣) سقطت .

أكثرها قَصِداً[1] فارجع بنا إلى مصرنا ، فَلْنَسْتَعِدَّ بأحسن عُدّتنا ، ولعلّ أمير المؤمنين يَزيد فى عَدَدنا مثلَ من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا » .

فأقبل علىّ بالناس حتى نزل بالنُّخيلة[2] ، ثم دخل الكوفة .

(الامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٥١ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٧٩) .

٣١٨ — خطبة الإمام بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج

يستنفر الناس لقتال معاوية

وخطب الناس بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج فقال :

« أيها الناس استَعِدُّوا لقتال عدوٍّ ، فى جهادهم القربةُ إلى الله عز وجل ، ودَرْكُ الوسيلة عنده ، قومٍ حَيَارَى عن الحق لا يُبْصِرُونه ، مُوزَعِينَ[3] بالجَوْر والظلم لا يَعْدِلون به ، جُفَاةٍ عن الكتاب ، نُكُبٍ[4] عن الدين ، يَعْمَهُونَ[5] فى الطغيان ويتسكعون[6] فى غَمرة الضلال ، فـ « أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ[7] الخَيْلِ — وتوكلوا عَلَى اللهِ ، وكَفى بالله وكيلا » .

---

(١) رمح قصد ، وقصيد ، وأقصاد : أى متكسر . (٢) وعسكر بها حين نزلها ، وأمر الناس أن يلزموا معه معسكرهم ، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام . فجعلوا يتسللون ويدخلون الكوفة ، حتى تركوه وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ، وبقى المعسكر خاليا ، فلا من دخل الكوفة خرج إليه ، ولا من أقام معه صبر ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة . (٣) أوزعه بالشىء : أغراه فأوزع به بالضم . (٤) من نكب عن الطريق : أى عدل ومال . (٥) من العمه (محركة) : وهو التحير والتردد فى الضلال .

(٦) تسكع : مشى مشيا متعسفا ، وتحير . (٧) اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، فعال بمعنى مفعول أو مصدر سمى به كالمرابطة أو جمع ربيط فعيل بمعنى مفعول .

فما نفَرُوا ولا تَيَسَّرُوا ، فتركهم أياماً حتى إذا أيِسَ من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ووجوههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذى يُنْظِرهم[١] ، فمنهم المعتلّ ، ومنهم المتكرِّه ، وأقلهم مَنْ نَشِطَ ، فقام فيهم خطيباً فقال :

(شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ١٧٩ ، والامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٥١)

٣١٩ — خطبة له أيضاً فى استنفارهم لقتال معاوية

« عبادَ الله : مالكم إذا أمرتكم أن تَنْفِرُوا فى سبيل الله اثّاقَلْتم[٢] إلى الأرض ! أرَضِيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة بَدَلاً ، وبالذل والهوان من العز خَلَفاً ؟ أوَ كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم ، كأنكم من الموت فى سَكْرة ، وكأن قلوبكم مَألُوسَة[٣] فأنتم لاتعقلون ، وكأنّ أبصاركم كُمْهٌ[٤] فأنتم لا تُبْصِرُونَ ؛ لله أنتم ! ما أنتم إلا أُسُودُ الشَّرَى[٥] فى الدَّعة[٦] ، وثعالبُ رَوَّاغة حين تُدْعَوْن إلى البأس ! ما أنتم لى بثقةٍ سَجِيسَ الليالى[٧] ، ما أنتم برَكْبٍ يُصَال بكم ، ولا ذِى عز يُعْتَصَم إليه ، لعمرُ الله لبئس حُشَّاشُ[٨] الحرب أنتم ، إنكم تُكادون ولا تَكِيدُونَ ، وتُنْتَقَصُ أطرافكم ولا تتحاشَوْن[٩] ، ولا يُنَامُ عنكم وأنتم فى غفلةٍ ساهون ، إن أخا الحرب اليقظانُ ذو العقل ، وبات لذُلٍّ مَنْ وَادَعَ ، وَغُلِب المتخاذلون ، والمغلوب مقهور ومسلوب ، ثم قال :

---

(١) يؤخرهم . (٢) تثاقلتم . (٣) من الألس : كشمس ، وهو الجنون واختلاط العقل ، ألس (كعنى) فهو مألوس . (٤) كمه : جمع أكمه من كمه بصره (كفرح) اعترته ظلمة تطمس عليه .

(٥) الشرى : موضع تنسب إليه الأسد ، قيل هو شرى الفرات وناحيته وبه غياض وآجام ومأسدة .

(٦) أى فى وقت الدعة والخفض . (٧) يقال : لا آتيك سجيس الليالى : أى أبدا .

(٨) جمع حاش اسم فاعل ، من حش النار : أى أوقدها . (٩) أى ولا تبتعدون عن ذلك وتتلافونه بالدفاع عنها ، من حاشية الشىء وهى ناحيته كما تقول تنحى عنه : أى تباعد عنه من الناحية .

« أما بعد : فإن لى عليكم حقًّا ، وإن لكم علَىّ حقًّا ، فأما حقُّكُمْ علىّ فالنصيحة لكم ماصَحِبتكم ، وتوفيرُ فَيْئكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ، وأما حقى عليكم ، فالوفاء بالبيعة والنُّصْح لى فى الغَيْبِ وَالمَشْهَد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم ، فإن يُرِدِ اللهُ بكم خيراً تَنْزِعُوا عمَّا أكره ، وترجِعُوا إلى ماأحب ، تنالوا ما تطلبون ، وتدركوا ما تأملون »

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥١ ، الإمامة والسياسة ١ : ١١٠)

وروى الشريف الرضى هذه الخطبة فى نهج البلاغة بصورة أخرى وهى :

٣٢٠ — صورة أخرى

« أفّ لكم ، لقد سَئِمت عتابَكم ، أرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة عِوَضًا ، وبالذل من العز خَلَفًا ؟ إذا دعوتكم إلى جهادِ عدوكم دَارَتْ أعينُكم ، كأنكم من الموت فى غَمْرَة[1] ، ومن الذُّهول فى سَكْرَة ، يُرْتَجُ[2] عليكم حِوارى فَتَعْمَهُونَ ! فكأنّ قلوبَكم مَألُوسَةٌ فأنتم لاتعقلون ! ما أنتم لى بثقةٍ سَجِيسَ الليالى ، وما أنتم بركن يُمَالُ بِكُمْ[3] ، ولا زَوافِرِ[4] عِزٍّ يُفْتَقَرُ إليكم ، ما أنتم إلا كإبلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ، فكلما جُمِعت من جانب انتشرت من آخر ، لبئس لعمرُ اللهِ سُعْرُ[5] نارِ الحرب أنتم ، تُكادون ولا تَكِيدُونَ ، وَتُنْتَقَصُ أطرافُكم فلا تمتعِضون[6] ، لا يُنام عنكم وأنتم فى غفلة ساهُون ، غُلِبَ واللهِ المتخاذلون ، وَايْمُ اللهِ إنى لأظن بكم أن لو حَمِسَ[7] الوَغَى ،

---

(١) الغمرة : الشدة . (٢) يغلق ، والحوار : المحاورة . (٣) أى يستند إليكم ويمال على العدو بقوتكم . (٤) جمع زافرة ، والزافرة من البناء : ركنه ، ومن الرجل : عشيرته .

(٥) من سعر النار والحرب : كمنع أوقدها مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أو هو جمع ساعر ، كقولهم : قوم كظم للغيظ جمع كاظم . (٦) أى فلا تغضبون . (٧) اشتد ، وكذا استحر ، وأصل الوغى : الصوت والجلبة ، ثم سميت الحرب وغى لما فيها من الأصوات والجلبة .

وَاسْتَحَرَّ الموتُ ، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب ، انفراجَ الرأس[1] ، والله إن امرأ يُمَكِّنُ عدوَّه من نفسه يَعْرُقُ[2] لحمَهُ ، ويَهْشِمُ عظمَه ، ويَفْرِى[3] جلده ، لعظيمٌ عَجْزُهُ ، ضَعيفٌ ما ضُمَّتْ عليه جوانحُ صَدْرِه ، أنتَ فكن ذاك إن شئت[4] فأما أنا : فوالله دون أن أُعطِى ذلك ضربٌ بالمَشْرَفيَّةِ[5] تطيرُ منه فَرَاشُ[6] الهَامِ ، وَتَطيحُ السواعدُ والأقدام ، ويفعل الله بعد ذلك مايشاء .

أيها الناس : إنَّ لى عليكم حقًّا ، ولكم علىَّ حقٌّ ، فأمَّا حقكم عَلَىَّ فالنصيحة لكم وتوفيرُ فَيْئكم عليكم ، وتعليمُكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ، وأما حقى عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحةُ فى المَشْهَدِ وَالمَغيب ، والإجابةُ حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم » .

(نهج البلاغة ١ : ٤٢)

وزاد ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة :

« والله يأهل العراق ، ما أظن هؤلاء القومَ من أهل الشامِ إلا ظاهرين[7] عليكم ، فقالوا : أبعلم تقول ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » فقال :

« نعم والذى فلق الحَبَّة ، وَبَرَأَ النَّسَمَة ، إنى أرى أمورهم قد عَلَتْ ، وأرى أموركم قد خَبَتْ[8] ، وأراهم جادِّينَ فى باطلهم ، وأراكم وَانين[9] فى حقكم ، وأراهم مجتمعين ، وأراكم متفرِّقين ، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين ، وأراكم لى عاصين ، أما والله لئن ظَهَرُوا عليكم بعدى ، لتجدُنَّهُمْ أَرْبَابَ سوء ، كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم

---

(١) أى انفراجا لا التئام بعده . (٢) عرق العظم عرقا . أكل ماعليه من اللحم ، كتعرقه .
(٣) يمزق . (٤) الخطاب عام لكل من أمكن عدوه من نفسه . (٥) السيوف ، نسبة إلى مشارف الشام ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف . (٦) عظامها الرقيقة .
(٧) منتصرين . (٨) من خبت النار ، أى سكنت وانطفأت . (٩) من ونى : إذا فتر وضعف .

فى بلادكم ، وحلوا إلى بلادهم منكم ، وكأنى أنظر إليكم تكِشُّونَ[1] كَشِيشَ الضِّبَابِ ، لا تأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حُرْمة ، وكأنى أنظر إليهم يقتلون صُلَحاءكم ، ويُخِيفون علماءكم ، وكأنى أنظر إليكم يَحْرِمونكم ويَحْجُبونكم ، ويُدْنون الناس دونكم ، فلو قد رأيتم الحرمانَ ، ولقيتم الذل والهوان ، ووقَع السيفُ ، ونزَل الخوفُ ، لندِمتم وتحسرتم على تفريطكم فى جهاد عدوكم ، وتذكَّرتم ما أنتم فيه من الخفض والعافية ، حين لا ينفعكم التّذكار » .

٣٢١ — خطبة أبى أيوب الأنصارى

ثم قام أبو أيوب الأنصارى فقال :

« إن أمير المؤمنين — أكرمه الله — قد أسمع من كانت له أذن واعية ، وقلب حفيظ إن الله قد أكرمكم به كرامةً ما قبلتموها حقّ قبولها ، حيث نزل بين أظهرِكم ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده ، يُفَقِّهكم فى الدين ويدعوكم إلى جهاد المُحِلِّين ، فوالله لكأنكم صُمٌّ لا تسمعون ، وقلوبكم غُلْفٌ[2] مطبوعٌ عليها ، فلا تستجيبون . عبادَ الله أليس إنما عَهْدُكم بالجَوْر والعُدوان أمسِ ، وقد شمِل العباد وشاع فى الإسلام ، فذو حق مَحْرُومٌ مشتومٌ عِرْضُه ، ومضروب ظهرُه ، وملطوم وجهه ، ومَوطُوء بطنه ، ومُلْقًى بالعَرَاء[3] ، فلما جاءكم أمير المؤمنين صَدَعَ بالحق ، ونَشَرَ العدل ، وعَمِل بالكتاب ، فاشكروا نعمة الله عليكم ، ولا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ، اشحذوا السيوف ، وجددوا آلة الحرب ، واستعدوا للجهاد ، فإذا دُعِيتم فأجيبوا ، وإذا أُمرتم فأطيعوا ، تكونوا بذلك من الصادقين » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١١٢)

---

(١) كش الضب كشيشا : صوت . (٢) جمع أغلف ، وقلب أغلف كأنما غشى غلافا فهو لا يعى . (٣) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

٣٢٢ — خطبة الامام وقد أغار النعمان بن بشير على عين التمر

وفى سنة ٣٩ هـ فرق معاوية جيوشه فى أطراف علىّ ، فبعث النعمان بن بشير الأنصارى فى ألفين ، فأتوا عين التمر[1] فأغاروا عليها ، وبها عامل لعلىّ فى ثلثمائة ، فكتب إلى علىّ يستمده ، فأمر الناس أن ينهضوا إليه فتثاقلوا ، فصعد المنبر فتشهد ثم قال :

« يأهل الكوفة : كلما سمعتم بِمَنْسِر[2] من مناسر أهل الشأم أظلّكم ، انْجَحَرَ[3] كل امرئ مِنكم فى بيته ، وأغلق بابَه ، انْجِحَارَ الضَّبِّ فى جُحْرِهِ ، والضَّبُع فى وِجَارها[4] ، المغرور من غرَرتموه ، وَلَمَنْ فاز بكم فاز بالسهم الأَخْيَب ، لا أحرارٌ عند النداء ، ولا إخوانُ ثقةٍ عند النَّجاء[5] ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ماذا مُنيت به منكم ؟ عُمْىٌ لا تبصرون ، وَبُكْمٌ لا تنطقون ، وصُمٌّ لا تستمعون ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٧)

وروى الشريف الرضى فى نهج البلاغة هذه الخطبة بصورة أخرى وهى :

٣٢٣ — صورة أخرى

مُنيت[6] بمن لا يُطيع إذا أمرتُ ، ولا يجيبُ إذا دعوتُ ! لا أبَالَكم ، ما تنتظرون بنصركم رَبَّكم ؟ أَمَا دِينٌ يجمعكم ، ولا حَمِيَّةَ تُحْمِشكم[7] ؟ أقوم فيكم مُسْتَصْرِخاً ، وأناديكم مُتَغَوِّثاً[8] ، فلا تسمعون لى قولا ، ولا تُطِيعون لى أمراً ، حتى تَكَشَّفَ الأمور

---

(١) بلد على الفرات شمالى الكوفة . (٢) المنسر : قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(٣) من انجحر الضب : أى دخل جحره . (٤) الوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

(٥) النجاء : السرعة فى السير ، نجوت نجاء أى أسرعت وسبقت ، وقالوا : النجاء النجاء ، والنجا النجا فمدوا وقصروا . (٦) بليت . (٧) تغضبكم . (٨) قائلا واغوثاه .

عن عواقب المساءة ؟ فما يُدْرِكُ بكم ثار، ولا يُبْلَغ بكم مَرَام ؟ دَعَوتكم إلى نصر إخوانكم، فجَرْجَرْتم[1] جَرْجَرَةَ الجمل الْاسَرِّ[2] وتثاقلتم تثاقُلَ النِّضْوِ[3] الْأَدْبَرِ ، ثم خرج إليّ منكم جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ[4] ضعيف ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » .

(نهج البلاغة ١ : ٤٦)

٣٢٤ — خطبة الامام وقد أغار الضحاك بن قيس على الحيرة[5]

ووجه معاوية الضَّحَّاك بن قيس فأغار على الحِيرة وغنم أموال أهلها ، وبلغ ذلك عليًّا فاستصرخ الناس ، فتقاعدوا عنه ، فقام فيهم خطيباً فقال :

« أيها الناسُ المجتمعةُ أبدانهم ، المختلفةُ أهواؤهم ، كلامُكم يُوهِي الصُّمَّ[6] الصِّلَابَ ، وفعلكم يُطْمِعُ فيكم الْأَعْدَاء ، تقولون فى المجالس كَيْتَ وَكَيْتَ[7] ، فإذا جاء القتال قلتم حِيدِى حَيَادِ[8] ، ماعَزَّت دعوةُ من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليلُ بأضاليلَ[9] ، دفاعَ ذِى الدَّيْن المَطُولِ[10] ، هيهات لايمنع الضيمَ الذليلُ، ولا يُدْرَكُ

---

(١) الجرجرة : صوت يردده البعير فى حنجرته ، وأكثر ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب .

(٢) المصاب بداء السرر (بالتحريك) ، وهو وجع فى الكركرة (وهى زور البعير) .

(٣) النضو : البعير المهزول ، والأدبر : المدبور أى المجروح . (٤) جنيد : تصغير جند . ومتذائب : أى مضطرب من قولهم : تذاءبت الريح ، أى اضطرب هبوبها ، ومنه سمى الذئب ذئبا لاضطراب مشيته .

(٥) شمالى الكوفة .

(٦) يوهى : يشق ويخرق ، والصم : جمع أصم ، وهو الحجر الصلب المصمت .

(٧) بفتح آخرهما ويكسر : أى كذا وكذا .

(٨) حيدى حياد : كلمة يقولها الهارب الفار ، من حاد حيدانا بمعنى مال وانحرف ، أى ابعدى وتنحى عنى أيتها الحرب ، وهى نظيرة قولهم (فيحى فياح) أى اتسعى .

(٩) الأضاليل : جمع أضلولة بالضم ، وهى الضلال ، وفى كتب اللغة : العلالة « (بالضم) والتعلة (كتحية) ، والعلة (بالفتح) ما يتعلل به » ولم أجد فيها كلمة أعاليل ولا مفردها ولابد أن تكون جمع أعلولة بالضم : كأضاليل وأعاجيب وألاعيب . . . الخ . والمعنى إن أقوالكم هذه تعلل بأباطيل لاجدوى لها .

(١٠) مبالغة فى ماطل .

الحقَّ إلا بالجِدِّ ، أيَّ دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله مَنْ غَرَرْتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخْيَب ، ومن رَمَى بكم فقد رمى بأفْوَقَ ناصِلٍ[1] ، أصبحتُ والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أُوعِد العدوَّ بكم ، مابالُكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طِبُّكم ؟ القومُ رجالٌ أمثالكم ! أقَوْلاً بغير علم ، وغفلةً من غير وَرَع ، وطمعاً فى غير حق ! » .

وزاد ابن قُتَيْبَةَ فى الإمامة والسياسة :

« فرَّقَ الله بينى وبينكم ، وأعقبنى بكم مَنْ خيرٌ لى منكم ، وأعقبكم بعدى مَنْ شرٌّ لكم منى ؛ أما إنكم ستلقَوْن بعدى ذلاً شاملا ، وسيفاً قاتلا ، وَأَثَرَةً يتخذها الظالمون بعدى فيكم سُنَّةً ، تفرِّقُ جماعتكم ، وتُبكى عيونكم ، وتُدْخل الفقر بيوتَكم ، تَمَنَّوْنَ والله عندها أنْ لو رأيتمونى ونصرتمونى ، وستعرفون ما أقول لكم عَمَّا قليل .

استنفرتكم فلم تَنْفِرُوا ! ونصحتُ لكم فلم تقبلوا ! وأسْمَعتكم فلم تَعُوا ، فأنتم شهود كأغياب ، وصُمٌّ ذوو أسماع ، أتلو عليكم الحكمة ، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحثكم على جهاد المُحِلِّين[2] ، الظَّلَمَةِ الباغين ، فما آتى على آخر قولى ، حتى أراكم متفرقين ، وإذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حَلَقاً[3] عِزِينَ[4] ، تضربون الأمثال ، وَتَنَاشَدُونَ الأشعار ، تَرِبت[5] أيديكم ، وقد نسيتم الحرب واستعدادَها ، وأصبحت قلوبكم فارغةً عن ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل » .

(نهج البلاغة ١ : ٣٩ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١١١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٦)

---

(١) سهم أفوق مكسور الفوق (بضم الفاء) والفوق : مدخل الوتر من السهم ، والناصل : العارى عن النصل . (٢) أى الذين خرجوا على إمامهم واستحلوا قتاله . (٣) الحلق : محركة جمع حلقة (بسكون اللام) وحلقة القوم : الذين يجتمعون مستديرين . (٤) جمع عزة (بالكسر) : وهى الطائفة من الناس . (٥) دعاء عليهم : أى خسرتم ولا أصبتم خيرا ، وأصله من ترب الرجل : أى افتقر كأنه لصق بالتراب .

٣٢٥ - خطبة الإمام

وقد أغار سفيان بن عوف الغامدى على الأنبار

ووجه معاوية سُفْيان بن عَوْف الغـامدى فى جيش ، فأغاروا على الأنبار[١] وقتلوا عامل علىّ عليها وهو حسَّان بن حسان البكرى ، واحتملوا ما كان فى الأنبار من الأموال وأموال أهلها ، وانتهى الخبر إلى علىّ فخرج مُغْضَبا حتى أتى النخيلة ، واتبعه الناس فرقىَ رَبَاوة[٢] من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى عَلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الجِهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصَّةِ أوليائه ، وهو لِبَاسُ التقوى ، وَدِرْع الله الحصينة ، وجُنَّته[٣] الوَثيقة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله ثوبَ الذل ، وشمِله البلاء ، ودُيِّثَ[٤] بالصَّغَار وَالْقَمَاءَةِ[٥] ، وَضُرِبَ على قلبه بالإسهاب[٦] ، وأُديلَ[٧] الحقُّ منه بتضييع الجهاد ، وسِيمَ الخَسْفَ[٨] ، وَمُنِـعَ النِّصْفَ[٩] ، ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهارًا ، وسرًّا وإعلانا ، وقلت لـكم اغزوهم من قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِى قوم قطُّ فى عُقْرِ[١٠] دارهم إلا ذَلُّوا ، فتخاذلتم

---

(١) بلد على الفرات . (٢) الربوة والرباوة مثلثتين : ما ارتفع من الأرض . (٣) وقايته .
(٤) ذلل ، وأصله من داث الشىء من باب باع : لان وسهل ومنه الديوث ، وهو الرجل الذى لا غيرة له على أهله ، والصغار : الذل . (٥) قمأ : كجمع وكرم ، قماءة : ذل وصغر . (٦) هكذا فى رواية ابن أبى الحديد ، من أسهب بالضم : أى ذهب عقله ، وفى نهج البلاغة : (طبع الشام) بالأسداد . (٧) من أداله الله من عدوه : أى نصره عليه ، والباء فى قوله « بتضييع الجهاد » للسببية . (٨) أى أولى الذل والضيم ، وفى رواية المبرد « وسيمى الخسف » بالإضافة ، والسيمى : العلامة . قال المبرد : هكذا حدثونا وأظنه سيم الخسف : من قول الله عز وجل « يَسُومُونَـكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » (٩) النصف بالكسر ويثلث ، والنصف والنصفة محركتين الإنصاف . (١٠) وسطها وأصلها .

وتوا كلتم وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهريًّا ، حتى شنت[1] عليكم الغارات ، ومُلِكَتْ عليكم الأوطانُ ، هذا أخو غامدٍ[2] قد وردت خيلُهُ الأنبار ، وقتل حسان ابن حسان البكرى ، ورجالاً منهم كثيرًا ونساء ، وأزال خيلكم عن مَسَالِحِهَا[3] .

والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يُدْخَل على المرأة المسلمة ، والأخرى المُعَاهَدَة[4] ، فيُنتَزَعُ حِجْلها[5] وقُلْبها[6] ، وقلائدها ورُعُثها[7] ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع[8] والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين[9]، ما نال رجلا منهم كَلْمٌ[10]، ولا أريق لهم دم ؛ فلو أن امرأ مسلماً مات من دون هذا أسفاً ، ما كان عندى فيه ملوماً ، بل كان به عندى جديراً .

يا عَجَبًا كلَّ العَجَب ! عجبٌ يُميت القلب ، وَيَشْغَل الفهم ، ويُكْثِر الأحزان ! من تَضَافُرِ[11] هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غَرَضًا[12] تُرْمَوْن ولا تَرْمُون ، وَيُغَارُ عليكم ولا تُغِيرُون ، وَيُعْصَى الله عزَّ وجلَّ فيكم وتَرْضَوْن، إذا قلت لكم اغزوهم فى الشتاء ، قلتم هذا أوان قُرٍّ[13] وَصِرٍّ ، وإن قلت لكم اغزوهم

---

(١) شن الغارة عليهم : صبها من كل وجه ، من شن الماء على رأسه إذا صبه .

(٢) يريد سفيان بن عوف الغامدى قائد الحملة على الأنبار . (٣) جمع مسلحة بالفتح : وهى الثغر .

(٤) المعاهدة : ذات العهد ، وهى الذمية . (٥) الحجل بالكسر والفتح : الخلخال ؛ وسمى القيد حجلا لأنه يكون مكان الخلخال . (٦) القلب : سوار المرأة . (٧) الرعثة بالفتح : القرط ، والجمع رعاث بالكسر ، وجمع الجمع رعث بضمتين . (٨) قول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٩) أى تامين ، وفى رواية المبرد : « موفورين » أى لم ينل أحدا منهم بأن يرزأ فى بدن ولا مال .

(١٠) جرح . (١١) تعاون وتناصر . (١٢) وفى رواية نهج البلاغة : « فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى » وزادت رواية الجاحظ بعد ذلك : « وفيئا ينهب » والترح : محركة الهم ، والغرض : الهدف . (١٣) القر مثلثة القاف : البرد ، والصر : شدة البرد . وفى النهج : « وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء ، قلتم هذه صبارة القر ، أمهلنا : ينسلخ عنا البرد » وصبارة الشتاء بتشديد الراء : شدة برده .

في الصيف ، قلتم هذه حَمَارَّة[1] القَيْظ ، أنظِرْنا[2] يَنْصَرِم الحر عنا ، فإذا كُنْتم من الحرِّ والبرد تفرُّون ، فأنتم والله من السيف أفرُّ ! يا أشباه الرِّجال و لا رجال ، وَ يا طَغَام[3] الأحلام ! وَ يا عقول رَبَّات الحِجَال[4] ، لَوَدِدْتُ أني لم أركم ولم أعرفكم ، مَعْرِفَةٌ والله جرَّت ندماً ، وأعقبت سَدَمًا[5] ! قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قَيْحًا[6] ، وشحنتم صدري غَيْظًا ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أنفاساً[7] ، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخِذْلاَن ، حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا رَأْي له في الحرب ! لله دَرُّهم[8] ! ومن ذا يكون أعلم بها مني ، أو أشدّ لها مِرَاساً ؟ فو الله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نَيَّفْتُ[9] اليوم على الستين ، ولكن لا رَأْي لمن لا يُطاع (يقولها ثلاثاً) .

فقام إليه رجل ومعه أخوه[10] فقال :

« يا أمير المؤمنين أنا وأخي هذا ، كما قال الله تعالى : (رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي

---

(١) شدة الحر . (٢) أي أمهلنا حتى ينسلخ الحر ، وفي رواية النهج « أمهلنا يسبخ عنا الحر » بتشديد الباء المفتوحة : أي يخف ويسكن ، وكل من خفف عنه شيء فقد سبخ عنه ، ومنه قولهم : اللهم سبخ عني الحمى : أي خففها . (٣) أوغاد الناس ومن لا عقل له ولا معرفة عنده . والأحلام العقول : جمع حلم بالكسر ، ويجمع أيضا على حلوم ، وفي رواية النهج : « حلوم الأطفال » .

(٤) الحجال : جمع حجلة بالتحريك ، وهي القبة ، وموضع يزين بالستور والثياب للعروس — كناية عن النساء . (٥) السدم : الهم ، أو مع ندم ، أو غيظ مع حزن . (٦) القيح : مايكون في القرحة من صديدها ، وشحنتم : ملأتم ، وفي رواية الكامل : « ولقد ملأتم جوفي غيظا » .

(٧) النغب : جمع نغبة بالفتح والضم ، وهي الجرعة ، والتهمام : الهم ، وأنفاسا أي جرعة بعد جرعة ، يقال : اكرع في الإناء نفسين أو ثلاثة . (٨) لله دره : أي عمله ، والدر أيضا : اللبن ، أي لله الثدي الذي رضعه ، وهوتعجب أريد به التهكم ، وفي رواية النهج : « لله أبوهم » ! (٩) نيفت : زدت ورواية النهج : « وهاأنذا قد ذرفت على الستين » أي زدت أيضا . (١٠) الرجل وأخوه : يعرفان بابني عفيف من الأنصار .

وَأَخِي) فَمُرْنا بأمرك ، فو الله لَنَنْتَهِيَنَّ إليه ، ولو حال بيننا و بينه جمر الْغَضَا[1] ، وشوك الْقَتَادِ[2] » فدعا لهما بخير ، ثم قال لهما : « وأين تقعان مما أريد ؟ » ثم نزل .

(نهج البلاغة ١ : ٣٥ ، الكامل للمبرد ١ : ١١ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٥ ، والأغانى ١٥ : ٤٣)

٣٢٦ – خطبة للحسن بن على فى يوم جمعة

اعتلّ الإمام على كرّم الله وجهه يومًا ، فأمر ابنه الحسن رضى الله عنه أن يصلى بالناس يوم الجمعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله لم يبعث نبيًّا إلا اختار له نفساً ورهطاً و بيتًا ، فوالذى بعث محمداً بالحق ، لا يَنْتَقِصُ من حقنا أَهْلَ البيت أَحَدٌ ، إلاّ نقصه الله من عمله مثلَه ، ولا يكون علينا دولةٌ إلا وتكون لنا العاقبة ، وَلَتَعْلَمُنَّ نبأه بعد حين » .   (مروج الذهب ٢ : ٥٣)

٣٢٧ – خطبة معاوية وقد بلغه هلاك الأشتر

ولما نُمِىَ إلى معاوية هلاك الأشتر النخَعى[3] ، قام فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

---

(١) شجر جمره يبقى طويلا .   (٢) شجر صلب له شوك كالإبر .

(٣) هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى توفى سنة ٣٨ هـ . روى المؤرخون أنه مات مسموما سمه معاوية ، وذلك أن الإمام عليا كان قد ولى على مصر محمد بن أبى بكر ففسدت عليه ، وخرجت عليه بها خوارج ، فبعث إليها الأشتر وأتت معاوية عيونه فأخبروه بولاية الأشتر ، فعظم ذلك عليه ، وقد كان طمع فى مصر ، فعلم أنه إن قدمها كان أشد عليه من ابن أبى بكر ، فبعث إلى الجايستار (رجل من أهل الخراج) ، فقال له : إن الأشتر قد ولى مصر ، فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجا مابقيت ، (وقيل قال له أترك خراجك عشرين سنة) فاحتل له بما قدرت عليه ، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر ، فلما انتهى =

« أما بعد : فإنه كانت لعلى بن أبى طالب يدان يمينان ، قُطِعَتْ إحداهما يوم صفين (يعنى عمار بن ياسر) ، وقُطِعَتِ الأُخرى اليوم (يعنى الأشتر) » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٥٤)

= إلى القلزم استقبله الجايستار ، فقال : هذا منزل وهذا طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج ، فنزل به الأشتر ، وسأل الدهقان : أى الطعام والشراب أحب إليه ؟ قيل العسل ، فأهدى له عسلا قد جعل فيه سما وقال : إن من شأنه كذا وكذا ، فتناول منه شربة ، فما استقرت فى جوفه حتى تلف ، وأتى من كان معه على الدهقان ومن معه ، فبلغ ذلك عليا ، فقال : « لليدين والفم » وبلغ معاوية ، فقال : « إن لله جنودا منها العسل » .

فتنة البصرة

تسيير معاوية عبد الله بن عامر الحضرمى إليها ومقتله

لما قُتل محمد بن أبى بكر بمصر وظهر معاوية عليها (سنة ٣٨ هـ) دعا عبد الله ابن عامر الحضْرَمِىَّ ، فقال له : « سِرْ إلى البصرة فإنَّ جُلَّ أهلها يرون رأينا فى عثمان ، ويُعْظِمون قتله ، وقد قُتِلوا فى الطلب بدمه ، فهم مَوْتُورون حَنِقُون لما أصابهم ، وَدُّوا لو يجدون من يدعوهم ويجمعهم ، وينهض بهم فى الطلب بدم عثمان ، ودفع إليه كتابا ، وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس[1] ، فمضى حتى نزل البصرة فى بنى تميم ، فسمع بقدومه أهل البصرة ، فجاءه كل من يرى رأى عثمان ، فاجتمع إليه رءوس أهلها .

---

(١) وكان الذى سدد لمعاوية رأيه فى تسريح ابن الحضرمى كتاب كتبه إليه عباس بن صحار العبدى ، وفيه : « أما بعد : فقد بلغنا وقعتك بأهل مصر الذين بغوا على إمامهم . وقتلوا خليفتهم طمعا وبغيا ، فقرت بذلك العيون ، وشفيت بذلك النفوس ، وبردت أفئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولكم موالين ، وبك راضين ، فإن رأيت أن تبعث إلينا أميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين إلى الطلب بدم عثمان فعلت ، فإنى لا إخال الناس إلا مجمعين عليك ، وإن ابن عباس غائب عن المصر والسلام » فكتب إليه معاوية « أما بعد : فقد قرأت كتابك ، فعرفت نصيحتك ، وقبلت مشورتك . رحمك الله وسددك ، اثبت هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنك بالرجل الذى سألت قد أتاك ، وكأنك بالجيش قد أطل عليك ، فسررت وحييت والسلام » .

٣٢٨ — خطبة عبد الله بن عامر الحضرمى

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإنَّ إمامكم إمامَ الهــدى عثمانَ بن عفان ، قتله علىٌّ بن أبى طالب ظلما ، فطلبتم بدمهِ ، وقاتلتُم من قتَله ، فجزا كم الله من أهل مصرٍ خيرًا ، وقد أُصيب منكم الملأُ الأخيار ، وقد جاءكم اللهُ بإخوان لــكم ، لهم بأسٌ يُتَّقَى ، وعددٌ لا يُحْصى ، فلقُوا عدوكم الذين قتلوكم ، فبلغوا الغاية التى أرادوا صابرين ، ورَجَعُوا وقد نالوا ما طلبوا ، فــالِيوم[1] وساعِدوهم ، وتذكَّرُوا ثأركم ، لِتَشْفُوا صدوركم من عدوكم » .

٣٢٩ — خطبة الضحاك بن عبد الله الهلالى

فقام إليه الضَّحَّاك بن عبد الله الهلالى فقال :

« قَبَّحَ الله ما جِئْتَنَا به ، وما دعوتَنا إليهِ ، جئتنا والله بمثل ما جاء به صاحباك : طلحةُ والزبير ، أتَيَانَا وقد بايَعْنا علياً واجتمعنا له ، فــكلمتُنا واحدة ، ونحن على سبيل مستقيم ، فدَعَوانا إلى الفُرقة ، وقاما فينا بزُخْرُف القول ، حتى ضَرَبْنَا بعضَنَا ببعض عُدْوانًا وظلماً ، فاقتتلنا على ذلك ، وَايم الله ماسَلِمنا من عظيم وَبالِ ذلك ، ونحن الآن مُجْمِعُونَ على بيعة هذا العبد الصالح ، الذى أقال العَثرة ، وَعَفَا عن المسىء ، وأخذ بَيعة غائبنا وشاهدنا ، أفتأمُرنا الآن أن نختلع أسيافنا من أغمادها ، ثم يضربَ بعضنا بعضا ، ليكون معاوية أميراً ، وتــكون له وزيراً ، ونَعْدِل بهذا الأمر عن علىٍّ ؟ والله لَيَوْمٌ من

---

(١) ساعدوهم .

أيام عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية ، لو بَقوا في الدنيا ، ما الدنيا باقية[1] » .

فقام عبد الله بن حازم السُّلَمى ، فقال للضحاك : « اسكت فلست بأهلٍ أن تتكلم في أمر العامّة » ثم أقبل على ابن الحضرمىّ ، فقال : « نحن يدك وأنصارك . والقولُ ماقلتَ ، وقد فَهِمنا عنك ، فادْعُنا أنَّى شئت » فقال الضحاك لابن حازم : « يابن السَّوداء[2] ، والله لايعزُّ مَنْ نصرتَ ، ولا يَذِلُّ بخِذْلانك مَنْ خذلت » فتشاتما .

٣٣٠ — خطبة عبد الرحمن بن عمير القرشي

فقام عبد الرحمن بن عُمَيْر بن عثمان القرشي التّيمى فقال :

« عبادَ الله : إنا لم ندعُكم إلى الاختلاف والفُرْقة ، ولا نريد أن تقتتلوا وتتنابزوا[3] ولكنا إنما ندعوكم إلى أن تجمعوا كلمتكم ، وتُوَازِرُوا إخوانكم الذين هم على رأيكم ، وأن تَلُمُّوا شَعَثَكم ، وتُصْلِحُوا ذاتَ بينِكم ، فَمَهْلاً مَهْلًا رحمكم الله ، استمعوا لهذا الكتاب ، وأطيعوا الذى يقرأ عليكم » .

فلما قرئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : « سمعنا وأطعنا » وقال الأحنف بن قيس : « أما أنا فلا ناقة لى فى هذا ولا جمل[4] » ، واعتزل أمرهم ذلك ، وقال عمرو بن مرحوم من عبد القيس : « أيها الناس ، الزَموا طاعتكم ، ولا تنكُثوا بَيعتكم ، فتقعَ

---

(١) ما : ظرفية ، أى مادامت الدنيا باقية . (٢) وكانت أمه سوداء حبشية يقال لها عجلى .

(٣) النبز : محركة اللقب ، والتنابز : التعاير والتداعى بالألقاب . (٤) أصل المثل للحارث ابن عباد البكرى حين قتل جساس بن مرة كليبا ، وهاجت الحرب بين بكر وتغلب (حرب البسوس) وكان الحارث قد اعتزلهما ، والقصة مشهورة .

بكم واقعة ، وتصيبكم قارعةٌ[1] ، ولا يكن بعدها لكم بقية ، ألا إنى قد نصحت لكم ولكنْ لا تحِبُّونَ النَّاصِحِينَ » .

* * *

ثم إن الناس أقبلوا إلى ابن الحضرمى وكثر تبعه — وكان الأمير بالبصرة يومئذ زياد ابن أبيه استخلفهُ عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على علىّ عليه السلام يعزيه عن محمد ابن أبى بكر — فأفزع ذلك زيادا وهاله ، وَخَلَّى قصر الإمارة ، واستجار بالأزد فأجاروه ، وكتب إلى ابن عباس بالأمر ، وطلب إليهِ أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، ليرى فيه رأيه ، وغلب ابن الحضرمى على ما يليه من البصرة وَجَبَاها ، وأجمعت الأزد على زياد ، وأعدوا له منبراً وسريراً وَشُرَطاً .

٣٣١ — خطبة زياد بن أبيه

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأزد : إنكم كنتم أعدائى ، فأصبحتم أوليائى وَأَوْلَى الناس بى ، وَإِنى لو كنت فى بنى تميم ، وابنُ الحضرمى فيكم ، لم أطمع فيه أبداً ، وأنتم دونه ، فلا يطمعِ ابن الحضرمى فِىَّ وأنتم دونى ، وليس ابنُ آكِلَةِ الأكباد — فى بَقِيَّةِ الأحزاب وأولياء الشيطان — بأدنى إلى الغَلَبَة من أمير المؤمنين فى المهاجرين والأنصار ، وقد أصبحتُ فيكم مضموناً ، وَأَمَانَةً مُؤَدَّاةً ، وقد رأينا وَقْعَتَكم يوم الجمل ، فاصْبِرُوا مع الحق صَبْرَكم مع الباطل ، فإنكم لَا تُحْمَدُون إلاّ على النجدة ، ولا تُعْذَرُون عَلَى الجبن » .

(١) داهية .

٣٣٢ — خطبة شيمان الأزدى

فقام شيمان الأزدى — ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائباً — فقال :

« يا معشر الأزد : ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلاّ سوء الذكر ، وقد كنتم أمسِ على علىّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أن إسلامكم[1] له ذلّ ، وَخِذْلانكم إياه عار ، وأنتم حَىٌّ مِضْمارُكم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ، فإن سار القوم بصاحبهم فَسِيرُوا بصاحبكم ، وإن استمَدُّوا معاوية فاستَمِدُّوا عليًّا عليه السلام ، وإن وادعوكم فوادعوهم » .

٣٣٣ — خطبة صبرة بن شيمان

ثم قام صَبِرَة ابنه ، فقال :

« يا معشر الأزد : إنا قلنا يومَ الجمل نمنع مِصْرَنا ، ونُطيع أمنا ، ونطلب دم خليفتنا المظلوم ، فجَدَدنا فى القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتِلَ منا مَنْ لا خير فينا بعده ، وهذا زيادٌ جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من عَلِيٍّ ما نخاف من معاوية ، فَهَبُوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم ، أو فأَبْلِغوه مأمنه » .

فقالت الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجيروه .

٣٣٤ — خطبة الإمام على

واستنفر علىّ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة مَنْ يكفيه أمر ابن الحضرمى ، ويردّ عادية بنى تميم الذين أجاروه بها ، فلم يجبه أحد فخطبهم وقال :

---

(١) أسلمه : خذله .

« أليس من العجب أن ينصرنى الأزد[1] ، وَتَخْذُلَنى مُضَر ؟ وأعجَبُ من ذلك تقاعُدُ تميم الكوفة بى ، وَخِلافُ تميم البصرة علىّ ، وأنْ أستنجد بطائفةٍ منها تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرّشاد ، فإن أجابت و إلاّ فالمنابذةُ والحرب ، فَكَأنى أخاطب صُمًّا بُكمًا ، لاَ يَفْقَهُون حِوَاراً ، ولا يُجيبون نداء ، كل هذا جُبْناً عن البأسِ ، وَحُبًّا للحياة ، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نَقتُلُ آباءنَا وَأبناءنَا ، و إخوانَنا وأعمامنا[2] ، ما يَزِيدنا ذلك إلاّ إيمانًا وتسليما ، وَمُضِيًّا على اللّقَمِ[3] ، وصبراً على مَضَض الألم ، وَجِدًّا فى جهاد العدوّ ، ولقد كان الرجل منا والآخرُ من عدونا يتصاوَلان[4] تَصاوُلَ الفَحْلين يَتخالَسَان[5] أنفسهما ، أيُّهما يسقى صاحبه كأسَ المَنُون ، فمرّةً لنا من عدونا ، ومرّةً لعدونا منا ، فلما رأى الله صِدْقَنَا أنزل بعدونا الكَبْتَ[6] ، وأنزل علينا النّصْرَ ، حتى استقرّ الإسلام مُلقِيًا جِرَانه[7] ، وَمُتَبَوِّئًا أوطانَه ، ولعمرى لو كنا نأتى ما أتَيْتُم ، ما قام للدين عَمُودٌ ، ولا اخضَرّ للإيمان عُودٌ ، وايم الله لتَحتَلِبُنّهَا دَمًا[8] ، وَلَتُتْبِعُنّها ندمًا » .

فقام إليه أعْيَنُ بن ضُبَيْعَة المُجَاشِعِى[9] فقال :

« أنا إن شاء الله أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخَطب ، وأتكفل لك بقتل ابن الحضرمى ، أو إخراجه عن البصرة » فأمره بالتهيؤ للشخوص ، فشخص إلى البصرة .

---

(١) هم من العرب اليمانيين . (٢) قتلهم الأقارب فى ذات الله كثير ، قتل على عليه السلام الجم الغفير من بنى عبد مناف وبنى عبد الدار فى يوم بدر وأحد وهم عشيرته وبنو عمه ، وقتل عمر بن الخطاب يوم بدر خاله العاص بن هاشم بن المغيرة ، وقتل حمزة بن عبد المطلب شيبة بن ربيعة يوم بدر وهو ابن عمه ، ومثل ذلك كثير مذكور فى كتب السيرة . (٣) لقم الطريق : الجادة الواضحة منها . (٤) التصاول : أن يصول كل من القرنين على صاحبه . (٥) التخالس : التسالب ، أى يبغى كل أن يسلب روح الآخر. (٦) الإذلال . (٧) جران البعير : مقدم عنقه ، وهو كناية عن التمكن كالبعير يلقى جرانه على الأرض . (٨) يقال لمن أسرف فى الأمر : لتحتلبن دما ، وأصلها الناقة يفرط فى حلبها فيحلب الحالب الدم . (٩) مجاشع بن دارم : أبو قبيلة من تميم ، وأعين بن ضبيعة ، هو الذى عقر الجمل الذى كانت عليه عائشة يوم الجمل .

٣٣٥ — خطبة أعين بن ضبيعة

فلما قدمها دخل على زياد ، وهو بالأزد مقيم فأخبره بأمره ، ثم خرج فأتى رَحْله ، فجمع إليهِ رجالا من قومه ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا قوم : على ماذا تقتلون أنفسكم ، وتُهَرِيقون دماءكم ، على الباطل مع السفهاء الأشرار ؟ وإنى والله ما جئتكم حتى عُبِّيَت إليكم الجنود ، فإن تُنيبوا إلى الحق يُقبل منكم وَيُكَفّ عنكم ، وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبَوَارُكم » .

فقالوا بل نسمع ونطيع ، فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمى ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمى وواقفهم عامة يومه يناشدهم الله ويقول : « يا قوم لا تنكُثوا بيعتكم ، ولا تُخالفوا إمامكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ، فقد رأيتم وجرَّبتم كيف صنع الله بكم عند نَكْثِكُمْ بيْعتكم وخِلَافِكم » .

فكفوا عنه وهم فى ذلك يشتمونه وينالون منه فانصرف عنهم ، فلما أوى إلى رحله تَبِعه عشرة نَفَر يظن الناس أنهم خوارج فقتلوه ، وكتب زياد إلى الإمام بذلك ، فأشْخَصَ إليهم جَارِيَةَ بن قُدَامَة .

٣٣٦ — خطبة جارية بن قدامة

فلما دخل البصرة بدأ بزياد ، فناجاه ساعةً وساءله ، ثم خرج من عنده ، فقام فى الأزد فقال :

« جزاكم الله من حَىٍّ خيرًا ، ما أعظم غَنَاءكم[1] ، وأحسن بَلَاءكم ، وأطوعكم

(١) أى كفايتكم ونفعكم .

لأميركم ، لقد عرفتم الحق إذ ضَيَّعَهُ من أنكره ، ودعوتم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه » ثم قرأ عليهم كتاب علىّ عليهِ السلام ، فقام صَبِرَة بن شيمان ، فقال : « سمعنا وأطعنا ، ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حَرْب ، ولمن سالم سَلْم ، إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك ، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك » وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ، فلم يأذن لأحد منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بنى تميم .

٣٣٧ — خطبة زياد

فقام زياد فى الأزد فقال :

« يا معشر الأزد : إن هؤلاء كانوا أمْسِ سلما ، فأصبحوا اليوم حربا ، وإنكم كنتم حربا فأصبحتم سلما ، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربَة ، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل ، فما رَضِيتم أن أجرتمونى ، حتى نَصَبْتُم لى مِنْبراً وسريرًا ، وجعلتم لى شُرَطا وأعوانا ، ومُنادياً وجُمعة ، فما فقدتُ بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم لا أجبيه اليوم ، فإن لم أجْبِهِ اليَوْمَ أجبِهِ غداً إن شاء الله ، واعلموا أن حربكم اليوم معاويةَ أيسرُ عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمْسِ عليًّا ، وقد قَدِمَ عليكم جاريةُ بن قُدَامة ، وإنما أرسله علىّ ليَصْدَع أمر قومه ، والله ما هو بالأمير المطاع ، ولو أدرك أمَلَه فى قومه لرجع إلى أمير المؤمنين ، ولكان لى تَبَعاً ، وأنتم الهامَةُ العظمى ، والجَمْرة الحامية ، فَقَدِّمُوه إلى قومه ، فإن اضْطُرَّ إلى نصركم ، فسيروا إليه إن رأيتم ذلك » .

٣٣٨ — خطبة أبى صبرة شيمان

فقام أبو صَبِرَة شيمان فقال :

« يازياد ، إنى والله لو شَهِدت قومى يوم الجمل رجوت ألاَّ يقاتلوا عليًّا ، وقد مضى الأمر بما فيه ، وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسَّيِّئ ، والتوبة مع الحق ، والعفو مع الندم ، ولو كانت هذه فتنةً لدعَونا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولكنها جماعةٌ ، دماؤها حرام ، وجروحُها قِصَاصٌ ونحن معك نحبُّ ما أحببت » .

فعجب زياد من كلامه ، وقال : « ما أظُنُّ فى الناس مثل هذا » .

٣٣٩ — خطبة صبرة بن شيمان

ثم قام صبرة ابنه فقال :

« إنا والله ما أُصِبْنَا بمصيبة فى دين ولا دنيا ، كما أُصِبنَا أمْسِ يوم الجمل ، وإنا لنرجو اليوم أن يُمَحِّصَ(١) ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين . وأما أنت يازياد ، فوالله ما أدركتَ أملك فينا ، ولا أدْرَكْنَا أملنا فيك ، دون ردك إلى دارك ، ونحن رادُّوكَ إليها غداً إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحد أولى بك منا ، فإنك إلاَّ تفعل لم تأت ما يُشْبِهك ، وإنا والله نخاف من حرب علىّ فى الآخرة ، ما لا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا ، فقدِّم هواك ، وأخر هوانا ، فنحن معك وطوْعُكَ » .

---

(١) من محص الذهب بالنار كقطع : أخلصه مما يشوبه .

٣٤٠ — خطبة خنفر الحمانى

ثم قام خنفر الحِمّانى فقال :

« أيها الأمير : إنك لو رضيت منا بما ترضى به من غيرنا ، لم نرضَ ذلك لأنفسنا ، سر بنا إلى القوم إن شئت ، وايم الله مالقينا يوماً قطّ إلا اكتفينا بِعَفْونا[1] دون جُهدنا ، إلا ما كان أمس » .

أما جارية فإنه كلّم قومه فلم يجيبوه ، وَخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه ، فأرسل إلى زياد وَالأزد يستصرخهم ، فسارت الأزد بزياد ، وخرج إليهم ابن الحضرمى وعلى خيله عبد الله بن حازم السلمى ، فاقتتلوا ساعة ، فما لبّثوا بنى تميم أن هزموهم ، وحصروا ابن الحضرمى فى إحدى دور البصرة ، فى عِدّة من أصحابه ، وحرق جارية الدار عليهم ، فهلك ابن الحضرمى فى سبعين رجلا ، وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ومعه بيت المال ، وقالوا له : هل بقى علينا من جوارك شىء ؟ قال : لا ، فانصرفوا عنه ، وكتب زياد بذلك إلى أمير المؤمنين عليهِ السلام .

(شرح ابن أبى الحديد م : ١ ص ٣٤٨ ، ونهج البلاغة ١ : ٥٣)

٣٤١ — صعصعة بن صوحان ومعاوية

أرسل علىٌّ كرم الله وجهه إلى معاوية بالشام كتاباً صُحْبَةَ صَعْصَعَة بن صُوحان ، فسار به حتى أتى دمشق ، فأتى باب معاوية ، فقال لِآذِنِهِ ، اسْتَأْذِنْ لرسول أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب — وبالباب جماعةٌ من بنى أمية — فأخذته النّعال والأيدى ، لقوله « أمير المؤمنين » ، وكثُرت عليه الجَلَبة ، فاتّصل ذلك بمعاوية ، فأذن له ، فدخل عليه ،

---

(١) العفو : الزيادة .

فقال : السلام عليك يابن أبى سُفيان ، هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال معاوية : أمَا إنه لو كانت الرسل تُقْتَلُ فى جاهلية أو إسلام لقتلتك ، ثم اعترضه معاوية فى الكلام ، وأراد أن يستخبره ، ليعرف طَبْعًا أو تكلفًا ، فقال له ممن الرجل ؟ قال من نِزَار ، قال وما كان نزار ؟ قال كان إذا غزا انكمش[1] ، وإذا لقى افْتَرَش[2] ، وإذا انصرف احْتَرَش[3] ، قال فمن أىِّ أولاده أنت ؟ قال من ربيعة ، قال وما كان رَبيعة ؟ قال : كان يطيل النِّجَاد[4] ، ويعول العباد ، ويضرب ببقاع الأرض الْعِمَادَ . قال فمن أىِّ أولاده أنت ؟ قال من جَدِيلة ، قال وما كان جديلة ؟ قال كان فى الحرب سيفًا قاطعًا ، وفى المَكْرُمات غيثًا نافعًا ، وفى اللقاء لَهَبًا ساطعًا ، قال فمن أىِّ أولاده أنت ؟ قال من عبد القيس ، قال وما كان عبد القيس ؟ قال كان حَسَنًا أبيض[5] وَهَّابا ، يقدم لضيفه ما وجد ، ولاَ يسأل عما فَقَد ، كثير المَرَق ، طَيِّب الْعَرَق ، يقوم للناس مَقام الغيث من السماء ، قال ويحك يابن صُوحان ! فما تركت لهذا الحَىِّ من قريش مجدًا ولا فخرًا ؟ قال بلى والله يابن أبى سفيان ؟ تركت لهم مالا يصلح إلاَّ لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر[6] ، والسرير والْمِنْبَرَ[7] ، والملك إلى المحشر . ففرح معاوية ، وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها ، قال : صدقت يابن صوحان ، إن ذلك لكذلك ، فعرف صعصعة ما أراد ، فقال : ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد[8] ، بَعُدْتم عن أُنُفِ[9] المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء ، قال ولم ذلك ؟ ويلك يابن صوحان ! فقال الويل لأهل النار ،

---

(١) انكمش وتكمش: أسرع ، والكميش : الرجل السريع . (٢) افترش فلانا : غلبه وصرعه .
(٣) احترش الشىء : جمعه وكسبه . (٤) حمائل السيف ، وهو كناية عن طول القامة .
(٥) أى أبيض اللون كناية عن أنه حر لا رقيق ، أو أبيض العرض نقيه . (٦) الأحمر : الذهب ، والأبيض : الفضة (والسيف أيضا) والأصفر : الذهب . كناية عن الغنى والثروة (وقد كان لقريش فى الجاهلية مركز تجارى هام) . (٧) كناية عن الملك والمقدرة الخطابية . (٨) أورد إبله الماء وأصدرها : ردها وأرجعها . (٩) روضة أنف : لم ترع .

ذلك لبنى هاشم ، قال قم ، فأخرجوه . فقال صعصعة : الوعد بينى و بينك لا الوعيد ، من أراد المناجزة ، يقبل المحاجزة[1] ، فقال معاوية لشىء ما سوّده قومه ، وَدِدْت أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بنى أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال !

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٧٧)

٣٤٢ – صورة أخرى

وروى أبو على القالى هذا الخبر فى الأمالى بصورة أخرى ، قال :

« دخل صَعْصَعة بن صُوحان على معاوية أوَّلَ ما دخل عليه ــ وقد كان يَبْلُغ معاوية عنه فقال معاوية : ممَّن الرَّجل ؟ فقال رجل من نِزَار ، قال وما نزار ؟ قال : كان إذا غزا انحوش[2] ، وإذا انصرف انكمش ، وإذا لَقِىَ افترش ، قال : فمِنْ أىِّ ولده أنت ؟ قال : من ربيعة ، قال : وما ربيعة ؟ قال كان يغزو بالخيل ، ويُغيرُ بالليل ، ويجود بالنَّيل، قال : فمن أىِّ ولده أنت؟ قال : من أمْهَر[3] ، قال: وما أمهر؟ قال : كان إذا طلب أفْضَى[4] ، وإذا أدرك أرْضَى، وإذا آب أنْضى[5] قال : فمن أىِّ ولده أنت ؟ قال : من جَدِيلة قَالَ : وَمَا جَدِيلةُ ؟ قال : كَان يُطِيلُ النِّجاد ، وَيُعِدّ الجياد ، ويُجِيد الجِلاَد ، قال : فمن أىِّ ولده أنت ؟ قال : من دُعْمِىّ ، قال : وما دعمىّ ؟ قال : كَان ناراً ساطعاً ، وشرًّا قاطعاً ، وخيراً نافعاً ، قال : فمن أىِّ ولده أنت ؟ قال : من أفصى

---

(١) وفى مروج الذهب : « من أراد المشاجرة قبل المحاورة » والوارد فى الأمثال : « المحاجزة قبل المناجزة » أى المسالمة قبل المعاجلة فى القتال ، يضرب لمن يطلب الصلح بعد القتال . (٢) لم أجد هذه الكلمة فى كتب اللغة ، وأرى أنها محرفة عن (احترش) كما ورد فى رواية صبح الأعشى ، وإن اختلف تأليف الجمل فى الروايتين . (٣) وفى نسخة : « من أسد ، قال وما أسد ؟ » . (٤) أفضى إلى الشىء : وصل إليه . (٥) أنضى بعيره : هزله ، وأنضى الثوب : أبلاه .

قَالَ : وَمَا أفصَى ؟ قال كَانَ ينزل الْقَارَاتِ[1] ، ويكثر الغارات ، وَيَحْمِى الجارات ، قال : فمن أىٍّ ولده أنت ؟ قال : من عبدالقيس قَالَ : وَمَا عَبْدُ القَيْس؟ قال : أبطالٌ ذَادَةٌ[2] ، جَحَاجِحَةٌ[3] سادة ، صناديد قادة ، قال: فمن أىٍّ ولده أنت؟ قال : من أفصى، قال : وما أفصى ؟ قال : كَانت رماحهم مُشْرَعَةً[4] وَقُدُورُهُمْ مُتْرَعَةً[5] ، وَجِفَانُهُم مُفْرَغَة ، قال : فمن أىٍّ ولده أنت ؟ قال : من لُكَيْز ، قال : وما لكيز ؟ قال : كَان يباشر القتال ، ويعانق الأبطال ، وَيُبَدِّد الأموال ، قال : فمن أىٍّ ولده أنت ؟ قال : من عِجْل ، قال : وما عِجْل ؟ قال : الليوثُ الضَّرَاغمة[6] ، الملوك الْقَمَاقِمَة[7] ، الْقُرُومُ الْقَشَاعِمَة[8] ، قال : فمن أىٍّ ولده أنت ؟ قال : من كعب ، قال : وما كعب ؟ قال : كان يُسَعِّرُ[9] الحرب ، وَيُجِيدُ الضَّرْب ، ويكشف الكَرْب ، قال : فمن أىٍّ ولده أنت ؟ قال : من مالك ، قال : وما مالك ؟ قال : هو الهُمَام للهمام ، وَالْقَمْقَام للقمقام ، فقال معاوية . ما تركت لهذا الحَىِّ من قريش شيئاً ، قال : بل تركتُ أكثره وأحبَّه ، قال : وماهو ؟ قال : تركت لهم الْوَبَرَ وَالمَدَرَ[10] والأبيض والأصفر ، وَالصَّفَا وَالمَشْعَرَ[11] ، وَالْقُبَّةَ وَالمَفْخَرَ ، وَالسرير وَالمِنْبَرَ ، وَالمُلْكَ إلى المَحْشَر ، قال : أمَا والله لقد كَان يَسُوءنى أن أراك أسيراً قال : وأنا واللهِ لَقَدْ كانَ يَسُوءنى أن أراك أميرا ، ثم خرج فبعث إليه ، فَرَدَّه ، ووصله وأكرمه » .

(الأمالى ٢ : ٢٣٠)

* * *

(١) القارات : جمع قارة ، وهى الجبيل الصغير . (٢) جمع ذائد ، وهو المدافع .

(٣) جمع جحجح : وهو السيد ، كالجحجاح . (٤) مسددة . (٥) مملوءة .

(٦) جمع ضرغام ، وهو الأسد . (٧) جمع قمقام بالفتح ويضم ، وهو السيد .

(٨) القروم ، جمع قرم : كشهم ، وهو السيد ، والقشاعمة : جمع قشعم ، كجعفر ، وهو الرجل المسن (كناية عن كثرة التجربة) والأسد . (٩) سعر الحرب : كمنع ، وسعرها : أوقدها .

(١٠) كناية عن البادية ، والمدر : المدن والحضر . (١١) شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشعارة بالفتح ، والمشعر موضعها ، والمشعر الحرام : بالمزدلفة .

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :

« قال معاوية يوماً وعنده صعصعة ، وكان قَدِمَ عليه بكتاب علىّ ، وعنده وجوه الناس : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخُذُ من مال الله فهو لى ، وما تركت منه كان جائزاً لى » فقال صعصعة :

تُمَنِّيكَ نَفْسُكَ مالاَ يكو ن جَهلاً ، مُعَاوِىَ لاَ تَأثَمِ

فقال معاوية : ياصعصعة تعلّمتَ الكلام ، قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يَجْهَلْ ، قال معاوية : مَا أحوجَك إلى أن أُذِيقَكَ وَبَالَ أمْرِكَ ، قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذى لاَ يُؤَخِّرُ نفساً إذا جاء أجلُها ، قَال : ومن يَحُول بينى و بينك ؟ قال : الذى يحول بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتسع بَطْنُكَ للكلام كما اتسع بطن البعير الشعير ، قال : اتسعَ بطْنُ من لاَ يَشْبَع[1] ، ودعا عليه مَنْ لاَ يَجْمع[2] » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٩)

---

(١) يعرض بمعاوية إذ كان مبطانا (أى أكولا) وكان أيضا بطينا (أى عظيم البطن) ، وقد قال فيه سيدنا على فى وقعة صفين :

أضربهم ولا أرى معاويه الجاحظ العين العظيم الحاويه

(والحاوية ماتحوى من الأمعاء أى العظيم البطن) .

(٢) دعا عليه : معطوف على لايشبع : أى اتسع بطن من دعا عليه من لايجمع ، والمراد بمن لايجمع النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد دعا على معاوية بالنهم وعدم الشبع ، ومعنى لايجمع أى لايجمع الدنيا ولا يجنح إليها ، وهو تعريض آخر بمعاوية . أما دعاء رسول الله عليه فقد روى ابن الأثير فى أسد الغابة — ٤ : ٣٨٦ — قال : « عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواريت خلف باب ، قال فجاء ، فحطانى حطاة — والحطو : تحريك الشىء مزعزعا — وقال اذهب فادع لى معاوية ، قال فجئت فقلت هو يأكل ، ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ، قال : فجئت فقلت هو يأكل ، فقال : لاأشبع الله بطنه » أخرج مسلم هذا الحديث بعينه لمعاوية .

٣٤٣ ـ تتمة فى الحكم(١)

من كلام أبى بكر الصديق رضى الله عنه :

« إن الله قَرَنَ وعده بوعيده ليكون العبدُ راغباً راهباً . ليست مع العَزَاء مُصِيبَةٌ . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاث مَنْ كُنَّ فيه كن عليه : البَغْيُ ، والنَّكث ، والمكر . ذَلَّ قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، لايكونن قولك لَغْوًا فى عفو ولا عقوبة . إذا فاتك خير فأدركه ، وإن أدركك شرٌّ فاسْبِقْه . إن عليك من الله عيوناً تراك . احرِصْ على الموت تُوهَبْ لك الحياة ـ قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الرِّدَّة ـ رحم الله امرأً أعان أخاه بنفسِهِ . أطوع الناس لله أشدهم بغضًا لمعصيته . إن الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك ، إن أولى الناس بالله أشدهم تولِّيًا له . لاتجعل سرك مع علانيتك، فَيَمْرَج(٢) أمرك ، خير الخصلتين لك أبغضهما إليك . صنائع المعروف تقى مصارع السوء » .

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« من كتم سره كان الخيار فى يده . أشقى الولاة من شَقِيَت به رعيته . اتقوا من تُبْغِضهُ قلوبكم . أعقل الناس أعذرهم للناس . لا تؤجل عمل يومك لغدك . من لم يعرف الشرَّ كان جديراً أن يقع فيه . ما الخمرُ صِرْفاً بأذهَبَ للعقول من الطمع . قلما أدبر شىء فأقبل . مُرْ ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ، غَمِّض عن الدنيا عينك وَوَلِّ عنها قلبك . وإياك أن تُهْلِكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعها ،

---

(١) فى كتب الحديث الشريف مأثور أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وجوامع كلمه ، وفى نهج البلاغة ، وشرح ابن أبى الحديد عليه وغيرهما كثير من حكم الإمام على كرم الله وجهه فاقرأها هنالك .

(٢) يفسد ويختلط .

وعاينت سوء آثارها على أهلها ، وكيف عَرِى من كَسَت ، وجاع من أطعمت ، ومات من أحيت . احتفظ من النعمة احتفاظك من المصيبة ، فوالله لهى أخوفهما عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك . الدنيا أمل مخترَم وأجل منتقَص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج، فرحم الله امرأ فكر في أمره، ونصح لنفسه ، وراقب ربه واستقال ذنبه . إياكم والبطنة فإنها مَكْسَلة عن الصلاة ، مَفْسَدةٌ للجوف ، مؤدية إلى السقم . رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى ، أفلح من حُفظَ من الطمع والغضب والهوى نفسه » .

ومن كلام عثمان رضى الله عنه :

« مَا يزَع[1] الله بالسلطان أكثر مما يزَعُ بالقرآن . يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك . أنتم إلى إمام فَعَّال أحوج منكم إلى إمام قوّال ـ قاله يوم صعد المنبر فأرتج عليه » .

ومن كلام ابن عباس رضى الله عنه :

« صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد متّكأ . الحِرْمان خير من الامتنان . مِلاَكُ أمركم الدين، وزينتكم العلم ، وحصون أعراضكم الأدب ، وعزكم الحلم . وحليتكم الوفاء . القرابة تُقطع . والمعروف يُكفَر . ولم يُرَ كالمودة . لا تُمَار سفيها ولا حليما . فإن السفيه يؤذيك . والحليم يَقْلِيك[2] . واعمل عمل من يعلم أنه مجزِىّ بالحسنات . مأخوذ بالسيئات » .

ومن كلام ابن مسعود رضى الله عنه :

« ما الدُّخان على النار بأدلّ من الصاحب على الصاحب ، الدنيا كلها غموم ، فما كان منها فى سرور فهو ربح » .

---

(١) يكف . (٢) يبغضك .

ومن كلام المُغِيرَة بن شُعْبَة :

« إن المعرفة لتنفع عند الكلب العَقُور ، والجمل الصَّئُول[1] ، فكيف بالرجل الكريم ! » .

ومن كلام أبي الدَّرْداء :

« السُّودَد اصطناع العشيرة ، واحتمال الجَرِيرة ، والشرف كف الأذى ، وبذل الندى ، والغنى قلة التمنى ، والفقر شره النفس » .

ومن كلام أبي ذرٍّ :

« إن لك فى مالك شريكين : الحِدْثان[2] والوارث ، فإن قدَرت ألا تكون أخَسَّ الشركاء حظا فافعل » . (مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٢٧٦ ، ونهاية الأرب ٣ : ٤)

---

(١) صئول الجمل : واثب الناس أو صار يقتلهم ويعدو عليهم . (٢) حدثان الدهر : نوبه وأحداثه .

سقطت هذه الخطب سهوا فى أثناء الطبع
فأوردناها فى آخر الجزء وها هى ذى :

خطب الوفود

بين يدى عمر بن الخطاب

لما قدمت الوفود على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام هلال بن بشر[1] فقال :

٢٤٤ — خطبة هلال بن بشر

« يا أمير المؤمنين : إنا غُرَّة مَنْ خَلْفَنا من قومنا ، وسادةُ مَنْ وَرَاءنا من أهل مصرنا وإنك إن تَصْرِفنا بالزيادة فى أعطياتنا ، والفرائض لِعِيالاتنا ، يَزْدَدْ بذلك الشريفُ تأميلا ، وتكن لهم أبا وَصولا ، وإن تكن مع ما نَمُتّ به[2] من وسائلك ، وَنُدْلِى به من أسبابك ، كَالَحدِل[3] ، لاَ يُحَلّ ولا يُرْتَحَلُ ، نَرْجِعْ بأنوف مصلومة[4] ، وجدود

---

(١) فى البيان والتبيين : ابن وكيع .　(٢) نتوسل به .　(٣) فى البيان والتبيين « كالجد » وفى نهاية الأرب « كالجدل » ولا معنى لهما هنا ، وأرى أن صوابه « كالحدل » بحاء مفتوحة ودال مكسورة ، وصف من الحدل بفتحتين : وهو الذى أشرف أحد عاتقيه على الآخر ، أو المائل العنق من خلقة أو وجع لايملك أن يقيمه . وارتحل البعير ورحله : حط عليه الرحل ، وإذا كان البعير حدلا فهو لايرتحل لعدم توازن العدلين عليه ، وكذا لايحل من مبركه ليرتحل فهو إذن لايستخدم ولا ينتفع به ، فالمعنى أنك إن لم تعطنا تكن كالبعير الحدل العديم الجدوى .　(٤) المقطوعة من أصلها .

عاثرة، فَمِحنا(١) وأهالينا بِسَجْل مُتْرَع(٢) من سِجالك المترعة ».

٣٤٥ — خطبة زيد بن جبلة

وقام زيد بن جبلة فقال :

« يا أمير المؤمنين، سَوِّد الشريفَ، وأكرم الحسيب، وازرع عندنا من أياديك ما تَسُدُّ به الخَصَاصة، وتطرد به الفاقة، فإنا بِقُفٍّ(٣) من الأرض يابس الأكناف، مُقْشَعِر الذِّرْوَة، لاَ مُتَجَّرَ ولا زَرْعَ، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بمرأى ومسمع ».

٣٤٦ — خطبة الأحنف بن قيس

فقام الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله، والحرصُ قائدُ الحِرْمان، فاتق الله فيما لا يُغني عنك يوم القيامة قِيلا ولا قالا، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود، واستماحة المُمْتَاح(٤)، فإن كل امرئ يجمع في وعائه إلا الأقل ممن عسى أن تقتحمه الأعين فلا يُوفَدُ إليك ».

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩، والبيان والتبيين ٢ : ٧١)

---

(١) الميح : الإعطاء. (٢) المترع : الدلو العظيمة مملوءة (مذكر) ومترع : مملوء. (٣) ماارتفع من الأرض كالقفة. (٤) استماحه : سأله العطاء. والامتياح : الإعطاء.

٣٤٧ - خطبة الأحنف بن قيس

بين يدى عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قيس التميمى على عمر بن الخطاب رضى الله عنهُ فى أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده فى أنفسهم ، وما ينوب كل واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازل كسرى وقيصر وبنى الأصفر ، فهم من المياه العذبة ، والجنان المُخْصِبَةِ فى مثل حِوَلاء السَّلَى[1] وحَدَقَة البعير الغاسقة[2] ، تأتيهم ثمارهم غَضَّة قبل أن تتغير ، وَإنا معشر أهل البصرة نزلنا أرضاً سَبْخة هشّاشة ، زَعِقةً نَشَّاشة[3]، طَرَف فى فلاة ، وطَرَف فى ملح أُجاج[4] ، جانِبٌ منها منابت القصب ، وجانب سَبَخة نشّاشة لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها ، تأتينا منافعها فى مثل مَرِىء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف منا يَسْتَعْذِب[5] الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، تُرَنِّق[6] ولدها ترنيق العنز تخاف عليه العدو والسبع ، دارنا فعْمة[7] ، ووظيفتنا ضيقة ، وعددنا كثير ، وأشرافنا قليل ، وأهل البلاء فينا كثير ، ودرهمنا كبير ، وقفيزنا[8] صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا

---

(١) الحولاء : جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد فيها أغراس وخطوط حمر وخضر ونزلوا فى مثل حولاء الناقة . يريدون الخصب وكثرة الماء والخضرة ، والسلى جلدة فيها الولد (من الناس والمواشى) .

(٢) السوداء . (٣) هشاشة : يسيل ماؤها . سبخة نشاشة : لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ، والسبخة بفتح الباء وسكونها أرض ذات نز وملح . (٤) ملح مر . (٥) استعذب : استقى عذبا .

(٦) الترنيق : إدامة النظر . (٧) ممتلئة (أى بسا كنيها) . (٨) مكيال .

فى أرضنا ، فوسِّع علينا يا أمير المؤمنين ، وزدنا وظيفة تُوَظف علينا ونعيش بها ، فإلا تَرفع خَسِيستنا[1] وَتُنْعِشْ رَكِيستنا[2] وَتَجْبُرْ فاقتنا وتَزد فى عيالنا عيالا ، وفى رجالنا رجالا ، وتُصَفِّرْ[3] درهمنا ، وتكبِّر قَفِيزنا ، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء ، هلكنا » .

قال عمر : هذا والله السيد ، هذا والله السيد . قال الأحنف : فما زلت أسمعها بعدها .

(العقد الفريد ١ : ١١٦ ، وسرح العيون ٦٨ وتاريخ الطبرى ٤ : ٢٠٩)

انتهى الجزء الأول

ويليـــــــه

الجزء الثانى وأوله : الباب الثالث فى خطب ووصايا

العصر الأموى

---

(١) رفعت من خسيسته: فعلت به فعلا فيه رفعته . (٢) الركس : قلب أول الشيء على آخره ، وارتكس: انتكس ووقع . (٣) صفره : صبغه بصفرة ، أى تبدلنا بالدرهم الأبيض دينارا أصفر وتجعل فضتنا ذهبا .

فهـــرس

الجزء الأول

من جمهرة خطب العرب

الباب الأول

الخطب فى العصر الجاهلى

الباب الثانى

الخطب والوصايا

فى عصر صدر الإسلام

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه